

طبع بأمر من صاحب الجلالة الأمير المؤمنين الحسن الثاني في شهر ربيع
الهدى

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة

تأليف
الأستاذة آسية الهاشمي البلغيثي

الجزء الأول

1416 هـ - 1996 م

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن موضوع المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة، يعتبر موضوعاً هاماً، ومبحثاً خصباً، جديراً بالتناول والدراسة الشمولية المتوسعة، ذلكم أنه يتعلق بموضوع طريف، ومبحث علمي شيق وممتع، يبرز الأهمية الكبيرة والمكانة الجليلة التي كانت - ولا تزال - لهذه المجالس العلمية السلطانية منذ شاء الله سبحانه وتعالى أن تتولى هذه الدولة العلوية المنيفة مقاليد الحكم بهذه المملكة المغربية العتيقة، وتواصل رسالتها الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية، والعمرانية والحضارية، وتثبت دعائم الدولة وتوطد أركانها، وتشيد صرح المغرب الشامخ، ودولته القوية الناهضة، وتنشر ألوية الأمن والاستقرار والطمانينة، وتجمع شمل الأمة المغربية، وتصون وحدتها الترابية والوطنية، ربطاً للحاضر بالماضي، واستكمالاً لما وضعتة الدول التي تعاقبت على حكم المغرب من أسس وركائز متينة، وشيدته وأرسته من معالم ومآثر جليلة، جعلت دولة المغرب ومملكته السعيدة دولة وأمة قائمة على هدي الإسلام، ونوره المبين، والاستمسك بعروته الوثقى، والاعتصام بحبله المتين.

ومن هذا المنطلق يأتي الحديث في هذا الكتاب عن المجالس العلمية السلطانية التي اكتست على عهد الدولة العلوية الشريفة طابعاً خاصاً متميزاً، فكانت بحق مظهراً من مظاهر الحركة العلمية والنهضة الفكرية المزدهرة التي عرفها وشهدها عهد هذه الدولة العلوية المنيفة، ومع كافة ملوكها المجاهدين الأبرار. كما تبرز تلك المجالس العلمية السلطانية مدى التقدير الكبير، والعناية الفائقة التي كان يوليها بصفة خاصة ملوك هذه الدولة للعلم والعلماء، وللعلوم الإسلامية وثقافتها الأصيلة، وتظهر ما كانوا يحظون به لدى هؤلاء الملوك العظام من إعزاز وإكرام، وإجلال واحترام.

ولا غرو في ذلك، فقد كان ملوك هذه الدولة علماء أتقياء، جمع الله لهم بين سياسة الدنيا ورعاية الدين، وبين الملك والعلم، والورع والصلاح والفقهاء المتين، فلم يكن عهد ملك من هؤلاء الملوك الأشراف يخلو من تقريب العلماء إليه ومن تكوين مجالس علمية خاصة لديه، وهي مجالس كان لها دور كبير، وأثر إيجابي عظيم في ازدهار المسيرة العلمية بهذا المغرب العزيز، لما كانت تقوم به تلك المجالس العلمية من دروس دينية على المستوى العالي الرفيع، وتصدره من فتاوى شرعية دقيقة، وفي مسائل دينية واجتماعية واقتصادية، وفي قضايا وطنية هامة، وفي مسائل العلاقات الخارجية بين المغرب والشرق العربي والبلاد الإسلامية، والدول الأجنبية، فكانت تلك المجالس العلمية السلطانية تتميز بطابعها العلمي والاستشاري في كل القضايا التي تهم البلاد، دينية كانت أو اجتماعية، وطنية أو دولية. وكان ملوك هذه الدولة يشاركون العلماء في تلك المجالس، بما آتاهم الله من علم وفقه في الدين، ويناقشونهم فيما يتناولونه وي طرح عليهم من مسائل، ويبدون رأيهم العلمي في المسائل التي تكون مثار خلاف ونقاش قوي بين العلماء، ويحاورون ويقنعون بالحجة والدليل، ويكتبون ويؤلفون، ويشجعون العلماء على الكتابة والتأليف وتحقيق التراث الإسلامي الأصيل، ويعملون على طبعه ونشره، ويجتهدون في اختيار هذا المنهج أو ذلك في التعليم والتلقين، وانتقاء المواضيع والمؤلفات التي ينبغي أن تكون محل دراسة وتدوين، وكتابة وتأليف، أو يؤلفونها ويكتبونها بأنفسهم لتكون نماذج تحتذى في الإنتاج العلمي المفيد، مما جعل عهد هذه الدولة العلوية الشريفة يتميز مع كافة ملوكها بحركة علمية دائبة، ونهضة ثقافية إسلامية متواصلة، ليبقى هذا المغرب المسلم الكريم بلد العلم والعلماء، وبلد الأصالة والفقهاء في الدين، والتشبهت بفضائله وشرعه الحكيم.

وإذا كانت هذه المجالس العلمية السلطانية قد شهدت في عهد كافة ملوك الدولة العلوية الشريفة نشاطاً علمياً متواصلاً وعطاءً فكرياً متجدداً، حيث تعدد عملها الإسلامي، وتنوع نشاطها الديني، وعطاؤها العلمي، فإن هذه المجالس العلمية قد عرفت في عهد أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني حفظه الله، رعاية كبيرة، وعناية فائقة، واهتماماً خاصاً، وفر لها تنظيماً جديداً، وفتح لها آفاقاً واسعة لتتمكن من أداء رسالتها الإسلامية والقيام بأمانتها الدينية، ومهمتها الاجتماعية والحضارية، وتواكب العصر بما يقتضيه من اجتهادات واستنباطات فقهية لمستجدات الحياة وقضاياها الطارئة، وإيجاد الحلول في ضوء الشريعة الإسلامية الحكيمة السمحة.

وهكذا تتجلى هذه العناية والرعاية الكبيرة للعلم والعلماء في إحداث المجالس العلمية الإقليمية بعدد من مدن المملكة وحواضرها الكبرى، وفي الكراسي العلمية بمساجدها، وفي الدروس الحسنية الرمضانية التي تتوج تلك المجالس وتزينها، وتضفي عليها وعلى علمائها في تلك الحضرة الحسنية ومجلسها المنيف هالة من الجلال والوقار، والتي تعتبر بحق منبراً حراً للعلم والعلماء، ومظهراً لحرية الفكر الإسلامي السليم، وتبليغ رسالة الإسلام، وهداياته الربانية، مما جعلها قبلة الأنظار ومحط الاهتمام كلما حل شهر رمضان من كل عام، تستقطب وتستضيف صفوة من أفاضل العلماء والمشايخ، وتشد إليها جلة من أكابر الفقهاء والأساتذة الأعلام، ورجال العلم والفكر من مختلف البلاد الإسلامية وأنحاء المعمور.

ولأهمية موضوع المجالس العلمية السلطانية في عهد الدولة العلوية الشريفة، ولما كان لها من رسالة دينية، ودور بارز في النهضة العلمية المغربية المباركة، ولحاجته إلى جمع وتأليف من مختلف كتب التاريخ المغربي التي تناولت هذه الحقبة، والقيام بدراسته دراسة موسعة تبرز جوانبه المتعددة، وتكشف عما يتصل به من معلومات وفوائد قيمة، فقد يسر الله لذلك الأستاذة المحترمة آسية الهاشمي البلغيثي خريجة دار الحديث الحسنية، فأعدت هذه الدراسة الموسعة في الموضوع، وقدمتها رسالة جامعية نالت بها دبلوم الدراسات العليا في العلوم الإسلامية من دار الحديث الحسنية.

وهكذا تناولت في مقدمتها إطلالة عن أهم المؤلفات التي أرخت لعهد الدولة العلوية الشريفة، وتوطئة تاريخية ومدخلاً للدراسة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى صلب الموضوع، وتناولته في أربعة أبواب، خصصت كل باب لفترة وعهد من عهود ملوك هذه الدولة العلوية، وما كان في عهد كل ملك من ملوكها المجاهدين الأبرار من مجالس علمية سلطانية، متنوعة الأعمال والأهداف النبيلة، مبتدئة بعهد التأسيس مع المولى محمد الأول، ثم المولى الرشيد، والمولى إسماعيل، وانتهاء في الباب الرابع الذي خصصته للحديث عن المجالس العلمية المنيفة في عهد الازدهار والنهضة الحسنية، عهد أمير المومنين جلاله الحسن الثاني حفظه الله وأدام له النصر والتمكين. وبذلك جاءت هذه الدراسة والرسالة الجامعية مستوعبة لجوانب هذا الموضوع الطريف الهام، مستجمعة لمناحيه العديدة مما يجده القارئ بتوسع وتفصيل في أبواب وفصول هذه الدراسة القيمة المفيدة.

وانطلاقاً من الرسالة الإسلامية والعلمية الدينية والحضارية التي تضطلع بها الوزارة، ومن اهتمامها بطبع أمهات كتب التراث الإسلامي، والدراسات الإسلامية والإنسانية المتنوعة، فإن الوزارة يسعدها أن تطبع هذه الرسالة الجامعية الهامة في بابها وموضوعها، لتكون في متناول الدارسين المهتمين والباحثين المختصين، وأن تتقدم بها أولاً إلى السادة العالية بالله، وتسال الله سبحانه وتعالى أن يجعل طبعها ونشرها في سجل الأعمال الصالحة، والمبرات الدائمة، والحسنات الخالدة، لمولانا أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني، وأن يقر الله عين جلالته بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه سمو الأمير المجيد مولاي رشيد، ويحفظه في كافة أسرته الملكية الشريفة. إنه سبحانه سميع مجيب.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على الهادي الأمين، سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين.

مما لا جدال فيه أنه يوجد تفاعل بين المناخ الثقافي والبيئة الفكرية لكل عصر من العصور، وبين النمو الاقتصادي والاجتماعي، والمستوى الحضاري لذلك العصر، مما ينعكس سلبا أو إيجابا على نشاط الطبقة المثقفة، وعطاءاتها وإبداعاتها في سائر المجالات : الثقافية، والفكرية على اختلاف تياراتها، واتجاهاتها، وشعبها....

وقد كان القاضي الجرجاني(1) أول من أثار قضية تأثير البيئة على المبدع عموما، وانعكاسها على إبداعه خصوصا، وذلك في معرض حديثه عن النقد الأدبي في عصره حيث يقول : «وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك....»(2).

ولم تلبث الدراسات المعاصرة والحديثة أن تبنت هذه النظرية على أوسع نطاق، مستفيدة من الدراسات والأبحاث النفسية التي تؤكد هذه النظرية، وتكرسها.

وقد كانت نشأتي في بيئة أصيلة محافظة، تقدر كل ما يمت بصلة إلى العروبة والاسلام، وتحيطه بهالة من الحب والإكبار والإجلال المنقطعي النظر.

ذلك أن طفولتي المبكرة صادفت وعاصرت فترة الكفاح والنضال من أجل حرية المغرب واستقلاله الذي انطلق من أحضان الدعوة السلفية، والقومية العربية، في إطار البعث الإسلامي، والرجوع إلى تعاليم الكتاب والسنة، والاعتصام بحبلهما، والسير على نهجهما في جميع مجالات الحياة : الخاصة والعامة، وبالتالي على أساس توطيد أواصر الوحدة الفكرية والعلمية بين بلدان العالم العربي والإسلامي، كخطوة أولى على درب الوحدة العامة الشاملة، بدافع الحنين إلى الخلافة الاسلامية.

(1) أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني

(2) الوساطة بين المنتبي وخصومه، للجرجاني، ص : 20

كما شغفت منذ الصغر بالقراءة والمطالعة، فكنت أقرأ بنهم كل ما تصل إليه يدي من كتب ودوريات وغيرها...

وكانت خزانة بيتنا ذات طابع ديني إسلامي، وكتبها مشبعة بروح ومناخ تلك الفترة، الثقافي والفكري وغيره. فكانت تثور ثائرتي، وتنتابني الغيرة على تراثنا الثقافي والفكري والحضاري كلما اطلعت على رأي مغرض، يطعن في قدسيته، أو يحاول الحط من قيمته العلمية والحضارية بالغمز واللمز، تلميحاً أو تصريحاً.

فقد كان تراثنا العربي والإسلامي ولا زال أثيراً لدي، ولطالما منَّيتُ النفس بالتفرغ لخدمته، والعمل على صقله وبلورته، لإزاحة ما علق به عبر العصور التاريخية المختلفة، من أدران الاسرائيليات، وترهات الدجالين، وسفاسف غلاة الفقهاء المتطرفين، مما لا يصدقه العقل السليم، ويأباه المنطق العلمي المجرد، ومنهجيته التجريبية، ولا يقوم حجة للإسلام ولا للمسلمين، بل إنه يعتبر ثغرات يتسرب منها أعداء الإسلام من المناوئين المغرضين الذين في قلوبهم مرض - بالشرق والغرب - والذين ينفثون السم في الدسم ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون﴾ (3) من الصهاينة والشعوبيين، والزنادقة، والصليبيين من المستشرقين والمستعمرين وغيرهم، للطعن في الشريعة الإسلامية السمحة، ومصادرها العتيقة، ورسولها المصطفى الأمين ﷺ.

وأحمد الله تعالى الذي هداني وهياً لي سبل تحقيق أمنيتي الغالية، والوفاء بعهد قطعته على نفسي أمام الله ورسوله، ونذرت نفسي لتحقيقه وأنا ساجدة قانئة لائذة في رحاب بيت الله الحرام، ورحاب المسجد النبوي، الفيحاء، وأجوائهما العبقة بالنفحات القدسية، والتجليات الإلاهية، ألا وهو تجريد قلمي، وتسخير سائر مواهبي وإمكانياتي - المادية والمعنوية - وجعلها وقفا على خدمة الشريعة الإسلامية السمحة، والتراث الإسلامي الخالد، بالدعوة إلى الله، وإلى العمل بالكتاب والسنة، وبالتالي المساهمة في نشر وتحقيق آثارهما على ضوء المناهج العلمية الحديثة، وفي إطار الدراسة والبحث الأكاديمي البناء الهادف، وعلى محك الحقائق والتجارب العلمية الناصعة....

(3) سورة : الصف، الآية : 8

وانطلاقاً من هذا المبدأ المقدس انتسبت إلى دار الحديث الحسنية العتيدة، وشمرت فيها عن ساعد الجد والاجتهاد والمثابرة حتى تخرجت منها - بحمد الله - في طليعة الناجحين، كخطوة أولى في سبيل الوفاء بعهد الله تعالى، والالتزام بالنذر الذي نذرته للرحمن، وأشهدت عليه الله ورسوله،...

وها أنا بصدد الخطوة الثانية على نفس الدرب المبارك الميمون، إذ أقدم - بإذن الله وعونه - رسالتي هذه : «المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة» بعد تيه امتد سنوات في مجال اختيار الموضوع وتسجيله، حيث اضطررت مرات عديدة للبدء من الصفر، وبعد مجهودات مضية في بحوث عديدة، قطعت في كل منها أشواطاً بعيدة المدى لا يستهان بها، حتى هيات لي العناية الإلهية الظروف المواتية لإتمام هذا البحث.

فقد انتشلني من وهدة التيه في مهامه اختيار موضوع لبحثي رأيي سديد لأستاذي ومديري المحترم الدكتور الجليل السيد محمد فاروق النبهان، الذي تفضل - مشكوراً - فاختر لي الأستاذة المشرفة، الدكتورة المقتدرة السيدة عصمت دندش، وأقنعها حتى قبلت - مشكورة - الإشراف على رسالتي هذه. كما انتقيت موضوعها القيم بتوجيهها وإرشادها، كخطوة ثانية على نفس الدرب القويم.

ولم تلبث أن بددت مخاوفي، وحررتني من رهبة الابتداء جلسات نيرة مفيدة ممتعة مع أستاذتي المحترمة الدكتورة الجليلة عصمت دندش، التي ذلت أمامي كل الصعاب، وأزاحت عن نفسي ما اعتراني من تردد وحيرة - مألوفة في مثل هذه المواقف - وكلفة التعامل مع المخطوطات والمصادر العتيقة... بما أسدته لي من نصائح وتوجيهات، وما أبدته لي من ملاحظات قيمة صائبة... مما اتخذته علامات مضيئة اهتديت بهديها في السير على المنهجية القويمة التي رسمتها لي، وقادتني فيها بكفاءة واقتدار.

فما هي إلا جلسات معدودة أقبلت فيها بكليتي على النهل والعلل من دررها الغالية، حتى وجدتنني قد جمعت أطراف إرادتي، وتملكني الإعجاب والاعتزاز بموضوع بحثي، والاقتناع بأهميته وجدواه، وإذا بي أتقدم

في مراحل دراسته وإعداده بخطوات راسخة ثابتة، في تجاوب وانسجام تلقائي، باعث على الاستقراء والاستنتاج المتأني الهادي، والتحليل والتعليل المنطقي الدقيق، والمقارنة المطابقة البناء الهادفة...

وبعد استكثاري واستبعادي الإلمام بجميع جوانب الموضوع، والحصول على المادة الكافية لاستقصائه، وإيفائه حقه، وتغطية حاجيات جميع أبوابه وفصوله وعناصره منها، شعرت بضيق المقام عن تسجيل كل ما جمعت من مادة حول هذا الموضوع القيم الغني.

وما إن اتضحت أمامي الرؤيا، وأصبحت على بينة من أمري، حتى ملأ جوانحي التفاؤل والتطلع والطموح، إذ تيقنت من أنني أسير على درب الآمال العريضة ونهجها في خدمة تراثنا العربي الاسلامي التليد، نافضة عنه غبار العصور المتلاحقة، لأصوغ حلقة مشرقة، تربط بين طريفه وتليده، وتصل بين ماضيها المجيد وحاضرنا الزاهر، وتحقق وجودنا الانساني بدماء جديدة شابة، تعطينا دققاتها القدرة على مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين، وعلى مواكبة ركب النظام العالمي الجديد، ضمن أمم العالم المتمدن.

كما تحقن أجيالنا الصاعدة بمصل يعود بها إلى أحضان تراثها الخالد، والتصالح مع ذاتيتها، والاعتزاز بهويتها، تاركة التهافت والتهاك على فترات موأد التراث الغربي الهجين، وحضارته الغازية الخلابة الخادعة.

هذا ويمكن إجمال الأسباب العديدة التي حدثت بي لاختيار هذا الموضوع دون غيره من المواضيع المقترحة فيما يلي :

1 - إنه موضوع قيم وطريف، قمين بالعناية والدرس والتمحيص، مما أكده ونبه إليه كثير من أعيان العلماء، وكبار الباحثين: كالعلامة ابراهيم الكتاني(4) - رحمه الله - الذي دعا الباحثين إلى تناول هذا الموضوع في بحث جامعي قائلًا(5) : «... وهو موضوع جدير بدراسة خاصة، في رسالة جامعية...»

(4) 1411هـ - 1991م.

(5) مجلة البحث العلمي، ع : 4 و5، س : 2، ص : 23، 1385هـ - 1965م. الكتاب المغربي وقيمه، لابراهيم الكتاني.

كما نادى بنفس الدعوة وحض عليها، الأستاذ الجليل محمد المنوني بقوله(6): «هذا موضوع واسع، لا زال بحاجة إلى دراسة خاصة».

2 - رغبة مني في إغناء وإثراء الخزانة المغربية خاصة، والعربية الاسلامية عامة، حتى يكون بحثي هذا لبنة في صرحهما معا، وعساه يسد تلك الثغرة التي تعتريهما.

3 - تسليط الأضواء على فترة وضاعة في تاريخنا الأغر - عهد الدولة العلوية الشريفة - وإعطائها حقه من الدراسة والبحث، وإنصاف روادها من الملوك العلماء الذين سطوروا عصور المغرب الذهبية، التي توالى فيها أيام العز والسؤدد، وسارت فيها الرياح بما تشتهيئه سفننا، ولا سيما على الصعيد الفكري والعلمي والثقافي، مادامت العلوم والفنون مقياس حضارة الأمم، وتقدم الشعوب.

4 - لأن المجالس العلمية السلطانية للدولة العلوية الشريفة بصفة عامة، والدروس الحسنية الرمضانية منها بصفة خاصة، تعتبر علامة مضيئة على درب حضارتنا وثقافتنا، الحافل بالمفاخر والأمجاد، ومنعطفًا مباركًا ميمونا في سبيل الازدهار الفكري والعلمي والحضاري، وبالتالي التجديد والتحديث، والنهضة المغربية الحديثة التي تقوم على الجمع بين الأصالة والمعاصرة في خط متوازن، دون إفراط ولا تفريط، التزاما بمبدأ التوسط، وأمة الوسط التي يعمل جلالة الملك الحسن الثاني - أعز الله أمره - على تحقيقها في هذه الديار المغربية العزيزة.

5 - لأن هذه المجالس العلمية السلطانية للدولة العلوية واكبت وثبة من النهوض الحضاري المغربي، وسجلت إرهاصات للنهضة، العلمية الحديثة في ربوعنا الغالية، كرد فعل للتحديات المختلفة، من تكالب الصليبيين على الإسلام، وأطماع الغزاة المستعمرين في أراضينا وخيراتنا، وهجماتهم الضارية على سواحل البلاد ومراسيها، إضافة إلى اجتار مرارة غصة احتضار الإسلام على أعتاب غرناطة.

(6) مجلة دعوة الحق، ع : 9، س: 14، ص: 136، 1391هـ - 1971م. ملامح عن الحياة المغربية في رمضان، للاستاذ محمد المنوني.

وهكذا رجعت هذه المجالس أصداء دعوات الملوك العلويين المصلحين، الذين جاهرُوا وصدقُوا بالدعوة للبعث والإحياء، ونادوا وحضوا على الاعتصام بحبل الكتاب والسنة، وحثوا على الاعتزاز بالذات وبالهُوية العربية الإسلامية، من خلال تلك المجالس - بكيفية مباشرة أو غير مباشرة - بعثاً للأُمجاد، وحثاً للهمم، وإِعلاء لروح الأمة ومعنوياتها...

6 - لأن رواد هذه المجالس من الملوك العلويين - وخاصة العلماء منهم - واكبوا ركب النهضة المغربية، وعملوا على تكريس عواملها، ونشر أسبابها، ولا سيما المولى محمد الرابع، والمولى الحسن الأول، والمولى عبد الحفيظ، وسيدي محمد الخامس طيب الله ثراه.

وقد أينعت هذه النهضة، وأثمرت وآتت أُكلها على عهد أعلم علماء هؤلاء الملوك، وواسطة عقدهم، وجوهرة تاجهم، فخر المغرب وراعيه، أمير المؤمنين، الحسن الثاني دام له النصر والتمكين.

كما واكب هؤلاء الملوك العلماء وعاصروا الصحوة الإسلامية التي بدت طلائعها مع ظهور الحركة السلفية، التي هيمنت على الحركة الوطنية والإصلاحية بصفة عامة، فكانت أعمال المجالس السلطانية - طيلة الفترة المذكورة - منها وإليها، وبالتالي فقد كان رواد هذه الحركة وقادتها هم أقطاب وأعلام وشيوخ علماء هذه المجالس العتيقة النيرة.

7 - إظهار صورة مشرقة للحياة الفكرية والعلمية عبر العصر العلوي الزاهر، التي كرسست أمجاد المغرب، ومهدت لنهضته المباركة على امتداد ما ينيف على ثلاثة قرون ونصف.

8 - تتبع نشاط هذه المجالس على جميع المستويات والأصعدة - بالداخل والخارج - وتحديد أبعادها وأهدافها، وجرد آثارها ونتائج أعمالها - المباشرة وغير المباشرة - وحصراً أنواعها، ورصد تطورها عبر العصور، ولا سيما على عهد عظماء الملوك العلماء، وعلى رأسهم جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده.

9 - إبراز التيارات الفكرية والمذهبية التي عرفها عهد الدولة العلوية، والتي طبعت مجالسها العلمية، والأهداف الدينية والعلمية التي حققتها من خلال هذه المجالس، سواء المباشرة منها أو غير المباشرة.

10 - التأكيد على أن هذه المجالس كانت ولا زالت منبرا حرا عاليا للدعوة الاسلامية، والوجه المشرق الآخر لساحات ميادين الجهاد في سبيل الله، وحماية حدود الوطن واستقلاله وصيانته وحدته الترابية، حيث يتداخل العلم والجهاد، ويلتقي ويتماسك العلماء والمجاهدون، وحيث يتبارى ويتنافس العلماء - على امتداد أبعاد وخلفيات هذه المجالس - تارة بالسيف والسنان، وأخرى بالقلم واللسان وسحر البيان، ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ (7)

ولا يفوتني قبل الختام أن أتقدم بأسمى آيات الشكر والامتنان لثلة من جهابذة كبار العلماء الأجلاء الكرام، - من أساتذتي البررة وغيرهم - الذين لجأت إليهم لاستلهم آرائهم السديدة، والاستنارة بتوجيهاتهم القيمة، والاقتراس من نورهم الساطع، والاهتداء بهديهم الرشيد... والذين أبت عليهم أريحياتهم العلمية الفياضة السمحة إلا أن يخصصوا لي من وقتهم الثمين جلسات قيمة ممتعة، جادوا علي خلالها من بحورهم الزاخرة، ومن ينابيعهم الزلالاة الفوارة التي لا ينضب معينها، وزودوني بمصادر ومراجع قيمة نادرة - مخطوطة ومطبوعة - وبمنهجيتهم القويمة الرشيدة... مما اتخذته معالم وعلامات مضيئة على منعطفات مراحل هذا البحث، وسرت على هديها وهداها في دراستي وتصنيفي.

فجزاهم الله عني خير الجزاء، وما توفيقني إلا بالله.
وأخص من هؤلاء الأئمة والشيوخ العلماء السادة :

- مستشار صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، الأستاذ الكبير السيد أحمد بنسودة

- العلامة الكبير، ومؤرخ المملكة الشهير، الأستاذ الجليل، عبد الوهاب بنمنصور.

- العلامة الباحثة، الدكتور المبجل، محمد بن شريفة.

- أستاذي الكبير، العلامة الإسلامي الشهير، وشاعر الإنسانية العظيم الدكتور المبرز، عمر بهاء الدين الأميري - رحمه الله - .

(7) سورة : المطففين، الآية : 16

- العلامة الشهير، الشيخ إبراهيم الكتاني - تغمده الله برحمته - .
- أستاذي الجليل، والمؤلف المشهور الأستاذ محمد المنوني.
- العالم الجليل، الأستاذ المحترم، رضوان بنشقرون،
- السيد الفاضل محمد عوام،

حقق الله الآمال حتى نرى تراثنا الإسلامي الخالد مرآة صافية صادقة،
تعكس ماضيها التليد، وتمثل حاضرنا العتيق، وتبشر بمستقبلنا الزاهر،
وحتى يكون علماءنا، ورواد مجالسنا العلمية المختلفة، في طليعة العاملين
على صقل تراثنا الثقافي والحضاري وبلورته، حتى يتبوأ المكانة اللائقة به
بين تراث أمم الحضارات الإنسانية قديمها وحديثها.

وما ذلك على الله، وعلى همهم العالية بعزير.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ (8)،
صدق الله العظيم.

(8) سورة التوبة، الآية : 105.

**إطالة على أهم المصادر
ومؤلفيها**

إطالة على أهم المصادر ومؤلفيها :

لعل أهم العقبات التي واجهتني خلال الدراسة والبحث لهذا الموضوع، ازدواجية أرضيته، فهي دينية-تاريخية في آن واحد. كما أن المصادر المغربية القديمة في جملتها -ولا سيما المخطوطة منها- لم تكتب بمنهجية علمية أكاديمية، وتفتقر إلى الفهرسة. وبالتالي لم أجد بها عن المجالس العلمية السلطانية، عبر عصور الدولة العلوية الشريفة- عند استقرارها- سوى نتف متفرقة هنا وهناك، لا تتعدى بضعة أسطر أو الفقرة الواحدة، ونادرا ما تتعدى الصفحة أو الصفحتين. ذلك أن الكلام عن هذه المجالس، غالبا ما يأتي ضمنا عند الحديث عن اهتمام هذه الدولة العلوية أو ملوكها بالمجال العلمي بصفة خاصة، والديني بصفة عامة.

والواقع أن المصادر المغربية عن الدولة العلوية الشريفة قليلة، مما أكده ليفي بروقنصال، في كتابه: «مؤرخوا الشرفاء»، كما ذكره الأستاذ محمد المنوني، في كتابه: «المصادر العربية لتاريخ المغرب».

فلم تؤلف التواريخ المفصلة عن هذه الدولة إلا بعد أكثر من قرن على قيامها، وبالضبط ابتداء من عهد المولى اسماعيل (1) ثم إنها في جملتها ليست دقيقة، بل مجرد سرد لأخبار وارتسامات عن عهد كل سلطان من سلاطين هذه الدولة المنيفة، واستعراض لما جد فيه من أحداث...

لكنها -على علاقتها- تعتبر ذات أهمية، باعتبارها أولية، وكمنطلق لكتابة تاريخ المغرب عموما، وتاريخ الدولة العلوية خصوصا (2).

أما المراجع -سواء المغربية منها أو الشرقية- فهي نادرة، وجلها مجرد كتب مدرسية، لا تتعمق في الدراسة والبحث، ولا تستقصى الأسباب والمسببات بالتحليل والتعليل، ولا تحاول تحديد الأبعاد والأهداف للأحداث المختلفة، وخاصة تلك التي طبعت في عهد الحماية.

(1) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 4، ص: 148-149، 1407هـ، 1987م، مكانة المصادر الأجنبية إلى جانب الحوليات المغربية في تاريخ الدولة العلوية، لمحمد زنيبر.

(2) المصدر السابق، ص: 149

أما المؤلفات الأجنبية للإستعماريين من الفرنسيين والاسبانيين فهي ذات أهمية، لكنها مفرضة، ولها أبعاد وأهداف استعمارية، تجعلها تنفث السم في الدسم...

زيادة على انعدام التفاعل والتكامل في النشاط الثقافي بين المناطق المغربية -المقسمة بين الاستعماريين : الفرنسي والاسباني، ثم الدولي- وبالتالي على صعيد المجالس العلمية وعلمائها وأعمالها وأثارها... للحواجز التي أقامها الاستعمار بينها، فعزلها عن بعضها روحيا ولغويا...

لكن هذه المصادر والمراجع الأجنبية على علاقتها تتمم معلوماتنا وتصححها أحيانا، ونجد في طليعتها المجموعة الكبيرة لربائد التاريخ المغربي، التي جمعت بإشراف الكولونيل «دوكاستري» في مجلدات ضخمة، قد يفوق عددها ثلاثين مجلدا، وتتناول عهد الدولة السعدية، وأوائل عهد الدولة العلوية الشريفة، إلى وفاة المولى إسماعيل (3).

وإذا كانت هذه المصادر والمراجع الأجنبية مفرضة أحيانا، ومتحاملة أخرى- إذ كانت دور النشر ترفض نشر أي تأليف لا يشوه الاسلام، ولا يتحامل على المسلمين- فإنها لا تخلو من إيجابيات، على المؤلف والمؤرخ البارع أن يسلمها منها "كما تسلم الشعرة من العجين"، معتمدا على حاسته، النقدية، وعلى محك النقد والبحث العلمي المجرد النزيه...

وهذا ينطبق على بعض المصادر المغربية، البعيدة غالبا عن الموضوعية العلمية، المشحونة بالمغالاة والمبالغات، سواء في المواقف والأحداث السلبية أو الإيجابية(4)

وهذه نبذة عن أشهر المؤلفين الأجانب الذين كتبوا عن الدولة العلوية، وأهم مؤلفاتهم في هذا الباب.

- لويس شينييه : LOUIS CHENEZ (5)

-
- (3) مجلة المناهل، ع : 36، س : 4، ص: 149 1407 هـ 1987 م مكانة المصادر الأجنبية إلى جانب الحوليات في تاريخ الدولة العلوية، لحمد زنيير
(4) المصدر السابق، ص : 152 - 153.
(5) المصدر نفسه ص : 154 - 176 لويس شينييه قنصل فرنسا بالمغرب، قنصلا ومؤرخا، لابراهيم بوطالب.

ولد سنة 1722م، واشتهر بخبرته عن الديار الاسلامية شرقا وغربا، وبمؤلفاته الكثيرة عنها.

وقد عين سنة 1767م بالمغرب ضمن حاشية الكونت ذي برونيون، السفير فوق العادة، الذي كلفه بإرساء الصلات القنصلية بين المغرب وفرنسا، في إطار معاهدة للسلم والصداقة المبرمة بينهما.

وأقام بالمغرب حوالي خمس عشرة سنة. من 1767م إلى 1782م، انقطع خلالها من 1773م - 1775م، ثم عين قائما بالأعمال، ومؤهلا لمقابلة السلطان، حيث أقام بأسفي، والصويرة، والرباط، فطنجة التي نقل إليها إجباريا.

ولم يلبث السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن طالب باستبداله بمن هو أقل تصلبا وأكثر تأدبا في مخاطبة الملوك منه، فغادر المغرب إلى وطنه، بعد أن قضى سنة بطنجة منبوذا من السلطان.

واستقر بباريس حيث أكب على التأليف - بعد أن يئس من تحسين وضعيته الديبلوماسية - حيث ألف كتاب «أبحاث في تاريخ الموريين، وعن تاريخ إمبراطورية مراكش» الذي صدر سنة 1787م في ثلاثة مجلدات.

ويعتبر ما كتبه لويس شينيه عن المغرب رصيذا وثائقيا مهما، إلا أنه يجب التحفظ والحذر من أحكامه العدائية المغرضة.

كما يعتبر الباب الرابع من كتابه المذكور أهم أبوابه، حيث ضمنه معلومات عن العهد العلوي الأول، من قيام الدولة إلى تاريخ صدور الكتاب الذي يعتبر مرجعا أساسيا في تاريخ المغرب، مثل كتاب الحسن بن محمد الوزان، وكتاب مارمول، ورحلتي الضابطين الأنجليزيين: ويندوس، وبريشوتب، خلال القرن الثامن عشر وكابييردي سينلال في مقالتين، سنة 1929م (6).

- شارل بينز : CHARL BENZ

وهو الذي نشر سنة 1943م محاضر القنصلية الفرنسية بالرباط، في عهد لويس شينيه (7).

(6) مجلة المناهل، ع : 36، س : 4، ص : 166 - 167 لويس شينيه ممثل فرنسا بالمغرب بين

1767-1782م، قنصلا ومؤرخا، لابراهيم بوطالب.

(7) نفس المجلة السابقة، ص : 167.

- بيير كزيون : PIERRE GRION

وقد كتب أطروحة لنيل الدكتوراة في موضوع : القرصنة المغربية في القرن الثامن عشر(8) تحت عنوان :«سيدي محمد بن عبد الله، ونهاية القرصنة بالمغرب» وذلك سنة 1951م.

ولبيير كزيون هذا كتاب في مجلدين : جمع فيه مراسلات ومذكرات وتقارير القنصل لويس شينييه. تحت عنوان :«مراسلات القنصل لويس شينييه، 1767-1782م، وطبعت طبعة أنيقة سنة 1970م.

وهناك تناقضات سافرة بين مراسلات ومذكرات وتقارير لويس شينييه سنة 1772، التي حققها بيير كزيون، وبين نفس المراسلات والمذكرات والتقارير لسنوات : 1779، 1780، و1781م.(9)

وهي تفضح تدليسه ودجله، وأسلوبه المغرض الاستعماري الصليبي، الذي ينسج على منواله الكتاب الأوربيون عن العالم الإسلامي بأسره، لا عن المغرب فحسب.

- جاك كايي : JACK CAHIER

في كتابه الكبير حول تاريخ الرباط قبل الحماية.

ومن المؤلفات الإسبانية في تاريخ المغرب على عهد الدولة العلوية :

1- كتاب تاريخ المغرب لمانويل كاستيانوس : MANUEL KASTIANOS (10)

الذي عاش بمدينة طنجة أيام السلطان المولى الحسن الأول، واطلع على حياة المغرب الداخلية، وعلاقاته الخارجية، لكنه كقسيس يخضع لعاطفته الدينية المتعصبة ضد الاسلام.

صدرت طبعته الأولى: «وصف تاريخي للمغرب، ونبذة موجزة عن الدولة الحاكمة» 1878م، ثم صدرت الطبعة الثانية مع تعليقات وتنقيحات. ثم الثالثة بعنوان «تاريخ المغرب» Histora de Maruecos في طنجة، بعناية البعثة الكاثوليكية الإسبانية 1989م.

(8) نفس المصدر ونفس ص.

(9) مجلة المناهل، ع : 36، س : 4، ص : 168 لويس شينييه، قنصلا ومؤرخا، لابراهيم بوطالب..

(10) مجلة المناهل، ع : 36، س : 4 ذو الحجة 1407هـ يوليو 1987م، من المؤلفات الإسبانية

عن المغرب على عهد الدولة العلوية، محمد العربي الخطابي، ص : 24 - 29.

وهو ثاني تأليف أجنبي حول تاريخ المغرب، بعد مؤلفه القسيس الفرنسي ليون كودار «وصف المغرب وتاريخه» الذي طبع بباريس سنة 1867 م.

Discriptio et Histoire du Maroc , Paris 1867 Léon Godard

2- كتاب: «المغرب في النصف الأول من القرن الثامن عشر»، للمؤرخ الإسباني المعاصر رامو لوريد ديات «الحياة الداخلية السياسية والاجتماعية والدينية، في أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله 1757-1790 م (11)

(Ramou Lourido Diaz

Maruecos en la segunda mitad del siglo XIII Vida interna : politica social religiosa (1757) du rante el sultanado de sidi Muhammed B. Abd-Allah وربما كان سيخص سياسته الخارجية بكتاب آخر هو : «تعليمات كارلوس الثالث لمبعوثه لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله». (12)

3- وهناك مؤلفات لأوروبيين معاصرين للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، كتبوا مؤلفات في حياة المولى محمد بن عبد الله، أو بعد وفاته، وكلهم عاشوا في المغرب مدة من الزمن لكنهم لم يكتبوا تاريخا كاملا للمغرب وهم :

أ- بيديدي مورلايل : البحار الفرنسي، الذي وقع أسيرا بالمغرب بعد الغزو الفرنسي الفاشل للعرائش سنة 1765

Bidéde Maurville

Relation de l'affaire de Larache Amsterdam

وقد ترجمته دوقه ذي كثير الفرنسية، التي كانت تقطن العرائش إلى الفرنسية، وطبع 1940م بالعرائش (13)

ب- كتاب جورج هوست : GEORG HOST

المستخدم في شركة دانماركية تتاجر في مرسى أسفي وسلا، يقتصر فيه على «معلومات على مراكش وفاس» خلال سنة 1760 - 1768 م.

(11) نفس المصدر ص : 29 - 30

(12) مجلة المناهل، ع : 36، س : 4 ذو الحجة 1407هـ - يوليو 1987م، من المؤلفات الإسبانية على المغرب على عهد الدولة العلوية، محمد العربي الخطابي، ص : 30.

(13) نفس المصدر ص : 31.

جـ • كتاب آخر لنفس المؤلف : «تاريخ سلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله» ويشمل معلومات عن حياته، وعلاقاته التجارية بالداخل والخارج(14).

4 - وأشهر المؤلفات الأوربية عن المغرب لويس شينيه الذي طبع بباريس 1787م وكان شينيه قنصلا لفرنسا في المغرب بين 1767 و1787م، حيث اطلع على خبايا السياسة المغربية. والجزء الثالث منه في تاريخ المغرب، وخصص الباب الخامس لعهد المولى محمد بن عبد الله، لكنه لم يتناوله بكامله، لانقاله من المغرب أوائل سنة 1782م، وأصدر كتابه هذا بعد خمس سنوات من مغادرته للمغرب، وقبل وفاة السلطان بقليل.

Louis chémier "Recherches Histiriques sur les maurs et histoire de Lempire du Maroc .
Paris 1787 (15).

5- وآخر الأوربيين المعاصرين للسلطان سيدي محمد بن عبد الله الذين كتبوا عن المغرب، الإنجليزيان : وليام لامبريير وجاميس جراي جاكسون.(16)

أ - الأول كان طبيبا استدعاه سيدي محمد بن عبد الله إلى المغرب لمعالجة ولده من مرض في عينيه، وبقي في المغرب ما ينيف على ستة أشهر سجل خلالها انطباعاته عنه في كتاب «رحلة من جبل طارق إلى طنجة وسلا وموغادور، ثم إلى مراكش عبر جبال الأطلس».

ب - أما جراي جاكسون فهو تاجر إنجليزي، دخل إلى المغرب في نفس الوقت الذي دخله الطبيب وليام لامبريير، ومكث فيه إلى 1806م، وألف كتاب «نبذة عن الامبراطورية المغربية» ورغم أفكاره المسبقة عن المغرب كغيره من الأوربيين، أظهر تفهما وتعاطفا أكثر منهم جميعا، لكنه لم يتطرق إلى السياسة المغربية. ومن مؤلفات الأوربيين من أهل القرنين التاسع عشر والعشرين نذكر رامون نوريد :

(14) نفس المصدر ص: 32.

(15) نفس المصدر ص: 32 - 33.

(16) مجلة المناهل المذكورة، ص: 33 - 34

- أ - كتاب «وصف المغرب وتاريخه» للفرنسي ليون كودار.
 ب - كتاب «تاريخ المغرب» لمانويل كاستيانوس
 ج - كتاب «تقاييد حول تاريخ المغرب» لكاتوباس ديل كاستيو بمدريد
 1913م (17).

(6) Lanovas del casllialos amorites para la Hisloir de

د - كتاب تاريخ المغرب، د خ بيكر، مدريد 1915م.

e j . Brker "Mistoria de Maruecos Madrid 1915

هـ - سياسة كارلوس الثالث ل ب. رودركس كاصادو، مدريد 1946م

V Rudriguez casado "Politica Marroqui de Carlos III Madrid 1946

- والصداقة بين سيدي محمد وكارلوس الثالث لطورا فيرير وهو بحث نشر
 في مجلة «ثمودة» ع : 4، 1956 ص : 228-213

D.Torra Ferrer "La Amistad entre Mulay Muhammed Y Carlos III Segui Gonzales

Salmous, Tamida : 4, (1956) pp . 213)22 (18) .

أما المؤرخون المغاربة الذين كتبوا عن الدولة العلوية الشريفة، وأرخوا
 لملوكها (19) فأغلبهم كانوا ذوي صلة مكينة بملوكها، ومن كبار موظفيهم
 المسؤولين، حيث كانوا جزءا من جهاز الحكم والدولة، وقليل هم الذين
 أرخوا لها كهواة، وبدافع الرغبة في الدراسة والبحث، وتقصي الحقائق، أو
 لمجرد الإعجاب والتقدير، أو عكس ذلك، سلبا وإيجابا.

والواقع أن قرب جل المؤرخين من ملوك هذه الدولة، أتاح لهم التقاط
 الأخبار، ومعرفة الأسرار، والاطلاع على المحادثات والمراسلات الهامة، سواء
 في الدواوين، أو في دهاليز الربائد (20).

ويعتبر جلالة الملك محمد الخامس -طيب الله ثراه- أول ملك أحدث
 منصب مؤرخ المملكة بقصره العامر، بصفة رسمية قانونية، ليقوم بكتابة
 التاريخ الحديث للدولة بمنهجية علمية.

(17) المصدر السابق، ص: 34 - 35

(18) المصدر السابق، ص: 35

(19) مجلة المناهل، ع : 36، س: 4، ص 17، 1407هـ - 1987م، مؤرخ الدولة... لعبد الوهاب بن منصور

(20) المصدر السابق ص: 18.

وفي هذا الصدد أمر بجمع الوثائق التاريخية، وتنظيمها، وتبويبها، وجعلها رهن إشارة الباحثين، حماية لهم من اللجوء إلى الوثائق الأجنبية المغرصة.

كما أسس رحمه الله المطبعة الملكية، لإحياء التراث العلمي والتاريخي المغربي (21).

وحرص أمير المؤمنين الحسن الثاني-أبقاه الله- على تشجيع البحث والتأليف التاريخي (22)، والعمل على نشر الآثار التاريخية وغيرها للمغرب، عبر العصور كلها، دون ما أي ميز أو تفريق.

وفي هذا الإطار أنشأ حفظه الله مديرية للوثائق الملكية، ووسع مجال المطبعة الملكية وأفاقها، وجمع الكتب من سائر قصوره بمختلف أنحاء المملكة في المكتبة الحسنية الملكية، وفتحها في وجه الباحثين من الداخل والخارج، تحصينا لتراث المغرب وتاريخه من الضياع، أو التزييف أو التصحيف...

كما أن ثقافة جلالته الواسعة، وديمقراطيته الإسلامية، أتاحت للمؤرخين أن يسجلوا الحقائق الناصعة بحرية وتجرد، وأمانة ونزاهة (23).

تأليف المغاربة حول الدولة العلوية وتاريخها :

كان التعريف بالأسرة العلوية الشريفة - قبل مبايعتها بالملك- يتم عرضا ضمن مؤلفات المغاربة، كإبراهيم بن هلال في مناسكه، أو من خلال شجرة نسبهم -التي جاؤوا بها من الحجاز- كما لدى أحمد بن يحيى العلمي (24)، أو من خلال تراجم رجالها، كما نجد عند ابن القاضي الكناسي (25) في الجذوة والدرة وغيرهما (26)، أو بالكلام عنهم ضمن أشرف

(21) المصدر الأول، ص: 20 - 21.

(22) المصدر السابق، ص: 21 - 22

(23) المصدر السابق، ص: 22

(24) 903 هـ-1497 م، الأنوار الحسنية والسنية، لأحمد العلوي ص: 14.

(25) 1001 هـ-1592 م، المصدر السابق، وص.

(26) م. 1025 هـ-1616 م، المصدر السابق، وص.

المغرب، كما عند أبي حامد العربي الفاسي (27) في مرآة المحاسن ، وعند ابن عمه أبي زيد الفاسي في ابتهاج القلوب (28). وبعد بيعتهم بالملك في شخص المولى الشريف بن علي وأبنائه كثر التأليف حول نسبهم شعرا ونثرا، حيث نظم نسبهم الشريف كل من : القادري، والبوسعيدي، وعبد الله بن طاهر، وولده عبد الهادي وغيرهم، وأهم هذه المنظومات :

- أرجوزة هاشم بن أحمد بن رحال، في القرن الحادي عشر.
أما التاريخ لدولتهم فلم يبدأ إلا في عهد المولى إسماعيل، حيث ألفت كتب عن دولتهم، وأهمها :

- كتاب «الدُرُّ السَّنِيُّ» لعبد السلام بن الطيب القادري (29)
- كتاب «الأنوار الحسنية أو السنية» لأحمد بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري (30).
- كتاب أبي عبد الله محمد الصغير بن محمد بن عبد الله اليفراني المراكشي (31).

- كتاب نشر المثنائي لمحمد بن الطيب القادري (32).
- كتاب الشجرة الشماء، لمحمد الزكي بن هاشم العلوي (33).
- كتاب الأشراف لمحمد الطالب بن الحاج (34).
- كتب أبي القاسم الزياني (35).
- كتاب الجيش العرمرم، لابن عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس (36).

(27) م. الإتحاف لابن زيدان، ص : 238.

(28) م. 1252هـ - 1642م، المصدر الأول، وص.

(29) م. الأنوار الحسنية أو السنية لأحمد العلوي، ص : 14..

(30) م. 1110هـ المصدر السابق، وص.

(31) م، 1101هـ المصدر السابق، وص

(32) م. 1187 هـ، كتاب الأنوار الحسنية أو السنية، لأحمد العلوي، ص: 14.

(33) م. 1270 هـ المصدر السابق، وص

(34) م. 1274 هـ المصدر السابق، وص.

(35) م. 1274 هـ المصدر السابق، وص.

(36) م. 1294 هـ المصدر السابق، وص.

- كتاب الدرر الفاخرة لإدريس بن أحمد الفضلي (37).

وغير هؤلاء من النسابين والمؤرخين (38).

والواقع أنه في عهد الدولة العلوية ازدهر التأليف في التراجم (39) للأسر الشريفة، ورجال العلم وغيرهم، في حين تضاعف الاهتمام بالتأليف في التاريخ.

ذلك أنه أثناء الهجمات الصليبية الشرسة على شواطئنا، ظهر على رأس الحملات المغربية المضادة لها رجال تصدوا لقيادة الجهاد وعرفوا بالتقوى والصلاح، كما قادوا الحركة الفكرية والروحية، وكان على رأسهم كبار العلماء والصلحاء والشرفاء.

ونجد في طليعة كتب التراجم التي ألفت في هذا العهد :

- دوحة الناشر، لابن عسكر.

- معاجم الأعلام لابن القاضي.

ويمكن إرجاع سبب ذلك -زيادة على ما تقدم- إلى العزلة التي فرضتها على المغرب ظروفه الداخلية والخارجية، وخاصة منذ القرن السابع عشر حيث تقوقع على نفسه، وجعل نصب عينيه صد العدوان الخارجي، الصليبي وغيره، وحفظ كيانه وحماية حدوده، وبالتالي صيانة حرته واستقلاله ووحدة ترابه من الأتراك في الشرق، ومن الصليبيين المتربصين في الشمال والغرب.

أما التأليف في التاريخ فتأخر بالمغرب للأسباب المذكورة، ثم لأن العلماء كانوا يستنكفون (40) عن الكتابة في التاريخ واللغة والأدب والمنطق والفلسفة والتصوف، ويقبلون على التأليف في علوم القرآن من: تفسير وحديث، وسيرة وفقه، وقراءات وأصول...

وسنتناول بشيء من التفصيل أشهر المؤرخين المغاربة، وأهم مؤلفاتهم حول الدولة العلوية الشريفة.

(37) م. 1316 هـ المصدر السابق، وص.

(38) المصدر السابق، وص.

(39) «مؤرخو الشرفاء» ليفي بروفنصال، ص : 53، تعريب الخلاوي ط : الرباط 1977م و مجلة

المناهل ع : 36 ص : 243-245، 1407 هـ 1987م. كتب التراجم لأحمد بوكاري.

(40) كتاب دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سوادة ج 1، ص : 11-12 ط : 2.

1- أحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري (41) :

يعتبر كتاب الأنوار الحسنية - المشهور بالأنوار السنية- لأحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري أول كتاب ألف عن الدولة العلوية.

وقد ألفه مؤلفه بإشارة من ابن عمه السيد عبد الواحد بن عثمان من أعيان العائلة العلوية، وقدمه هدية للمولى إسماعيل(42).
وعنه أخذ جميع المؤرخين للدولة العلوية كاليفراني في روضة التعريف، وأبو القاسم الزياتي في كتبه، والمشرقي في الحل البهية، والناصرى في الاستقصا، وابن زيدان في الإتحاف وغيره، وجميع مؤرخي الدولة العلوية بدون استثناء (43).

ويؤخذ عليهم جميعا أنهم انتحلوا مجهوده واجتهاداته دون أن يذكروا ذلك أو يعترفوا به (44).

ولعل الذي شجعهم على ذلك هو اختفاء النسخة الوحيدة للكتاب خلال الغزو الفرنسي لتافيلالت.

وظل الكتاب بخزانة السيد يوسف أصدا الذي كان يظن أنه من تأليف المولى علي الشريف -إلى سنة 1946م، حيث اتصل السيد يوسف أصدا هذا صدفة بالمحقق السيد عبد الكريم الفيلاي، وحكى له عن الكتاب، ذاكرا أنه وقع بيده زمن الحرب الأهلية بتافيلالت قبل ربع قرن من سنة 1946م.
وبعد ثلاث عشرة سنة من هذا اللقاء طلب المحقق السيد عبد الكريم الفيلاي من مالك الكتاب المذكور السيد يوسف أصدا أن يسلمه الكتاب ليحققه وينشره.

لكن مالك الكتاب تدمر من طلبه، وادعى له أنه سلمه لولي العهد -إذ ذاك- الأمير مولاي الحسن. غير أنه تراجع عن موقفه هذا تلقائيا -وبعد أن اطمأن للمحقق، واقتنع بأهدافه- فأرسل الكتاب إليه مع ولده الكولونيل محمد أصدا في شهر دجنبر سنة 1966م.

(41) م. 1101 هـ - 1689 م.

(42) الأنوار السنية أو الحسنية، لأحمد العلوي، ص : 19 وكان من أسباب إنشاء المولى إسماعيل لديوان الأشراف سنة 1123 هـ كما جاء في المصدر السابق ص : 14.

(43) مقدمة الأنوار الحسنية ص : 4.

(44) المصدر السابق و ص

وقام السيد عبد الكريم الفيلاي بتحقيقه بمنهجية علمية وتبويب مفصل،
وفهرسة دقيقة، مما استحسنته جلالة الملك محمد الخامس (45) - طيب الله
ثراه - ونشر سنة 1966 م.

2- أبو عبد الله محمد الصغير بن الحاج محمد بن عبد الله
اليفراني النجار المراكشي السوسي :

ولد بمراكش سنة 1080 (46) هـ، و درس بها ثم بالقرويين في فاس، (47)
وألف كتابا تاريخية مهمة (48) وهي :

كتاب نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، وهو ذيل لكتاب الأنيس
المطرب لإبن أبي زرع، وكتاب روضة النسرين لابن الأحمر وبه أتم تاريخ
الدول المغربية إلى عصره.

وذكر اليفراني في مؤخره هذا الكتاب أنه ألفه بطلب من الولي الصالح،
أبي عبد الله محمد الصالح، بن الولي الصالح سيدي محمد المعطي، حفيد
أبي عبد الله محمد الشرقي، وفي ذلك قال اليفراني :

" تم تكرر الطلب إلي، وأكد في جمع ذلك التأليف علي، من لا أستطيع
مقابلة أمره بالإهمال، ولا أقدر أن أسجل على بينة غرضه إلا بالأعمال، وهو
عين الأعيان، الولي الصالح أبو عبد الله محمد الصالح بن الولي الصالح
سيدي محمد المعطي... "

- كتاب روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل.

- كتاب صفوة من انتشر من علماء القرن الحادي عشر، وهو تتمة
وتكملة لكتابه نزهة الحادي، ولتراجم الدوحة.

- كتاب «درة الحجال في التعريف بسبعة رجال».

واهتم في مؤلفاته بالمجالات الاقتصادية والاجتماعية أكثر من السياسية
والعسكرية، مستهدفا الابتعاد عن كل توجيه أو ضغط، كما في كتابه هذا

(45) الأنوار الحسنية أو السنية لأحمد ص : 8-11.

(46) النزهة لليفراني ص : 310، وذكر لي برونالصال أنه ولد سنة 1090 هـ..

(47) مقدمة تحقيق المسلك السهل للعمري ص : 60.

(48) مجلة المناهل، ع 36، س : 4، ص : 404 مخطوط درر الحجال لليفراني، للحسين حلاب.

-درة الحجال. وأمثاله - الذي يؤرخ للجانب الديني والاجتماعي للمغرب والملابسات التي أفرزته، وانعكاس ذلك على الأوضاع في البلاد.

كما اهتم فيها بالترجمة للأعلام ومذاهبهم، وطرقهم الصوفية وتأثيرهم في أحداث عصورهم. لكنه لم يكمل هذا الكتاب ولم يذكر من الرجال السبعة سوى إثنين : القاضي عياض، ويوسف بن علي (49).

وحسب ليفي بروفنصال (50) فإن اليفراني ألف كتابه درة الحجال سنة 1137هـ، التي ألف فيها كتابه الصفوة - كما قال سليمان الحوات، والزاجح أنه ألفه بين 1134 و 1137هـ.

وقد قسم هذا الكتاب إلى مقدمة وسبعة أسماط، لكن جل فصول المقدمة ناقصة : أو لم تكتب أصلا، ولم يكتب منه إلا سمطين من الأسماط السبعة التي خطط لها.

ولعله ألفه بأمر من السلطان المولى إسماعيل، في إطار محاربته للبدع وأصحابها الدجالين والمشعوذين، وعلى رأسهم أرباب الزوايا، وذلك بعد أن أفتى العلماء بعدم صحة زيارة سبعة رجال للنبي (ص) (51).

والواقع أن معاناة المؤرخ اليفراني، وأحداث حياته الخاصة، انعكست على مؤلفاته وأسلوبه فيها.

ذلك أنه لما عاد إلى مراكش بعد دراسته بفاس، وتصدى للتفسير، وشرح صحيح البخاري، اتهم بالزندقة والجهل من طرف علماء مراكش (52) مما سجله الوسط الفكري - إذ ذاك - في إطار المواجهة بين الفقهاء المتزمتين، والفقهاء المتحررين المجددين، المتأثرين بالمتصوفة، والذين لا يخشون في الله لومة لائم.

وهذا ماتجلى في مؤلفاته، ولا سيما في النزهة، والمسلك السهل.

(49) مجلة المناهل، ع: 36، س: 4، ص: 404-406. وصلت نسخة من الكتاب بخط المؤلف، وعلق عليها المنوني في كتابه المصادر العربية بتاريخ المغرب، ج: 1، ص: 70 رقم الكتاب: 425، ط: الرباط 1983م.

(50) مؤرخوا الشرفاء ص: 90.

(51) المصدر الأول ص: 415-417.

(52) «النزهة» لليفراني، ص: 310.

لكن الأزمة المذكورة أثرت على اتجاهه وفكره بصفة عامة فيما بعد، إذ تقرب من الفقهاء وبالتالي من السلطة، وابتعد عن المتصوفة، وتجلى هذا التحول بوضوح في كتابه روضة التعريف سنة 1133هـ، الذي مدح فيه المولى إسماعيل، وأعلن فيه أنه ألفه لرد جميل الدولة الإسماعيلية، وبإيعاز من الوزير أحمد بلغازي، الذي أثنى عليه في نفس الكتاب، ووصفه بمعز العلماء والصالحين(53).

لذلك تردد في نشر الكتاب المذكور ثلاث عشرة سنة، ولم ينشره إلا سنة 1146هـ. والحقيقة أن اليفراني عاش أزمته متتاليتين :

- الأزمة الأولى : مع الفقهاء، أيام المولى إسماعيل، وطالت تسع سنوات، من 1130هـ، إلى 1139هـ.

- والأزمة الثانية : أيام عهد الاضطراب، الذي امتد من وفاة المولى إسماعيل إلى بيعة سيدي محمد بن عبد الله. وهي أزمة عامة تناولت جميع مجالات الحياة، وعانى منها مع جميع العلماء والمثقفين، وانعكس تأثيرها على كتاباته أثناءها (54)

وقد عد عبد الله كنون اليفراني ضمن المؤرخين (55)، لأنه رغم إمامه بالأدب واللغة ومجالات أخرى، وتأليفه فيها كلها، مكن لنفسه بكتبه التاريخية التي نبغ فيها، ولاسيما :

- كتابه «الظل الوريث» الذي ألفه سنة 1133هـ - 1721م.

- وكتابه «درة الحجال في التعريف بسبعة رجال، الصلحاء المشهورين بمراكش» سنة 1128 - 1137هـ.

- وكتاب «المغرب في أخبار المغرب»، وهو في التاريخ العام للمغرب.

- وكتاب «نزهة الحادي» في تاريخ الدولتين السعدية والعلوية إلى وفاة المولى إسماعيل.

- وكتاب «صفوة من انتشر» : وهو معجم لتراجم صلحاء القرن الحادي عشر، الذي ألفه سنة 1137 هـ - 1725 م.

(53) مجلة المناهل، ع: 36، س: 4، ص: 211-212، وروضة التعريف لليفراني، ص : 7.

(54) المصدر السابق ص: 213-215.

(55) المصدر السابق، ص: 115، والنبوغ المغربي، ج : 1، ص : 298، لعبد الله كنون.

كما خصص محمد العمري حيزا مهما لترجمة اليفراني، في مقدمة تحقيقه «للمسلك السهل» لليفراني، وهي رسالته التي تقدم بها لنيل دبلوم الدراسات العليا. (56)

ومنهجيته تقوم على الموضوعية العلمية، وتقصي الأخبار، واعتماد أمهات المصادر الموثقة، وتوثيق الأخبار والأحداث بذكر مصادرها، وتتبع الحقائق بالنقد المجرد النزيه.

3 - الحاج عبد الكريم بن موسى الريفى - صاحب مخطوط: «زهر الأكم» :

إذا رجعنا للبيبلوغرافيا الخاصة بمؤرخى الدولة العلوية، كمؤرخى الشرفاء، لليفي بروفنصال (57)، ودليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام ابن عبد القادر بنسودة، نجد أن من جملة مؤرخى الدولة العلوية، الذين ظلوا مجهولين للباحثين - إذ لم يذكروا في المؤلفين المذكورين - الحاج عبد الكريم بن موسى الريفى، صاحب مخطوط «زهر الأكم» (58) وهو غير «زهر الأكم» لأبى علي الحسن بن مسعود الـيوسى، كما يقول الضعيف (59).

و«زهر الأكم» هذا مخطوط خاص بتاريخ الدولة العلوية (60). من دخول الشرفاء العلويين إلى سـجلـمـاسـة، ومبايعتهم بالملك، إلى سنة 1153هـ. وهو جزء من كتاب ضاع جله، ولم يبق منه إلا هذا الجزء (61) ويعد من المصادر الأساسية للضعيف الرباطى فى تاريخه، وهو مكتوب بخط

(56) المصدر الأول ص : 206 - 211

(57) تعريب عبد القادر الخلاىى بالرباط، 1977م.

(58) تاريخ الضعيف الرباطى، م. خ. ع بالرباط، رقم د 758، ص : 1، وتاريخ الضعيف تحقيق أحمد العمارى، ص : 6 ط الرباط 1986. وحسب ما جاء فى الورقة الأولى من المخطوط. بخط الضعيف الرباطى : ناسخة.

(59) المصدر السابق وص.

(60) مجلة المناهل، ع : 36، س 4، ص 311-324، 1407هـ 1987م، من نوادر المخطوطات «زهر الأكم» لحسن الصادقى، حسب الورقة الأخيرة من المخطوط.

(61) مخطوط زهر الأكم، ص : 2.

ناسخه الضعيف الرباطي، وبه تفاصيل مهمة موضوعية، وجاء بمعلومات انفرادية بإيرادها (62).

وعاش المؤلف أيام المولى عبد الله (63)، وكان مولده بمنطقة الريف وراء وادي درعة، حيث درس أولاً، ثم درس بفاس ومكناس، وعمل بالبلاط العلوي.

وقد صنّفه الضعيف الرباطي مع المؤرخين الفقهاء، لتنوع ثقافته وإطلاعه على كتب المشرق، إذ حج والتقى بعلماء المشرق، ويحتمل أن يكون ذلك في ركاب أم السلطان المولى عبد الله، الملكة خناتة بنت بكار، سنة 1143هـ.

وانتهى الضعيف الرباطي من نسخه في 10 جمادى الأولى، سنة 1200هـ، بعد أن وثق معلوماته، وذكر مصادره للأحداث التي لم يعاصرها، ومن ثم جاءت أهمية كتابه (64).

4- أبو القاسم الزياني :

هو مؤرخ الدولة العلوية، الملقب بذي الوزارتين. هاجر الزياني مع أسرته إلى الحجاز سنة 1169هـ - 1755م، وعاد إلى المغرب بعد أن استفاد من إقامته بمصر سنة 1171هـ، فوجد جل زملائه قد التحقوا بخدمة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فلحق بهم رغم معارضة والده في ذلك.

وكان جده على النسابة إماماً في بلاط المولى إسماعيل، لكنه لم يشتغل بالسياسة، كما كان ملماً بالقراءات العشر بشهادة تلميذه أبي علي الحسن ابن مسعود اليوسي (65).

وتقلّب الزياني في المناصب السياسية والإدارية السامية، حيث تولى الكتابة والسفارة والوزارة والقيادة...

(62) المصادر العربية للمنونى، ص : 216.

(63) مخطوط زهر الأكم، ص : 88.

(64) مجلة المناهل، ع : 36، س : 4، ص : 323-324، 1407هـ - 1987م، من نوادر المخطوطات " زهر الأكم " مخطوط فريد في تاريخ الدولة العلوية، لحسن الصادقي.

(65) الترجمة الكبرى للزياني، ص : 25 و12 تحقيق الفيلاي .

لكنه امتحن في عهد كل من سيدي محمد بن عبد الله، والمولى سليمان والمولى اليزيد (66).

وقد أكب الزياني على التأليف، وخاصة أيام عزلته 1225-1249هـ، 1809-1834م، حيث ألف جل كتبه بالزاوية العيساوية بحي سيدي بولغيث بفاس (67)، وتوفي بعزلته أيام المولى عبد الرحمن، بعد أن عاصر وخدم أربعة ملوك.

والذي شجعه على التأليف، اعتماده فيه على مخلفات جده علي النسابة والإمام، وكان اهتمام الزياني بها أولا بحثا عن نسب جده (68)، إذ وجد أنه رفع نسبهم إلى كنعان بن نوح عليه السلام، مما حفزه للبحث والتنقيب في وثائقه، وتقييداته (69).

وتعتبر كتبه عن الدولة العلوية من أوثق وأهم المصادر التاريخية في هذا الباب، لمعايشته للأحداث عن كثب، ولخبرته (70) وتجاربه الطويلة في مجال المسؤوليات الجسيمة، وعلى أعلى المستويات. ويمتاز تاريخه بتحليل الأحداث، واستخراج خلفياتها وأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، واستلهام ظروفها وملابساتها، وذكر المنشآت الحضارية والاصلاحات الاجتماعية - كالفيراني قبله - كما يبدي رأيه في الأحداث بالتعليق والمقارنة أحيانا.

وتأليفه ينم على الوفاء والأمانة، إذ لم يؤلف تملقا للدولة، ولا تكسبا لتحقيق أهداف مادية ودينية خاصة (71).

ومنهجيته في البحث لا تبعد كثيرا عن المناهج الحديثة في كتابة التاريخ إلا من حيث البعد الزمني والمكاني للأشخاص (72). كما تمتاز كتبه - وخاصة المتعلقة بالدولة العلوية - بالدقة والضبط. فقد ذكر مصادر

(66) دعوة الحق، ع: 3، س: 13 فبراير ومارس 1970

(67) المصدر الأول ص: 24 - 28.

(68) المصدر السابق ص: 27.

(69) المصدر السابق ص: 58.

(70) الترجمان المغرب، ص: 25، ط: باريس 1886م.

(71) الترجمانة الكبرى، ص: 40، تحقيق الفيلاي.

(72) المصدر السابق ص: 30.

الترجمان في أوله، وأخذ ما يتعلق بملوك الدولة العلوية الأولين في كل من الترجمان المغرب والبستان الظريف من نزهة الحادي لليفراني، أما بقية الأحداث فقد عايشها عن كثب لوظائفه السياسية وغيرها السامية بالبلاط، التي تولاهها بالداخل والخارج (73) كما اعتمد في تأليفه على الوثائق الرسمية بالخرانات الملكية، وقد اعترف بذلك في الترجمان، مما جعل هوداس يعدت بكتبه، ويعتبرها مصادر موثوقة، وجعل ليفي بروفنصال يعتبره على رأس مؤرخي الدولة العلوية حتى نهاية القرن التاسع عشر، مؤكدا نقلهم عنه وانتحالهم كتبه (74).

ويمكن اعتبار الفصول المتعلقة بالدولة العلوية من كتابه الترجمان، تكملة للعمل الذي بدأه اليفراني في نزهة الحادي، حيث اقتفى أثره في ذلك، كما يمكن اعتبار هذه الفصول تلخيصا لما توسع فيه عنها في كتابه البستان الظريف، مما أكدّه الزياتي بنفسه (75).

وكتابه الترجمانة الكبرى، كتاب مهم، ربط فيه بين الجانب السياسي والتاريخي، وطرح فيه قضايا ثقافية وفكرية، ومساجلات عقائدية، في إطار المذاهب الاسلامية، والطرق الصوفية، والعلاقات بين الأديان، وعقد المقارنات بينها...

كما أن هذا الكتاب هو عبارة عن فهرسة ورحلة، في إطار جغرافي، وله طابع الموسوعات، وعنوانه الكامل: «الترجمانة الكبرى من الأمصار والمدن والقرى، والقفار والبحار والجبال والأنهار والعيون والمعادن والآبار، وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار، وما يؤكد ذلك من التفسير والآثار، ونوازل الفقه، وشواهد الأشعار».

ولم يكمل الزياتي الفصل المتعلق بالدولة العلوية من كتابه «الترجمانة الكبرى» إلا بعد وفاة المولى سليمان، إذ وصل به إلى سنة 1228هـ -

(73) المصدر السابق، ص: 40

(74) مقدمة الترجمان للزياتي، ص: 4 ط: هوداس و مؤرخو الشرفاء لليفي بروفنصال 136، ترجمة الخلاوي، ط 1977م.

(75) الترجمان المغرب ص: 4-5 ط: هوداس، ومؤرخو الشرفاء لليفي بروفنصال ص: 121 تعريب الخلاوي، ط: 1977م

1813م (76)، في حين ذكر الزياني أنه عرض هذا الفصل من الترجمانة الكبرى على المولى سليمان فاستحسنة وشجعه شفويا وكتابيا على إتمامه. ولما أتمه الزياني أهداه إلى المولى سليمان، عربونا على الولاء والوفاء بالجميل، إذ جل ما ألفه الزياني منه كان باقتراحه ورعايته ونفقته (77). وقد ذكر الزياني في هذا الكتاب كثيرا من كتبه التاريخية (78) وغيرها، وأهمها كتابه «رسالة السلوك فيما يجب على الملوك».

ورغم صغر حجم هذا الكتاب، يعتبر ذا ميزة في كتابة التاريخ، بجمعه بين الحكمة والسياسة، وقانون الأخلاق، وقواعد السلوك، وجعله في جزئين :

- الأول : يشتمل على المقدمة وعشرين بابا.

- الثاني: يضم الخاتمة التي خصصها لسفارته بتركيا (79). ويؤخذ على الزياني ادعاءه أنه لم يجد مؤلفا وضع قبله حول الدولة العلوية «إذ لم أجد في هذه الدولة العلوية تأليفا...» (80)، في حين أنه ألف حول تاريخ الدولة العلوية قبله المؤرخ السيد أحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري (81) كتابه «الأنوار الحسنية أو السننية» (82).

كما ألف قبله في تاريخ هذه الدولة محمد الصغير اليفراني كتابه «روضة التعريف» المأخوذ في جملته من كتاب الأنوار الحسنية أو السننية «المذكور (83)، كما يؤخذ عليه مغالاته في بعض أحكامه، واندفاعه فيما لا يقره العقل السليم، وضعف ملكته الشعرية.

وقد عاتبه نقيب الأشراف، السيد سليمان الحوات -شاعر البلاط العلوي- على عدم اطلاعه على مؤلفاته في الدولة العلوية، فوجهها الزياني

(76) وتوفي المولى سليمان 1231-1816 حسب الترجمان المخطوط ص: 8. ومؤرخو الشرفاء

لليفي بروفنصال، 117، تعريب عبد القادر الخلاوي، ط 1977م.

(77) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 4، تحقيق الفيلاي، ط: هوداس.

(78) المصدر السابق ص: 413.

(79) مجلة المناهل، ع: 36، س: 4، ص: 262 - 263، 1407هـ - 1987م، أبو القاسم الزياني مؤرخ

الدولة العلوية، وكتابة "رسالة السلوك فيما يجب على الملوك"، محمد عبد العزيز الدباغ.

(80) الترجمانة الكبرى للزياني ص: 40 تحقيق الفيلاي، ط: هوداس.

(81) م. 1101هـ.

(82) نشر سنة 1966م.

(83) نشرته المطبعة الملكية 1966م.

إليه بتمامها، ومعها رسالة ودية إخوانية بليغة، فاجابه سليمان الحوات برسالة تقرّظ وتنويه بمؤلفاته وبشخصه (84).
والرسالتان تعتبران نموذجا لما يجب أن تكون عليه علاقة المثقفين فيما بينهم.

كما قرّظ مؤلفاته كبار علماء ومفكرى عصره.

وعاش أبو القاسم الزياني ما ينيف على مائة عام 1147-1249هـ، وواصل الكتابة والتأليف إلى آخر يوم من حياته الحافلة بالمسؤوليات والمهام الجسيمة في جميع مجالات الحياة : السياسية والثقافية والعلمية والأدبية، مما يؤكد عظمته وإيمانه بقيمة القلم وأهمية دوره.

5- أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس:

ولد بمراكش 1211هـ، 1796م، وعينه المولى سليمان كاتباً ثم وزيراً له، لكنه فقد وزارته بوفاة المولى سليمان 1238 هـ - 1822 م، وتوفي سنة 1294هـ - 1877م.

ألف كتابه في تاريخ الدولة العلوية «الجيش العرمرم الخماسي، في دولة أولاد مولانا علي الشريف السجلماسي» (85). تناول فيه الدولة العلوية منذ نشأتها، إلى سنة 1282 هـ - 1865م، في عهد المولى محمد بن عبد الرحمن.

واسم الكاتب يبين طريقة الكتاب في تناول التاريخ. وقد سجل في هذا الكتاب ملاحظات مهمة عن تطور نظام الحكم الملكي في المغرب على عهد الدولة العلوية، ووظائفه السياسية والإدارية وغيرها، ومعلومات مهمة عن كبار المسؤولين في البلاط العلوي، كالوزير أبي العباس أحمد اليمحمدي، والوزير العربي قادوس، والوزير محمد بن ادريس، والوزير الطيب بن اليممني...

(84) الترجمانة الكبرى للزياني، تحقيق الفيلاي، ص: 44 ط : هوداس.

(85) ذكره بروكلمان في ملحقاته، ج : 2، ص : 880، وطبع على الحجر بفاس 1336هـ - 1918م، وذكره الناصري في الإستقصاء، و ابن زيدان في النهضة العلمية وغيرها.

والجزء الأول من هذا الكتاب يمتد من نشأة الدولة العلوية، إلى عهد المولى سليمان 1204-1238هـ، لكنه أخذ عن الزياني في البستان (86)، كما سطا على صفحات كاملة من كتب الزياني، دون أن يذكر ذلك (87). أما في الجزء الثاني من كتابه فإن أكنسوس يستعرض أشعاره وأمداحه في الملوك والأمراء والوزراء، التي تؤكد لنا أنه شاعر أكثر منه مؤرخ، عكس الزياني الذي هو مؤرخ أكثر منه شاعر. وتاريخيا خصص هذا الجزء للمولى عبد الرحمن، وولده محمد الرابع، وأبدع فيه أكثر لمعايشته للأحداث (88). لكن أكنسوس المؤرخ يتأخر كثيرا عن الزياني، لأنه يتملق في تاريخه، فيداهن ويتلون حسب الظروف.

فقد أثنى على أبي القاسم الزياني في حياته رغبة ورهبة، ولما مات الزياني سخر منه، ووصفه بالجهل، ناسيا ولاءه له أيام وزارته، بل إنه لم يتورع عن رميه بالكفر، لتنديده بالصالحين، ورفضه الإنتساب للزوايا، والإنسياق وراء شعوذة ودجل الطرقيين، في الوقت الذي كان فيه أكنسوس من دهاقنة الطريقة التيجانية (89)

ولم يحرز كتاب أكنسوس على تقدير العلماء والمؤرخين في عصره ولا بعده، لأنهم أخذوا عليه تنقيصه من شأن سلاطين الدولة الإدريسية الشريفة، تملقاوتزلفا للدولة الحاكمة، وتحامله على فاس التي سجن بها على عهد المولى سليمان، وأخطأه في فهارس كتبه التاريخية (90)، كما نقموا عليه ادعاءه أن كل مؤرخي الدولة العلوية قبله لم يبلغوا شأوه في الموضوع، وتحامله عليهم، وخاصة على أبي القاسم الزياني الذي ادعى أن كتابه البستان نسخة لما كتبه ابن الحاج في الموضوع، مما لم يثبت على الزياني،

(86) مؤرخوا شرفاء لبيبي بروفنصال ص : 141 تعريب عبد القادر الخلاوي ط : هوداس : 1977م.

(87) المصدر السابق، ص : 135.

(88) مؤرخوا شرفاء لبيبي بروفنصال ص : 142 تعريب عبد القادر الخلاوي ط : هوداس : 1977م..

(89) «مؤرخوا شرفاء» لليفي بروفنصال : 136، تعريب عبد القادر الخلاوي بالرباط 1977م. ط. هوداس.

(90) دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج : 1، ص : 152 رقم: 364 لابن سودة، ونفس المصدر ج : 2، ص: 422 رقم لابن سودة.

في حين ثبت أن أكنسوس نقل عن الزياني، وانتحل جهوده، حتى إن مقدمته، عبارة عن ملخص لكتاب الزياني في الترجمان المغرب(91)، وعدم استقصائه لأحداث مهمة، كحرب تطوان سنة 1860م.

ويقول ليفي بروفنصال في هذا الصدد : "ينبغي لدارس تاريخ القرن التاسع عشر بالمغرب، إذا أراد الرجوع إلى كتابة - أكنسوس - أن يكون حذرا، لأن انتحاله بدون حياء لكثير مما تضمنته كتب اليفراني والزياني، كاف ليجعلنا غير مطمئنين إليه (92)، خاصة وأنه لم يذكر ذلك في التوثيق، وبالتالي تحامل عليهما، متهما إياهما بما ارتكبه هو".

ومع ذلك يعتبر كتابه «الجيش العرمرم» ذا أهمية خاصة فيما يتعلق بعصر كل من المولى عبد الرحمن بن هشام، وولده محمد الرابع. وقد تكلم عنه بروكلمان في ملحقه (93).

6 - محمد الضعيف الرباطي :

أبو عبد الله محمد بن المرابط عبد السلام بن أحمد بن محمد الضعيف الرباطي.

عاصر أبا القاسم الزياني، فقد ولد بالرباط سنة 1165هـ - 1751م، يؤرخ تاريخه للدولة العلوية منذ نشأتها إلى عهد المولى سليمان، ولم يعنون كتابه الوحيد "تاريخ الضعيف، أو تاريخ الدولة السعيدة".

وابتدأ هذا الكتاب بعوامل انهيار الدولة السعيدة، والأحداث التي تزامنت مع قيام الدولة العلوية، كهدم الزاوية الدلائية، متتبعا في شكل حوليات أحداث عهد كل سلطان من سلاطين هذه الدولة، معددا مناقب كل منهم.

ويمتاز أسلوبه بالشجاعة والصراحة، إذ وجه انتقادات صريحة وعنيفة لبعض كبار المسؤولين في جهاز الدولة، كما ذكر أحداثا دقيقة وحساسة سكت عنها غيره، أو للمها بإيجاز وتمويه

(91) المصدر الأول، ص : 121.

(92) المصدر السابق، ص : 145.

(93) ج : 2، ص : 880، طبع على الحجر بفاس ، سنة 1336هـ.

وذكر كثير من الباحثين أن كتابه ما هو إلا نسخة موسعة لكتاب الحاج محمد المسناوي مورينو الرباطي الأندلسي الأصل . ويعاب عليه أن بعض أخباره غير موثقة ويصعب التأكد من صحتها، كما أن لغته ركيكة، وأسلوبه سهل، زيادة على تضمينه للأمداح النبوية حشوا، ودون مناسبة.

والواقع أن المؤرخ محمد الضعيف الرباطي، نقل جل كتابه التاريخي من كتاب " زهر الأكم (94) للمؤرخ الحاج عبد الكريم بن موسى الريفى، بل إنه غالباً ما نقل عنه حرفياً أو لفظياً، وحتى صيغة العناوين نقلها كما هي، دونما أي تعديل ولا تغيير يذكر.

والذي يؤخذ عليه أنه لم يشر إلى ذلك، مما يعتبر انتحالا وسطوا مذموماً.

وقد اعتمد في كتابه على تسلسل الأحداث الهامة حسب السنوات، وتعاقب الملوك، بدل الوحدات الموضوعية، كما استقصى الأحداث بدقة، مبرزاً دور القيادات والجماهير الشعبية في صنع الأحداث، وتحرير الموائى والشواطىء، جاعلاً الدور الطلائعى للفقهاء.

وتطرق في كتابه إلى قضايا اقتصادية هامة، كالاختكارات الأجنبية ودورها في انهيار الاقتصاد الوطنى، مبدياً اهتماماً خاصاً بالطبقة المسحوقة، ليعطي صورة عن البيروقراطية والفساد الإدارى، ولا سيما على الصعيد الإقليمى .

والغريب أن الناصرى ومن جاء بعده من المؤرخين لم يطلعوا عليه، ولم يأخذوا منه.

الدر المنضد الفاخر، فيما لأبناء المولى على الشريف من المحاسن والمفاخر(95):

ونسبه ابن سودة في كتابه « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » إلى أبى عبد الله محمد بن عبد القادر الكيلانى، الشهير بالكرودى (96)

(94) مجلة المناهل، عين : 36، س : 4، ص : 311 - 324، 1407هـ - 1987م، من نوادر المخطوطات

" زهر الأكم " ...، لحسن الصادقى .

(95) دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج : 1، ص : 148.

(96) المولود 1216هـ - 1801م، و م . 1268هـ - 1851م، المصدر السابق و ص .

ويحتوي على حوالي خمس عشرة كراسة (97)، ويؤرخ للدولة العلوية الشريفة إلى عهد مولاي الحسن الأول، لكنه غير تام . وقد ألف حوالي سنة 1266هـ - 1851م، حيث استقى مصادره من كتب الزياني، ونزهة الحادي لليفراني، ونشر المثاني للقادري، ولم يذكر فيه أكنسوس، ولا اتخذ كتابه مصدرا له .

واستهله بالحديث عن نسب الدولة العلوية، ثم عن مؤسس هذه الدولة المولى الشريف بن علي، وجاء بتراجم لأهم رجالات هذه الدولة حسب وفياتهم إلى عصره، مسجلا أحداث عهودهم، ووفيات كل عصر على حدة، حتى ترجم لمولاي إسماعيل بن الشريف .

7- أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي :

كان أبو محمد الغالي بن المكي بن سليمان من أبرز كتاب بلاط المولى الحسن الأول، ورافقه في تنقلاته عبر الأقاليم .

وترك مؤلفات عديدة (98)، وآثارا شعرية ونثرية سجل فيها عدة أحداث من مشاهداته، ومحاوراته مع أنداده من رجال الدولة، ووزرائها وعلمائها، مما تزخر به مؤلفاته ورسائله، وكناشاته...

ونظم قصيدة في تاريخ الدولة العلوية، تناول نشأتها ومراحل حكمها، وتسلسل الأحداث عبر العصور، وتعاقب الملوك، والظروف والملابسات التي طبعت أعمال كل واحد منهم، وتحكمت في مسار عهودهم.

والقصيدة تنم عن اطلاعه الواسع في مجال التاريخ، وسجل فيها أسباب وعوامل النهضة المغربية الحديثة التي وطد صرحها، وأرسى دعائمها مولاي الحسن الأول (99) .

وتتميز هذه القصيدة بجرس موسيقي ينتظمها من أولها إلى آخرها، مما يدل على إلمامه بالموسيقى .

(97) م.خ.ع بالرباط، رقم: 1554 .

(98) مجلة المناهل، ع : 36، س: 4، ص: 199-200، 1407هـ - 1987م، المؤرخ المشرفي في كتابه

«الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية»، لعبد القادر زمامة .

(99) المصدر السابق، و ص

وقد ضمنها كتاب «المعرب المبين» لابن زاكور، الذي استلهمه بآتمه، مستعرضا فيه شيوخه من كبار العلماء الذين كانوا -إذ ذاك- قادة للنهضة الفكرية .

أما أسلوبها، فهو أسلوب عصره بالشرق والغرب، الذي تطفى عليه المحسنات البديعية والتصنيع، ولعله تأثر بأسلوب لسان الدين ابن الخطيب، وخاصة في كتابه «رقم الحل في نظم الدولة» (100) .

وقد نالت قصيدته إعجاب علماء وأدباء عصره، حتى تولى شرحها أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الذي ألف عدة كتب علمية وأدبية، طبع بعضها، وظل بعضها الآخر مخطوطا . كما ترك آثارا شعرية أهمها : قصيدة «إيقاظ أهل الغفلة والمنام» (101) .

وسمى المشرفي هذا الشرح «بالحلل البهية في ملوك الدولة العلوية»، وضمنه معلومات تاريخية وأدبية ولغوية عامة، زيادة على الموضوع الرئيسي الذي هو تاريخ الدولة العلوية .

وقد برهن في كل ذلك على اطلاع واسع، وثقافة متينة، مما جعل شرحه هذا وثيقة تاريخية وسياسية، ونصوصا شعرية ونثرية، كما صور في هذا الشرح الحالة الفكرية والثقافية والعلمية والعمرانية لكل عصر من عصور هذه الدولة العتيدة (102) .

وتوفي المولى الحسن الأول، وعاش المشرفي بعده إلى سنة 1334هـ-1915م، فأضاف أحداث هذه السنوات التي عاشها بعده، زيادة على القصيدة التي شرحها، وأضاف إليها تعليقات خاصة، ونصائح وانتقادات(103)...

وكتاب الحلل البهية، ذكره ليفي بروفنصال في كتابه «مؤرخو الشرفاء» بإشارة عابرة، ولم يذكر اسم مؤلفه المشرفي، وقال بأن قسما منه ترجم إلى اللغة الفرنسية .

(100) المصدر السابق، ص : 201 .

(101) نفس المصدر ص : 202 .

(102) مجلة المناهل المذكورة، ص : 202-203 .

(103) المصدر السابق ص : 204 .

وظهرت هذه الترجمة إلى الفرنسية سنة 1906م، وهو لا زال على قيد الحياة (104) .

لكن النسخة الخطية للحلل البهية غير تامة (105) .

8- ابن الطيب الشرقي :

أبو عبد الله محمد بن الطيب بن محمد بن موسى الشرقي (106)
الصميلي الفاسي (1110-1170هـ) .

ولد ونشأ وتعلم بفاس، ونبغ في علوم اللغة والأدب، ثم رحل إلى المشرق سنة 1143هـ، إثر الاضطرابات التي عرفها المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل

وجاور في الحرمين الشريفين حيث أكب على التعليم والتأليف حتى ناهزت مؤلفاته ستين كتابا وبحثا، منها تراجم الرجال، وفهارس، ورحلة تصور الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب، خلال القرن الثاني عشر الهجري، والثامن عشر الميلادي، وكلها ذات قيمة تاريخية، وبها اعتبر مؤرخا للدولة العلوية (107) .

وكتابه «الأفق المشرق بتراجم من لقيناه بالمشرق» ألفه عن الحياة الثقافية والفكرية بالمشرق خلال القرنين المذكورين الهجري والميلادي. ورغم أن هذا الكتاب لم يصل إلينا فقد وصلنا جل ما فيه بكيفية غير مباشرة من خلال كتبه : «الرحلة الحجازية»، و«إرسال الأسانيد»، و«في عيون المواريد» (108).

أما كتابه «الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب» فيوافق في تسميته كتاب معاصره، أبي عبد الله محمد بن الطيب العلمي (109)، غير أن كتاب ابن الطيب العلمي طبع، أما كتاب ابن الشرقي

(104) مجلة المناهل، ع : 36، س : 4، ص : 204-205، 1407هـ- 1987م، المؤرخ المشرفي في كتابه الحلل

البهية في ملوك الدولة العلوية، لعبد القادر زمامة .

(105) نفس المصدر، ص : 202 .

(106) قبيلة اشراقة بنواحي فاس

(107) المصدر الأول، ص : 116، لابن الطيب الشرقي مؤرخا لعبد العلي الودغيري .

(108) المصدر السابق، ص : 117.

(109) م . 1137هـ، ودفين مصر، المصدر السابق، ص : 118.

فضاع . لكن ذكره في ترجمته القاضي أبو الفتح بن الحاج في جملة مؤلفات ابن الشرقي .

ومن مؤلفاته ذات الصبغة التاريخية: «قرار العين بإقرار الأثر بعد ذهاب العين» وخصه للتعريف بشيوخه وأسانيده في روايته للعلوم، وهو فهرسته الكبرى لكنه لم يصل إلينا .

- «أرسال الأسانيد»، وهو الفهرسة الصغرى، أتمه بمكة المكرمة، سنة 1144هـ.

- «في عيون الموارد»، وخصه لمسلسلاته الحديثية، التي بلغت تسعة وعشرين مسلسلا (110).

- «الرحلة الحجازية»، وهي عبارة عن مذكراته ويوميته عن رحلته للحج بين 1139-1140هـ . بيد أنه صرح في عيون الموارد (111) بأنه ألف رحلتين، ضاعت الأولى منه في عودته من الحج (112)، فكتب الرحلة الثانية بعد عودته (113).

9- أبو العلاء إدريس :

كاتب الوزير محمد بن إدريس العمراوي، في عهد المولى عبد الرحمن بن هشام (114).

ترك كتابه التاريخي «الابتسام عن دولة ابن هشام»، وهو مخطوط، ذكره عبد السلام بن سودة في الجزء الأول من كتابه «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، وعنوانه الكامل «الابتسام عن دولة ابن هشام، وديوان العبر، في أخبار أهل القرن الثالث عشر» (115).

(110) مجلة المناهل، ع: 36، س: 4، ص: 119-123، 1407هـ-1987م، ابن الطيب الشرقي مؤرخا،

لعبد العلي الودغيري

(111) المسلسل الأربعين بالشعراء، المصدر السابق و ص 125 - 127.

(112) الرحلة لـ 3-4 و لـ 114، المصدر السابق، و ص: 125-127.

(113) الرحلة لـ 4، المصدر السابق، ص : 125-127.

(114) مجلة المناهل، ع : 36، س : 4، ص : 91، 1407هـ-1987م، مخطوط الابتسام عن دولة ابن

هشام، لعبد الهادي التازي .

(115) المصدر السابق، و ص .

ويؤرخ فيه للمولى سليمان، بحيث ابتدأه من حيث توقف عبد الرحمن ابن زيدان النقيب في كتابه «إتحاف أعلام الناس» (116)، واقتصر على تسجيل ما عاصره وعاشه من أحداث عصره (117) .
لكن هذا المؤلف اختلفى دون أن يقدم نفسه ولا كتابه، وربما كان ذلك منه خوفا ورهبة بعد نكبة رئيسه الوزير محمد بن ادريس العمراوي، أو لعل الموت فاجأه قبل تنقيح كتابه، وإعداده ونسخه ...

10- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري :

أشهر مؤرخ للدولة العلوية قبل الحماية: هو أحمد بن خالد الناصري، وجده الأعلى هو الشيخ محمد الشهير بابن ناصر الدرعي، مؤسس الزاوية «الناصرية بالمغرب» (118) .

ولد سنة 1205هـ، ونال شهرته بفضل كتابه الاستقصا الذي جمع فيه شتات تاريخ المغرب، مضيئا إلى ما جاء من كتب الزياني، أحداث ما يناهز قرنا من الزمان .

وقد استهله ببيان فضل علم التاريخ، ثم جاء بفذلكة عن السيرة النبوية، وسيرة الخلفاء الراشدين، ثم جاء بتعريف لأصول البربر، ومنه انتقل إلى فتح الشمال الإفريقي وعصر الولاة به، ثم استعرض الدول التي حكمت المغرب على التوالي إلى الدولة العلوية الشريفة حتى توقف عند عهد المولى الحسن الأول سنة 1311هـ، إذ لم يلبث أن توفي بعد ذلك بقليل، سنة 1315هـ .

وضمن مصادره التاريخية التي نقل عنها نجد كتبا تاريخية وجغرافية وبعض الرحلات .

فقد نقل عن كل من أبي حيان الأندلسي، وابن خلدون، وابن حزم، وابن خلكان، والبكري، وابن الأثير، وابن الخطيب، وأبي سالم العياشي، واليفراني، وأكنسوس، والزياني، وغيرهم كثير.

(116) المصدر السابق، و ص .

(117) كما أكد في المقدمة .

(118) طلعت المشتري في النسب الجعفري للناصرى، مؤلف الاستقصاء ط . فاس 1320هـ .

وهو يختم أخبار كل دولة من الدول التي حكمت المغرب بأحداث جديدة، لم تذكر في المصادر التي نقل منها، كالسنوات العجاف من الجفاف والزلازل، ووفيات الشخصيات البارزة، ولا سيما في المجال العلمي والإداري، والعمران وغير ذلك .

ويتدخل خلال السياق من حين لآخر ليبيدي رأيه، أو لينتقد ما يراه خطأً أو بهتاناً، ويدافع عن آرائه بالحجة والبرهان، مما ينم عن عقليته ومبادئه، وآرائه واتجاهاته الشخصية .

ويؤخذ عليه في كتابه الاستقصا أنه جمع حربي لروايات عدة مؤرخين في الموضوع الواحد، وبأسلوبهم وصيغتهم

لكنه يغني الباحث عن الرجوع إلى مصادر قديمة نادرة، في حين أنه سهل المنال، ومتوفر في متناول الجميع .

كما يفتقر إلى معلومات عن الدور الدبلوماسية الوطني والأجنبي في الأحداث، ودور انشقاق الإمارات المحلية التي ساهمت في اتجاه الأحداث .

ذلك أنه اكتفى بالمشهور من هذه الإمارات، وبالتالي عاصر أحداثها.

وفي هذا الصدد يعاب عليه تهافت الأحداث، وهلهة ربطه فيما بينها، واضطراب في توزيعه للفصول، مما يوحي بعدم مراجعته لها، وعدم تنقيحها .

لكن هذا لا يطعن في قيمة الكتاب التاريخية، وفي دوره في خدمة البحث والدراسة التاريخية، وبالتالي الباحثين والدارسين، ولا سيما المؤرخين .

ويمتاز هذا الكتاب بالشجاعة الأدبية في نقد سياسة عصره وأحداثه، وبروحه الوطنية الصادقة، وغيرته على دينه وقوميته ووطنيته ... وقد ألف قبل كتابه الاستقصا كتابه :

- « كشف العرين عن ليوث بني مرين »، اعتمد في تأليفه على وثائق الخزانات الرسمية، التي قدمها له باشا مدينة الجديدة محمد الجراري، كما استعان بالشيخ المسنين من معاصريه، وبيعض

القناصل، وكذا ببعض المراجع الأجنبية البرتغالية، والأنجليزية، والإسبانية (119) مما لم يظهر أثره في الاستقصا إلا نادرا ولما .
وقد اشتغل بالتدريس، وكان ورعا تقيا، شديدا على أهل البدع. مما
طفى وبرز في مؤلفاته، وخاصة في " الإستقصا " و في " تعظيم المنة " .
وحاربه أرباب الطوائف والطرق، فلم يتراجع ولم ينالوا منه، لحسن
قصده، وخصوص نيته .

وله مؤلفات عديدة ومتنوعة تدل على تنوع ثقافته . كما تقلب في وظائف
رسمية عديدة بالمراسي وغيرها، لكنه خلال ذلك كان يشتغل بالعلم والبحث
والتأليف، ونظم الشعر .
وفي آخر حياته انقطع عن مخالطة الناس، ورفض الوظائف التي
عرضت عليه، وانكب على الدراسة والبحث والتأليف بتفرغ، إلى أن توفي
سنة 1315هـ (120) .

11 - عبد الرحمن بن زيدان (121) :

هو الفقيه الأديب المؤرخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن
ابن علي بن عبد الملك بن زيدان بن السلطان الشهير المولى اسماعيل العلوي
الحسني .

ولد بقصر المحنشة أحد القصور الملكية بمكناس عام 1290هـ، ونشأ بها
وترعرع، حيث تلقى القرآن على والده وعمه عبد القادر، كما تلقى على
فقهائها وعلمائها مبادئ الدين واللغة والأدب، ثم قصد فاس لإتمام
دراسته بجامعة القرويين، شأنه في ذلك شأن جميع الطلبة في بلدان المغرب
العربي والصحراء يومئذ، إذ لم يكن يؤبه بعلم عالم في تلك البلدان إلا
إذا كان من الذين درسوا بالقرويين، وأخذوا العلم عن شيوخ فاس
المبرزين .

(119) حسب ما ذكره نجلاه في مقدمة ط دار الكتاب بالدار البيضاء، والاستقصا، للناصري، ج: 1، ص: 9-27 حيث ترجمته كلها وشعره .

(120) له ترجمة مطولة بالاستقصا للناصري، ج: 1، ص: 9-27 .

(121) مقدمة كتاب «العز والصولة»، لابن زيدان، ج: 1، ص: 1-أ ط .

وتضم قائمة مشيخته أكبر علماء المغرب وأسيرهم ذكرا في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، كشيوخ الجماعة : أحمد بن الجيلالي الأمغاري (122)، وأحمد بن الخياط الزكاري (123)، ومحمد بن قاسم القادري (124)، وعبد الله الفضيلي العلوي، والعلامة الأديب أحمد بن المامون البلغيثي (125)، والمحدث المؤرخ محمد بن جعفر الكتاني (126)، والفقيه العلامة محمد بن عبد السلام كنون (127)، والفقيه النوازي المهدي ابن محمد الوزاني (128)، كما تتحلّى تلك المشيخة بأشهر علماء مكناس في ذلك الوقت، مثل الفقيه العلامة التهامي السوسي المدعو الحداد (129) شيخ السلطان عبد الحفيظ، والقاضي محمد بن أحمد السوسي (130)، والمؤرخ الحسن بن اليزيد العلوي (131) والفقيه الطيب بن العناية بنونة (132) وسواهم .

ورجع ابن زيدان من فاس إلى مسقط رأسه حوالي عام 1315هـ ممثلي الوطاب أدبا وعلما، وأسند السلطان إليه نقابة الشرفاء العلويين بمكناس وزرهون، وسنه لا يعدو الخامسة والعشرين، وهي خطة جليلة، لها من الأهمية والاعتبار يومئذ مالها، فأضاف إلى جاهه التليد جاها طريفا صيره من أولي الحل والعقد على صغر سنه، على أن نفسه الطموح كانت تواقّة إلى المزيد من العلم، ومعاينة المخترعات العجيبة التي تفتق عنها الفكر البشري في أعقاب القرن التاسع عشر، والوقوف على آثار النهضة العلمية والحضارية للشرق العربي التي كان الحجاج يحكون أخبارها بإعجاب ممزوج بحذر

(122) توفي عام 1352.

(123) توفي عام 1341

(124) توفي عام 1331

(125) توفي عام 1348 .

(126) توفي عام 1345.

(127) توفي عام 1328

(128) توفي عام 1342

(129) توفي عام 1336.

(130) توفي عام 1369

(131) توفي عام 1371

(132) توفي عام 1325.

ممزوج بإعجاب، ولكن الأحوال السيئة التي كان المغرب يتخبط فيها أيام السلطانين عبد العزيز وعبد الحفيظ حالت دون تحقيق أمنيته، فلم يتيسر له أن يسافر إلى الشرق إلا سنة (1331هـ - 1913م)، فزار مصر والشام والحجاز، واجتمع برجال العلم والدين فيها وفاوضهم، وسمع منهم، وروى عنهم، وفي طليعة الذين أخذ عنهم في هذه الرحلة -وهي أولى رحلاته إلى الشرق- الشيخ بدر الدين بن يوسف الحسني الدمشقي المعروف بالمغربي شيخ دار الحديث . والشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية، والشيخ محمد السفرجلاني الشامي، وشهاب الدين البرزنجي المدني، والشيخ محمد حمدان التونسي القسنطيني المدني، والشيخ عبد الستار الصديقي الهندي وأضرابهم .

ولما عاد إلى وطنه أصبح من رجالات المجتمع، وصار منزله مقصدا للرائح والغادي، وأكب على جمع الكتب والوثائق والتدريس والمحاضرة، والتأليف، وشغف بالتاريخ الإسلامي وتاريخ المغرب على الخصوص، وتاريخ الدولة العلوية على الأخص حتى أصبح مرجعا فيه، واختار حرية نفسه والاشتغال بالعلم والأدب، فلم يقبل من الوظائف العديدة الكبيرة التي عرضت عليه إلا وظيفة نائب مدير الأكاديمية العسكرية بمكناس، وهي أشبه ما تكون بوظيفة شرفية . واستمر على ذلك إلى أن قضى نحبه بمكناس ظهر يوم السبت 21 ذي الحجة عام 1365هـ الموافق 16 نونبر سنة 1946م، وشيعت جنازته إلى ضريح جده اسماعيل في محفل رهيب مشى فيه سكان مكناس وأعيان الدولة، وعلى رأسهم جلالة الملك الحسن الثاني الذي كان يومئذ وليا للعهد، نيابة عن والده العظيم جلالة الملك محمد الخامس سقى الله أيامه، وطيب مثواه .

وقد أنشأ خزانة كتبه الحافلة الثمينة التي جمع فيها من "الظواهر الملوكية، والمكاتب الوزارية، ودفاتر الأمناء والنظار، والوثائق العتيقة الأثرية"، زيادة على الكتب والدواوين ما لا يوجد في غيرها"، "وبذل في الحصول عليها كل نفيس وغال، ووالى الأسفار، وسامر الأسفار، نابذا وراءه ظهريا حب الرئاسة، واقتناء الدور، وتشبيد القصور، وشراء البلادات، وغرس الجنات، غير مفكر فيما يخلف للبنين والبنات" .

- ومع أن ابن زيدان كان من المبرزين في الفقه والأدب وعلوم اللغة فإن ميله إلى التاريخ -وتاريخ الدولة العلوية على الخصوص- كان أشد وأغلب، وقد بدا عليه هذا الميل وهو في عنفوان شبابه، ولازمه حتى آخر رفق من حياته، ولهذا نجد أكثر الكتب التي ألفها متعلقا بالدولة العلوية، مثل :
- (1) «إتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس»، المطبوعة منه خمسة أجزاء من ثمانية، وهو إلى أن يكون تاريخا للدولة العلوية أقرب منه إلى أن يكون تاريخا لمكناس .
 - (2) و«الدرر الفاخرة، بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة»، المطبوع بالرباط عام (1356هـ - 1937م) .
 - (3) و«العز والصولة في معالم نظم الدولة»، موضوعه نظام القصر الملكي والإدارة المغربية على عهد العلويين .
 - (4) و«المناهج السوية في مآثر الدولة العلوية»، في مجلدين ضخمين، ألفه بطلب من المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي، ليدرس في أقسام التعليم العالي بجامعة القرويين.
 - (5) و«النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية»، في مجلد ضخم.
 - (6) و«العقود الزبرجدية في الرحلة السلطانية المحمدية»، وهو وصف رحلة جلالة الملك محمد الخامس إلى الأقاليم الجنوبية سنة (1360هـ - 1941م) .
 - (7) و«العلائق السياسية بين الدولة العلوية والدول الأجنبية»، في ثلاثة أسفار .
 - (8) و«المنزعة اللطيف في مفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف»، في مجلد.
 - (9) و«جني الأزهار ونور البهار في تاريخ الجيش النظامي»، الذي ألفه السلطان إسماعيل من العبيد المعروفين بعبيد البخاري
 - (10) و«اليمن الوافر الوفي في امتداح الجناب اليوسفي» في جزئين، ورحلته للحجاز، وفهرسة شيوخه، وديوان شعره، وسواها من الكتب والرسائل والمحاضرات في مختلف الفنون الدينية والسياسية والأدبية والتاريخية .
- وكتاب (العز والصولة) من أهم هذه المؤلفات وأكبرها فائدة وأجدرها أن تصبح مرجعا رئيسيا للمؤرخين والسياسيين والإداريين لمدة طويلة. ذلك أنه لا يطرق موضوعا من المواضيع التي طرقتها في كتبه الأخرى أو التي ألف

الكتابة فيها علماء المغرب في القرون الأخيرة، فهو لا يؤرخ لملك ولا دولة، ولا يترجم لفرد ولا طبقة ولا أسرة، ولا يعرف بناحية ولا مدينة ولا قرية، بل هو وصف للأنظمة والأعراف الإدارية التي كان معمولاً بها في الدولة المغربية حتى مطلع هذا القرن، وبيان لأحوال السلاطين وعاداتهم المتبعة داخل قصورهم. فهو من حيث الموضوع أشبه بالكتب المؤلفة حديثاً في فن البروتوكول والقانون الإداري، وإن اختلف عنها ترتيباً واتجاهاً وأسلوباً.

وقد كانت نقطة البداية في تأليفه أن معهد الدراسات المغربية العليا (133) اقترح عليه أن يلقي محاضرة بمناسبة انعقاد موتمره الثاني بفاس عام (1351هـ - 1933م)، فاختر نظام الدولة العلوية عموماً وأثارها بفاس على الخصوص، نظراً لاجتماع المؤتمر بها. ثم بدا له أن يفصل الموضوعين أحدهما عن الآخر، فزاد في موضوعه آثار العلويين بفاس، ونشره على حدة في كتاب سماه "الدرر الفاخرة، بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة". أما نظام الدولة فقد جعل تلك المحاضرة أساسه، ثم شرع يتوسع فيه، ويزيد في أبوابه مستعيناً بما في خزائنه العظيمة من الظواهر والمكاتيب والمعاهدات والكنائش، جاعلاً إياها المحور الذي تدور عليه أبواب الكتاب وفصوله حتى توفر كما يقول "على كثير من الأجزاء، وأحاط بما لم يحط به مؤلف قديم أو حديث".

ويحدثنا المؤلف في مقدمة الكتاب عن الأسباب التي حفزته إلى اختيار موضوعه فيقول :

"اخترته لغربته وجدته وطرافته، وجدارته بالبحث وأهميته، وهو موضوع مع شدة الحاجة إليه قد أغفله المؤرخون والكتاب، فما رفعوا عنه القناع ولا وضعوا النقاب، ولا كشفوا عن حقيقته الحجاب، حتى توهم الأغمار والأغرار أنه لم تكن لدولة المغرب نظم مقررة، ولا قواعد محررة، ولا طرق في الحكم والإدارة معروفة، ولا مناهج في تدبير الملك مألوفة".

وقد سلك المؤلف في ترتيب الكتاب طرقاً، ولم يراع وحدة الموضوع ولا مابين المواضيع من تناسب وتجانس، كما أنه لم يفرق بين نظم الدولة

العامّة، وعادات القصر الخاصّة، فبينما تجده يتحدث عن نظام البيعة وأشغال السلطان أيام الأسبوع إذا بك تجده يتحدث عن كيفية صنع الخل وتقطير الزهر والورد بدار المخزن، وبينما تجده يتكلم عن العادات المتبعة في الجنائز والتوارث داخل القصر، إذا به يتكلم عن النظام المالي والحربي، ليعود بعد ذلك فيتكلم عن العادات المألوفة في العقيقة والختان . ولا ريب أن الذي دعاه إلى هذه الفوضى الموضوعية هو عدم حصره أولاً للمواضيع التي يريد الكتابة فيها، لأنه كان يحزر الفصول حسب وقوع الوثائق المستند عليها بين يديه، سواء كانت مما يهم الدولة أو يعني السلاطين، ثم يتبع الفصل بالفصل حسب تحريره، غير أنه بما قد يأتي بعده من الفصول التي لها ارتباط موضوعي، وليس لها به اتصال في الترتيب .

ولو امتد العمر بابن زيدان لظل الكتاب يتسع - كما وكيفاً - إلى ما لا نهاية له، فقد بقي يواصل العناية به إلى آخر رفق من حياته، مع أنه أتم تحرير النسخة الأولى منه وتنقيحها بعد عشاء يوم الثلاثاء 15 ذي القعدة عام 1353هـ (19 يراير 1935م) .

أما أسلوب (العز والصولة) فأسلوب عليه مسحة من القديم وإن كنا لا نعدم بين ثناياه فصولاً عليها جدة الحديث ونصاعته، ويكثر فيه في كلتا الحالتين استعمال الألفاظ والتراكيب العامية المغربية . والطريقة المتبعة لدى المؤلف هي أنه يجعل من الوثيقة أو الوثائق التاريخية منوالاً ينسج عليه : يعنونها أولاً، ثم يصدرها بمقدمة تطول في بعضها وتقصّر في بعضها الآخر، ثم يوردها استشهداً واستدللاً، غير مهتم بما قد يكون في بعضها من الطول والتكرار الذي يمله المطالع قطعاً، سيما في القضايا التافهة.

ومن خلال كل فصل نحس بغيرة الرجل الدينية، وعصبية لدولته، وعواطفه المتأججة بالمحبة لوطنه، وتوجيهه للشباب المغربي وتحذيره إياه من العبودية الروحية والفكرية التي كان الاستعماريون يومئذ جادين في نصب حبالاتها له .

(12) عبد الوهاب بن منصور :

مؤرخ المملكة، مدير الوثائق الملكية، عضو ديوان جلالة الملك، محافظ ضريح محمد الخامس .

ولد عبد الوهاب بن منصور بفاس سنة 1920م، حيث تلقى دراسته بمدارسها الحرة، وبجامعة القرويين التي حصل بها على شهادة العالمية سنة 1961م في العلوم الأدبية والقانونية .

شارك منذ صغره في الحركة الوطنية، واعتقل وسجن أثناء المظاهرات الوطنية، سنة 1936م، وعمره ست عشرة سنة . ويعتبر أصغر سجين سياسي حكم عليه بالمغرب .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، غادر المغرب إلى الجزائر، ومنها إلى فرنسا فبلجيكا، وعمل مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فعين مديرا في مدارسها، وكتب في جرائدها .

بعد عودة جلالة المغفور له محمد الخامس من المنفى، عاد إلى المغرب، فعمل أستاذا بمدارس محمد الخامس بالرباط، ومدرسة النهضة بسلا -وهما من المدارس التي أقامها الوطنيون إبان عهد الحماية الفرنسية، وساهموا في تشييدها بأموالهم، بتوجيه من الملك المرحوم محمد الخامس - ثم عين نائبا لمدير الإذاعة والتلفزة .

وفي سنة 1957م استدعاه الملك المغفور له محمد الخامس ليعمل كعضو في ديوانه الملكي، فكان رئيسا لقسمه السياسي، فضلا عن أعمال إنشائية ومكتباتية كان يشرف عليها في الخزائن الملكية .

وبعد تولية جلالة الملك الحسن الثاني، عينه مؤرخا للمملكة، ثم رئيسا للديوان الملكي، ثم مديرا للشؤون السياسية بوزارة الداخلية سنة 1963م، فمديرا عاما للإذاعة والتلفزيون سنة 1965م قبل أن يعيده إلى الديوان الملكي سنة 1967م ليشغل فيه منصب مكلف بمهمة، بالإضافة إلى مهمتي: محافظ الضريح ومؤرخ المملكة، وفي سنة 1975م أضيفت إلى هذه المهام مسؤولية مديرية الوثائق الملكية.

-يعتبر عضوا مؤسسا لأكاديمية المملكة المغربية بمرسوم يخص الراتب والتعويضات المادية .

من مؤلفاته المطبوعة :

- البدائع - 1938 .
- تعقيبات ... حول السياسة الاستعمارية بشمال إفريقيا -1938م.
- المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس -1365هـ .
- أبو القاسم القالي - 1370هـ .
- الأردن : ملك وشعب -1960م .
- قبائل المغرب -1968م .
- الحسن الثاني - حياته وجهاده ومنجزاته -1369هـ .
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في باريس - 1970م .
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في فاس وتازة ووجدة وتلمسان -1976م.
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في نواديبو -1970م .
- كشف أسماء الأسر المغربية - 1972م (طبعة ثانية سنة 1977م) .
- حفريات صحراوية -1976م.
- الوثائق - 1976م (صدر منها 8 أجزاء) .
- عرائس التهاني - 1977م .
- أعلام المغرب العربي - 1979م (صدر منه 5 أجزاء) .
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في نيروبي وجدة ومكة -1981م.
- الحسبة - 1982 .
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في حاضرة الفاتيكان - 1983م.
- ملف الصحراء المغربية أمام منظمة الوحدة الإفريقية - 1984م.
- ملف الصحراء المغربية أمام منظمة الأمم المتحدة -1984م.
- مشكلة الحماية القنصلية - 1985م.
- الرحلة الملكية الحسنية إلى المملكة المتحدة البريطانية - 1987م.
- التحف السنوية بالرحلة الملكية الحسنية، إلى العاصمة الجزائرية - 1988م.

من الكتب المطبوعة بتحقيقه :

- تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات - 1960م.
- العز والصولة في معالم نظم الدولة - 1961م.
- عروسة المسائل عما لبني وطاس من الفضائل - 1963م.
- روضة النسرين في تاريخ بني مرين (لإسماعيل بن الأحمر) - 1963م.
- روضة التعريف بمفاخر المولى إسماعيل بن الشريف (تأليف محمد اليفراني) - 1963م .
- نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك (لعبد العزيز الملزوزي) - 1963م.
- التحفة السنية للحضرة الحسنية، للمملكة الاصبنيولية (لمحمد الكردودي) - 1963م.
- إلى ولدي المامون (للسلطان مولاي اسماعيل) - 1967م.
- جنى زهرة الآس، في بناء مدينة فاس (لعلي الجزنائي) - 1967م.
- الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون (تأليف محمد بنغازي) - 1964م.
- أخبار المهدي بن تومرت (لأبي بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق) - 1971م.
- المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب (لأبي بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق) - 1971م.
- مثلى الطريقة في ذم الوثيقة (لمحمد بن الخطيب السلماي = لسان الدين) - 1972م.
- بيوتات فاس الكبرى (لإسماعيل بن الأحمر) - 1972م.
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (تأليف علي بن أبي زرع) - 1973م.
- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (تأليف علي بن أبي زرع) - 1973م.

- الإعلام، بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام (تأليف العباس بن إبراهيم السملالي) - 1974م (عشرة أجزاء) .
- اختصار الأخبار عما كان بسبته من سَنِيّ الآثار (تأليف أبي القاسم الأنصاري) - 1983م.
- بلغة الأمنية ومقتصد اللبيب عن كان بسبته في عهد الدولة الإدريسية من مدرس وأستاذ وطبيب (لمؤلف مجهول) - 1984م) .
- ويشرف السيد عبد الوهاب بن منصور منذ سنة 1956م على إصدار حوليات (انبعاث أمة) التي بلغ عدد ما صدر منها 38 سَفْراً كبيراً .

استهلال تاريخي

بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على الهادي الأمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد كان المغرب عبر العصور - وبحكم موقعه الجغرافي - ممرا دوليا، وملتقى الحضارات الإنسانية. مما طبع شخصيته بطابع خاص يتسم بالتقدم والتطور السريع.

ورغم حرص البربر (1) على حريتهم واستقلالهم، المهددين دائما بالغزاة الطامعين - بحكم موقعهم الإستراتيجي المذكور - فقد دخلوا في الإسلام عن طواعية واختيار، وسلموا عنان زمامهم للعرب المسلمين عموما، ولآل البيت النبوي الشريف خصوصا. وهي معادلة تحير الباحثين الأجانب، ويقفون أمامها عاجزين عن حل رموزها، وبالتالي حاقدين حاسدين، ساخطين سخطا يطفو في كتاباتهم المغرضة، ولاسيما كتابات المستشرقين، وخاصة الإسرائيليين منهم (2)

والحقيقة التي يجهلونها، بل يتجاهلونها هي أن العرب الفاتحين عاملوا البربر بتسامح خاص، مراعاة لأبائهم وتمسكهم بحريتهم واعتزازهم باستقلالهم، فاعتبروا أن بلادهم فتحت صلحا لا عنوة (3)، كما اكتفوا ببسط سيادتهم الرمزية على كافة الشمال الإفريقي، وبالتالي فقد احتفظ البربر بأراضيهم، وتم إعفاؤهم من الضرائب المختلفة، ومعاملتهم باحترام واعتزاز، لذلك دخلوا في دين الله أفواجا، وما لبثوا أن تبناوا الدعوة الإسلامية وانطلقوا لنشرها في أصقاع أوربا شمالا، وأرجاء إفريقيا جنوبا.

كما اعتصموا باللغة العربية - باعتبارها لغة القرآن الكريم - والثقافة والحضارة الإسلامية التي اندمجوا في زمرتها بعصامية والتزام....

وهذه السيادة العربية على المغرب هي التي فتحت أبوابه في وجه المعارضين للسلطة بالشرق، فتوافدوا إليه زرافات ووحدانا، كمهجر وملجأ أمين.

(1) سكان المغرب الأصليون.

(2) كماركوليوت، وبروكلمان، والكونت هافري، وكاسترو ورامباور...

(3) « الأدب المغربي المعاصر»، لعبد الحميد يونس، وفتحي حسن المصري، ص : 9، ط : الأولى، مكتبة الدراسات الأدبية، رقم 84.

وكان على رأس هؤلاء الوافدين إليه المولى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب - أخو محمد النفس الزكية - الذي أتى إلى المغرب الأقصى، ونزل بوليلي - مرورا بطنجة- وذلك سنة 172هـ.

ولما علمت القبائل البربرية بنسبه الشريف، ومدى قربه إلى جده المصطفى الأمين أجمعت على مبايعته، والتفاني في خدمة دولته.

ولما قتلته العباسيون غدرا، بايعت ولده إدريس الثاني سنة 188هـ، وصارت في ركابه وهو يوحد ويعرب المغرب، ويوطد دعائم الاسلام في ربوعه، ويؤسس عاصمته مدينة فاس، التي صارت تنافس أشهر عواصم المشرق والأندلس، كبغداد ودمشق والقاهرة وإشبيلية وغيرها.

وظل المغرب الأقصى في عهد الأدارسة يتراوح بين مد وجزر في مراوغة الأمويين في الأندلس والعبيديين في إفريقية، حتى قامت الدولة المرابطية سنة 427-541هـ التي قادت الجهاد في سبيل الدعوة الإسلامية والوحدة الوطنية. ولم يلبث يوسف بن تاشفين أن أسس عاصمته مراكش، وشمل حكمه المغرب الأوسط والأندلس التي عمل على توطيد أركان الإسلام في ربوعها أربعة قرون أخرى، وبالتالي عمل على ترسيخ دعائم المذهب المالكي ونشره بالمغرب على أوسع نطاق (4)، غورا ونجدا.

وسرعان ما قامت على أنقاضها الدولة الموحدية على أساس ديني (5) عقائدي، بقيادة محمد المهدي بن تومرت، الذي انتهز فرصة تدهور قوة الدولة المرابطية التي أنهكتها محاربة النصارى(6).

وصارت على عهد خليفته عبد المومن بن علي وأولاده من أعظم الدول التي حكمت المغرب وأقواها على الإطلاق، إذ امتد نفوذها إلى تخوم مصر، مما أحدث توازنات سياسية جديدة على الصعيدين : العربي والإسلامي، وبالتالي على الصعيد العالمي -إذ ذاك- حتى كان الصليبيون يقدرونها حق قدرها، ويحسبون لوجودها ألف حساب، وحتى استعان صلاح الدين

(4) «الأدب المغربي المعاصر»، لعبد الحميد يونس، وفتحي حسن المصري، ص : 10، ط:1، والترجمة الكبرى للزياني ص: 60.

(5) الترجمة الكبرى للزياني، ص : 69-72 حيث رأى ابن خلدون في هذه الدولة، و ص : 74-81، حيث اعترض عليه الزياني في ذلك.

(6) المصدر الأول، ص : 10.

الأيوبي بأسطولها في حروبه الطاحنة مع الصليبيين، وحتى أصبحت الدول الغربية القوية قاطبة تخطب ودها (7).

لكن تشدد هذه الدولة في مبادئها، وكذا تناقضاتها المذهبية، عجلت بانهيارها رغم قوتها وامتداد نفوذها واتساع حضارتها ذات الطابع الأندلسي من حيث : الفكر، والثقافة والعمران،....

وكانت الدولة الموحدية بتناقضاتها تحمل عوامل انهيارها وانقراضها من الداخل. فلم تلبث أن خلفتها -على حكم المغرب- الدولة المرينية التي قامت بزعامة أبناء قبيلة زناتة، الذين حافظوا على استقلالهم عن الموحيدين، واكتفوا بالمساهمة إلى جانبهم في محاربة النصارى بالأندلس. ومن ثم تفتنوا إلى نقط ضعفهم، وتعرفوا على عوراتهم، فثاروا عليهم بفاس وانتزعوا منهم مقاليد الحكم، واستولوا على حكم البلاد كدولة جديدة (8).

وقد تفانى المرينيون في العمل على توحيد البلاد وواظبوا على الجهاد في الأندلس، وأسس أبو يعقوب المريني فاس الجديد واتخذها عاصمة لدولته. لكن الظروف الدولية والإقليمية لم تكن تعمل لصالحهم، مما عجل بزوال دولتهم وانهارها.

فقد كانت دولة قشتالة النصرانية بالأندلس في عنفوان شبابها، كما أن دولتهم كانت تفتقر إلى الأساس الديني الذي كان يشكل العمود الفقري للدولة الإسلامية - آنئذ - والذي كان من شأنه استقطاب الأنصار والأتباع، ومؤازرة الأمة لهم والتفافها حولهم.

وهكذا دالت دولتهم وزالت، رغم إشعاعها الديني والثقافي والحضاري والعمراني....

فقد تقلص ظلها وتفرقت شذر مدر، فاستقلت عنها الأقاليم النائية بتتابع، فأصبحت الدولة منقسمة إلى طوائف متصارعة، تتنازع البقاء والسلطة إلى أن قضى عليها نهائيا محمد الشيخ الوطاسي، الذي بويع سنة 869هـ وأسس الدولة الوطاسية سنة 869-957هـ.

(7) المصدر السابق ص : 11.

(8) الأدب المغربي المعاصر فتحي حسن المصري ص: 12 الترجمة الكبرى للزياني ص : 104.

لكنه عجز عن استيعاب جميع مناطق نفوذ الدولة المرينية، فاكتفى ببسط سيادته على القسم الشمالي من البلاد. (9)

أما القسم الجنوبي للبلاد فقامت به الدولة السعدية سنة 916 هـ - 1065 هـ، بزعامة أحمد الأعرج السعدي الذي بويع بمراكش سنة 922، (10) والذي توسل بالجهاد ضد النصارى الإسبان والبرتغال، معتمداً على تأييد الزاوية الجزولية (11).

ذلك أن المغاربة تفتنوا لضعف الحكومة القائمة هنا وهناك فتعلقوا بأرباب الزوايا، والطرق الصوفية التي تصدت للتحالف الصليبي بين الإسبان والبرتغاليين الذي كان يستهدف الإستيلاء على الثغور والقلع المغربية، منتهزا ضعف السلطة المركزية بالمغرب.

لكن أرباب الزوايا لم يلبثوا بدورهم أن تصارعوا وتقاتلوا فيما بينهم على السلطة والحكم (12).

وهكذا انهارت الدولة السعدية تحت وطأة حدة الصراع على الحكم بين أبناء المنصور الذهبي السعدي، الذين تحاربوا فيما بينهم، مستعينين تارة بالأجانب وطورا برؤساء القبائل الطامعين في السلطة، المتربصين بهم الدوائر للانقضاض على الحكم، وخاصة بعد ثورة محمد الشيخ المامون الولد البكر لأحمد المنصور الذهبي، وولي عهده، وخليفته بفاس (13) - الذي سجنه والده. لكنه لم يبت في شأن ولاية العهد (14) قبل موته سنة 1012 هـ - 1603 م، فتقاسم البلاد رؤساء النواحي الذين استبدوا بالسلطة، فعم الاضطراب، وسادت الفوضى، لاسيما لما تجرأ ولده محمد الشيخ المامون المذكور على تسليم مدينة العرائش للإسبان (15)، مقابل مساعدته على ردع

(9) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 150، والأدب المغربي المعاصر، ص: 12، ط: 1.

(10) المغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج: 3، ص: 17.

(11) المصدر الأول، ص: 12.

(12) «الزاوية الدلائية»، لمحمد حجي، ص: 20.

(13) المصدر السابق، ص: 19.

(14) سنة 1019 هـ - 1610 م.

(15) الزاوية الدلائية، لمحمد حجي، ص: 20 - 21.

إخوته المنافسين له على الملك. فثار ضده الشعب كله، وتعقبه حتى قتل بمدينة تطوان، سنة 1022هـ (16).

وما إن انتثر عقد الدولة السعدية، وذهب ريحها في مطلع القرن الحادي عشر الهجري، وأواسط القرن السابع عشر الميلادي، حتى تجددت أطماع الدول الأوربية المجاورة في السواحل المغربية، لانقسام البلاد بين رؤساء النواحي المستبدين بالسلطة، والذين أصبحوا يشكلون دويلات، وإمارات مستقلة عن الدولة السعدية، بمثابة ملوك الطوائف بالأندلس.

وطالت هذه الوضعية زهاء أربعين سنة، امتدت من موت السلطان زيدان السعدي، سنة 1036هـ، إلى قيام الدولة العلوية الشريفة سنة 1041هـ (17).

وأهم وأشهر هؤلاء الرؤساء والثوار المستبدين بالحكم :

1- أهل الدلاء : (1061-1079) (18)

2- المجاهد العياشي (19)

3- أبو زكرياء الحاحي (20)

4- أبو حسون السملالي (21)

5- ابن أبي محلي (22)

(16) «البذور الضاوية»، لسليمان الحوات، ورقة: 5/6، والزواوية الدلائية لمحمد حجي ص: 28.

(17) تاريخ بيعة المولى الشريف.

(18) البذور الضاوية، لسليمان الحوات، ورقة : 5 أو الزواوية الدلائية لمحمد حجي، ص: 28-41.

(19) الزواوية الدلائية، لمحمد حجي، ص: 154، ودعوة الحق، ع: 2، س: 3، 1379هـ-1959م، ص: 27.

وهو محمد بن أحمد المالكي الزياني العياشي من العرب الهلالية بالمغرب.

(20) يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي. الزواوية الدلائية لمحمد حجي، ص: 21 و

146-148، ودعوة الحق المذكورة، و ص.

(21) إيليج قديما وحديثا، للمختار السوسي، ص: 103-106، والاستقصا، ج: 6، ص: 178، و ج : 7.

ص: 41، وزهر الأكم، ص: 8-9.

(22) محاضرات اليوسي، ص: 19، والزواوية الدلائية، لمحمد حجي، ص: 143.

قيام الدولة العلوية :

كان من نتائج تصارع الإمارات المستبدة بالأقاليم أن تعطلت التجارة الداخلية والخارجية، لقيام الحواجز بين هذه الإمارات، وللضاربة بين الأجانب، وتلاعبهم بين الأمراء، ولتفشي التهريب، وخاصة للأسلحة والذهب، والنحاس والذخيرة، مما أدى إلى تدهور الاقتصاد المغربي بصفة عامة. وتطلع المغرب إلى منقذ من هذه الأخطار السياسية والاقتصادية وغيرها المحدقة به، منقذ يجمع الكلمة ويوحد الصفوف، ويتغلب على الصعاب، فاتجهت الأنظار إلى المولى الشريف بن علي.

المولى الشريف بن علي العلوي (23)

من أبرز حفدة المولى علي الشريف بن علي العلوي، جد الأشراف العلويين بسجلماسة، الذي تظن لاتجاه الأنظار نحو أسرته (24) الشريفة، فاتخذ المبادرة، وبايعته سجلماسة سنة 1041هـ، وضربت عليه الطبول لاشتهاره - هو خاصة، وأسرته عامة - بالفضيلة والدين، والجهاد في سبيل الله، فقد كان وجيها في سجلماسة، وفي بلاد المغرب كافة، مقصودا في الملمات والمعضلات (25).

وما إن بويع المولى الشريف بن علي، حتى ناصبه العداء جميع الثوار المتطلعين للملك، كبني الزبير أهل تابوعصامت، فاستنصر عليهم بأبي حسون السملالي، واستنجدوا بالذلائيين سنة 1043هـ، الذين حرضوا أبا حسون السملالي على المولى الشريف، فلم يلبث أن تنكر له، وسجنه بقلعة إيليج بسوس، فبايعت سجلماسة ولده المولى محمد الأول (26)، الذي افتدى

(23) الروضة السليمانية، للزياني، ورقة: 48، ونشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 88، والزواوية الدلائية، لمحمد حجي، ص: 154-161 ط: 2، ولد سنة 977هـ.

(24) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 24، كان يشيع تنبؤ الإمام محمد بن محمد بن عبد الله بن علي ابن الطاهر الحسني بأن الملك سيكون في أبنائه ويعمل على تحقيقها، كما كان ولده محمد الأول يستدل بالجفر على ذلك وراج كل ذلك في أيامهما معا.

(25) نشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 144.

(26) الاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 27 و12، ودعوة الحق، ع: 2 و3، سنة: 2، 1399هـ-1979م، ص: 6، معارك وانتصارات بقيادة العرش العلوي المجيد، لأحمد رمزي، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة: 52، والحلل البهية، للمشرقي، ص: 59.

أباه بمبلغ كبير، سنة 1051هـ، بتدخل من الدلائيين الذين ذكروا أبا حسون السملالي بنسب المولى الشريف وقرابته من رسول الله (ص)، فرق له، وحسن ظروف سجنه أولاً، فجعله في شبه إقامة إجبارية محروسة بسوس، وأعطاه جارية (27) هي أم ولديه : المولى إسماعيل، وأخيه المهدي.

وبعد تجديد البيعة للمولى محمد بن الشريف سنة 1051هـ، في سجلماسة، أكلت الغيرة قلب محمد الحاج الدلائي، فزحف على تافيلالت بجيش جرار من البربر، سنة 1056هـ-1646م، فالتقى الجمعان في وقعة القاعة (28)، حيث انتصر الدلائيون واستباحوا سجلماسة ثلاثة أيام، ثم صالحوا المولى محمد بن الشريف على اقتسام مناطق النفوذ (29)، بحيث لم يتركوا للمولى محمد بن الشريف سوى الأقاليم الصحراوية، ما دون جبل العياشي، واحتفظوا فيها بخمس مناطق استراتيجية لهم، وبها مصالحهم الحيوية.

لكن ما إن انصرف محمد الحاج الدلائي من الصحراء حتى استعاد المولى محمد بن الشريف تلك المراكز (30)، فانتقض الصلح بينهما، مما انتهى بالقضاء على الزاوية الدلائية أيام المولى الرشيد، بعد معركة بطن الرمان -كما سيأتي-.

أصل الدولة العلوية الشريفة :

تنتسب الأسرة العلوية الشريفة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وشرفها لانزاع في صراحته (31)، ولاخلاف في صحته عند جميع المغاربة، يقول الشيخ أبو علي اليوسي : «إن شرفها مقطوع به، فهو بصحته كالشمس

(27) تاريخ الضعيف الرباطي أو تاريخ الدولة السعيدة ط:1، 1406هـ-1986م.

(28) الزاوية الدلائية لمحمد حجي، ص: 172.

(29) البذور الضاوية، لسليمان الحوات، ص:239، والاستقصا، للناصري، ج: 7 ص:17، والزاوية الدلائية لمحمد حجي، ص: 159.

(30) واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبي حمو الزياتي، م.خ.ع بالرباط ودعوة الحق، ع: 258، ص: 19-20، س: 1406هـ-1986م، ملامح من شخصية محمد الأول، للدكتور محمد ابن شريفة.

(31) كتاب الشيخ النسابة الشريف أبي عبد الله الأزورقاني.

الضاحية». وقال أحمد العلوي في الأنوار السنوية : « وعمود نسبه لم يزل محفوظا عدده عند نسبته، موصولا نسبه فيما بينهم (32)»، ويقول الشيخ النسابة الشريف أبو عبد الله الأزورقاني ذاكرا نسبهم في كتابه (33): «ومن نسب السيد محمد النفس الزكية بينبوع النخل: السيد محمد، والسيد الحسن، ابنا عبد الله بن محمد بن أبي عرفة، وكان أصل سلفه بالينبوع هو وأجداده، لأن جدهم مولانا علي بن أبي طالب، كان النبي (ص) أقطعه إياه فبقيت فيه سلالته. وأول من دخل بلاد الغرب من أجداده الحسن بن قاسم.»

الحسن بن قاسم المعروف بالداخل :

ويمكن إرجاع أصل هذه الدولة بالمغرب إلى الحسن الداخل (34) ابن قاسم (35)، الذي جاء إلى المغرب أيام يعقوب بن عبد الحق المريني، سنة 664 هـ - 1301 م، في الستين من عمره، فأقبل عليه أهل سجلماسة حتى تنازعوا مدفنه بعد موته، ثم مسحوا سجلماسة، ودفنوه وسطها.

وكان قدومه إلى المغرب (36) بدعوة من أهله تبركا به، ورغبة منهم في تكوين دولة شريفة، تجتمع عليها كلمة المغاربة، وبتطوع منه لأجل الإصلاح والدعوة إلى الله، والذود عن حرمان الإسلام (37)، وكذا للعمل على

(32) نشر المثاني للقادري، ج: 1، ص: 30، والترجمان المغرب للزياني ص: 4-5، ط: هوداس.

(33) ونجد نحو هذا عن نسبهم في: التقاط الدرر للقادري، ص: 87-88 وفي فهرس الفهارس، ج: 1 ص: 296-300، والزاوية الدلائية، لمحمد حجي، ص: 78 والدر السني، لعبد السلام لقادري، ص: 51-52 ط: الحجرية .

(34) نشر المثاني للقادري، ج: 1، ص: 30.

(35) نسبه بنزّه الحادي للإفراني، ص: 287-293 ونظمه محمد بن الطيب القادري في نشر المثاني، والقصيدة لجد المؤلف وهي في ج: 1، ص: 30، وفي البستان الظريف للزياني ص: 3، والطل البهية للمشرقي، ص: 58-59 والروضة السليمانية، للزياني، ص: 48 والحياة الأدبية لمحمد الأخضر، ص: 66.

(36) قدم مع حجاج سجلماسة، بطلب من شيخ الركب الفيلاي، أبو إبراهيم العمري النسب، وجاءه به أولاد المتراري - الذين صاهروه - وأولاد البشير، وأولاد ابن عقلة.

(37) نزّه الحادي، للإفراني، ص: 58-59 و 191.

استرجاع حقوق آل البيت في الخلافة، ورد اعتبارهم بتأسيس دولتهم (38)، وبالتالي لتطهير البلاد من الغزاة النصارى، ومن المغامرين.... وكان رجلا صالحا ناسكا، مشاركا في العلوم، وخاصة في علم البيان(39). وقد عمل هو وأولاده وأحفاده إلى جانب المغاربة على امتداد نحو أربعة قرون حتى حققوا هذه الرغبة الملحة، والأهداف المشتركة لصالح البلاد والعباد.

والحقيقة التي لا غبار عليها أن الأسرة العلوية الشريفة قامت بدور تاريخي بناء هادف، قبل أن تصل إلى مقاليد الحكم في المغرب، وتتولى فيه أمر الملك وحق الخلافة، بما يناهز ثلاثة قرون.

لقد طارت شهرة هذه الأسرة في الآفاق بفضل العلماء والفقهاء والمتقنين من أبنائها الذين اشتغلوا بالعلم والتعليم منذ العصر المريني.

فقد كان جدهم الحسن الداخل مشاركا في العلوم، وخاصة علم البيان -كما مربنا-، بل هناك رواية بأنه هو الذي أدخله إلى المغرب (40).

أما المولى علي الشريف فقد اشتهر علمه، وظهر فضله،.... واكتفى بالعلم عن الملك قائلا: «يكفيني قصب العلم» (41).

وكانت لولده يوسف خزائن عديدة للكتب، كما كان حفيده الحسن بن يوسف يحفظ المدونة، وصحيح البخاري، إلى تضلعه في جل العلوم (42).

وفي العصر السعودي اشتهر عبد الواحد بن أحمد الشريف، قاضي مراكش ونقيبها، الذي كان من كتاب القصر، وحاشية المنصور، وله عدة مؤلفات وصل منها: حواشي على المكودي والمرادي، وتوفي سنة 1009هـ (43).

(38) المغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج: 3، ص: 17.

(39) هناك رواية بأنه أول من أدخل علم البيان إلى المغرب.

(40) الأنوار الحسنية، لأحمد العلوي، ص: 12.

(41) البستان الظريف، للزياني، ص: 21، والاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 8-9، والأنوار الحسنية، للعلوي، ص: 28-29.

(42) المصدر السابق ص: 21.

(43) الأنوار الحسنية، لأحمد العلوي، ص: 12.

كما اشتهر الإمام العلامة أبو محمد عبد الله بن طاهر، الذي يعتبر مدرسة متحركة، تخرج منها تلاميذ أصبحوا روادا للحركة العلمية بالمغرب، وعلى رأسهم محمد بن عبد الهادي، وأبو بكر النطفي، وأبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، وأحمد بن علي البوسعيدي، ومحمد بن سعيد السوسي -صاحب المقنع- والعربي الفاسي، صاحب مرآة المحاسن (44).

أما في عهد الدولة العلوية فإن نبغاء هذه الأسرة لا يحصون عددا في مختلف المجالات العلمية (45).

كما كانت هذه الأسرة بعد توليها الملك تحرص على تدريب أبنائها على فنون القتال، فترسلهم صغارا إلى ميادين الحروب والمواقع، للتدريب العملي التطبيقي (46).

المولى علي الشريف :

كان المولى علي الشريف رجلا معروفا بالصلاح والتقوى، مجاب الدعوة، كثير الأوقاف والصدقات، قسم أوقاته بين الحج والجهاد بإفريقيا والأندلس، حيث رغب الأندلسيون في مبايعته، فأبى زهدا وورعا (47). قال الزياتي في ذلك: «... وممن عظم العلم، واكتفى به عن الملك، وزهد فيه، مولاي علي الشريف جد الأشراف العلويين، فإنه كان يتوجه للغزو بجزيرة الأندلس المرة بعد المرة، واشتهر علمه، وظهر فضله، وراوده أهل الأندلس على ملكها، فزهد فيه وقال : «يكفيني قصب العلم» (48).

وقد ضرب المولى علي الشريف (49) أروع الأمثال في التضحية ونكران الذات، في سبيل تحقيق تلك الأهداف المشتركة للمغاربة والأسرة العلوية الشريفة، التي ظلت على امتداد ثلاثة قرون ونصف القرن، القاسم المشترك الذي جعلهما بنيانا مرصوصا يشد بعضه بعضا، وذلك بتطوعه

(44) المصدر السابق، ص: 12-13.

(45) المصدر السابق، ص: 13، والدرالسنّي، للقادري.

(46) البستان الظريف، للزياتي، م.خ، م بالرباط، رقم 142.

(47) نزهة الحادي، للإفراني، ص: 294-295.

(48) البستان الظريف، للزياتي، ص: 21.

(49) دفين سجلماسة.

للجهاد، لإنقاذ الإسلام من مخالب الكنيسة الصليبية، بطلب من علماء المغرب والأندلس الذين راسلوه في الموضوع شعرا ونثرا (50).

ومن أولاد المولى علي الشريف السيد عبد الواحد، المكنى بأبي الغيث، وهو جد الأشراف البلغيثيين، كني بذلك لكثرة الغيث الذي نزل يوم ولادته، بعد جفاف شديد طويل (51).

وهكذا كانت رسالة الأسرة العلوية الشريفة بسجل ماساة - قبل بيعتها - روحية وتربوية صرفة، وكان حلولها بالمغرب يمنا وبركة، وخيرا عليها وعلى المغاربة دينا ودنيا.

كما أن قيام الدولة العلوية في فترة حاسمة من تاريخ المغرب، وهي فترة تفكك الدولة السعدية وانهارها - كما مر بنا - حيث مست الحاجة إلى قيام دولة بديلة، إذ كانت كل جهة تستقل بأمرها (52)، وأدى تصارع القوى المتواجدة والمتصارعة إلى الخراب والدمار، وكانت كلها ذات طابع ديني تتوسل بالدين، وتتخذ مطية للوصول إلى السلطة والملك (53).

ولقد واجهت هذه الدولة تحديات خطيرة في طور نشأتها، وهي أصعب الأطوار في حياة المغرب عبر تاريخه وعلى جميع المستويات والأصعدة.

فعلى الصعيد الداخلي، كان المغرب يعاني التمزق والانحلال، والتفرقة والانقسام، وتكالب المغرضين ذوي الأطماع السياسية، من الوصوليين والمغامرين، مما هدد الوحدة الوطنية، وبالتالي السيادة المغربية.

وعلى الصعيد الخارجي، وافق قيامها النهضة الأوربية الحديثة، وبالتالي، نشأة المطامع الاستعمارية والغارات الصليبية على السواحل المغربية، المتطلعة والمتحفزة لغزو الداخل، منتهزة عزلة المغرب الخارجية.

(50) الدرر البهية، للفضيلي، ص: 84-85، ونزهة الحادي للافراني، ص: 294-295، والاستقصاء، للناصر، ج: 7، ص: 9، والأنوار السنية، لأحمد العلوي، ص: 29، ودعوة الحق ع: 255، س: 1406هـ-1986م، ص: 86-87، ناديت بتحرير القدس، لعلي بن الشريف العلوي.

(51) الاستقصاء، ج: 7، ص: 11.

(52) البستان الظريف، للزياني، ص: 7.

(53) نزهة الحادي، م. خ. ع ورقة 163 - 171، ورسائل اليوسي ج: 1، ص: 32، ط: دار الثقافة بالدار البيضاء، والزاوية الدلائية لمحمد حجي.

كما تزامنت نشأة هذه الدولة ومبايعتها مع فترة المد الاستعماري في العالم العربي والإسلامي، شرقا وغربا، مما انعكس على المغاربة كعرب مسلمين سلبا، فهددهم في عقور دارهم، بالويل والثبور.

وكانت البنية الإقتصادية بالمغرب - إن ذاك - فلاحية محضة، والعلاقة التجارية للمغرب ضيقة ومحدودة للغاية. أما دينيا فكان الإسلام يستقطب المغاربة عن بكرة أبيهم : دينيا واجتماعيا وثقافيا وحضاريا....

لكن الدولة العلوية الشريفة استطاعت تخطي جميع هذه العقبات، والتغلب على كل الصعاب بكفاءة وأمانة، واقتدار، وفي مدة قياسية وجيزة، مع حفاظها على الذاتية المغربية والكيان السياسي والقومي والديني واللغوي.... وبالتالي على العقيدة الإسلامية للأمة.

فقد التزمت الدولة العلوية أن تعمل -بتطوع وعصامية- على تصحيح الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما تعهدت بتحقيق المطالب الوطنية الرئيسية، للرأي العام المغربي، وفي طليعتها الوحدة الوطنية وتحرير الشواطئ والموانئ، وتجديد البناء الاجتماعي للمغرب، في ظل الأمن والاستقرار المادي والمعنوي، وفي إطار عقد اجتماعي غير مكتوب.

وهكذا انطلقت هذه الدولة من سجل مأساة بالجنوب حيث تمت بيعتها(54)، وسارت على نهج قويم لتحقيق الأهداف الوطنية، كحركة سياسية، واستطاعت بذكاء توظيف تلك السلبيات لخدمة أهدافها، التي صهرتها بمهارة في بوتقة الأهداف الوطنية والقومية والإيديولوجية للأمة المغربية. بعد أن توصلت إلى الحكم، ودعمت حركتها السياسية والعسكرية بالشرف النبوي، والانتساب إلى آل البيت، وهي ميزة متجذرة في عقلية ووجدان المجتمع المغربي الأصيل برمته.

لقد كان انطلاق هذه الدولة على جميع الواجهات والجبهات والأصعدة: أفقيا وعموديا، فعملت أولا على توطيد دعائمها كدولة، بنشر الاستقرار والأمن الداخلي ورفع المظالم، -التي بلغت بالسملاليين إلى حد فرض

(54) التقاط الدرر، ص: 177- 178

الضرائب على الظل في الصيف، وعلى الشمس في الشتاء - فأخمدت الفتنة الداخلية، وقضت على الثورات لدعاة التفرقة، وحققت الوحدة الوطنية المنشودة.

كما عملت على تحرير الشواطئ والموانئ المغربية من الاحتلال الإنجليزي، وإسباني، والبرتغالي، إذ أعلنت التعبئة العامة للجهاد، وقاد ملوكها الحملات والجيوش بأنفسهم ضد الغزاة الطامعين المغيرين، حتى حررت الشواطئ المغربية وحققت استقلال البلاد ووحدتها، وأعدت لها هيبتها بالداخل والخارج. وفي هذا الصدد شملت حملات الوحدة الصحراء المغربية، التي وصلت جيوش حركتها المباركة إلى وادي نون بالصحراء الغربية(55) سنة 1665م، وإلى ماسة والساقية الحمراء وتيست سنة 1789م. ولما عاد الجيش سنة 1642م، ترك فيالق منه رهن إشارة رؤساء قبائلها، بعد أن عين السلطان الشيوخ، ورجال السلطة بجميع أنحاءها، على يد الباشوات بأقاليمها. وقد تجددت هذه العملية في عهد المولى محمد بن عبد الله والحسن الأول الذي أرسل أسطوله لرد التدخل الأجنبي في الصحراء، ولما حاولت إسبانيا احتلال الشواطئ الصحراوية في مطلع القرن السابع عشر فشلت عسكرياً، فاستأذن كارلوس الثالث سيدي محمد بن عبد الله في إقامة مراكز لإسبانيا بالصحراء، لكنه رفض بإصرار.

ولقد كرر المحاولة كارلوس الرابع مع المولى سليمان، فامتنع بقوة وإباء. وفي القرن التاسع عشر عادت إسبانيا لتطلب الإذن بمجرد حق الصيد في المياه المغربية الصحراوية فرفض المغرب. مما يؤكد أن المغرب لم يتنازل لإسبانيا عن صحرائه قط، كما تؤكد هذه الحقيقة معاهدة تطوان، سنة 1860م.

وقد تم احتلالها دون موافقة المغرب، لأن المولى عبد الحفيظ رفض مجرد التوقيع على إنشاء معمل للصيد والتصبير بها، فأحرى احتلالها.

(55) دعوة الحق، ع : 2 و 3، 1399هـ-1979م، ص : 126 - 128، «كفاح الملوك العلويين من أجل الوحدة»، لعثمان بن خضراء .

وقد حرر جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه طرفاية، كما حرر جلالة الحسن الثاني نصره الله سيدي إفني، ثم الصحراء الغربية، بما في ذلك الساقية الحمراء ووادي الذهب (56) بفضل المسيرة الخضراء المظفرة.

وقد جعل ملوك الدولة العلوية العرش المغربي رمزا للاستمرارية السياسية والحضارية، باعتبار وحدة السلطتين : الدينية والدنيوية في الإسلام الذي جعلوا منه نبراسا وهاجا يهتدون بهديه، ويأتون بدستوره : الكتاب والسنة، في السراء والضراء، في السر والعلانية، مما حقق النهضة العلمية والثقافية بمساعدة الطبقة المثقفة التي كانوا دائما روادها وطليعتها.

فقد واكب العلماء والفقهاء والشعراء والمفكرون حركتهم المباركة وساروا في ركابهم، حيث نظموا وخطبوا في المحافل العامة، والأندية الخاصة، منادين وداعين للجهاد، وأفتوا بأنه فرض عين على كل مسلم ومسلمة (57) كما أرخوا لهذه الانتفاضة الميمونة، فسجلوا أبرز أحداث هذه الفترة، مستلهمين المواقف والبطولات الخالدة لزعمائها الأفاضل، التي اعتبروها مثلاً أعلى ونموذجاً يحتذى.

وهكذا قامت الدولة العلوية على أساس ديني إسلامي وعلى مذهب أهل السنة والجماعة، فلم تكن لها عصبية قبلية ولا سياسية، مما طبع سياستها الداخلية والخارجية، وتجلت واضحة في تشريعاتها، وإدارتها وأحكامها... مع التزامها المطلق بالتوازن الدقيق بين السلطتين : الدينية والدنيوية.

ذلك أن قيام هذه الدولة في حد ذاته يعتبر رد فعل للتحديات السياسية والاقتصادية والحضارية للعالم المسيحي والأوروبي، استجابة لظروف تاريخية جعلت المغاربة يستشعرون قداسة وحيوية المحافظة على الكيان الديني والقومي والحضاري للمغرب ضد الخطر الصليبي الذي يتهدده، بل إن قيامها جاء تجسيدا للإرادة الشعبية للأمة المغربية، وبلورة لمشاعرها العميقة. وبالتالي فقد كان تطورا فكريا وسياسيا واجتماعيا وحضاريا،

(56) المؤرخ دولا ستايل.

(57) أهم كتاب ألف في هذا الصدد في هذه الفترة: كتاب : " فلك السعادة، الدائر بفضل الجهاد والشهادة " للفقير محمد المدعو عبد الهادي بن عبد الله بن علي بن طاهر الحسني.

انعكست آثاره على العقلية المغربية الأصيلة ليشكل بعثا وإحياء للأمجاد، وتحولا وتغييرا ماديا وروحيا نحو الأفضل لبناء أسس معادلة جديدة، تتجاوب مع الأهداف والمصالح العليا للدولة الممثلة للمجتمع وللرأي العام الوطني للأمة أحسن تمثيل، والتي استوعبت المتغيرات والتناقضات المختلفة بالداخل والخارج، واستطاعت أن تصوغها في نص ديني سياسي، وتيار اجتماعي، وتحول اقتصادي متوازيين متداخلين، مما تحول تلقائيا إلى عقد اجتماعي غير مكتوب بين الدولة والشعب، لتلبية الحاجة الملحة للوحدة وحماية تخوم البلاد، وطرد الغزاة، ولتحقيق الاستقرار الذي يستوعب التنمية العامة الشاملة والعدالة، والكفيل بتحقيقها، وكذا لتلبية الحاجة لاختيارات دولية، تتفق مع هذه الأهداف التي تشكلت منها. ذلك النص الذي صاغته الدولة، وكتبته مع الشعب المغربي بالعرق والدموع والدم لجميع الشرائح الاجتماعية المختلفة، فأصبح عقدا موثقا مقدسا ولا زال. وكما تمثله البيعات المختلفة المكتوبة للموك هذه الدولة.

وهكذا نجد أن مناهج الدولة العلوية، وبرنامجه وأسلوبها لم يكن خاليا من منهجية وعقلانية -بالنسبة للعصر طبعاً-، ولا أدل على ذلك من قدرتها على التحرر من عقدة التبعية للزوايا، وارتكازها على قوة، أساسها الاعتماد على النفس، والثقة في العمل الذاتي، والبطولة الشخصية الرائدة.

وقد امتازت الدولة العلوية على الدولة السعدية في تصورهما لمفهوم الدولة، حيث استطاعت الدولة (العلوية)، أن تتجه بسياستها نحو التصور الحديث للدولة، الذي يقتضي فصل السلط، وتحديد الاختصاصات والمسؤوليات، وتركيز مظاهر السيادة وتقديس رموزها، وجعل الدولة دائما في موقع الحكم بين سائر الفئات بعيدا عن العصبية القبلية والإقليمية الضيقة.

ذلك أن الزوايا التي مهدت الحكم للسعديين وصاغت لهم برنامجهم المحدد، وجعلت من محمد القائم السعدي أميرا للجهاد، ثم أميرا للمؤمنين، جعلت الدولة السعدية تحت وصايتها، التي سرعان ما أصبحت قيادا لها، ونقطة ضعف لم تلبث أن فجرت السلطة المركزية، فتناثرت هياكلها وتفرقت رموزها شذر مدر، وأيدي سبياً.

هذه الزوايا ناهضت قيام الدولة العلوية في بداية أمرها، وعملت على إضعافها وتقليص نفوذها. بدليل موقف أبي دميعة السلمالي من المولى الشريف، ثم موقف الدلائيين منه، ومن ولده المولى محمد الأول، عملاً بمبدأ تنازع البقاء، باعتبار أن العلويين أنفسهم انطلقوا من زاوية جدهم المولى علي الشريف (58).

وباختصار فإن معظم الزوايا وقفت موقفاً مناهضاً لقيام الدولة العلوية، نظراً للتطور في اتجاه الزوايا ومبادئها وأهدافها، وبالتالي في عقليتها وسلوكها، نتيجة لتجربتها مع الدولة السعدية التي ما إن وطدت دعائم سلطتها على أكتاف الزوايا حتى تضايق ملوكها من التزاماتهم إزاءها، وعملوا على التخلص من وصايتها وقيدها، وذلك مما جعل أصحاب الزوايا والطرقين يتوقون للسلطة، ويتطلعون إلى الحكم، ويتصارعون من أجلهما إبان الدولة السعدية، بعد أن كانوا يستتكفون من السياسة، ويلتزمون بالتصوف والانصراف عن الدنيا والاتجاه إلى الله والاكتفاء بنصيحة المسلمين، ومساعدتهم وقت الفتن والمحن بأعمال البر والاحسان المادية والمعنوية.

لذلك فقد فقدت الزوايا مكانتها لدى الخاصة والعامة في تلك الفترة، لانغماسها في الصراعات السياسية فيما بينها، فأصبحت عامل تفرقة، ولم يعد إنقاذ المغرب ممكناً على يدها، ولا مرجواً منها.

وهذا التحول للزوايا الذي عرفه القرن الحادي عشر الهجري والسابع عشر الميلادي تؤكدُه الأحداث ميدانياً، حيث نجد أن جل أمراء عهد الطوائف من أرباب الزوايا ورؤسائها. كما تؤكدُه المراسلات، سواء منها التي كانت بين أرباب الزوايا من جهة أو التي كانت بينهم وبين الملوك السعديين من جهة أخرى (59).

ولذلك كان رد فعل الملوك العلويين واضحاً ومباشراً، فعاملوا بدورهم أرباب الزوايا بالمثل، ووقفوا منهم موقف الحزم والحيطة. كلما لاحظوا خروج الزوايا وأصحابها عن مجال نشاطها المشروع المنحصر في نشر العلم، وفي المجال الديني والروحي والاجتماعي، كأعمال البر والإحسان... بل إنهم

(58) مجلة المناهل، ع: 36، س: 4، 1407-1987م ص: 141-143، المصادر الأجنبية إلى جانب الحوليات المغربية في تاريخ الدولة العلوية، مقالة لمحمد زنيير.
(59) الجيش العرمرم لأكنسوس.

جعلوا أصحاب الزوايا دائما بين خيارين لا ثالث لهما : موالة الدولة والتعاون معها على نشر الأمن، وتوحيد البلاد، وتحقيق برامجها في جميع مجالات الحياة، أو المعاملة بالمثل، والوقوف في وجههم بالحزم والصرامة. لكنهم استثنوا من ذلك الزاوية الناصرية بتمامكروت، لموقفها المعتدل الموالي للدولة، وهو موقف معقول ومقبول، حتى لا تشكل الزوايا دولة داخل الدولة، وبالتالي حتى لا يتطلع أصحابها لمنازعة الدولة السلطة والبقاء، لقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾. (60)

من كل ما تقدم يتضح لنا أن الأسرة العلوية قامت بحركة إصلاح وتجديد وتطوير للدولة المغربية (61) ومفهومها، وبالتالي بحركة إحياء وبعث لأمجاد ونظم الدولة الإسلامية الأصيلة، مما يتجلى واضحا في احتفاظ ملوكها بلقب أمير المؤمنين، وقيامهم بالتزامات ومسؤوليات هذا اللقب، باعتباره من التقاليد الإسلامية الراسخة (62).

فقد جعلوا أنظمة الدولة في إطار مبادئ الأخوة الإسلامية، وعلى أساس من العدالة الاجتماعية، توطيدا لدعائم الاستقلال والسيادة والاستقرار والوحدة، باعتبارهما التربة الخصبة، والأرضية الصلبة لكل إصلاح وإقلاع...

ذلك أن موقع المغرب الجغرافي، جعله عبر العصور قاعدة استراتيجية، وقلعة منيعة لمواجهة الأخطار المحدقة بالإسلام، وصد مطامع الغزاة والمغامرين... وهذا الموقع الاستراتيجي الهام، هو الذي جعله منطلقا للفتح الإسلامي نحو أوروبا، وإفريقيا السوداء، كما جعله الوريث الشرعي الوحيد للحضارة العربية الإسلامية الأندلسية، التي يطفح بمظاهرها وتراثها في سائر مجالات الحياة.

(60) سورة الأنبياء، الآية : 22.

(61) دعوة الحق، ع:4، س:12، 1383-1969، ص:153 مقالة لعبد اللطيف خالص.

(62) دعوة الحق، ع: 246، س: 1405-1985، ص:8-9، لقب أمير المؤمنين والدولة العلوية، للشيخ

المكي الناصري.

المولى محمد الأول - المولى الرشيد - المولى إسماعيل

(1050 - 1139هـ) - (1640 - 1727)

المولى محمد بن الشريف (63) (1050 - 1075) - (1640-1658):

بايعت سجالماسة الأسرة العلوية في شخص المولى محمد الأول مرتين(64)، وقام بأعباء الملك خير قيام، لكن التاريخ لم ينصفه، إذ غطت على أخبار أعماله الجليلة أحداث عهد الطوائف المفزعة، فمر عليه المؤرخون مر الكرام، بينما مآثره تتطلب مجلدا ضخما (65).

ذلك أنه يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العلوية الشريفة، ونستشف حنكته السياسية من رسائله، وخاصة من رسالته إلى محمد الحاج الدلائي(66).

كما أنه لم يعتمد على مؤهلاته المعنوية، ولم يغتر بإرهاصات الجفريات التي تنبأت له بذلك، بل اعتمد على بطولته وفروسيته الميدانية الذاتية، فهو كما وصفته رسالة أهل الدلاء «... مولانا محمد بن مولانا الشريف، عقاب أشهب، على قنة كل عقبة، لا يقنعه عد المال دون حسم الرقبة» (67).

وظل يعمل على توطيد دعائم دولته بالشمال الشرقي والصحراء الشرقية، لكن حدث تنافر بينه وبين أخيه المولى الرشيد، الذي كان في زمرة أتباعه وأنصاره، وساعات العلاقة بينهما بعد وفاة والدهما المولى الشريف، فهام المولى الرشيد على وجهه.

(63) البستان الظريف، للزياني، ص:21، ونشر المتاني، للقادري، ج:1، ص:377، ودعوة الحق، ع: 258، 1406-1986، ص: 19-20. ملامح من شخصية محمد الأول، للدكتور محمد بن شريفة.

(64) بويغ بعد اختطاف والده المولى الشريف من طرف أبي حسون السملالي بودميعة سنة 1647م، ثم لما افتدى أباه وتنازل له عن الملك، سنة 1050هـ، ثم جدت له البيعة بعد وفاة والده سنة 1069هـ. الحلل البهية للمشرقي، ص: 48-49.

(65) روضة التعريف للأفراني.

(66) مخطوط الرسائل، ودعوة الحق، ع: 258، 1406-1986، ص: 19-20، ملامح من شخصية محمد الأول، للدكتور محمد بن شريفة، ونص الرسالة بتاريخ الضعيف الرباطي، ص:15.

(67) نص الرسالة عند القادري في نشر المتاني، ونزهة الأفراني، ص: 302.

ولما قتل المولى الرشيد الطاغية ابن مشعل، واستولى على أمواله، طالبه أخوه المولى محمد بتلك الأموال، فرفض المولى الرشيد، وأعلن الثورة على أخيه، وجهز جيشا لمواجهة بتلك الأموال، فتحاربا، وكان النصر حليفا للمولى محمد الأول في المعركة الأولى، أما في المعركة الثانية فقتل المولى محمد الأول بأول رصاصة في بداية المعركة، سنة 1075هـ - 1664م، ودفن بدار ابن مشعل، ثم نقل إلى بني يزناسن بأمر من المولى الرشيد (68).

المولى الرشيد (69) : (1075 - 1082)هـ - (1664-1672)م :

استولى المولى الرشيد على جيوش أخيه المولى محمد، بعد مقتله سنة 1075هـ - 1664م، وفتح سجلماسة (70) - التي بايعت محمد الصغير بن محمد الأول - ودخلها سنة 1079هـ، وأصلح أمرها، وأعاد تنظيمها إداريا وعسكريا، وظل يتفقدتها دائما، ثم انطلق يفتح الأقاليم، وتأتيه وفودها مبايعة طائعة، طوعا أو كرها، ولم يلبث أن فتح فاس (71) سنة 1076هـ - 1666م، حيث تمت مبايعة، فأكرم العلماء والطلبة الذين أعجبوا بشخصيته العربية، وتشبثه بالتقاليد الإسلامية (72).

وهكذا حقق المولى الرشيد الوحدة الوطنية المنشودة (73) في وقت قياسي، لا يتعدى سبع سنوات، بعد التمزق الذي عانى منه المغرب أزيد من ستين سنة، على يد الزعامات الطائفية المتناحرة، التي قضى عليها تباعا

(68) المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات، ج: 3، ص: 23، والنزعة للأفراني، ص: 499، والجيش لأكنسوس، ص: 57، والاستقصاء للناصرى، ج: 7، ص: 30-31، وتاريخ الضعيف الرباطي: ص: 37-38 و41 والروضة السلিমانية للزياني، ص: 53.

(69) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 11-23، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة: 48 والروضة السلیمانية للزياني، ورقة: 53-56، ونشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 102، وتاريخ الحضارة المغربية، لابن عبد الله، ج: 2، ص: 63، وتاريخ الضعيف الرباطي، ص: 53. ولد بسجلماسة سنة 1040هـ - 1630م.

(70) نشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 102 و168، والمغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج: 3، ص: 24. سجلماسة كانت تسمى تافيلالت بداية الدولة العلوية.

(71) المغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج: 3، ص: 27.

(72) المصدر السابق، ج: 3، ص: 27.

(73) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 98-100.

كالدلائيين، والشبانين، والسملالين وغيرهم. وأجمعت الأمة عليه، وبويع البيعة العامة سنة 1077هـ (74).

فقد غزا الزاوية الدلائية، وقضى عليها سنة 1079هـ - 1668م. بعد انتصاره على أهلها في وقعة بطن الرمان (75). وحاول ولد المولى محمد الأول القيام مقام والده بسجلماسة، لكن الأمر لم يتم له أمام عمه الرشيد.

وظل موقفه حازما وصارما تجاه بعض الزوايا وشيوخ الطرق الصوفية الذين ناهضوا قيام الدولة العلوية، احترازا من تطلعهم للحكم، وتناولهم عليه. (76)

وما إن استتب له الأمر، ودانت له البلاد ووحد أجزاءها وعمها الأمن والرخاء، حتى وجه عنايته لتجريد الأجزاء المغتصبة من البلاد، فهاجم الإنجليز بطنجة سنة 1082هـ - 1672 بعد أن حصن الرباط وسلا بقلعتين عظيمتين، حيث قضى على الوجود الإنجليزي بالشمال، كما عمل على تنشيط الجهاد البحري (77).

ورغم حذره من الدول الأجنبية فقد شرع في العمل على مد جسور التعاون التجاري (78) معها.

وكان حليما رغم ظروفه الحرجة، وعرف المغرب على أيامه الاستقرار والرخاء والازدهار الاقتصادي. وضرب العملة الرشيدية سنة 1081هـ (79)، كما اهتم بالعمران، فبنى قنطرة وادي سبو سنة 1080هـ (80).

(74) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 47-57، والاستقصا للناصري، ج: 7 ص: 37.

(75) كتاب الضعيف الرباطي، ص: 45-48.

(76) دعوة الحق، ع: 6، س: 7، 1385-1964، ص: 17 الصوفية وطرقها في الاسلام لعبد الله

الجراري، وصفوة من انتشر للأفراني، وفتح الرحمن في مناقب سيدي علي بن عبد الرحمن.

(77) المغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج: 3، ص: 30، وتاريخ الحضارة المغربية لابن عبد الله،

ج: 1 ص: 97، والحلل البهية، للمشرقي، ص: 102-103.

(78) مجلة المناهل، ع: 36، س: 1407.4هـ-1987م، ص: 150-151، مكانة المصادر الأجنبية، لمحمد

زنيبر.

(79) الاستقصا للناصري، ج: 7 ص: 39.

(80) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 11-23.

لكنه توفي في عز شبابه وعطائه، وفي أوج انتصاراته ومجده السياسي والعسكري وغيره. إذ جمع به فرسه، فالتطم رأسه بشجرة فتهشم ومات لحينه بمراكش سنة 1082هـ، ودفن بها، ثم نقل جثمانه إلى ضريح سيدي علي بن حرزهم بفاس، حسب وصيته (81) وقال وهو يحتضر: «سبحانك يا من لا يزال ملكه، عبدك الرشيد زال ملكه» (82).

المولى الرشيد وموقفه من اليهودي ابن مشعل :

من الإنصاف للمولى الرشيد أن نقف وقفة إعجاب و تقدير وامتنان أمام جل أعماله العظيمة، وأبعدها أثرا وفضلا على الإسلام والمسلمين عامة، وعلى المغرب وتاريخه خاصة، بأن نخصص بعض الصفحات لموقفه الرشيد من ابن مشعل، ونسلط فيه الأضواء على حقيقة هذه القضية التي تضاربت حولها آراء الباحثين والمؤرخين، ودخلت عالم الأسطورة والميثولوجيا من بابها الواسع.

فقد أنقذ البلاد والعباد من براثن الصهيونية العالمية التي كانت قد بدأت نسج شباكها حول المغرب، بواسطة صنيعتها وعميلها ابن مشعل (83).

وقد عامل الملوك المغاربة عموما والعلويون خصوصا اليهود المغاربة بتسامح كبير (84) وعلى قدم المساواة مع المغاربة المسلمين، فاتخذوا منهم الوزراء والأمناء والمستشارين، وخاصة في السفارات مع الخارج، والتجارة الخارجية ولم يتعرضوا لأي اضطهاد إلا إذا تجاوزوا حدودهم، ونسوا أنهم من أهل الذمة (85).

(81) الحلل البهية للمشرقي، ص: 10.

(82) المصدر السابق، ص: 105-106.

(83) دعوة الحق، ع: 4، س، 7، 1383-1964، ص: 20، حضارة المغرب في عهد الرومان، مقالة لإبراهيم حركات.

(84) الحركة الفكرية بالمغرب، لمحمد حجي، ج: 1، ص: 267-280.

(85) الحرية الفكرية بالمغرب، لمحمد حجي، ج: 1، ص: 267-280.

وقد أبطرتهم النعمة فطمع بعض الإقطاعيين الإسرائيليين في الدعوة لأنفسهم كهارون بن مشعل (86) في قصبته قرب تازة، حيث جعل من تلك القصبه وكرا لمؤامرتة اليهودية الدنيئة، منتهزا الفوضى والاضطراب التي تعم البلاد وتعصف بهياكل الدولة، مسخرا في ذلك ماله وجاهه وسمعته التي اكتسبها من وراء التظاهر بمساعدة الناس، ومواساة الضعفاء منهم (87).

وقد تظن المولى الرشيد لأهداف هذا الجاسوس الخطير، وشعر بشره المستطير، المحدق بالمغرب (88) وبدولته الفتية التي كانت لا زالت تززعها أطماع أمراء الطوائف المنافسين، وتهدها أطماع أصحاب الزوايا (89).

وكانت لهذا اليهودي "جولة على المسلمين، وتناول على الدين، واستهزاء به" - كما يقول الأفراني (90)-، ووافق كل ذلك وفاة المولى الشريف بن علي، وفرار المولى الرشيد خوفا من أخيه المولى محمد الأول، فقصد قلعة بن مشعل (91) ذي الأموال الطائلة، والذخائر النفيسة للتأكد من أمره، في زمرة من الطلبة المثقفين الواعين (92)، وبعد أن تأكد من جبروته وطغيانه وبالتالي من خيانتة وخطره، قرر القضاء عليه شخصيا، والإطاحة في نفس الوقت به وبمؤامرتة الماكرة، في مهدها، باعتباره يمثل آمال اليهودية.

وهكذا عمل المولى الرشيد مع أنصاره وحاشيته من زملائه الطلبة على إثارة الرأي العام ضد اليهودي ابن مشعل، وتوعية الناس بأخطائه وأخطاره، ثم احتال في التقرب إليه، حتى تمكن منه فقتله.

(86) دعوة الحق، ع: 9، س: 2، 1376هـ-1959م، ص: 31، الدولة العلوية وإقطاعية ابن مشعل، مقالة لعبد الهادي التازي.

(87) المصدر ونفس الصفحة.

(88) دعوة الحق، ع: 1، س: 21، 1400هـ-1980م، ص: 20، إمارة ابن مشعل، مقالة لمحمد بن تاويت التطوانى، ونزهة الحادي للأفراني، ص: 301.

(89) المصدر ونفس الصفحة.

(90) نزهة الحادي، ص: 301.

(91) المصدر ونفس الصفحة، ومجلة المناهل ع: 36، س: 4، ص: 144-146، 1407هـ-1987م، مكانة المصادر الأجنبية، مقالة لمحمد زنيبر.

(92) الواقع أنه انتهز فراره للقيام بجولة استطلاعية يختبر خلالها عن كتب أقوى أعدائه، ويطلع على أسرارهم، وعوراتهم، كالدلائيين وابن مشعل.

وكان قتله لارتكابه جريمة الخيانة العظمى، لذلك صادر أمواله وذخائره، واستولى عليها (93).

وكافأ الطلبة أنصاره وزملاءه بعد بيعته، فجعل منهم رجال دولته وبطانته، كما شيد لسائر الطلبة أقساما داخلية ملحقة بالمدارس في المدن والقرى كالقرويين والمدرسة الرشيدية وغيرهما. وسن لهم حفلة بل مؤتمرا ومحفلا، تجلى في حفل سلطان الطلبة، خلال عطلة الربيع السنوية، ونظمها على شكل مهرجان سلطان الطلبة، إحياء لذكرى ملحمة الخالدة (94) مع ابن مشعل.

المولى إسماعيل (95) : (1082-1139هـ - 1672-1727م)

بويغ بفاس بعد وفاة أخيه الرشيد سنة 1082هـ، وهو في السادسة والعشرين من عمره، فقام بالأمر خير قيام، واتخذ مكناسة عاصمة له. وكان فارسا عميق الإيمان، يتسم بالزهد والطموح، ذا حزم وصرامة، خاصة مع من يحاول الإخلال بالأمن العام، وذلك لكثرة المؤامرات التي طوقته، حتى من أقرب الناس إليه (96)، لكن صرامته وشدته لم تصل الحد الذي صورته به المصادر الأجنبية الموروثة، لوقوفه بالمرصاد في وجه المبشرين المسيحيين، والغزاة الأوربيين، والتي اعتمدت على مذكرات المستشرقين المغرضين، والأسرى الأوربيين (97). والواقع أنه كان حليما رفيقا بالضعفاء والأسرى، جبارا مع الطغاة، كما كان ورعا تقيا، كثير الصوم والصلاة والذكر (98)...

(93) الاستقصا، ج:7، ص: 29-43.

(94) دعوة الحق ع: 9، س: 2، 1376-1959، ص: 31 الدولة العلوية وإقطاعية ابن مشعل، مقالة لعبد الهادي التازي.

(95) الاستقصا، ج:7، ص: 32 و 114 وترجمته بنشر المتاني، للقادري، ج: 3، ص: 285-292، والدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 29-34 و40-52، والحلل البهية للمشرفي، ص: 106 و158.

(96) الاستقصا للناصرى، ج:7، ص: 8 الاستقصا، ج:7، ص: 89.

(97) إتحاف أعلام الناس، لعبد الرحمن بن زيدان، ج:2، ص:51، ط: 1 س:1348هـ-1950م.

(98) دعوة الحق، ع:2 و3، س: 20، 1399هـ-1979م، ص: 141، المولى إسماعيل بن الشريف مقالة لعبد الله العمراني، ومجلة المناهل، ع:36، س: 4، 1407-1987، ص: 155-156 مكانة المصادر الأجنبية لمحمد زنيبر.

وقد قام بأعمال جليلة في جميع مجالات الحياة ومرافقها على الصعيدين الداخلي والخارجي، مستهدفا تجديد صرح الدولة، وتطويرها كلها، وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار في ربوعها، فأضفى عليها هالة من الرهبة والمهابة بين المواطنين والأجانب (99)، بمساعدة وزيره الأديب الكاتب أحمد محمد اليعمدي.

كما استرجع عدة ثغور، وحررها من يد النصارى، وفتح المهديّة التي انتزعها من الإسبان سنة 1092هـ (100)، وفتح طنجة وحررها من الإنجليز الذين اضطروهم للفرار منها بحرا سنة 1095هـ (101)، كما حرر العرائش سنة 1101هـ، فنزع المغاربة النعال السود التي اتخذوها منذ اغتصابها، وحرر أصيلا سنة 1102هـ (102)، واسترجع الصحراء وبلاد السودان إلى حظيرة الوطن حيث بلغ فيها مالم يبلغه المنصور الذهبي السعدي.

وحاول تحرير سبتة ومليلية سنة 1106هـ-1693م، كما أنشأ جيش العبيد (103) الذي بلغ عدده مائة وخمسين ألفا، وجعل المؤطرين والمسيرين له ضباطا مغاربة تكونوا في أوربا (104)، كما أنشأ جيش الوداية من القبائل.

واهتم بعلاقات المغرب الخارجية أيما اهتمام، حفاظا على سمعة المغرب بالخارج، وصيانة لمصالحه الحيوية مع الدول الأجنبية (105)، فقد خطبت هذه الدول وده، وأرسلت إليه وفودها محملة بالهدايا من الشرق والغرب،

(99) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 78.

(100) مجلة البحث العلمي، ع: 4 و 5، س: 2، 1384-1965، ص: 280-305، مكانة المصادر الأجنبية لمحمد زنيير.

(101) الاستقصا، ج: 7، ص: 67.

(102) صارت إلى الأنجليز من البرتغال، نشر المتاني، للقادري، ج: 3، ص: 49-50، والنبوغ المغربي لكتون، ج: 1، ص: 270، وتاريخ الضعيف، ص: 78، والنزهة، ص: 306، والاستقصا، ج: 7، ص: 67 والاتحاف ج: 2، ص: 73-74، الاستقصا، ج: 7، ص: 77.

(103) الاستقصا، ج: 7، ص: 56-57 (سيأتي تفصيل ذلك).

(104) الحلل البهية للمشرفي، ص: 117-123 و دعوة الحق، ع: 4، س: 4، 1380-1961، ص: 53. العلاقات الدبلوماسية في عهد الدولة العلوية لأحمد البشري.

(105) الاستقصا، ج: 7، ص: 56-57 (سيأتي تفصيل ذلك).

رغبة ورهبة كتركيا وفرنسا سنة 1100هـ (106)، وسعت إنجلترا في تحسين علاقتها معه فاستعاضت طنجة بجبل طارق إرضاء له سنة 1705م (107)، ورغبة منها في أن يوقع معها معاهدة للسلام سنة 1133هـ (108). وبلغت علاقته الودية مع ملك فرنسا لويس الرابع عشر درجة عالية حتى شاع أنه قد خطب إليه الأميرة دي كنتي (109). ذلك أن المولى إسماعيل بعث سفارات عديدة إليه في فرنسا، واستقبلها رسميا (110). كما تم بينهما اللقاء سنة 1682م (111).

وجاءته سفارة إنجليزية من جورج الأول سنة 1714م (112)، وفي إطار هذه العلاقات الطيبة، تبادل رسائل ديوانية وإخوانية مع ملوك أوروبا، حول التجارة والسياسة وغيرها، وتبادل الأسرى، ورسائل الدعوة للإسلام (113).

واحتفظ للعثمانيين بعلاقة متميزة، فالتزم الحدود التي رسموها مع أسلافه بين المغرب والجزائر (114).

-
- (106) تاريخ الضعيف، ص: 70، والاستقصا، ج: 7، ص: 59.
- (107) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، 1386-1967، ص: 75، بين إنجلترا والدولة العلوية لمحمد ابن تاويت التطواني.
- (108) الحلل البهية للمشرقي، ص: 150-168، ونشر المتاني، للقادري ج: 2، ص: 252.
- (109) نفى ذلك اطلاقا عبد الرحمان بن زيدان، المؤرخ الرسمي للدولة العلوية، المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 60.
- (110) دعوة الحق، ع: 4، س: 4، 1380هـ-1961م، ص: 53 العلاقات الدبلوماسية المغربية، على عهد الدولة العلوية، لأحمد البشير، وكان على رأس وفد السفارة المغربية إلى فرنسا الحاج محمد تميم التطواني.
- (111) مجلة البحث العلمي، ع: 4 و 5، س: 2، 1384-1965، ص: 282، مكانة المصادر الأجنبية، لمحمد زنيير.
- (112) وعنها ألف جون وين رحلته "رحلة مكناس".
- (113) مجلة البحث العلمي، ع: 4، س: 2، 1384-1965، ص: 286-299 مكانة المصادر الأجنبية، لمحمد زنيير، والاتحاف، لابن زيدان، ج: 2، ص: 51، ونصوص هذه الرسائل نشرها عبد الله العمراني بمجلة المعرفة بتطوان، عدد نوفمبر - دجنبر 1947م.
- (114) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 59-60، ومجلة البحث العلمي، ع: 4، س: 5، 1384-1965، ص: 299-300، أي جعل الحدود على وادي تافنة.

وفي المجال الاقتصادي، أصدر ظهيرا بإلغاء المكوس (115) في جميع أنحاء مملكته سنة 1107هـ (116).

وتجلى ورعه وتقواه في أروع صورة، حين تورع عن تعيين ولي للعهد من أولاده (117)، وترك الأمر شورى للمسلمين حتى يقدموا عليهم من يرتضونه لذلك، على كثرة أولاده (118) الذين كان عددهم يناهز خمسمائة من الذكور، ومثلهم من الإناث (119).

وسار المولى إسماعيل على سنن أسلافه من الملوك بالنسبة لأرباب الزوايا، وشيوخ الطرق الصوفية حيث وقف منهم موقفا واضحا وحازما، احترازا من تطلعهم للملك والسلطة. (120).

وخلد المولى إسماعيل اسمه وعصره، وبالتالي الدولة العلوية الشريفة بالمآثر العمرانية العظيمة التي تنافس الدهر البقاء، ولاسيما المساجد والمدارس (121) وخاصة، بمدينة مكناس. كما وسع ضريحي الإمامين إدريس الأكبر والأصغر (122) وزاد فيهما من كل ناحية (123).

وطالت حياته، إذ حكم سبعة وخمسين سنة، حتى اعتقد بعض العامة أنه لن يموت (124). لكن البقاء لله وحده،

(115) تاريخ الحضارة المغربية لابن عبد الله، ج: 1، ص: 87.

(116) نشر المتاني للقادري، ج: 3، ص: 73.

(117) الحياة الفكرية لحمد الأخضر، ص: 72-74.

(118) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 97.

(119) المصدر السابق، ص: 89.

(120) الروضة السليمانية للزياني، ورقة: 70، والاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 100.

(121) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 99.

(122) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 98، ونشر المتاني للقادري ج: 3، ص: 240، والدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 41-42.

(123) البستان الظريف للزياني، ورقة: 69، والروضة السليمانية، للزياني ورقة: 69.

(124) البستان الظريف للزياني، ص: 44، والروضة السليمانية، للزياني ورقة: 69-68.

فقد توفي رحمه الله بمكناس سنة 1039هـ، ودفن بضريح الشيخ
المجذوب(125).

عهد الاضطراب (1139-1171هـ - 1727-1757م)

ما إن توفي المولى إسماعيل حتى دخلت البلاد في عهد من الاضطراب
والفوضى لهيمنة الجيش واستبداد قيادته بالحكم، وتآمرها على الأمراء
وتلاعبها بتنصيبهم. فتنافس الأمراء على الملك وتصارعوا على السلطة،
ونسفوا كل ما شيده والدهم المولى إسماعيل العظيم من أمجاد (126).

فانعدم الأمن والنظام، وتفككت هياكل الدولة : السياسية و الإدارية،
والاقتصادية و العسكرية وغيرها، وقد صور لنا الزياتي ذلك
قائلاً: " كان حال هذا العسكر مع أولاد أمير المؤمنين المولى إسماعيل، مثل
حال الترك مع أولاد المعتصم بن الرشيد العباسي " (127).

وامتدت هذه الفترة الحالكة فاستمرت ثلاثين سنة من 1139هـ - 1727م،
إلى 1171هـ-1757م، وتعاقب على سدة الحكم فيها سبعة أمراء(128)، منهم
من بويع وعزل مرات عديدة بتآمر من جيش عبيد البخاري غالباً وجيش
القبائل من المغافرة والودايا أحياناً. وكان الجيشان يتنازعان السلطة
بدورهما، ويتصارعان ويتحاربان من أجلها، متخذين من الأمراء وضعفهم
وسيلة تمنحهم صفة الشرعية، وتضفي على أعمالهم الصبغة القانونية.

وقد انعكست الأحوال والأحداث الداخلية المزرية على الحياة الاقتصادية
والاجتماعية للبلاد، إذ نهب بيت المال، وارتفعت الأسعار، وعم الغلاء،
وتفاحش، فركدت حركة التجارة الداخلية (129)، وبالتالي اضطربت الأحوال،

(125) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 240 و 290-292، والاستقصا للناصرى، ج: 7، ص: 99،

والروضة السليمانية، للزياتي ورقة : 70، والحلل البهية للمشرقي، ص: 148

(126) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 103-162.

(127) الروضة السليمانية، للزياتي ورقة: 70.

(128) تولى خلالها أولاده الآتية أسماءهم : المولى أحمد الذهبي، والمولى عبد الملك، والمولى عبد الله،

والمولى علي الأعرج، والمولى محمد بن عربية، والمولى المستضي والمولى زين العابدين، الاستقصا

للناصرى، ج : 7، ص: 59.

(129) البستان الظريف للزياتي، ص: 47، والحياة الأدبية لمحمد الأخضر، ص: 269.

واختل حبل الأمن والاستقرار، فعمت البلبلة والفوضى والفساد، وساد الظلم والنهب والهبوط، مما هدد بالانهيار والزوال.
أما على الصعيد الخارجي فقد أصبح المغرب يعيش في عزلة خارجية(130).

المولى عبد الله: (1141-1171هـ - 1729 - 1757 م) :

كان أبرز ملوك هذه الفترة الدقيقة الصعبة المولى عبد الله، الذي بويع وعزل مرات عديدة، وأخيرا "اجتمعت كلمة أهل المغرب على طاعته" (131)، وكانت بيعته الأولى سنة 1141هـ حيث جاء من تافيلالت (132).
قال أكنسوس عن أهمية المولى عبد الله في هذه الفترة الحرجة بالنسبة لغيره من إخوته الأمراء: "والحق الذي لا شك فيه أن كل من قام منهم بعد بيعة المولى عبد الله، فإنما هو ثائر عليه لا إمامة له، وإنما يكون خبره مسوقا من جملة أخبار المولى عبد الله (133).

وقد حاول المولى عبد الله رأب الصدع، واسترجاع أمجاد أبيه، فقام بمبادرات على الصعيدين الداخلي والخارجي، لكن اتسع الخرق على الراقع(134)، ومع ذلك فقد كان له الفضل في التمهيد للفترة المشرقة التالية، التي بددت دياجي هذه الفترة الحالكة المتأزمة، التي تخبط المغاربة في ويلاتها أكثر من ربع قرن (135).

فعلى المستوى الداخلي عمل على إخماد الثورات والفتن ونشر الأمن والاستقرار، وقمع القبائل والجيوش المتمردة، والعبيد الآبقة المنتطعة، معتمدا

(130) مجلة المناهل، ع: 36، س: 4، ص: 29-31، 1407-1987، والمغرب في منتصف القرن: 18، للمؤرخ الإسباني: رامون لوريد ديات، الباب الأول، س: 1757-1790، والبستان الظريف للزياني ورقة: 46.

(131) الحل البهية، للمشرقي، ص: 158.

(132) نشر المتاني للقادري، ج: 3، ص: 299-300.

(133) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 193.

(134) الحل البهية، للمشرقي، ص: 43.

(135) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 53.

على أخواله المغافرة، وعلى مساندة أمه اخناثة بنت بكار التي كان لها وزن سياسي، وتأثير على الجميع طيلة حياتها.

كما حاول تحرير مدينة سبتة، سنة 1732م (136).

وشيد آثارا عمرانية خالدة (137)، أهمها : إتمام بناء جامع المولى إسماعيل (138).

أما على الصعيد الخارجي، فقد عمل على تنشيط العلاقات الدبلوماسية الراكدة شرقا وغربا، ولا سيما مع الحجاز، وإنجلترا، وهولندا، مما أدى لاحتكارهما تجارة المغرب الخارجية -إذ ذاك- (139) كما تبادل الهدايا مع سلطان الحرمين الشريفين (140).

وتوفي رحمه الله سنة 1171هـ (141)، بدار الدبيغ بفاس الجديد، ودفن بمقابر الشرفاء (142).

سيدي محمد بن عبد الله - المولى اليزيد - المولى سليمان (1171 - 1238هـ - 1757 - 1822م) :

سيدي محمد بن عبد الله (143) : (1171-1204هـ / 1757-1790م)
بويغ بمراكش، ثم جاءته بيعة فاس سنة 1175هـ بإجماع أهل الحل والعقد (144)، فالتفت حوله الأمة لكفاءته التي برهن

(136) دعوة الحق، ع: 5، س: 2، 1379-1960، ص: 44-45، سبتة في تاريخ المغرب القديم والحديث لعبد اللطيف الخطيب.

(137) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 43.

(138) الاتحاف الوجيز، للدكالي، ص: 48.

(139) الجيش العرمرم لأكنسوس، ص: 132، والاستقصا للناصرى، ج: 7، ص: 167-187.

(140) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 335.

(141) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 60، تحقيق عبد الكريم الفيلاي.

(142) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 158.

(143) ترجمته بالترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 82 - 99، والدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 55-58.

(144) المصدر السابق، ونفس الصفحة، والحلل البهية، للمشرقي، ص: 158 - 159.

عليها منذ خلافته عن والده بمراكش وأسفي، بعلمه واجتهاده وحسن سيرته (145).

تولى في ظروف صعبة حرجة، بعد عهد الاضطراب مباشرة، فكان له الفضل في الخروج بالبلاد إلى عهد مشرق يمثل أوج الازدهار : السياسي، والعسكري، والاقتصادي، والثقافي...

فقد وحد المغرب من جديد، واسترجع الثغور وحصن الشواطئ، فقمع جشع الدول الاستعمارية، وطمعها في خيرات المغرب، فهابته وصارت تخطب وده.

كما اجتث رواسب عهد الاضطراب، وقضى على جميع الانحرافات والتطلعات الشخصية والقبلية، مما أعاد للعرش العلوي هيئته، وجدد معالم الدولة على أساس توطيد كيان البلاد وتوفير أسباب الرفاهية والاستقرار والعدالة ونشر العلم بالمدن والقرى. فكان رائدا للمغرب، وباعثا لنهضته العلمية والإصلاحية والفكرية الشاملة، فاستحق لقب "سلطان العلماء وعالم السلاطين".

فقد استرجع السواحل المغتصبة، وفتح البريجة سنة 1183هـ - 1769م، وأخرج النصارى منها وهدمها.

وبنى وأسس مدينة الصويرة، مستهدفا أبطال حصن وميناء أكادير الذي كان بيد الثوار.

واهتم بالصحراء المغربية فجدد ولاية شيوخ قبائلها بواد نون، وأدرار، وتاكانت، وماسة، والساقية الحمراء وتيشيت (146).

(145) تاريخ الضعيف الرباطي، م. خ.ع، رقم : 660، والملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله، للعبادي، ص: 59-63، والحياة الأدبية لحمد الأخضر، ص: 270-271 ودعوة الحق، ع: 234، ص: 15، 1404 - 1984، دعوة لإحياء الذكرى 200 لوفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، لأبي بكر القادري. والمغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ص: 87. والجيش العرمم لاكنسوس، ورقة 106، ونشر المتاني، للقادري، ج: 1، ص: 123.

(146) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 20، ص: 126، 1399-1979، كفاح العلويين من أجل الوحدة، لعثمان ابن خضراء والترجمة الكبرى، للزياني، ص: 19 وما بعدها.

أما على الصعيد الخارجي فكانت سياسته تقوم على محورين متوازيين (147) : الاتجاه العثماني والإسلامي من جهة، والاتجاه الغربي من جهة أخرى (148)، وجعلها تخضع للمصالح الإسلامية (149)، التي كانت نصب عينيه في جميع علاقاته الخارجية.

وفي ذلك ألف الألماني بابا نكيو كتابا يتهم فيه محمد الثالث بالاستبداد والتعصب، انتقاما منه لتحالفه الملتزم مع الدولة العثمانية (150).

وبموازاة هذه السياسة الإسلامية الرشيدة جدد علاقاته الدبلوماسية مع الدول الأوروبية، في مسلسل يستهدف استرجاع مكانة المغرب الدولية وهيبته برا وبحرا، وخاصة بعد أن فرض عليها كلها ضريبة المرور بالمياه الإقليمية للمغرب. ولم تلبث الولايات المتحدة أن راسلته تخطب وده وتطلب إقامة معاهدة الصداقة والتجارة مع المغرب. كما راسله رئيسها -إذ ذاك- جورج واشنطن، مشيدا بالعلاقات الودية الممتازة بين الدولتين، مما جعل المولى محمد بن عبد الله في طليعة الملوك والدول المعترفين بالفدرالية الأمريكية (151).

ولم يلبث أن عقد معها المعاهدة المطلوبة سنة 1786م (152)، مما جعلها تفكر في إقامة نصب تذكاري له وسط عاصمتها (153) - كما جاء في رسالة جورج واشنطن المذكورة -.

(147) دعوة الحق ع: 234، ص: 1404.36-1984، دعوة لإحياء ذكرى وفاة السلطان محمد بن عبد

الله، لأبي بكر القادري، ومجلة المناهل

(148) م. المناهل، ع: 36، س: 4، ص: 177، 1987-1407، لويس شينييه قنصلا ومؤرخا لإبراهيم

بوطالب، والترجمة الكبرى للزياني، ص: 19-23، والإتحاف، لابن زيدان، ج: 3، ص: 172،

والإعلام، ج: 5، ص: 159-160 و185 و134.

(149) الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله، للحسن العبادي ص: 75.

(150) دعوة الحق، ع: 5، ص: 76، 1386، مقالة لعبد الله كنون والملك المصلح سيدي محمد بن عبد

الله للعبادي ص: 76، والنوبوغ المغربي لكنون، ج: 1، ص: 272 والحلل البهية للمشرقي، ص: 160،

وتاريخ الضعيف، ص: 193.

(151) في الأدب المغربي المعاصر لعبد الحميد يونس وفتحي حسن المصري، ص: 13.

(152) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 117.

(153) الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله للعبادي، ص: 75.

واستمرارا لمسيرة البعث والتجديد التي رسمها لدولته، وتطبيقا لبرنامج الإصلاح الشامل، استأنف علاقته مع إنجلترا وتبادل معها المصالح (154)، لكن هذه العلاقة مع إنجلترا تكدرت لاعترافه بالدولة الأمريكية الناشئة رغم أن علاقة المغرب الدبلوماسية مع إنجلترا ترجع إلى سنة 1760.

ومسيرة السلام الخارجي هذه دفعته لتوقيع معاهدات مع كل من ملك السويد وملك الدانمارك كريستيان السابع، وملك إنجلترا جورج الثاني، وكذا مع البرتغال بعد أن أرسلت وفودها بهذا الصدد. لكنه رفض طلب الملك الإسباني كارلوس الثالث المتعلق بالنزول في قلعة سانتا كروز بالشواطئ الصحراوية الغربية (155).

ولمكانته الدولية اعترف في عهده بالكيان المغربي لسببة ومليية وبضمان صيانتها تاريخيا. بمقتضى المادة 17 من معاهدته مع إسبانيا، السلمية والتجارية، وكذا بمقتضى المعاهدة المبرمة بينهما في مكناس سنة 1799م (156).

واعتمادا على مكانته المذكورة عقد اتفاقية مع لويس السادس عشر ملك فرنسا، تتعلق بإلغاء الرق بين المسلمين والمسيحيين سنة 1777م (157)، مما يعتبر سبقا في سياسة المغرب الدولية.

وقد استفاد من الأحداث العالمية الكبرى لعصره التي عجمت عودته، وحنكته، وأنضجت تجاربه السياسية، كالثورة الفرنسية، واستقلال أمريكا، واحتلال إنجلترا لكندا (158)...

لكل ذلك اهتم به الكتاب الأوروبيون، حيث ألف لويس شينييه، قنصل فرنسا بالمغرب، كتابا حول تاريخ المغرب، من خلال مراسلاته

(154) دعوة الحق، ع:8، س:15، ص: 74، 1393-1973، بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني.

(155) دعوة الحق، ع:2و3، س:20، ص: 127، 1399-1979 نضال العلويين من أجل الوحدة لعثمان بنخضراء.

(156) دعوة الحق، ع:5، س:2، ص: 45-46، 1379-1960، سببة في تاريخ المغرب القديم والحديث، لعبد اللطيف الخطيب.

(157) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج:3، ص: 113.

(158) المصدر السابق، ص: 87.

الديبلوماسية، تضمن وثائق هامة عن عهد المولى محمد الثالث، وذلك سنة 1767-1782م (159).

وعزز سياسته الداخلية والخارجية الحكيمة بمحاربة البدع، وأصحابها، والقضاء على المشعوذين والدجالين (160).

وبموازاة ذلك وضع مؤلفات تستهدف التحرر من الجمود والرجعية على جميع المستويات الفكرية وغيرها.

كما نظم القضاء، وجدد مسطرته، حيث استصدر ظهائر دورية عديدة، تستهدف إصلاحه، وخاصة بالمحاكم الشرعية، كما تستهدف تذكير القضاة بواجبهم وتوصي بالأيتام والضعفاء، تحقيقا للعدالة التامة.

وتتويجا لسياسته المتكاملة، وبموازاة منهجيته وبرامجه الإصلاحية المختلفة، اهتم بالعمران (161). فقد خلد عهده ببناء مدن : الصويرة سنة 1178هـ وفضالة والمحمدية، وبتجديد مدينة أنفا (162). كما شيد ما يناهز ستين مؤسسة، من مساجد ومدارس وغيرها (163).

وتوفي، رحمه الله، في طريقه إلى الرباط (164) سنة 1204هـ-1790م (165)، ودفن به (166).

ولم يعهد لأحد، بعد أن أشهد العلماء على خلع ولده اليزيد من ولاية العهد سنة 1203 (167).

(159) م. المناهل، ع: 36، س: 4، ص: 156، 1407-1987، لويس شينيه قنصلا ومؤرخا، لإبراهيم بوطالب، ونفس المصدر، ص: 260-161 أبو القاسم الزياتي.

(160) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 59.

(161) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 56-58.

(162) تاريخ الحضارة المغربية لابن عبد الله، ص: 84، ونشر المتاني، للقادري، ج: 4، ص: 128-130 و160.

(163) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 59.

(164) العز والصولة لابن زيدان، ج: 1، ص: 156-157.

(165) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 24.

(166) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(167) تاريخ الضعيف، ص: 197.

المولى اليزيد (168) : (1204-1206هـ - 1790-1792م)

بويغ بعد وفاة والده بتطوان (169) سنة 1204هـ، إذ اعتبر العلماء أن توجهه أبيه إليه في ضريح مولاي عبد السلام بـ مشيش، حيث كان لاثنا ومعتصما -يعتبر عفوا عنه، وتراجعا منه في عزله عن ولاية العهد، لولا أنه مات في طريقه إليه.

فما إن تمت له البيعة، حتى قضى على جميع خصومه من عمال وولاية أبيه، ونكب اليهود، ونهب أحياءهم في أهم المدن، وأمر بطرد النصارى والرهبان من المغرب (170)، وجمع قناصل الدول الأجنبية في طنجة، وهددهم بالحرب إذا لم تف دولهم بالتزاماتها لأبيه، وتجدد المعاهدات معه (171).

ورغم قصر مدة حكمه، قام بأعمال تدل على كفاءته ومصداقيته، وعلى أنه لو طالقت مدته لحقق المعجزات.

فقد حاول تحرير مدينة سبتة سنة 1790 (172)، لكن إسبانيا شجعت الثوار ضده، لإثارة الفتنة الداخلية (173)، تلافيا لقيام دولة قوية بالمغرب على يده.

وقد انتقم المولى اليزيد من إسبانيا بقتل عاملها على سبتة الذي زاره للتفاوض، بأن قطع رأسه (174)، وذلك سنة 1206هـ. فأثارت إسبانيا أخاه المولى هشام ضده (175)، وساعدته ماديا ومعنويا سنة 1206هـ، فانهزم أخوه المولى هشام أمامه، لكن اليزيد جرح في تلك المعركة جروحا بليغة خطيرة.

(168) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 197-201 و237، والاستقصا للناصرى، ج: 8، ص: 56، والروضة

السليمانية للزياني، ورقة: 143-144.

(169) تاريخ الضعيف، ص: 201.

(170) الاتحاد لابن زيدان، ج: 3، ص: 306، وتاريخ الضعيف، ص: 119.

(171) المغرب عبر التاريخ لحركات، ج: 3، ص: 122.

(172) دعوة الحق، ع: 5، ص: 2، ص: 45، 1379-1960، سبتة في تاريخ المغرب لعبد اللطيف الخطيب.

(173) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 223-226.

(174) تاريخ الضعيف، ص: 228.

(175) المصدر السابق، ص: 229.

أما هشام فانقسم أتباعه بينه وبين أخيه سلامة، الذي أمر بقطع رأس الوزير واعزيز، فسعى هذا الأخير بنفوذه القوي، وتجربته الطويلة، في إسناد الملك إلى المولى سليمان، حيث اتفق على ذلك مع العلماء، ومن بيده الحل والعقد بالعواصم الكبرى. فتمت بيعة المولى سليمان في مكناس سنة 1206 (176).

وتوفي المولى اليزيد متأثراً بجروحه سنة 1206هـ، وأوصى أن يدفن بمولاي إدريس زرهون، لكنه دفن في مقبرة الملوك السعديين (177).

المولى سليمان (178) : (1206-1238هـ - 1792-1822م)

بويع المولى سليمان بفاس، بإجماع أهل الحل والعقد من العلماء ورجال السلطة سنة 1206هـ (179)، واشترط عليهم ألا يقاتل (180) أبداً.

وكان مؤمناً تقياً مستقيماً، باراً بوالده، يميل إلى الحلم والعدل، محبوباً من رعيته، ميمون الطلعة. فعمت في أيامه العافية والأمن والرخاء، لاعتماده الديمقراطية الإسلامية في أسلوب حكمه (181)، حتى اعتبره المؤرخون المغاربة والأجانب من أحسن ملوك الدولة العلوية، كهوفر الذي قال: «إنه من أحسن ملوك دولة الشرفاء» (182).

فقد عمل بمجرد بيعته على إخماد الفتن الداخلية، وقضى على جميع المنافسين له، سواء من إخوته أو من الثوار الخارجين عليه، حتى لم يبق له

(176) المصدر السابق، ص: 242-244، والاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 86، والدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 67-72.

(177) تاريخ الضعيف، ص: 273.

(178) ترجمته بالترجمة الكبرى للزياني، ص: 24 و55.

(179) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 131.

(180) تاريخ الضعيف، ص: 245.

(181) النبوغ المغربي لكتون، ج: 1، ص: 172.

(182) المغرب عبر التاريخ لحركات، ج: 3، ص: 173.

منازع في الملك سنة 1212هـ (183)، فدانت له الصحراء، ووجدة، والشرق سنة 1222هـ، وتادلا والبربر 1223هـ، وبلاد الريف سنة 1225هـ، وكانت أشد الثورات عليه فتنة البربر (184).

لكن يؤخذ على المولى سليمان اهتمامه بالمجال الديني والثقافي والفكري، على حساب بقية المجالات الأخرى. فقد أوقف الجهاد البحري، وحل الأسطول المغربي، وفرق قطعه على كل من الجزائر وطرابلس - ليبيا - وما بقي منها أنزل عنها المدافع، وحولها للتجارة المدنية، وذلك سنة 1233هـ - 1817م. في حين أن أسطوله كان أمتن وأقوى من أسطول كل من تونس والجزائر، بشهادة مانويل المؤرخ الإسباني المشهور (185).

والواقع أنه فعل ذلك اضطرارا تحت ضغط الدول الكبرى ومؤامراتها، لتضايقتها من عمليات الأسطول المغربي العتيدة (186)، ولتحركات الأساطيل الأجنبية العملاقة - إذ ذاك - (187)، فقد نشطت حركة الأسطول المغربي في عهده حتى تضايق منه الأجانب، وتآمروا ضده (188).

وقد عمل على توطيد دعائم الاستقرار، بسياسته الاقتصادية الناجحة، القائمة على العدالة الاجتماعية، والرفق بالرعية، وفي هذا الصدد أصدر أمره، بمنع تجارة طابة والكيف، وأمر بإحراقهما في كل المدن، وشكل لجنة وطنية أسند إليها مهمة تتبع المخالفين ومعاقبتهم (189).

(183) تاريخ الضعيف، ص: 324-353، والاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 95 (ثار عليه أخوه هشام، وسلامة، وأهم الثوار الخارجين عليه : محمد بن عبد السلام الخمي المعروف بزيطان، وسيدي هاشم، من أولاد سيدي أحمد أو موسى، وولد أمهاوش).

(184) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 115.

(185) المصدر السابق ص: 133.

(186) مظاهر يقظة المغرب للمنونني، ص: 11 وكتاب الجزائر، لأحمد توفيق المدني، ص: 42، ط: 1، تقرر إلغاء القرصنة في مؤتمر إيكس، سنة 1234هـ - 1818م.

(187) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 165.

(188) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 399 والاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 170.

(189) تاريخ الضعيف، ص: 386.

أما على الصعيد الخارجي، فقد تظن المولى سليمان لخطر الدول الغربية على المغرب، وأطماعها الجشعة في أرضه وخيراته، فمنع التجارة معها(190)، ولم يستجب لمحاولاتها جَرَّه إلى أحلافها، صداً للمد الأوربي الزاحف على الشمال الإفريقي، وللاستعمار العسكري والسياسي(191)، وتحسبا للتطورات التي عرفتتها الساحة الدولية إذ ذاك.

لكن سياسته الحذرة اتجهت بالمغرب إلى نوع من العزلة الدولية، كما أن تنافس الدول الاستعمارية على جره إلى برائنها أثار ضده تهمة الانغلاق، مما حاول المولى سليمان التخلص منه، وتفكيكه بسلسلة من الإجراءات الدبلوماسية:

فقد بعث وفدا دبلوماسيا إلى فرنسا بهدية إلى نابليون الأول مهنتا إياه بتتويجه إمبراطورا على فرنسا، مما أدى إلى تنشيط التجارة بين البلدين(192).

كما عمل على تنشيط علاقاته مع بقية الدول، رغبة منه في كسر طوق العزلة عن المغرب، فجاءته هدايا كل من السويد والدانمارك (193)، وعقد معاهدة مع إسبانيا للسلام، وذلك سنة 1212هـ (194)، كما عقد معاهدة للصدقة والسلام مع أمريكا، بواسطة إنجلترا في شخص حاكم جبل طارق الذي كان وسيطا بين السلطان وسائر الأجانب بالمراسي كلها.

(190) الاستقصا للناصري، ج: 4، ص: 154، ط: المصرية.

(191) الأدب المعاصر، لعبد الحميد يونس، وفتحي حسن المصري، ص: 13.

(192) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 166، وتاريخ الضعيف، ص: 342-343، ودعوة

الحق، ع: 8، س: 15، ص: 74، 74، 1393-1973، بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني.

(193) تاريخ الضعيف، ص: 307-308.

(194) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 106.

وفي سنة 1227هـ - 1805م، وفد عليه أهل تلمسان ببيعتهم من طرف ابن الشريف مع العربي الدرقاوي (195) فرفضها، وحاول الإصلاح بين الباي ورعيته (196)، فقد أكرم وفادة المبايعين منهم ورتب لهم العطاء، وردهم إلى بلدهم، بعد أن طلب لهم الأمان من الباي، فقبله وعفا عنهم(197).

ولما طلب منه ملك إسبانيا كارلوس الثالث النزول بقلعة "سانتا كروز" على شواطئ الصحراء الغربية، رفض، مكرسا موقف والده سيدي محمد بن عبد الله من نفس الطلب، ولم يأذن له إلا في الصيد بالمياه الإقليمية المغربية المواجهة لجزر الخالدات (198).

وفي إطار تمتين العلاقات الودية مع الدول العربية والإسلامية، تزوج المولى سليمان بنت كبير عرب الحنانشة سيف النصر بطرابلس(199)، وكانت أختها زوجة للمولى اليزيد.

لكن بعد وقعة "ظيان" المشؤومة سنة 1235 (200)، تقلصت هيبة المولى سليمان، وبالتالي هيبة الدولة، إذ عمت الفتنة، ورفعت إليه الشكاوي من كل ناحية.

وبعد فتن وحروب انتصر المولى سليمان، لكنه صفح عن كل من شارك في الفتن، وأحسن إليهم قائلا: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين" (201)، وعاد إلى مراكش بعد

(195) تاريخ الضعيف، ص: 339، والاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 109-111، وهذه هي البيعة الثانية، وكانت الأولى س:1220هـ، وهي تعبير عن رفض للترك، وتطلع لوحدة المغرب العربي.

(196) المغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج:3، ص: 141.

(197) هذه البيعة الثانية كانت لأهل تلمسان ومستغانم، والبليدة ووهران، بينما كانت الأولى لأهل تلمسان فقط، وقد انفرد الضعيف بذكر البيعة الثانية.

(198) دعوة الحق ع: 2 و3، س: 20، ص: 127-128، 1399-1679، نضال العلويين من أجل الوحدة، لعثمان بن خضراء.

(199) تاريخ الضعيف، ص: 361.

(200) الاستقصا، للناصري، ج:8، ص:137.

(201) المصدر السابق ص: 157-158.

أن استخلف على فاس ابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام(202) سنة 1237هـ.

وقد اهتم بالصحراء أيما اهتمام، وأراد أن يطبق فيها نوعاً من اللامركزية الإدارية تحت السيادة المغربية الكاملة، لكن سكان الصحراء رفضوا ذلك، وأبوا إلا التشبث المطلق بالاستمرارية في الإندماج الكلي تحت المركزية العامة للدولة، تمسكا بالبيعة الشرعية والوحدة الوطنية، وذلك سنة 1211هـ - 1796م (203).

كما حاول تطبيق نفس الفكرة في إقليم توات، لكن ذلك لم يحصل.(204)

وتحقيقاً للأمن الداخلي، وسيراً على مسلك الملوك العلويين من أجداده حارب البدع والشعوذة، واتخذ من أرباب الزوايا موقفاً حازماً واضحاً، يهدف إلى حثهم على التزام العمل بالكتاب والسنة، والقيام بنشاطهم الديني والعلمي على أساس ذلك، بعيداً عن كل تشويش أو طمع في الحكم، حفاظاً على وحدة البلاد وأمنها واستقرارها.

أما ما جاء في كتاب : (كشف الحجاب) في هذا الموضوع فأمر لا يصدق العقل السليم، والمنطق الحصيف، خاصة عن المولى سليمان، العالم الكبير، والصوفي الجليل.

(202) الحل البهية للمشرقي، ص: 185-193 وتاريخ الضعيف، ص: 392-391.

(203) المغرب عبر التاريخ، ج: 3، ص: 173.

(204) دعوة الحق، ع: 234، ص: 27، 1404 - 1984، العرش العلوي أقدم العروش، لعبد العزيز بن عبد الله، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 161، وكشف الحجاب، للسكيج ص: 495-496، ورسائل اليوسي إلى المولى إسماعيل، نصها في كتاب رسائل اليوسي للحسن بن مسعود اليوسي، ص: 73-74، وبالدر المنضد، ورقة: 218، والمنزوع اللطيف، لابن زيدان، ص: 83، والجيش العرمم، لأكنسوس، ص: 78، والاستقصا للناصرى، ج: 7 ص: 82 والتيارات السياسية لحركات، ص 115-117.

والحقيقة التي لا غبار عليها أن المولى سليمان بعد الأحداث المروعة الأخيرة زهد في الحياة والسلطة، وأخذ يفكر في التنازل عن الملك لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام، ولما مرض مرض موته، جدد العهد للمولى عبد الرحمن بن هشام، وبعثه على عجل إلى فاس، حيث كان المولى عبد الرحمن خليفة عنه بها (205).

وتوفي رحمه الله سنة 1238هـ (206) ودفن بضريح جده المولى علي الشريف بمراكش.

المولى عبد الرحمن - المولى محمد الرابع - المولى الحسن الأول

(1238 - 1311هـ = 1822 - 1894م)

المولى عبد الرحمن بن هشام (207) :

(1238 - 1276هـ = 1822 - 1859م)

تولى بعهد من عمه المولى سليمان سنة 1238هـ - 1822م، وبويع بإجماع أهل الحل والعقد في الدولة.

اتسم بالتقوى والصلاح، واشتهر بالاستقامة والجدية والمصادقية والالتزام في أمور الدين والدنيا، فنبضت بحبه القلوب ولهجت بالثناء عليه الألسنة منذ صغره، فقرر به عمه المولى سليمان وضمه إلى أولاده، فبرهن عن جدارته وقمانته، خاصة لما بعثه إلى الحج رفقة أولاده. فولاه الصويرة أولا اختبارا وابتلاء له، ووجده عند حسن الظن به، ولم يلبث أن استخلفه بفاس،

(205) نص العهد بالاستقصا للناصرى، ج: 8، ص: 66، وفي مخطوط عقد الجمان للزياني، ص: 17،

وهو مؤرخ في 4 ربيع الأول 1238هـ، 28 نونبر 1822م.

(206) المغرب عبر التاريخ لحركات، ج: 3، ص: 173.

(207) الحلل البهية للمشرقي، ص: 202-216، والدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 82-88.

حيث تجلت أهليته للخلافة والملك، وتحمل مقاليد المسؤولية ومواقع صنع القرار.

وكان عهده عهد يمن وبركة ورفاهية ورخاء وخصب وازدهار، كما كان متورعا عن سفك الدماء (208) حليفا، بارا بأسرته، وخاصة أبناء عمه سليمان (209)، اعترافا بفضلته عليه، وإكراما لذكراه (210)، وبرورا بنذره وقسمه يوم بيعته أمام أكنسوس "والله لا يرون مني إلا الخير".

ويعتبر عهده بداية عهد جديد في تاريخ المغرب، ومنعظفا هاما، مما فرض عليه العمل على جهات عديدة، وفي سباق مع الزمن والأحداث.

وقد أعطى الأولوية للمشاكل الداخلية ففضى على ثورة إبراهيم يسمور اليزدكي بصحراء تافيلالت سنة 1271هـ (211)، ثم استأصل ثورة الودايا، فنكب القواد والأعوان المتمردين.

وعلى الصعيد الاقتصادي حاول تدعيم الاقتصاد المغربي فأحدث المكوس على الجلد والبهائم، سنة 1266هـ، كما أمر بحصر السكة سنة 1268هـ (212)، ونظم الجزية المأخوذة من أهل الزمة (213)، ووكل عماله بذلك، وحظهم على حسن معاملتهم.

وقام بأعمال جلية في مقاومة التحديات الأجنبية، وأطماع المستعمرين الأوربيين عسكريا وسياسيا.

(208) الاستقصا للناصرى، ج: 9، ص: 78-79.

(209) المصدر السابق والجزء، ص: 8.

(210) المصدر السابق و ج، و ص.

(211) الاستقصا للناصرى، ج: 9، ص: 67-68، والحياة الأدبية للأخضر، ص: 390.

(212) نص رسالته في الموضوع، في الاستقصا للناصرى، ج: 9، ص: 67-68.

(213) الابتسام عن دولة ابن هشام، لأبي العلاء إدريس، ص: 108.

فقد زار الموانئ المغربية بمجرد بيعته، وأصدر أوامره ببعث نشاط الأسطول المغربي سنة 1243هـ - 1827م، فقام بصولات وجولات على السواحل المغربية.

وحبكا لخيوط المؤامرة الأوربية علقت الدول الأوربية اعترافها بالمولى عبد الرحمن، بعد بيعته بإقبار الأسطول المغربي، وبعد أخذ ورد، اتفق على تعويضه ببناء أبراج بميناء الرباط (214) سنة 1246هـ.

ويعتبر نافخ روح النهضة المغربية، وموطد صرح الدولة، بدت فيها بوادر الضعف والانحدار - كما قال أكنسوس - (215).

وقد زاد في مرانة سياسته الخارجية بعد احتلال فرنسا للجزائر، إذ وقف وقفة تأمل مع نفسه - للنقد الذاتي -، فوجد أن العزلة والتفوق على النفس مصدر الداء، ووافق ذلك ظهور الدعوة لحركة إصلاحية سلفية تتناول جميع مجالات الحياة (216) فكان نشاط هذه الحركة مقدمة لركب النهضة المغربية الحديثة.

وتقدمت إليه إسبانيا بطلبها التقليدي المتوارث بالنزول بقلعة "سانتا كروز" على شواطئ الصحراء الغربية، فأجابها بالجواب المغربي التقليدي وبصيغة أجداده - كل مرة - وهي الرفض، لكنه سمح لها بحق الصيد في تلك الشواطئ، وإقامة معمل لتصبير السمك فقط، مما أكدته معاهدة تطوان سنة 1860م (217).

(214) فبنيت : برج الشراط، وبرج السقالة، وبرج الدار، وبرج القصبه.

(215) الاستقصا للناصرى، ج: 9، ص: 10.

(216) دعوة الحق، ع: 8، س: 9، ص: 7، 1386هـ-1966م، عبقرية الإسلام في المغرب، لحسن السائح، ودعوة الحق، ع: 8، س: 15، ص: 74، 1393-1973 بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني، والمغرب قبل الحماية لعبد الرحيم سلامة، ص: 35، والابتسام عن دولة ابن هشام لأبي العلاء إدريس، ص: 106.

(217) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 20، ص: 127، 1399هـ-1979م، نضال العلويين من أجل الوحدة، لعثمان بن خضراء.

وبعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1245هـ - 1830م، قام بأمر الجهاد فيها الحاج عبد القادر محيي الدين، وتوصل المولى عبد الرحمن برسائل من أهل تلمسان ووهران، يبائعونه فيها، ويطلبون إليه الإنصواء تحت لوائه. وجاءته وفود كل من وهران وتلمسان في هذا الشأن سنة 1246هـ (218)، فقبل بيعتهم بعد استفتاء العلماء، وولى عليهم ابن عمه المولى علي بن سليمان، وأرسل معه الهيئة الإدارية، وكتائب من الجيش، وأوصاهم خيرا بالجمع (219)، لكن الحملة فشلت لسوء تصرف بعض عناصر الجيش. فعادت سنة 1246هـ، وعاقب المولى عبد الرحمن القائد المسؤول عن الأخطاء والنهب (220)، وعناصر الفساد التي أدت إلى فشل الحملة.

كما أحسن وفادة المهاجرين الجزائريين، فأوصى عماله وولاته بحسن استقبالهم والبرور بهم، ومساعدتهم ماديا ومعنويا (221).

ولم تلبث فرنسا أن اشتبكت مع المغرب مباشرة بعد موقعة "إيسلي" سنة 1260هـ - 1844م التي أسفرت عن انهزام المغرب هزيمة مؤلمة، واحتلت فرنسا على إثرها مدينة وجدة، وأرغمت المغرب على توقيع معاهدة طنجة (222)، وفرضت عليه حل الأسطول المغربي نهائيا ومصادرته (223).

(218) الحلل البهية للمشرقي، ص: 202-206 و 209

(219) نص الوصية بالاستقصا، ج: 9، ص: 31.

(220) المصدر السابق و ج، ص: 32، والاستقصا، للناصرى، ج: 9، ص: 41-44، ودعوة الحق ع: 4 و 5، س: 1، ص: 39، 1377هـ - 1957م، والسلطان عبد الرحمن، والأمير عبد القادر، لعبد القادر القادري.

(221) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 196، والاستقصا للناصرى، ج: 9، ص: 61-62. قال مانويل في ذلك "أن الفرنسيين انسحبوا لنفاذ ذخيرتهم، وخافوا إن لم يذهبوا طوعا أن يذهبوا كرها".

(222) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 204، ونص المعاهدة بنفس المصدر، ص: 204-207 و 222.

(223) الاستبصار، مذكرة الطاهر بن محمد بن عبد السلام الأوديى أحد أعضاء البعثة الحسنية.

وترجع هزيمة المغرب في موقعة إيسلي - رغم كثرة جنده - إلى ضعف تنظيم جيشه، وعدم أخذه بالنظم والمخططات العسكرية الحديثة (224).

وكانت هذه الهزيمة المادية والمعنوية وبالا على الاقتصاد المغربي (225) بصفة خاصة، إذ كانت بداية للغزو التجاري الأوربي بالمغرب، والمشاريع الاقتصادية الضخمة فيه مع امتيازات خيالية تعفيها من الضرائب، فتهافت الأوربيون على الأسواق المغربية، وتصارعوا على النفوذ التجاري بالمغرب وبالتالي على التهام المغرب وخيراته (226).

وقام المولى عبد الرحمن بمحاولات لإصلاح الجيش وتجهيزه وتنظيمه على نمط الجيش التركي إذ ذاك (227)، تحت رئاسة ولده وولي عهده المولى محمد بن عبد الرحمن (228).

ورغم مشاغله العديدة والأحداث المهولة، فقد خصص جزءا هاما من عنايته للصحراء المغربية، التي نظم أحوالها في رسالة سنة 1245هـ، وأكد فيها أن سكان الصحراء جزء لا يتجزء من مجموع الشعب المغربي وأُمَّته الواحدة (229).

كما وجه رسالة أخرى إلى أهل الصحراء يطمئنهم فيها ويؤكد لهم أنهم من رعاياه، وأن بلادهم جزء مهم من القطر المغربي العتيق (230).

(224) كتاب الجزائر للمدني، ص: 53، وجريدة المغرب، ع: 346، س: 3.

(225) الاستقصا، للناصرى، ج: 4، ص: 198، ط: المصرية، والإتحاف الوجيز للدكالي، م. خ. ع - بالرباط.

(226) أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، لكتون، ص: 18.

(227) الإتحاف لابن زيدان، ج: 5، ص: 238-239 و77، والعز والصولة لابن زيدان، ج: 2، ص: 214-215، ومظاهر يقظة المغرب للمنونى، ص: 76 والاستقصا، للناصرى، ج: 4، ص: 222، ط: المصرية.

(228) الإتحاف لابن زيدان، ج: 3، ص: 567 و5: ص: 155، وفواصل الجمان، ص: 88، والجيش لأكنسوس، ج: 2، ص: 80.

(229) تاريخ الحضارة المغربية، لابن عبد الله، ج: 2، ص: 64.

(230) المصدر السابق ج و ص.

ولم يخرج عن مسلك الملوك العلويين في موقف الحذر والحزم من الزوايا وشيوخها، وحثهم على التزامهم العمل بالكتاب والسنة، بعيدا عن كل طمع وتشويش(231).

وخلد عصره بآثار معمارية وحضارية وغيرها (232) من مساجد، وأضرحة، ومارستانات، ومنارات، وقصبات، وبساتين وغيرها (233).
وعهد بالملك بعده لولده محمد الرابع، الذي كان شريكا له في ملكه طيلة حياته(234).

وتوفي رحمه الله بمكناس سنة 1276هـ-1859م (235).

المولى محمد بن عبد الرحمن (236) (1276-1290هـ / 1859-1873م)
تولى الملك بعهد من أبيه سنة 1276هـ-1859م. وبويع من طرف أهل الحل والعقد وهو بسلا، في طريقه إلى أبيه، بعد أن بلغه خبر احتضاره، ثم جاءته بيعة الأقاليم إلى مكناس، فأكرم وفودها (237).
وكان أقرب إخوته إلى أبيه، لبروره ونجابته واقتداره، كما كان يتسم بالتقوى والصلاح، والعلم، والتزام حدود الشريعة الإسلامية(238)، والاهتمام بالجهاد في سبيل الله.

(231) الأدب المغربي المعاصر، لعبد الحميد يونس وفتحي حسن المصري، ص: 13-14، ومظاهر يقظة المغرب للمنوني، ص: 22.

(232) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 82-88.

(233) الاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 79-80.

(234) المصدر السابق و ج، ص: 80.

(235) الاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 76-77، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 228-229، والجيش العرمم لأكنسوس، ورقة: 277.

(236) ترجمته بالدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 89-91.

(237) الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 80-81.

(238) الحلل البهية للمشرقي، ص: 223-233 و المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 231،

والاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 84-87.

فقد دربه والده على المسؤولية منذ صغره، من قيادة الجيوش، وتسيير دواليب الدولة، وتحمل المسؤوليات الجسام... ثم استخلفه على مراكش، ولم يلبث أن أشركه في ملكه، إذ كانا يتناوبان الإقامة في الأقاليم والعواصم الكبرى: فاس ومراكش ومكناس.

وتابع سياسة والده فعمل على إتمام المشاريع التي بدأها على جميع المستويات والأصعدة، سواء في إطار الإصلاح الداخلي، أو في تجديد وتحديث هياكل الدولة وأطرها، أو في تطوير إدارتها وتنظيم جيشها وتجهيزه. كما تصدى للتدخل الأجنبي، مما لقي تجاوبا واستحسانا، على الصعيد الداخلي، وعلى مستوى العالم العربي والإسلامي.

لكنه تُوِّج على إيقاع مدافع حرب تطوان، فقد رفض المولى محمد الرابع مطالب إسبانيا المجحفة والمخلة بكرامة الإنسان المغربي، فأعلنت إسبانيا الحرب على المغرب سنة 1276هـ-1860م (239)، ولم تلبث أن احتلت مارتيل ثم تطوان (240)، فكانت الهزيمة المؤلمة التي أثرت على المغرب وأضعفت قوته وهيبته، فتطاول النصاري عليه. (241).

وبدأت مفاوضات الصلح بعد عشرين يوما بوساطة من إنجلترا (242)، والتي انتهت بالصلح مقابل فدية مالية أرهقت ميزانية الدولة بالديون الأجنبية.

(239) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 234-235، والاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 85-86.
(240) الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 91-92 و94-95.
(241) الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 87، وعاب ابن خلدون طريقة أهل المغرب في الحرب التي تقوم على المطاردة بالكر والفر.
(242) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 243-247، ودعوة الحق، ع: 42، س: 10، ص: 75-76، 1386-1967، بين إنجلترا والدولة العلوية لمحمد بن تاويت التطواني.

وزاد الطين بِلَّةً معضلة الحمایات، والإمیتیازات الأجنبيّة، وتعسف القنصليّات، وتَبَنِّي إنجلترا مصالح اليهود المغاربة (243). كما استورد الأجانب الخمور دون ضرائب، وعملوا على تربيّة الخنازير، وفتحوا مواخير للبقاء (244) مما يعتبر مسا بسيادة البلاد، وانتهاكا لحرمتها، ومسا بالقضاء المغربي، والمقدسات الإسلاميّة....

كما قامت ثورات محلية بتحريض من الأجانب، أهمها : ثورة عبد الرحمن بن سليمان، وثورة الرحامنة، واضطرابات الأطلس، وثورة الجيلاي الروكي الذي ادعى الخوارق والمعجزات والكرامات إلى أن قتل سنة 1278هـ، وعلق رأسه بجامع الفناء.

وشعر المغرب بضعفه العسكري - خاصة بعد هزيمة حرب تطوان سنة 1270هـ - 1860م - لقلة التنظيم والتجهيز الحديث، وللتفوق التقني والتنظيمي للغرب.

وساهم العلماء والأدباء في الدعوة للإصلاح والتجديد، ولاسيما للجيش والمجال العسكري بصفة عامة، في مؤلفات خاصة (245). فقدمت للمولى محمد الرابع مذكرات ومشاريع في كيفية تنظيم الجيش. وبعث بعثات دراسية لتكوين أطر الدولة إلى مصر والدولة العثمانية، ولاسيما في المجال العسكري، كما جدد الجهاز العسكري والعتاد الحربي، ورسم المنشآت العسكرية، مستهدفا تنظيم الجيش على غرار الجيوش العربية والتركية.

(243) الإستقصا، للناصري ج: 9، ص: 108 ونص رسالة السلطان في الموضوع، ص: 109-110، ونص الظهير، ص: 113-115.

(244) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 247-252، والإستقصا، للناصري ج: 9، ص: 112-113، وأحاديث عن الأدب المغربي لكتون، ص: 19-20.

(245) تاريخ الحضارة المغربية، لابن عبد الله، ج: 2، ص: 64 والتيارات السياسية لحركات، ص: 129، ومظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ص: 80، والاتحاف لابن زيدان، ج: 3، ص: 169، والاستقصاء للناصري، ج: 4، ص: 222، ط المصرية، ومجلة دارالنيابة، ع: 17، س: 5، ص: 14، 1988، وبها رسالة وجهها محمد الرابع إلى مسؤول مغربي في شأنهم.

وفي هذا الصدد جدد برج مدينة طنجة ومناورها (246)، وكان يتعاون في مجال الإصلاحات المختلفة مع الدول العربية والإسلامية، التي لا تلقى معارضة من طرف العلماء والرأي العام المغربي.

وفي سبيل النهوض بالمجال الاقتصادي والاجتماعي، قام بسلسلة من الإجراءات الإصلاحية الهامة التي لولا المؤامرات الأجنبية وفساد حاشيته وبطانته - التي كانت تعمل لتحقيق مصالحها الخاصة على حساب المصلحة العليا للبلاد - لتغير اتجاه المغرب، وموقعه الدولي، ومكانته الحضارية والدولية، وخاصة في عهد المولى الحسن الأول كما سيأتي.

وفي إطار الإقلاع الاقتصادي، أمر بضرب الدرهم الشرعي، مستهدفا ضبط السكة به، وأصدر منشورا يمنع سواه (247).

فعم الرخاء، وظهرت آثار النعم ومظاهر الحضارة الغربية، وخاصة بالعواصم الكبرى (248).

وفي إطار اهتمامه بالصحراء المغربية، احتفظ لأهلها بالإعفاء من الضرائب، بل كان يساعد أهلها بمنح وهبات من بيت المال، يوزعها على أسرهم المعوزة.

ولم يكن اهتمامه بالمجال الدبلوماسي والخارجي يقل عن اهتمامه بالمجال الداخلي. فقد قام في هذا المجال بنشاط مكثف يستهدف

(246) الجيش العرمرم، لأكسسوس، ج: 2، ص: 81 والاستقصا للناصرى ج: 4، ص: 224، ط: المصرية، والإتحاف لابن زيدان ج: 3، ص: 565، ومظاهر يقظة المغرب، للمنونى، ج: 1، ص: 101 والمغرب عبر العصور، لحركات، ج: 3، ص: 254.

(247) الاستقصاء، للناصرى ج: 9، ص: 120-121، ومظاهر يقظة المغرب، للمنونى، ص: 115 و 154-155 ونص المنشور بالاستقصاء، ج: 9، ص: 120-121.

(248) الاستقصاء، للناصرى ج: 4، ص: 124، ط: المصرية.

الخروج بالمغرب من عزلته، وتلميع سمعته بالخارج، رأبا للصدع، واستدراكا للأخطاء (249).

لذلك سوى بين المسلمين واليهود المغاربة في الحقوق والواجبات، وشجع الدول الأجنبية على التعاون مع العالم العربي والإسلامي، وتعيين سفراء لها لديهم.

كما طور التجارة الخارجية، وعمل على ازدهارها، فشارك في معرض باريس الثاني، استجابة لدعوة نابليون الثالث سنة 1285 هـ - 1867م (250)، وعقد معاهدات تجارية مع دول أوروبية كثيرة، متخذاً طنجة مقاما خاصا بالسفراء الأوربيين (251).

وحاول استغلال صراع هذه الدول -إذ ذاك-، خاصة بين بسمارك ونابليون الثالث، والإنجليز والإسبان، وتوظيفه لصالح المغرب وقضاياه المختلفة (252).

كما أرسل بعثات للدراسة وتكوين أطر عسكرية مغربية بأروبا سنة 1870م، من ضباط وتقنيين وإداريين. وذلك بكل من بلجيكا وإيطاليا، والولايات المتحدة الأمريكية.

وترك أثارا عمرانية (253) تخلد اسمه، وتشهد بعظمته، بعضها يرجع لأيام خلافته عن والده بمراكش، وبعضها الآخر أيام ملكه.

(249) تاريخ الحضارة المغربية لابن عبد الله، ج: 2، ص: 64.

(250) الإستقصا، للناصري ج: 9، ص: 120-121 ومظاهر يقظة المغرب للمنونى ص: 109-111.

(251) الحياة الأدبية، للأخضر، ص: 391-392.

(252) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 135-138، 1967-1386م، أبو النصر المولى اسماعيل، لعبد

الله العمراني. وكتاب السلطان مولاي محمد الرابع مؤرخ في 22 ربيع الأول سنة 1282هـ،

ونصه بالاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 117-118.

(253) الدرر الفاخرة لابن زيدان ص: 90.

توفي رحمه الله بمراكش، إثر تناوله لدواء مسهل سنة 1290هـ-1873م (254)، ودفن بضريح جده المولى علي الشريف (255).

المولى الحسن الأول (256) : (1290-1311 - 1873-1894م)

بايعه أهل الحل والعقد بوصية من والده سنة 1290هـ-1783م، فاغتنب الناس بولايته وتيمنوا ببيعته، بعد أن كان خليفة لوالده بمراكش، حيث ظهرت كفاءته وجدارته.

وافتح عهده بتأليف قلوب الدول الأوربية، والفاتكان، ومحاولة كسب ودها، فأرسل هدايا لعواصمها، وبادرت لتنهئته بالملك. ولم يلبث أن حاور إنجلترا وأمريكا حول إلغاء الحمایات والإمیتيازات الأجنبية المفروضة على المغرب، كما بعث رسالة مع وفد خاص إلى البابا ليون الثالث عشر (257).

وقد عمل على تحديث الدولة بتكوين الأطر وبعث البعثات الدراسية إلى الخارج في المجالات العلمية والتقنية، فكان عهده عهد تجديد ونهضة (258). ورغم المخاطر التي كانت تهدده بالداخل والخارج. فقد أبلى البلاء الحسن، وقضى أيام ملكه على صهوة جواده، في التصدي لتحديات وأطماع أوروبا الصليبية، وبالتالي في مصارعة جمود ورجعية المحافظين والتقليديين من رجال دولته.

ومارس الحكم شخصيا ومباشرة، فطور إدارته في إطار الشريعة الإسلامية السمحة، فأعفى حملة القرآن من التكاليف كلها، وشمل حفلة الشيخ خليل بالعطايا والمنح، ورفع درجة العلماء والنبلاء.

(254) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 255.

(255) الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 124 .

(256) ترجمته بالدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 97-104.

(257) دعوة الحق، ع: 4، ص: 10، ص: 76-77، 1386هـ-1967م بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد ابن تاويت التطواني.

(258) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 165.

وفي عهده برزت مظاهر الحضارة الغربية في المجتمع المغربي، وخاصة بين الطبقة الغنية المترفة والمتقفة.

وسار على نهج والده، فتابع تنظيم الإدارة، وتوطيد دعائم الدولة، وإصلاح هيكلها، وتعديل سياستها الخارجية وتنمية اقتصادها، وضبط عملتها، وصيانة حدودها ونشر الأمن والاستقرار في ربوعها (259).

وفي سنة 1303هـ، قام باسترجاع مرسى طرفاية، وعوض الإنجليز عن خسائرهم بها (260).

كما عقد معاهدة للصلح مع إسبانيا بعد معاركها مع قبيلة زناتة، على أن يدفع لها ديات القتلى (261) الإسبان.

وفي عهده خرج نواب الأسيبان من مراسي المغرب سنة 1303هـ، بعد أن ظلوا بها عشرين سنة، لاستيفاء المبلغ الذي وقع عليه الصلح بعد حرب تطوان (262) سنة 1860 م.

وقد أصدر السكة الحسنية تدعيما للإقتصاد الوطني (263)، وأنشأ مصرفا للدولة لمواجهة التحديات الاقتصادية، ومنع القروض الأجنبية كلها. كما أسقط المكوس على الأبواب والأسواق (264) بعد أن كان فرضها ردعا للمتنتطين.

(259) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 129-133، وبه كتاب أهل فاس للسلطان في هذا الشأن، والمصدر السابق ج، ص: 134-135، وبه كتاب السلطان إلى الأمصار في شأنه، وهو مؤرخ في 20 ذي القعدة 1290هـ، والمصدر السابق و ج، ص: 132، وبه كتاب السلطان المولى الحسن الأول إلى الأمصار، وهو بتاريخ 4 ربيع الثاني سنة 1291.

(260) المصدر السابق، و ج، ص: 143-144.

(261) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 20، ص: 128، 1399-1979م نضال العلويين من أجل الوحدة لعثمان بن خضراء.

(262) المصدر السابق و ج، ص: 205-206، ومجلة المناهل، ع: 36 س: 4، ص: 325-333، 1407هـ-1978م.

(263) المصدر السابق و ج، ص: 177، والمبلغ هو 20 مليون ريال إسباني.

(264) الإتحاف لابن زيدان، ج: 2، ص: 431-433، ومظاهر يقظة المغرب، للمنونني، ص: 116-117.

وأنشأ المطبعة بفاس سنة 1885م (265)، كما أنشأ المعامل (266) للسكر، والقطن، وغير ذلك، ونظم البريد سنة 1310هـ-1892م (267) والجبايات (268) وعمل على تطوير العلاقات الخارجية بالمغرب، فأحدث منصب النائب السلطاني بطنجة، للحوار مع سفراء الدول الأجنبية ونوابها.

وفأوض الدول الأجنبية على تعديل الحمایات الشخصية (269)، وحل مشكل الجمعيات اليهودية في أوروبا التي قامت بتدخلات لصالح اليهود المغاربة -على أساس أحكام الشريعة الإسلامية (270).

كما قام بإعادة تنظيم الجيش سنة 1870-1894م، بتعاون مع تركيا وتونس والجزائر من الدول الإسلامية، وبلجيكا، وإيطاليا والولايات المتحدة، من الدول الغربية (271)، حتى عرف عهده بعهد الإصلاحات العسكرية. وحاول إحياء الأسطول المغربي، فاشترى قطعاً حربية، وأوصى بصنع الأخرى (272) كما أنشأ معملاً للسلاح والذخيرة (273) سنة 1308هـ وافتتحه في مهرجان كبير (274).

-
- (265) الاستقصا للناصرى، ج: 9، ص: 179-181 وبه نص رسالته إلى عامل سلا في الموضوع، وهي بتاريخ 9 شعبان 1303هـ.
- (266) فاس قبل الحماية، ص: 98.
- (267) مظاهر يقظة المغرب للمنونى، ج: 1، ص: 107-108.
- (268) المصدر السابق وج، ص: 123.
- (269) المصدر السابق وج، ص: 132.
- (270) الإتحاف لابن زيدان ج: 2، ص: 279-280 و301 و311-312، وكتاب مركز الأجانب في مراكش، لمحمد بن عبود ص: 36-37.
- (271) الاستقصا للناصرى، ج: 9، ص: 227-228 والإتحاف لابن زيدان ج: 2، ص: 298 و301-316.
- (272) الاستقصا للناصرى، ج: 9، ص: 206-207 والإتحاف لابن زيدان ج: 2، ص: 495-494، ومظاهر يقظة المغرب للمنونى ج: 1، ص: 84-83.
- (273) مظاهر يقظة المغرب، للمنونى، ج: 1، ص: 87، وزهرة الأفنان، ج: 2، ص: 304.
- (274) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 100 والإتحاف لابن زيدان، ج: 2، ص: 488-499، ومظاهر يقظة المغرب، للمنونى، ص: 99-100.

وفي هذا الصدد أصلح الأبراج وشيد أخرى، وحصن الشواطئ والمراسي (275) وحرّم التبغ (276).

وأبرم معاهدة للسلام والتعاون التجاري مع الدول الأوروبية تحدد ضرائبهم سنة 1298هـ (277)، لكنهم طالبوا بتخفيضها سنة 1303هـ، فاستفتى المولى الحسن الأول الشعب فوافقه أهل الحل والعقد على ذلك (278).

وأرسل سفارات إلى كل من فرنسا وبريطانيا، وإيطاليا وبلجيكا برأسة الطاهر الزبدي، فعاد الوفد منها سنة 1293هـ (279).

وفي سنة 1294هـ، جاءه سفراء فرنسا وإسبانيا والبرتغال في شأن إنشاء المواصلات المختلفة والبريد بالمغرب (280)، كما أرسل هو سفارات أخرى إلى إسبانيا سنة 1284هـ (281).

وجاءت معاهدة مدريد لتسوي جميع المشاكل السياسية والتجارية وغيرها مع الخارج (282)، على حساب مصالح المغرب (283).

(275) البستان الجامع للسابعي، م.خ.ع. بالرباط رقم 1346، ومظاهر يقظة المغرب، للمنونى، ج: 1، ص: 99.

(276) المصدر الأول، ص: 107-108، والتحفة السنوية للكرودي، ص: 25-29، والسلاة، ج: 3، ص: 232. الاستقصا، للناصرى، ج: 4، ص: 234. ط: المصرية، والعز والصولة، لابن زيدان ج: 2، ص: 197-202، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 284-285.

(277) المصدر السابق ص: 284-286.

(278) الاستقصا للناصرى ج: 9، ص: 174.

(279) المصدر السابق وج، ص: 182 ونص كتاب الاستفتاء، ص: 182-184 من نفس المصدر.

(280) الاستقصا للناصرى ج: 9، ص: 151، وعن هذه الرحلة كتب كاتب الوفد إدريس الجعدي رحلته «تحفة الأخبار».

(281) الاستقصا للناصرى ج: 9، ص: 162.

(282) المصدر السابق وج، ص: 164.

(283) تاريخ المغرب، ج: 2، ص: 152.

وتجلى اهتمامه بالصحراء المغربية في إرسال أسطوله لصد المستعمرين الغزاة، كما وصل برا إلى حدود شنكيط والساقية الحمراء (284)، في حملة ترأسها بنفسه، لتفقد أحوالها، وتنظيم شؤونها.

وأرسل إليه أهل توات يؤكدون بيعتهم وولاءهم، فخيرهم بين أن ينتخبوا عاملا منهم، أو أن ينضموا إلى عمالة تافيلالت - ووجدة، فاخاروا عاملهم وظلوا تحت سلطته وحكمه (285).

وترك آثارا عمرانية لا يحصيها عد (286)، وخاصة بفاس التي شيد بها القصور، والمنترهات سنة 1293 هـ (287).

وتوفي -رحمه الله- سنة 1311 هـ - 1894 م، بتازة، ونقل إلى الرباط حيث دفن بضريح جده سيدي محمد بن عبد الله (288).

مولاي عبد العزيز - مولاي عبد الحفيظ - مولاي يوسف

(1311-1346 هـ - 1894-1927 م).

المولى عبد العزيز (289) (1311-1325 هـ - 1894-1907 م)

تولى بعد وفاة والده سنة 1311 هـ - 1894 م، بوصية منه ساعة احتضاره، ويتدبير من الحاجب باحماد، الذي سمي نفسه بالوزير الأول والوصي على العرش، فاستولى على الحكم باسم المولى عبد العزيز، الذي كان صبيا

(284) المغرب قبل الحماية، ص: 59-60، والأدب المغربي المعاصر، ص: 14، والدول هي: المغرب

بريطانيا فرنسا ألمانيا بلجيكا، الدنمارك، إسبانيا، السويد هولندا إيطاليا، البرتغال و النمسا.

(285) دعوة الحق ع: 4، س: 10، ص: 76-77، 1386 هـ - 1967 م بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن

تاويت التطواني، والاستقصا للناصري ج: 9، ص: 150-151

(286) تاريخ الحضارة المغربية لابن عبد الله، ج: 2، ص: 65.

(287) الدرر الفاخرة لابن زيدان: 97-104.

(288) الاستقصا للناصري ج: 9، ص: 159-160، والمصدر السابق وج، ص: 206-207، والحلل

البهية للمشرقي، ص: 240-267.

(289) الحلل البهية للمشرقي، ص: 367-372.

في الثالثة عشرة من عمره (290). لكن باحماد توفي بعد خمس سنوات فقط من توليته، فظل المولى عبد العزيز في مواجهة أحداث جسيمة، وأخطار محدقة، من جراء تصارع الوزراء وأطماع الأوربيين المتنافسين على المغرب، مما عجز عن مواجهته وحده. زيادة على كثرة الثورات والفتن الداخلية بتحريض وتدبير من الأجانب الأوربيين (291) الطامعين في خيرات المغرب، كثورة الجيلالي بن ادريس الزرهوني الملقب بالروكي، وثورة أحمد الريسوني، الذي صار مجاهدا ضد الاستعمار.

هذا زيادة على مأساة الواحات، وأحداث الحدود المغربية الشرقية، ثم الجنوبية.

وزاد الطين بلة، إصرار الدول الأوربية على إدخال إصلاحاتها إلى المغرب حسب مصالحها ومخططاتها، وشروطها، ثم القروض الأجنبية المفروضة على المغرب أيضا، والاتفاقيات الثنائية وغيرها، بين الدول الأوربية المتآمرة، السرية منها والعلنية...

وكان أخطر هذه الأحداث احتلال وجدة والدار البيضاء من طرف الغزاة المستعمرين، وثورة المولى عبد الحفيظ ومبايعته بمراكش (292).

ورغم كل هذه الأحداث والمشاكل فقد قام المولى عبد العزيز بمحاولات جبارة لإنقاذ الموقف على جميع الجبهات والأصعدة.

فقد شملت إصلاحاته الجهاز الإداري، فنظم الجبايات والمواصلات، وخاصة بالبادية (293)، واهتم بالدفاع (294)، حيث كون مجلسا وزاريا

(290) المسألة المغربية، لمحمد خير فارس، ص: 165، ومظاهر يقظة المغرب للمنوني، ج: 2، ص: 5، المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 287-288 و 290-291.

(291) اللسان المغرب، م.خ.م. بالرباط، رقم: 97، ج: 1، والفكر السامي، ج: 4، ص: 205، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 290-291، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 302.

(292) مظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ج: 2، ص: 9.

(293) المسألة المغربية، ص: 120، ومظاهر يقظة المغرب للمنوني، ج: 2، ص: 69.

(294) المسألة المغربية، ص: 120، ومظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ج: 2، ص: 69-70.

ينعقد يوميا لمتابعة ما يستجد من القضايا الهامة (295) وطور أعمال البلديات كتنظيف المدن، وتفقد السجون (296).

كما قدمت للمولى عبد العزيز بدوره مشاريع إصلاحات مغربية صميمة، تؤكد يقظة المغرب في مطلع القرن العشرين، وشعور المغاربة بالأخطار المحدقة بهم، والتعامل مع السلطان في محاولة لإنقاذ البلاد.

لذلك استطاع استرجاع رأس طرفاية بالتفاوض مع الأنجليز ومقابل تعويض سنة 1313هـ، (297)، كما استقبل وفدا إنجليزيا برئاسة أرنور نيكلسون سنة 1896م (298)، ولما زار إدوارد السابع الأنجليزي جبل طارق سنة 1321هـ، أرسل المولى عبد العزيز وفدا لتهنئته.

وقد كرس المولى عبد العزيز جزء من اهتمامه للصحراء المغربية، فقد أرسل لجنة إلى شنكيط لتفقد أحوالها وإصلاح شؤونها، وتسليم ظهائر التعيين لكبار المسؤولين بها وتنصيبهم بكل من السمارة، والساقية الحمراء، وقد اجتمعت هذه اللجنة بالشيخ ماء العينين.

كما استتجدت قبائل شنكيط بالمولى عبد العزيز، لما وصلت الجيوش الفرنسية إلى حدودها بعين صالح، سنة 1217هـ، فنادى المولى عبد العزيز للجهاد لصدّها، كما قدم احتجاجا رسميا بواسطة سفيره الدائم بطنجة الطريس.

وتضامنت توات مع أهل الصحراء تحت لواء السلطان المولى عبد العزيز، فساهمت في الحملة ماديًا وميدانيًا، لكن بعد معارك

(295) الحلل البهية للمشرقي، ومظاهر يقظة المغرب للمنوني، ج: 2، ص: 63-64، وفواصل الجمان لفريط، ص: 95.

(296) مظاهر يقظة المغرب للمنوني، ج: 2، ص: 118-124، والتيارات لحركات، ص: 129.

(297) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 77-84، 1386-1967، بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني.

(298) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 287-291، ودعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 77-78، 1386-1967، بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني.

عنيفة ودفاع مستميت استولى الفرنسيون على كورارة سنة 1900م، ثم على توات سنة 1901م.

ورغم محاولات المولى عبد العزيز الجبارة على جميع المستويات والأصعدة، اتسع الخرق على الراقع، بانهايار الاقتصاد المغربي، واستفحال الديون الأجنبية، وهي الثغرة المالية التي أحدثها الأجانب عمدا، ليتسربوا من خلالها، كما فعلوا في مصر.

وقد حاول المولى عبد العزيز مدافعة الأجانب بعضهم ببعض، ولما أعياه الأمر، طلب عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء، الذي ضمن فيه اعتراف الدول المشاركة فيه بكيان الدولة المغربية، واستقلال المغرب ووحدته، الترابية(299).

وكان طلب المولى عبد العزيز لعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1325هـ-1905م، مرفوقا بوجهة نظر الدولة المغربية (300)، مؤكدا على أن تحضره الدول التي وقعت على اتفاقية مدريد لدراسة الإصلاحات المقترحة وتحديد ميزانية لإنجازها (301).

وعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1323هـ-1906م، ونشر نصه سنة 1907م، بعد أن وقعته الدول الإثنى عشر الموقعة على اتفاقية مدريد(302). وما إن تم توقيع عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء حتى عمت انتفاضة شعبية عارمة، نتيجة لليقظة والوعي السياسي، وذلك بزعامة النخبة المثقفة المغربية، التي فجرت الشعور الوطني ضد السياسة الاستعمارية، والسخط على المولى عبد العزيز، والمطالبة بعزله في عرائض تحمل مئات التوقيعات،

(299) تاريخ الحضارة المغربية، لابن عبد الله، ج: 1، ص: 125، وفي الأدب المغربي المعاصر ص: 14.

(300) الحلل البهية للمشرفي، ص: 367-372، والمسألة المغربية ص: 270-271.

(301) الدولة العربية المتحدة، ج: 2، ص: 272.

(302) المسألة المغربية ص: 351-374، و409، ومقدمة تعريب ميثاق الجزيرة الخضراء، للترجمان

الطاهر بن محمد بن الحاج الأودي، كراسة : 14.

مما اضطره للتنازل عن العرش سنة 1326هـ-1908م، والاستقرار بطنجة (303).

وترك آثارا عمرانية عديدة (304) بين بناء وتجديد وإصلاح (305). وكان تنازله عن العرش سنة 1326هـ-1908م، حيث استقر بمدينة طنجة.

المولى عبد الحفيظ (306) : (1325-1330هـ - 1907-1912م).

بويع على إثر انتفاضة شعبية عارمة ضد أخيه المولى عبد العزيز، الذي وقع معاهدة الجزيرة الخضراء، سنة 1323هـ-1906م. وكانت بيعته بمراكش، حيث كان خليفة عن أخيه عبد العزيز، منذ سنة 1314هـ-1896م، وحيث أعلن رفضه لسياسة أخيه، وبالتالي ثورته عليه.

وتمت بيعته سنة 1325هـ-1907م، فتنازل له المولى عبد العزيز، حقنا لدماء المسلمين، وحفاظا على الاستقرار، سنة 1326هـ-1908م (307).

لكن وثيقة البيعة الحفيظية قيدت بيعته بشروط تعتبر أساسا، وشرطا لصحتها، وجعلت بيعته مرهونة بتنفيذه لها. وكانت هذه الشروط باقتراح من الشيخ محمد عبد الكبير الكتاني (308) التي تبناها الرأي العام المغربي وممثلوه، الذين وقعوا البيعة الحفيظية (309).

(303) لحظات للشنكيطي، ص: 96-197، والمغرب قبل الحماية، ص: 64-65، والمسألة المغربية ص: 259-271، ومظاهريقطة المغرب، للمنونني، ج: 2، ص: 189، والاستبصار للايبي، ص: 97، والعلائق السياسية للدولة العلوية، لابن زيدان، ص: 58، وجريدة صحراء المغرب، ع: 71-72، ص: 5-6.

(304) بدليل ما هو مكتوب على الجبص ببهوها.

(305) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 109-115.

(306) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 117.

(307) المصدر السابق و ص.

(308) ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص: 200-201 المصدر الأول .

(309) مظاهر يقطة المغرب للمنونني، ج: 2، ص: 349-353، ونص البيعة الحفيظية بنفس المصدر، ص: 354-358.

وكان على رأس هذه الشروط : تنظيم الجيش وتجهيزه على أحدث طراز(310)، وإنشاء وزارة خاصة به، مما أكدته مشروع دستور العهد الحفيظي سنة 1908م، ومشروع بنسعيد وغيرها من المشاريع الدستورية التي تؤكد طموح المغاربة للملكية الدستورية(311).

وعجز المولى عبد الحفيظ عن الوفاء بعهوده، وعن تنفيذ شروط بيعته تحت وطأة الضغوط الأجنبية عليه، إذ علقت الدول الأوروبية اعترافها به بشروط أخرى مناقضة لشروط بيعته، وأصبح محاصرا في قصره من طرفها بين نارين (312). وأهم شروطها للاعتراف به : إلغاؤه للجهاد حفاظا على أرواح جالياتها وجنودها، واعترافه بديون أخيه عبد العزيز لها.

وبعد مماطلة وأخذ ورد، قبل شروطها، فاعترفت ببيعته وعرشه. لكن الشعب ثار بالمدن والقرى، ولم تلبث مكناس أن خلعت، وبايعت المولى اليزيد. فتقدم الجيش الأجنبي -باسم المولى عبد الحفيظ- للقضاء على الثورات التي اندلعت في كل مكان، وكان مصير أفراده القتل والموت جوعا وعطشا، ومرضا، للمقاطعة الشعبية العامة له (313).

وكان توقيع المولى عبد الحفيظ لمعاهدة الحماية يوم 30 مارس، 1912م، موافق 11 ربيع الثاني، 1330هـ، في العاشرة صباحا بقصر فاس (314).

ونتيجة للضغط الكبير والغضب العام على المولى عبد الحفيظ، والاصطدامات الدامية مع الأجانب نقل الفرنسيون عاصمة المغرب إلى الرباط.

(310) التيارات، لحركات، ص: 129.

(311) الدستور الأول اقترحه الحاج علي زنيبر من سلا، والثاني للشيخ عبد الكريم مراد السوري، والثالث يجهل صاحبه.

(312) المغرب قبل الحماية ص: 66.

(313) المغرب قبل الحماية، ص: 66.

(314) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 348.

وفي الرباط اضطر المولى عبد الحفيظ للتنازل عن العرش لصالح أخيه المولى يوسف (315)، في 6 يونيو 1912م.

وانتقل إلى الرباط، ثم إلى طنجة (316)، ففرنسا حيث استقر.

وتجلى رد الفعل للشعب المغربي في المقاومة المسلحة، والجهاد في جميع الأقاليم والنواحي ضد الاستعمار، مما استمر إلى سنة 1933م (317)، حيث انطلق الكفاح والنضال السياسي (318).

ويعترف ميكيل مرتين بأن "إسبانيا وجدت نفسها أمام شعب منظم، له حضارته الخاصة، ويمتاز - رغم تخلف تطويره- بحب الحرية والأرض والوطنية" (319).

أما على الصعيد المحلي الداخلي، فكانت أهم الثورات، ثورة "بوحمارة"، الذي تعاون مع الأجانب -كما مر بنا-

فقد قبضته عامة الشعب، في زاوية مولاي عمران سنة 1327هـ، 1909م، وأدخل إلى فاس داخل قفص، حيث قتل رميا بالرصاص، وأحرقت جثته.

(315) المغرب قبل الحماية، ص: 66-67، ونص معاهدة الحماية بنفس المصدر، ص: 67-69، المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 345-347، وهذا النص للحماية هو ترجمه للنص الذي أورده محمد الباقر الكتاني، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 340.

(316) المغرب قبل الحماية، ص: 66، وكان الجهاد والمقاومة المسلحة بزعامات وطنية كهبة الله ماء العينين، والأمير محمد عبد الكريم الخطابي، وموحي أحمو الزياتي، وغيرهم من الأبطال الذين أذكت انتصاراتهم الاعتزاز بالذات والشعور الوطني، وبعثت الأمل في الاستقلال والوحدة.

(317) في الأدب المغربي المعاصر، ص: 15-16.

(318) الاستعمار الإسباني بالمغرب، لميكل مرتين، ترجمة عبد العزيز الأديبي، ص: 6-9.

(319) المصدر السابق، ص.

وقضى الجيش الفرنسي على بقية الثورات كثورة مكناس، حيث أرغم المولى اليزيد على التنازل عن العرش، كما أرغم ثوار الأطلس على بيعه المولى يوسف (320)

وفي فرنسا أمعنوا في مضايقته انتقاما منه لتعنته معهم (321). وفي ذلك يقول الكاتب الفرنسي بوك يوتان (322) "لقد فرضنا المعاهدة على السلطان فرضا (323)".

ومن أعماله الهامة على الصعيد الداخلي : امتناعه عن الموافقة على احتلال إفني ونواحيها من طرف إسبانيا، لكنها احتلتها رغم رفضه باتفاق مع فرنسا.

وواصل دفاعه المستميت عن الصحراء المغربية، حتى سقطت في يد فرنسا، بدسائس الأحلاف بين الدول الإستعمارية الغربية (324).

وفي إطار تنظيم وتطوير الجيش، استدعى ضباطا أترাকা ووصلوا إلى فاس سنة 1327هـ - 1909م، لكنه أجبر على صرفهم، كما عمل على تنظيم وإصلاح القضاء والفتوى الشرعية، وحدد عدد المؤهلين لها من العلماء.

(320) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج:3، ص: 341، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 169-171، 1405هـ-1985م، أسرار عن موقف المولى عبد الحفيظ من معاهدة فاس، لمحمد العربي الشاوش، ومجلة السلام، ع: 4 شهر يناير 1934م، مقالة لمحمد داود، ومجلة دار النيابة، س: 5، ع: 17، ص: 33، 1988، وتاريخ المغرب في القرن العشرين، لروم لاندو، ص: 108، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 171 وبعدها 1405هـ-1985م، أسرار عن موقف المولى عبد الحفيظ من معاهدة فاس، لمحمد العربي الشاوش.

(321) دعوة الحق، ع: 246، ص: 172-173، 1405هـ-1985م، أسرار عن موقف المولى عبد الحفيظ من معاهدة فاس، لمحمد العربي الشاوش، واعتمادا على رسالته الإخوانية بخطه إلى صديقه العلامة أحمد الرهوني.

(322) في كتابه مأساة المغرب.

(323) المصدر الأول، ص: 173.

(324) تاريخ الحضارة المغربية، لابن عبد الله، ج: 2، ص: 65.

وأدخل تعديلات جذرية على بروتوكول التشريفات الملكية، وطورها. فهو أول من أنشأ الوسام العلوي بمراتبه، وأول من تقلد الوسام الأجنبي من الملوك العلويين، وأول من نزع -العمامة والجلابة- وهو جالس على العرش جلوساً رسمياً- واكتفى بلبسهما في الجمع والأعياد(325).

وفي المجال الاقتصادي رفض شروط القروض الفرنسية المجحفة - رغم أزمة الخزينة المغربية - واشترط للمصادقة عليها انسحاب القوات الفرنسية من الشاوية والمغرب الشرقي. وتعويض الضباط الفرنسيين المدربين للمغاربة، بضباط أترك.

كما رفض وقاوم احتلال إسبانيا لشمال المغرب، بمقتضى اتفاقية بينها وبين فرنسا سنة 1904م، (326)، فقد وجه احتجاجاً إلى السفارة الإسبانية بطنجة، مطالباً بجلاء إسبانيا عما احتلته من أرض المغرب (327).

وترك آثاراً عمرانية ضخمة في مختلف المرافق الحيوية (328). وتوفي بفرنسا سنة 1356هـ - 1937م، ودفن بضريح سيدي محمد بن عبد الله بالرباط، إلى جوار أخيه المولى يوسف، الذي توفي قبله.

واهتم محمد الخامس طيب الله ثراه بجنائز عمه أيما اهتمام، وخاصة في الأيام الثلاثة الأولى (329).

(325) مجلة دار النيابة، ع: 17، س: 5، ص: 33، 1988، والدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 125.

(326) مجلة دار النيابة، ع: 17، س: 5، ص: 49، 1988م.

(327) المصدر السابق، ص: 50-51، وذلك في 18 شتنبر 1909م.

(328) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 123-125.

(329) المصدر السابق، ص: 117-119.

المولى يوسف : (330) (1330-1346هـ - 1912-1927م)

ببيع بالرباط بتوصية من أخيه السلطان المتنازل عن العرش باختياره، رفضا للحماية -المولى عبد الحفيظ سنة 1330هـ-1912م، بمحضر أهل الحل والعقد من العلماء والشرفاء، والأعيان والوجهاء، ثم ببيع بفاس ومكناس، بعد أيام قلائل.

وما إن تمت بيعته حتى أصدر بلاغا بذلك إلى جميع أنحاء المملكة، تبعا لسنة أسلافه الميامين (331).

وكان طيبا لين الجانب، ورعا تقيا، متواضعا لله... وقام بأعمال جليلة، حسب ماتسمح به ظروفه كملك تحت الحجر والحماية.

فقد حارب البدع، وخاصة في الأفراح والمناسبات الاجتماعية المختلفة، فأصدر ظهيرا بذلك (332).

وعمل على إصلاح المحاكم، وتصحيح الأحكام، (333)، واختيار المفتين.

ومن آثاره العمرانية: تجديد عدد من المساجد والمدارس، والأضرحة، والأقواس، وغيرها (334).

وتوفي إلى رحمة الله سنة 1346هـ-1927م، ودفن بضريح جده المولى عبد الله بن المولى إسماعيل.

(330) ترجمته بالدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 126-127.

(331) المصدر السابق، وص، وبه نص الكتاب الموجه إلى الأقاليم.

(332) نص الظهير بالمصدر السابق، ص: 130-133.

(333) دعوة الحق، ع: 4، س: 12، ص: 160-166، 1388هـ-1969م، مقالة للتهامي الراجي الهاشمي.

(334) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 138.

سيدي محمد بن يوسف (335) (1346-1381هـ - 1927-1961م)

بويغ بفاس بعد وفاة والده المولى يوسف، سنة 1346هـ-1927م، وراسل عمال الأقاليم بذلك (336).

ورغم صغر سنه، والوجود الاستعماري الذي كان يكبل عرشه ببنود معاهدة الحماية فقد استطاع جلالته أن ينفخ في الشعب روح الكفاح والنضال، وأن يهيئه لتحمل مسؤولية الحرية والاستقلال، فعمل على صعيدين متوازيين :

فمن جهة عمل على تكوين أطر دولته المستقلة، وبناء أسس هياكلها، وبنياتها التحتية، وتشكيل شرائحها الاجتماعية لبنة لبنة، وعلى المدى البعيد، حتى لا يتفطن الاستعمار لمراميه وأهدافه، وينسف قواعده.

ومن جهة أخرى عمل -على رأس الحركة الوطنية- على إذكاء الوعي الوطني والقومي والديني، وتوحيد الأهداف الوطنية، وتحديدتها للمواطنين، في أحضان الحركة السلفية، وبعيدا عن الزوايا، التي سار جُلها في ركاب الاستعمار طيلة مرحلة الحماية الحالية.

وفي هذا الصدد أسس جمعية الكشافة المغربية، وجعل ولي عهده -إذ ذاك- المولى الحسن رئيسا لها، وسماها باسمه، وأصدر مرسوما وزاريا بذلك، ولم يلبث أن نصَّبه وليا للعهد، ووجه إليه نصيحة قيمة، نشرها بوسائل الإعلام المختلفة (337).

كما أسس جمعية للنشر والترجمة، وجمعية للوكلاء الشرعيين، ونظم امتحان البكالوريا، بالمدارس الثانوية، وخصص منحا للدراسة العليا بالخارج، وخاصة بفرنسا.

(335) ترجمته بالدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 139-217.

(336) المصدر السابق، ص: 139-140، ونص الرسالة بنفس المصدر، ص: 140-141.

(337) نص النصيحة بالمصدر السابق، ص: 194-195، ودعوة الحق ع: 8، س: 12، ص: 15-21.

وصية والد صالح إلى ابن بار.

ومن جهة أخرى فقد أحيى سنة أسلافه بركوب الخيل قبل الشروق،
وألغى هدايا الولاية للسلطان في الأعياد، ترفعا وعفة، كما أحيى صلاة
الاستسقاء.

واستجابة لطلب الهيئات السياسية الوطنية، اتخذ جلالتة ذكرى جلوسه
على العرش عيداً وطنياً رسمياً، وأصدر قراراً وزارياً بذلك (338)، فتبارى
الشعب في الاحتفال به، تعبيراً عن تأييده وحبه له، متخذاً منه مناسبة
لإسماع صوته، والمطالبة بحقوقه الوطنية الثابتة، وتعزيزاً للسيادة الوطنية،
والمركز الدولي للمغرب.

كما عمل على نشر التعليم بالمدن والقرى، وبدأ بالأمراء والأميرات من
أبنائه، فكانوا رواداً للنهضة العلمية الحديثة المباركة بالمغرب.

وعلى الجبهة الموازية، خاض النضال والكفاح والجهاد على رأس شعبه
ضد الاستعمار بضراوة، فكان قائداً ورائداً لشعبه في معاركه، وكان هناك
تناسق وتلازم بين عمل الحركة الوطنية والقصر الملكي في جميع المواقف
والإجراءات، كالظهير البربري (339) الذي صدر سنة 1930م، وهو نفسه
الظهير البربري الذي صدر سنة 1914م، وإنما أدخلت عليه تعديلات
طفيفة (340).

(338) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 145.

(339) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 217-226، ودعوة الحق، ع: 234، ص: 41، 1404هـ-1984م،
الاحتفال بعيد العرش، لأحمد معنينو، وبها نص القرار الوزاري، ومجلة المناهل، العدد: 36،
س: 4، ص: 435، وتاريخ العالم المعاصر، لعبد الله العمراني، ص: 131-132، ط: 1، ومنشور
عمالة إقليم تطوان في الذكرى الفضية لتربع جلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه
الكرام، لمحمد العربي الشاوش، ص: 75-78 بعنوان: قصة عيد العرش بتطوان، ودعوة الحق،
ع: 200، ص: 61، 1981، فكرة الاحتفال بعيد العرش انبثقت من صميم الشعب المغربي، لأبي
بكر القادري.

(340) (حاضر العالم الإسلامي) للوثروب ستودارد الأمريكي، ودعجاج نويهض، المجلد الثاني،
ص: 330-331، البطون العلوية بشمال إفريقيا، لشكيب أرسلان.

وكان هذا الظهير يستهدف تقسيم المغاربة، وعزل البربر عن سكان المدن، من حيث التعليم واللغة والتشريع والأحكام، وبالتالي عزلهم عن الإسلام. لذلك قاومه الشعب المغربي عربا وبربرا، بقيادة محمد الخامس، وساعدته معنويا أجواء الثورة الريفية التي كانت تحفزه للثورة، وطلائع الحركة السلفية التي كانت تنير سبيله، وتبارك ثورته، (341) في أحضان العلم والمعرفة والحرية بمساعدة ومناصرة العالم العربي والإسلامي.

كما كان محمد الخامس -رحمه الله وطيب ثراه- على رأس النخبة الوطنية المثقفة التي قدمت وثيقة المطالبة بالإستقلال سنة 1944م.

وإذا كانت السلطات الإستعمارية قد اضطهدت رجال الحركة الوطنية بالسجن والنفي والتعذيب، ومحاربة التعليم الحر ومصادرته (342)، فإنها ضاقت محمد الخامس في قصره، وأخذت تحيك خيوط المؤامرة للإطاحة به منذ ذلك التاريخ.

فقد منعه سنة 1934م من أداء الصلاة بالقرويين، لما تأكد لها أنه هَيَأً قضية البرنامج الاصلاحى الذى قدمته الكتلة الوطنية للإقامة العامة، والذي يعتبر منعطفاً في تاريخ الحركة الوطنية، ونقطة تحول لها من المقاومة المسلحة، إلى النضال السياسى جهارة.

لذلك بادرت الإقامة العامة إلى حل الكتلة الوطنية -التي تعمل بتنسيق مع الملك محمد الخامس، وحسب تعليماته وتوجيهاته- سنة 1937م، لكنها خرجت للوجود من جديد باسم الحزب الوطنى، الذى احتج على السلطات الاستعمارية التي صادرت الحريات العامة، وقمعت الوطنيين، واستأثرت بخيرات البلاد ومياه الري، وتوزيعها بمكناس. فبادرت الإقامة العامة

(341) كان المقيم العام إذ ذاك بالمغرب هو لوسيان سان وكان يرأس الفاتكان خفية، لأن الفاتكان وعده بمبالغ باهضة لبناء مدارس وكنائس ومستشفيات تبشيرية، إذا قضى على الإسلام بشمال إفريقيا، ومنعه من التمركز ببلاد البربر.

(342) قصة النهضة، لأبي بكر القادري، ص: 19-21.

إلى حل الحزب الوطني بدوره سنة 1937م، وأمعنت في تتبع قاداته وامتحانهم بالسجن والنفي والتشريد. لكنه لم يلبث أن خرج للساحة السياسية من جديد باسم حزب الاستقلال، مطالباً بالاستقلال التام، سنة 1944م وبإلغاء عقد الحماية، معلناً تشبثه بالنظام الملكي القائم، وولاءه للملك محمد الخامس -الذي كان يعمل تحت إمرته ورتاسته-.

واغتازت السلطات الاستعمارية من هذا الالتحام والتفاهم والتعاون بين الملك والحركة الوطنية والنخبة المثقفة، وبالتالي بين الشعب المغربي وملكه، فبدأت المعركة بين الإقامة العامة والقصر الملكي.

فقد منعت زيارة محمد الخامس إلى مدينة طنجة سنة 1947م (343). ولما رأت تصميمه على القيام بها عملت على عرقلتها بكل الوسائل، كافتعالها لأحداث مدينة الدار البيضاء، واشتراطها عليه الإشادة في خطبته -خلال رحلته- بفرنسا وأعمالها الحضارية بالمغرب... لكنه قام برحلته غير عابئاً بمؤامراتها، وعبر في خطبه عن تشبثه بالعروبة والاسلام، وتطلع المغرب للانخراط في الجامعة العربية، وتمسكه بسيادته ووحدته الترابية.

لقد وقف محمد الخامس طيب الله ثراه مواقف بطولية خالدة، سجلها له تاريخ المغرب في سجل الخالدين بمداد الفخر والاعتزاز، وأهمها : أنه كان لا يترك فرصة ولا مناسبة دون أن يذكر بقضية بلاده العادلة، التي كانت هاجسه الأول والأخير.

فلقد ألقى كلمة ببلدية باريز (344) أيام معرضها الإستعماري في حفلة أقامها المارشال اليوطي، ذكرهم فيها بأن المغرب دولة ذات كيان مستقل، وشكر فرنسا على إصلاحاتها، موضحاً أهمية المصالح المتبادلة بين

(343) قصة النهضة، لأبي بكر القادري، ص: 39، وتاريخ العالم المعاصر، لعبد الله العمراني، ص: 329، ط: 1.

(344) نص الكلمة بالدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 143-144.

البلدين، وخاصة فيما يتعلق بعمالنا وطلبتنا هناك وبالجالية الفرنسية بالمغرب.

وفي مؤتمر أنفا سنة 1943م، حاول استثمار مساهمة المغرب في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء، فطالب فرنسا بإنجاز وعودها للمغرب. وكرر ذلك في المهرجان العسكري الذي أقيم بالعاصمة الفرنسية سنة 1370هـ-1945م، والذي حضره بصفته رئيس دولة مساهمة في الحرب العالمية الثانية برجالها، وشاركت في صنع النصر وتحقيقه، حيث حاول توظيف ذلك في خدمة القضية المغربية المصيرية، فطالب فرنسا بالوفاء بعهودها للمغرب، كما كرر ذلك في زيارته لتونس سنة 1368هـ-1949م، ثم قام برحلاته المكوكية المتتابة إلى فرنسا في هذا الصدد. ذلك أنه وقف إلى جانب فرنسا الحرة، ورفض تطبيق قوانين وتعليمات حكومة فيشي على اليهود المغاربة، وسمح بإنزال جيوش الحلفاء في الشواطئ المغربية سنة 1942م.

وقدر الجنرال دو كول مواقف (345) محمد الخامس -طيب الله ثراه- النبيلة حق قدرها، وعبر عن شكره وامتنانه له ولشعبه.

ولما زار محمد الخامس فرنسا بعد توقف الحرب العالمية مباشرة، سنة 1945م، استقبله دو كول استقبالا عظيما، وقلده وسام الحرية، وأطلق عليه لقب (رفيق التحرير)، تقديرا لمساهمته، ومساهمة شعبه مساهمة فعالة في تحرير فرنسا وانتصارها.

ولما زار دو كول المغرب سنة 1953م، أكد شكره وامتنانه للملك محمد الخامس، وللشعب المغربي، وأعرب عن استعداده لرد الجميل إليهما، معترفا بالروح الوطنية والنضالية العالية التي يتمتع بها جلالته المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه.

(345) المقاوم عدد : 18 يونيه سنة 1940م

وكانت زيارته لطنجة سنة 1947م، حدا فاصلا بين عهد البناء والتأسيس السري الصامت، وبين عهد الكفاح والنضال جهارة. كما كانت منعطفا على طريق المواجهة الصارمة للاستعمار وأذنايه.

وفي هذه الزيارة الميمونة قدم أبناءه وبناته روادا وقادة للشباب والشابات، ومثلا أعلى ونموذجا يحتذى في الدعوة والعمل من أجل الحرية والإستقلال، حيث خطب كل من ولي العهد المولى الحسن، والأميرة الجليلة للا عائشة قائدة النهضة النسوية -إذ ذاك- بمختلف اللغات، فكان بذلك رائدا لتحرير المرأة المغربية دون منازع.

وفي خطابه بطنجة، أكد تطلع الأمة المغربية للحرية والإستقلال، ورغبتها العارمة في الإنضمام إلى الجامعة العربية، والإندماج في الوحدة الإسلامية.

ولما استدعاه رئيس جمهورية فرنسا لزيارتها سنة 1950م (346)، رغبة في تحسين العلاقات وتلطيف الأجواء بين البلدين، تمسك بحق المغرب في السيادة والحياة الحرة الكريمة، وقدم مطالب دولته في مذكرة رسمية إلى الحكومة الفرنسية التي أجابت عنها في نفس السنة 1950م، مقترحة إصلاحات وتعديلات جزئية، في إطار معاهدة الحماية .

ولما رأت أن ذلك لم يستجب لطموحاته رفعت إليه مذكرة جوابية ثانية معدلة وناسخة للأولى، تقترح فيها تعديل عقد الحماية بنوع من الإستقلال الذاتي المحدود، مما رفضه جملة وتفصيلا.

فبدأت الإقامة العامة تحيك الدسائس، وتعمل في الخفاء للتخلص من محمد الخامس نهائيا، بعد أن تأكد لها خطره على الوجود الفرنسي بالمغرب.

فقد عمل على رأس الحركة الوطنية على رفع القضية المغربية إلى هيئة الأمم المتحدة بمساعدة الجامعة العربية سنة 1952م، فأصدرت هيئة الأمم المتحدة قرارا باختصاصها، ولم يلبث المغرب -بقيادة ملكه- أن تقدم إليها

(346) تاريخ العالم المعاصر لعبد الله العمراني ص : 329، ط : 1

بطلب إنهاء عهد الحماية منددا باضطهاد فرنسا للشعب المغربي وملكه،
مدينا سياستها الإستعمارية المنافية لعقد الجزيرة الخضراء، مما أكدته
في خطاب عيد العرش سنة 1952م، حيث دحض ادعاء فرنسا بأن القضية
المغربية قضية داخلية، وعمل على تقديمها أمام محكمة العدل الدولية
بلاهاي، على يد التجار الأمريكيين سنة 1952م.

وتأكدت السلطات الإستعمارية أن استمرار الحماية بالمغرب مرهون
بخلع محمد الخامس عن عرشه، فجمدت العلاقة معه، واستغلت تظاهر
العمال بالدار البيضاء، احتجاجا على قتل الزعيم العمالي التونسي فرحات
حشاد، فواجهتهم بهمجية وقمع شديد، وكلفت باشا مراكش التهامي
الكلاوي بجمع توقيعات عمال وولاية الجنوب على عريضة تطالب بخلع
محمد الخامس عن عرشه (347).

وسار بعض شيوخ الزوايا في ركاب الإستعمار الذي دفع بهم لذلك
الموقف الخاطيء، وتقدم المقيم العام إلى جلالة محمد الخامس، وطلب منه
التنازل عن العرش، ولما رفض، أعلن المقيم العام خلع، ونفاه إلى جزيرة
كورسيكا، ثم إلى جزيرة مدغشقر، حيث تم ترحيله يوم 20 غشت 1953م،
مفضلا النفي والإبعاد على عرش وهمي، في يد المستعمر الغاشم.

وسرعان ما نصبت السلطات الإستعمارية مكانه على العرش أحد أعمامه
محمد بن عرفة، وهو شيخ تجاوز التسعين من عمره، حتى يوقع لها جميع
مشاريعها ومخططاتها الجهنمية ضد سيادة المغرب ومصالح شعبه وإرادة
ملكه، ولم تلبث أن حلت جميع الأحزاب السياسية، وصادرت
جرائدها(348).

(347) دعوة الحق ع : 2 و 3، س : 20، ص : 129 - 133، 1399هـ - 1979 م.

(348) في الأدب العربي المعاصر، لعبد الحميد يونس وفتحي حسن المصري، ص : 17-23

وكان نفي محمد الخامس أول مسمار دق في نعش الوجود الفرنسي بالمغرب أو بداية النهاية لعهد الحماية المشؤوم. إذ تأجج الكفاح الوطني، فاندلعت ثورة وطنية عارمة بقيادة الحركة الوطنية، رغم غياب رؤسائها بالمنافي والسجون.

فقد حمل الشعب مشعل الثورة، ولم يلبث جيش التحرير الوطني أن عزز صفوف المقاومين، ووطد دعائم الثورة الشعبية العامة التي أبت ألا تتوقف إلا بعودة الملك محمد الخامس إلى عرشه، وإلغاء عقد الحماية البغيض، ولم ترض بهذين الشرطين بديلا.

وأمام إصرار الشعب المغربي - قمة وقاعدة - على الإستقلال والوحدة رضخت فرنسا للأمر الواقع، فجلست للتفاوض مع ممثلي الشعب المغربي. وبعد أخذ ورد، اعترفت - على مضض - باستقلال المغرب، ووحدة ترابه، فعاد محمد الخامس إلى وطنه وعرشه ظافرا منتصرا حاملا وثيقة الإستقلال، الذي بشر به شعبه الوفي في مهرجان وطني عظيم، ووسط أفراح صاخبة، كللت ثورة الملك والشعب المقدسة الظافرة، وكانت عودته الميمونة، في 16 نوفمبر 1955م وتوقيع وثيقة الاستقلال، في 2 مارس 1956م (349).

وترفع -رحمه الله وقدم روحه- عن عقاب الخونة، عملا بسنة جده المصطفى الكريم، وقال لهم قولته المشهورة : "إذهبوا فأنتم الطلقاء" إذ لم يتابع أو يعاتب منهم أحدا.

ويعتبر محمد الخامس طيب الله ثراه زعيما ومحورا لإفريقيا بأسرها(350)، فقد ساند استقلال الجزائر سياسيا وعسكريا (351)، وعمل

(349) دعوة الحق ع : 246، ص : 15 - 17، 1405هـ - 1985م، رمز الأصالة والتجديد، لعبد العزيز ابن عبد الله.

(350) دعوة الحق، ع : 2 و3، س : 20، ص : 129-133، 1399هـ-1979م .

(351) في خطاب ألقاه في أكتوبر 1960م، بمناسبة يوم التضامن مع الشعب الجزائري .

على إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية، وعقد أول مؤتمر لها بالدار البيضاء سنة 1960م حيث وضع الميثاق الإفريقي.

وما إن انتهت الإحتفالات بالإستقلال والحرية والوحدة حتى شمر رفقة ولي عهده مولاي الحسن، وعلى رأس شعبه الوفي، لخوض الجهاد الأكبر ضد مخلفات الإستعمار : الجهل والفقر والمرض، ولبناء هياكل الدولة المغربية الجديدة، على أساس التنمية الشاملة، والديمقراطية الحقة، والعدالة الإجتماعية (352)....

وكرس جهوده لإقامة أسس النظام الملكي الدستوري، فوضع أول دستور للبلاد، وعرضه على شعبه للإستفتاء، وشكل أول حكومة وطنية ائتلافية على أساس تعدد الأحزاب، وأنشأ هياكل الدولة الإقتصادية وغيرها، ومؤسساتها : الإجتماعية والثقافية وغيرها، ودشن الإصلاح الزراعي، ودعمه ببعض السدود، كما أنشأ السلك الدبلوماسي.

وعين جملة من السفراء بأهم العواصم العالمية، وأحدث جيشا حديثا منظما على أحدث طراز، وجهزه ودربه، وأسند رئاسته لولي عهده، مولاي الحسن(353).

وشيد آثارا عمرانية لا تحصى بمختلف المدن والنواحي المغربية من مساجد ومدارس، ومارستانات وجمعيات خيرية وأسوار وسقايات عمومية، ومنارات وحصون ومستشفيات وزوايا وأضرحة، وأسواق وطرق... وذلك بين إنشاء وتجديد وتوسيع...

ولبي داعي ربه قدس الله روحه في 10 رمضان 1381هـ الموافق 26 فبراير 1961م، فأجمعت الأمة على تنفيذ إرادته ووصيته، وبايعت ولي عهده، جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده.

(352) في الأدب العربي المعاصر، لعبد الحميد يونس وفتحي حسن المصري، ص: 17-23 .
(353) دعوة الحق، ع: 246، ص: 15-17، 1405هـ-1985م، رمز الأصالة والتجديد لعبد العزيز بن عبد الله .

مولانا أمير المؤمنين الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده.

أجمعت الأمة على بيعته تنفيذًا لعهد ووصية والده المقدس، محمد الخامس طيب الله ثراه في 10 رمضان 1381هـ، الموافق 26 فبراير 1961م. وكان عند حسن الظن به، فحقق معجزات على جميع المستويات والأصعدة، إذ منذ أن قلده الله أمر هذه الأمة، وهو يعمل بهمة لا تعرف الكلل ولا الملل، بفضل عبقريته الخلاقة، والتزامه بالعهد الذي قطعه على نفسه لشعبه أمام قبر والده الطاهر، يوم بيعته وتنصيبه ملكًا على عرش أسلافه المنعمين (354).

لقد جعل مصلحة الوطن العليا نصب عينيه، وفوق كل اعتبار، وسعى لتحقيقها بالنفس والنفيس، ومهما كلفه الثمن، حتى أصبح مثلاً أعلى ونموذجاً يحتذى في التضحية ونكران الذات، فجاء عهده حافلاً بالبطولات والأمجاد، زاخراً بجلال الأعمال، وقام بسلسلة من المسيرات الناجحة، والملاحم البطولية الموفقة الخارقة، مستهدفاً تحقيق حياة أفضل، ومستقبلاً أسعد لشعبه ووطنه وأمته، سائراً على نهج سلفه الصالح، من الخلفاء والملوك العظماء، وسنة خير البرية، جده محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه مآثر ومنجزات عهده الزاهر الفريدة القيمة، مناقب ومكاسب حية ناطقة وشاهدة بعظمته وفضله...

ومما يلفت النظر، ويدعو للتقدير والإعجاب، الإستجابة الشعبية العفوية لنداءاته، التي تنطلق من رسوخ المشروعية، ودولة القانون ببلادنا، ومن متانة وعمق الأصرة التي تربط بين العرش والشعب، على أساس من الكفاح والنضال المشترك، في ثورة الملك والشعب.

(354) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 20، 1389هـ-1979م، ص: 23، خطاب جلالتة أمام قبر والده المنعم، محمد الخامس، بعد دفنه مباشرة.

فقد كان الساعد الأيمن لوالده محمد الخامس طيب الله ثراه، ونجد بصماته واضحة على سياسة والده المنعم، وخاض إلى جانبه جميع المعارك والمواقف المصيرية الخالدة، وخاصة بعد إنهاء دراسته.

فكان خطابه في طنجة سنة 1947م - وهو ولي للعهد- معززا لخطاب والده، إذ لخص أهداف النهضة المغربية وتطلعاتها في : الإسلام، العروبة، الإستقلال، الوحدة، العلم، العمل، الإتحاد. ولازال يعمل لتحقيق هذه الأهداف وخدمتها (355).

وحين وضع والده المنعم أسس الدولة المغربية المستقلة الفتية. كان ولده وولي عهده هو الخبير المخطط، والمستشار المدبر، ولا سيما في تأسيس الجيش المغربي الذي أسند إليه رئاسة أركان حربه العامة، وقيادته العليا، كما كلفه بتأليف أول حكومة وطنية ائتلافية.

وشارك في معارك التحرير أيام والده المنعم، فقاد الحملة لتحرير جزء مهم من التراب الوطني المغربي في فجر الإستقلال سنة 1956م (356).

ذلك أنه تحفظ -بمعية والده- حين توقيع وثيقة الإستقلال فيما يتعلق بالأجزاء المغتصبة غير المحررة، وسجل حقه الكامل في تحريرها، واسترجاعها إلى حظيرة الوطن.

وهكذا واصل الكفاح والنضال إلى جانب والده، فحرر طرفاية سنة 1958م (357)، بعد معارك توجت بمفاوضات مضمينة مع إسبانيا.

(355) دعوة الحق، ع: 255، ص: 7-9، 1406هـ-1986م، العبقرية الحسنية المبكرة، أمير الأطلس،

طارق الجديد، للشيخ المكي الناصري.

(356) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213-215، 1401هـ-1981م، الحسن الثاني موحد البلاد، وصانع

الأمجاد، للدكتور أمال جلال.

(357) المصدر السابق، ونفس الصفحة.

كما حرر سيدي إيفني (358) سنة 1959م، بعد مفاوضات سياسية عسيرة خاضها بتوكيل من والده بذكاء ومهارة شهدت بهما الأعداء حتى سمته الصحف الفرنسية -إذ ذاك- "بعُدو فرنسا الأول". وهو اعتراف ضمني منها بصرامة موقفه الوطني ضد نظام الحماية، في حين كانت تطلق على والده اسم "الرجل الخطير".

ولا غرو، فقد دربه والده على المسؤوليات الكبرى والخطيرة تحت مراقبته، وقلده مناصب سامية ومهمات جلية، فكلت جميعها بالنجاح والتوفيق والسداد...

وما إن تسلم زمام هذه الأمة ومقاليد أمورها، حتى اهتم ووطد العزم على إتمام الوحدة الترابية، وجميع المشاريع التي وضع مخططاتها مع والده المنعم -الذي لم يمهله أجله-، حتى يجني شعبه ثمار غرسهما المشترك، وثورتهاما الخالدة.

فقد قاد شعبه في معارك الحدود (359) الظافرة، التي كان بطلها المغوار ومحقق انتصاراتها الباهرة المشهورة، كما قاده في معارك التحرير والوحدة سياسيا وعسكريا، توطيدا لدعائم السيادة المغربية.

واستطاع بحنكته السياسية، ومهارته الحربية، أن يتجاوز بالمغرب الأخطار التي كانت تتهدده في مطلع عهد الحرية والإستقلال. فقد كان مسرحا للتناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها، وتنخر كيانه رواسب عهد الاستعمار البغيض (360) من جهل وفقر ومرض وغير ذلك...

وقام الجيش الملكي تحت قيادته الرشيدة بحماية الوحدة الترابية والحدود التاريخية، فبنى الجدار الأمني على امتداد الحدود بالصحراء المغربية المسترجعة، كخط دفاع مقدس لا تنتهك حرمة.

(358) و (359) المصدر السابق، ونفس الصفحة.

(360) كتاب التحدي فصل "روح الدستور"، وخطاب جلالة يوم 23-10-1975، والمصدر السابق، ص: 14، العرش والاستمرارية، لمحمد الكتاني.

وتوج انتصاراته العسكرية والسياسية في معارك التحرير والوحدة -التي خاضها على رأس شعبه الوفي كرائد وقائد محنك ملهم- توجها بمعجزة العصر، المسيرة الخضراء المظفرة (361)، واسترجاع الصحراء المغربية الغربية، بما فيها إقليم وادي الذهب، والساقية الحمراء، تلميما وتدعيما للوحدة الوطنية المنشودة، فكانت فتحا مبينا ونصرا عزيزا، باعتبارها قمة شامخة في التعامل الدولي.

لقد أدهش العالم بدهائه السياسي، ومواقفه البطولية الفذة، وعنصر المبادرة، الذي طبع تعامله مع هذه القضية المغربية الحيوية والرئيسية، سواء مع إسبانيا، أو بالمحافل الدولية، على صعيد كل من هيئة الأمم المتحدة، ومحكمة العدل الدولية التي أكدت حق المغرب في صحرائه، واعترفت أنها جزء لا يتجزأ من التراب المغربي تاريخيا وسياسيا واجتماعيا، ولغويا ودينيا وقانونيا وحضاريا(362)... فقد أصدرت رأيها الإستشاري الذي يؤكد وجود روابط البيعة بين سكان الصحراء الغربية والمغرب.

ذلك لأن جلالته زود محكمة العدل الدولية -ومن خلالها الرأي العام العالمي- بملف متكامل، من الوثائق والرسوم، التي كانت بمثابة شهود إثبات لمغربية الصحراء (363).

كما أرسل بعثات الود والصدقة إلى أقطار العالم، للتعريف بأحقية القضية المغربية، ومراحلها وعمقها وأبعادها... حاملة لملف متكامل من الوثائق والخرائط الشاهدة بعدالة القضية المغربية، مما جعل هذه الأقطار

(361) و (362) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213-215، 1401هـ- 1981م، الحسن الثاني موحد

البلاد، وصانع الأمجاد، لأستاذ أمال جلال.

(363) دعوة الحق، ع: 234، ص: 26، 1404هـ-1984م، العرش المغربي أقدم العروش لعبد العزيز بن

عبد الله، والتبيان في تخطيط البلدان، ص: 402 أي قبل الحماية.

تتعاطف مع المغرب في قضيته العادلة، لما رفعها إلى محكمة العدل الدولية (364).

وما إن نطقت محكمة العدل الدولية بحكمها العادل، وأدلت برأيها الاستشاري المذكور، حتى قرر جلالته دخول الصحراء -أرض الآباء والأجداد-، في موكب سلام، وبمسيرة خضراء، أيدتها جميع دول العالم، وباركتها الدول الشقيقة والصديقة، التي شاركتنا زحفنا المقدس الباهر سنة 1975م.

وامتثلت إسبانيا لقرار محكمة العدل الدولية بلاهاي، واستجابت لرغبة سكان الصحراء، ومطالب المغرب العادلة، فارتفعت الراية المغربية في سماء الصحراء، ورفرفت على ربوعها الطاهرة، واصلت بين أمجادنا التليدة، وعصرنا الزاهر، سنة 1975م.

وهب أبناء الصحراء البررة لتأكيد وطنيتهم، وولائهم للعرش العلوي المجيد، وتجديد بيعتهم للعاهل العظيم (365)، فحطموا بذلك الحدود الوهمية الاستعمارية.

وانسحبت موريتانيا من ملف الصحراء وقضيتها، مؤكدة أن المغرب هو صاحب الحق الوحيد في الصحراء الغربية كلها، وذلك سنة 1979م، فكان عيداً وطنياً مشهوداً، حضرته وفود الأقاليم الصحراوية، التي جاءت مبايعة معاهدة.

وأقيمت حفلة الولاء يوم عيد العرش المجيد بالداخلة سنة 1980م. ووفى جلالته بنذره، فزار مدينة العيون ونواحيها سنة 1985م، واعتبر استقباله بها من طرف رعاياه الصحراويين استفتاءً شعبياً رائعاً، وتجديداً وتأكيداً للبيعة والولاء تلقائياً وعفويًا، وتطوعاً والتزاماً....

(364) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 20، ص: 128، 1389هـ-1979م، الافتتاحية.

(365) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 20، ص: 128، 1389هـ-1979م، الافتتاحية.

وما إن تأكدت مغربية الصحراء، حتى انكب جلالته على إعداد البرامج والمشاريع والمخططات البناء الهادفة، التي تقوم على أساس من البحث العلمي، والدراسات النظرية والميدانية العلمية والتقنية، التي من شأنها تحقيق النهوض بالصحراء، وتنميتها، وإحاقها بركب الأمة المغربية في جميع مجالات الحياة، وميادينها ومرافقها، حتى أصبحت بين عشية وضحاها، جنة خضراء فيحاء، يتفياً المغاربة عامة -والصحراويون منهم خاصة- ظلالتها الوارفة.

والتزاما من جلالته بالشرعية الدولية، واستجابة لاقتراح بعض قادة الدول الشقيقة والصديقة للمغرب، طرح جلالته على قمة منظمة الوحدة الإفريقية بنيروبي سنة 1981م، مبدأ إجراء استفتاء تأكيد في الصحراء الغربية المسترجعة، لتأكيد مغربيتها الحقة، وطي ملفها بكيفية عادلة وبصورة سلمية نهائية.

وعلى رأس المسيرات التي أحكم مخططاتها، وقاد شعبه على دربها، وفي معاركها الضارية، مسيرة التنمية الاقتصادية، فهو بطل معركة المليون هكتار، ومشاريع الإصلاح الفلاحي، واستصلاح الأراضي، وتشجيرها، والتجهيزات المائية، ومشاريع الري التقنية الحديثة (366)، والتوزيع العادل للأراضي الزراعية المسترجعة، وإنشاء تعاونيات للإستفادة الجماعية من وسائل الإنتاج.

وفي هذا الصدد قرر جلالته إلغاء الضريبة الفلاحية، وضريبة الترتيب.... وفي إطار تقوية الاقتصاد الوطني اهتم بالتصنيع الحديث، بترشيد وتشجيع الصناعة التقليدية (367)، وأرسى قواعد جمعياتها الفتية، كما اهتم بتطوير التقنيات المعدنية والبتروولية وتنمية الثروة الفوسفاتية، وزرع المركبات الصناعية، وتشجيع التنقيب عن النفط والمعادن كلها.

(366) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213-215، 1401هـ-1981م، الحسن الثاني موحد البلاد، وصانع الأمجاد، للدكتور أمال جلال.

(367) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213-215، 1401هـ-1981م، الحسن الثاني موحد البلاد، وصانع الأمجاد، لأمل جلال.

وفي هذا الصدد حقق اللامركزية، وطور الجهوية، وشجع المبادرات الحرة في إطار الخصوصية، المتوازنة مع القطاع العام، دون إفراط ولا تفريط، مستهدفا الازدهار الاقتصادي المتكامل والمتزن، بتنمية وتطوير إمكانات البلاد وتطويرها، حتى تلبي حاجيات البلاد الملحة، وتوظيف موارد المغرب الطبيعية والبشرية وغيرها في خدمة الاستثمارات والمقاولات (368)، وبالتالي تنظيم المبادلات التجارية الخارجية، باتفاقيات ومعاهدات عادلة، تخدم القانون الدولي العام، وتدعم العلاقات الدولية التجارية وغيرها بصفة عامة، وتوظف رؤوس الأموال الأجنبية في بلادنا، زيادة على تعبيد الطرق، وتطوير المواصلات والبريد....

وبذلك عمل على تطوير الاقتصاد الوطني، وتنمية الموارد والمداخيل، وبالتالي على رفع الدخل الفردي والقوى الشرائية للمواطن المغربي، محققا التعادلة والعدالة الاجتماعية الإسلامية، التي ترفع مستوى الفقير دون أن تفقر الغني، والتي تعتمد على التأميم الجزئي للمصانع وغيرها من المؤسسات الكبرى، والقطاعات الاقتصادية المختلفة، واشترك العمال في الأرباح في مصانع القطاع العام، تحقيقا للثورة الصناعية، والتنمية الشاملة والعدالة، في جميع ميادين ومجالات الحياة (369).

وفي هذا الصدد أحى نظام الحسبة، وطوره بما يتلاءم مع روح العصر، وعمل على تشييد دور لسكنى الضعفاء، في إطار محاربة دور الصفيح. وهكذا خاض معارك التقدم الاجتماعي الهادئ لتحقيق العدالة الاجتماعية، التي تقوم على محاربة مخلفات الاستعمار ورواسبه، وجعل الشغل والمدرسة والمسكن والعلاج... حقا مكتسبا لجميع المواطنين، والعمل على إيجاد جميع التوازنات الاجتماعية، لتحقيق مجتمع إسلامي عربي،

(368) المصدر السابق، ص: 224-225، مسيرة تلو مسيرة لتحقيق الأفضل لعثمان بن خضراء.
(369) دعوة الحق، ع: 255، ص: 54-55، 1406هـ-1986م، في رحاب السياسة الحسنية،
لآمال جلال، و دعوة الحق، ع: 246، ص: 171-172، 1401هـ-1981م، فلسفة الحكم عند
الحسن الثاني، لعثمان بن خضراء.

يعيش في أحضان الشريعة الإسلامية السمحة (370)، وفي ظل مبادئ الإسلام ومكارمه المتوارثة وقيمه ومثله العليا، مجتمع تحكمه نوازع الخير، وتسوده الفضيلة والمشروعية.

لقد جدد معالم الإسلام بالديار المغربية، في إطار سياسة تعليمية تقوم على التعريب والمغربة، وإجبارية التعليم ومجانيته، وتكوين الأطر العليا العلمية والتقنية والدينية وغيرها، في ظلال مسيرة الإيمان، وبين أحضان القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، إعلاء وارتقاء بالفكر المغربي، حتى يغمر إشعاعه البلاد والعباد، تحصينا للكيان المغربي في مواجهة التحديات الإيديولوجية الضالة الدخيلة المتطرفة يمينها ويسارها (371)، بما فيها الطرق الصوفية المنحرفة.

وذلك بتضمين البرامج والمناهج التعليمية غذاء روحيا إسلاميا وإنسانيا، من شأنه تنشئة وجدان الأجيال المغربية الصاعدة على الاعتزاز بالذات، وبماضينا الحضاري المجيد، والتمسك بالحرية، والاعتصام بالإيمان، والعمل في إطار من التسامح والتعاون الإنساني العالمي، وبالتالي من التنسيق والتوفيق بين الأصالة العربية الإسلامية للمغرب، ومتطلبات العصر. وفي نطاق التلازم والتوازن بين المجالين الاجتماعي والاقتصادي، وكذا بين التكوين والتشغيل.

وفي هذا الصدد جعل التكوين العلمي والتقني للطاقات الشابة، يخضع لحاجيات البلاد في المجالات : العلمية والتقنية وغيرها، مما ساعد على المغربة والتعريب.

(370) النص في طليعة الدستور المغربي دائما على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة ومصدر لكل تشريع وتخطيط.

(371) خطاب وزير الأوقاف، أحمد رمزي في مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية، استعدادا للاحتفال بمطلع القرن 15هـ، الذي انعقد بمكة المكرمة..

ودعم كل ذلك بمشاريع الإنعاش الوطني ذات الطابع الاجتماعي، التي دعمت الأمن والاستقرار والسلام الداخلي، كما دعم العدالة الاجتماعية بالعدالة القانونية التي تقوم على استقلال القضاء، وتوحيده وتعريبه ومغربية أطره، وتنظيمه على أحدث طراز.

كما أنشأ التجهيزات المائية، توفيرا للماء الصالح للشرب، وللطاقة الكهربائية....

وعمل على ترشيد الحياة السياسية في إطار مسلسل ديمقراطي دستوري، مستهدفا تدعيم المشروعية في إطار دولة القانون، وحقوق الإنسان، في ركب مسيرة الشورى والديمقراطية الإسلامية، مما تعزز أكثر ببنود الدستور الجديد لسنة 1993م (372) الذي يستجيب لحاجيات عهد تجديد الدولة، وتدعيم كيانها، وتوطيد دعائم هياكلها، ومؤسساتها، مما جسم تجاربنا وبلور اختياراتنا بالانتخابات التشريعية المباشرة وغير المباشرة، مستهدفا من كل ذلك تطوير قنوات وهياكل الحوار الديمقراطي، بعد دستور 1972م، الذي مهد به لكل ذلك.

فقد عمل جلالته جاهدا، حتى جعل النظام المغربي ملكية دستورية ديمقراطية، تقوم على تعدد الأحزاب السياسية، والنقابات، والهيئات، والغرف المهنية وغيرها، بحيث أصبح البرلمان يمثلها كلها.

أما فلسفة جلالته في الحكم، فتقوم على النهضة الاقتصادية والاجتماعية، المنبثقة عن الاشتراكية الإسلامية المغربية، التي تعمل لإيجاد الثروة والموارد، وتوزيعها بعدالة، وهذه النهضة تركز العمل للتجديد والتطوير والإبداع الدائم اللامتناهي، باعتبارها فلسفة وليست معركة.

(372) دعوة الحق، ع: 246، ص: 15-18، 1405هـ-1985م، رمز الأصالة والتجديد، لعبد العزيز بن عبد الله.

وفي هذا الصدد جدد في الدساتير المتوالية المبادئ العامة للمملكة المغربية، التي يجب أن يلتزم بها المواطنون المغاربة قاطبة، ويحترمونها ويذودون عن حرمتها بالتصدي لكل من حاول العبث بها، أو الاعتداء على قداستها.... وتوج جهوده الجبارة على الجبهة العربية بمساهمته الفعالة في حرب يونيه 1967م (373)، بإرسال وحدات من القوات المسلحة الملكية للدفاع عن حوزة العروبة والإسلام، وحماية أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين بالقدس المقدس الشريف.

وتأكيدا لسياسته العربية الرشيدة وتكريسا لمواقفه الملتزمة إزاء الوحدة العربية كرئيس دولة منتمية للجامعة العربية، شارك في حرب رمضان أو حرب أكتوبر (374) على الجبهتين المصرية بسيناء، والسورية بالجزولان والقنيطرة مشاركة مشرفة للمغرب ولجميع المغاربة، سجلها تاريخ الوحدة العربية بفخر واعتزاز، وذلك سنة 1973م.

والتزاما بالقضايا العربية، وعلى رأسها أم القضايا العربية كلها، القضية الفلسطينية، يعمل جاهدا للتعريف بهذه القضية، ويتولى الدفاع عنها بالمحافل الدولية أمام الرأي العام العالمي والدولي، وبموازاة ذلك يعمل على تنقية الأجواء العربية من رواسب الضغائن والأحقاد الشخصية والإقليمية الضيقة.

وجاء اختيار جلالته على رأس لجنة القدس سنة 1979م (375)، وتجديد هذا الاختيار كلما انعقد مؤتمر القمة للموك ورؤساء الدول الإسلامية، وبالتالي رئاسته المتتالية لمؤتمرات القمة العربية والإسلامية والمغاربية، تتويجا لجهوده المذكورة، واعترافا بعبقريته وحنكته

(373) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213-215، 1405هـ-1985م، الحسن الثاني موحد البلاد، وصانع الأمجاد، لأمال جلال.

(374) المصدر السابق والصفحة.

(375) دعوة الحق، ع: 232، ص: 9-10، 1404هـ-1984م، المغرب والقضية الفلسطينية في ضوء أعمال لجنة القدس، لقاسم الزهيري.

السياسية. وبفضله وأريحيته الأصيلة العريقة، فأصبح المغرب قبلة العرب والمسلمين لدراسته قضاياهم، وحل مشاكلهم، واسترجاع حقوقهم(376)....

فقد قام على رأس لجنة القدس بأعمال بناء هادفة، كانت لها نتائج إيجابية، أهمها : موقف البابا من قضية القدس بالأمم المتحدة سنة 1980م، واستقباله للوفد الفلسطيني بحاضرة الفاتكان سنة 1983م، والتطور الإيجابي للسياسة الفرنسية خاصة، والغربية عامة لصالح القضية الفلسطينية، وبالتالي مواقف فرنسا، ومواقف المجموعة الأوروبية كلها من هذه القضية، وصدور قرار مجلس الأمن رقم 418 بشأن ضم القدس سنة 1980م، الذي يشجب في قراره هذا مصادقة إسرائيل على القانون الأساسي حول القدس بأشد العبارات، وقرر عدم الاعتراف به، ولا بالإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير طابع القدس، ووضعها القانوني(377)، وطلب مجلس الأمن من الدول التي أقامت سفاراتها بالقدس سحبها وإغلاقها، كما أصدر مجلس الأمن قرارا آخر رقم 465، حول المستوطنات الإسرائيلية، وقرارا آخر رقم 476، حول الممارسات الإسرائيلية بالضفة الغربية، وقطاع غزة حين احتلالهما لهما (378).

ويعتبر جلالته في طليعة رواد وحدة المغرب العربي، والذين عملوا على تحقيقها وإخراجها إلى حيز الواقع والتطبيق منذ 1958م، باعتبارها خطوة حاسمة نحو الوحدة العربية الشاملة (379).

(376) دعوة الحق، ع: 255، ص: 10-11، 1406هـ-1986م، ربع قرن في خدمة الإسلام، لعبد الوهاب ابن منصور.

(377) دعوة الحق، ع: 232، ص: 13-15، المغرب وقضية فلسطين في ضوء أعمال لجنة القدس، لقاسم الزهيري.

(378) المصدر السابق ص: 15.

(379) دعوة الحق، ع: 255، ص: 32-35، 1406هـ-1986م، الحسن الثاني في أوج الدبلوماسية العالمية، لعبد الهادي التازي.

وكان جلالته على رأس المؤسسين الأوائل لمؤتمر القمة الإسلامي الأول (380)، الذي كان فاتحة عهد جديد، زاخر بالمؤتمرات والندوات واللقاءات التي وطدت دعائم الوحدة الإسلامية، ورفعت صرحها، وأسمنت صوتها عالميا ودوليا، انطلاقا من منبرها العتيق - منظمة المؤتمر الإسلامي - الذي أصبح منبرا رسميا للعالم الإسلامي بأسره، من أقصاه إلى أقصاه يقام له ويقعد، ويحسب له ألف حساب وحساب.

وتوج جلالته مسيرته الإسلامية بالرسالة (381) التي وجهها للأمة الإسلامية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري، التي شرح فيها مزايا الإسلام وفضله على الإنسانية جمعاء، والتي تعتبر تجسيدا لفلسفته وسياسته الرشيدة، الداعية للأمة الوسط... مما يتجلى واضحا في أقواله وأفعاله، ولا غرو فهو سليل الأمجاد الإسلامية والدوحة النبوية الوارفة.

وكان جلالته في طليعة الملوك والرؤساء المسلمين والعرب، الداعين لمساعدة أفغانستان، والدفاع عن قضيتها العادلة.

وفي إطار المسيرة الإسلامية حقق النصر لوطنه وأمته ودينه، فسطع نجمه في سماء العالم الإسلامي الذي انتخبه لرئاسة لجنة القدس، وإنقاذ المسجد الأقصى والقدس الشريف من براثن وأدران الصهيونية البشعة الجشعة، باعتباره خير من يتكلم باسم العروبة والإسلام، ويقود العمل لتوطيد صرح التضامن الإسلامي وتحقيقه ميدانيا.

أما على الصعيد الإفريقي، فقام بأعمال جليلة، مساهمة منه في تحرير القارة السمراء.

(380) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213-215، 1405هـ-1985م، الحسن الثاني موحد البلاد، وصانع

الأمجاد، آمال جلال.

(381) المصدر السابق والصفحة.

فقد كان وراء تأسيس كتلة الدار البيضاء لاستكمال تحرير إفريقيا، ورائد المؤتمر الإفريقي الذي انبثق عنه ما عرف -إذ ذاك- "بروح الرباط". ورغم تناقضات العصر على المستوى الدولي، وانهيار الكتلة الشرقية وقيام النظام العالمي الجديد، وما أفرزته هذه الفترة الانتقالية من أحداث متضاربة، فقد استطاع جلالته أن يقيم لبلاده سياسة خارجية متزنة، جعلت المغرب يتمتع بسمعة طيبة، وفرضت احترامه على دول العالم كبيرها وصغيرها، شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا.

كما جعلت منه أحد أقطاب السياسة الدولية، يسعى لتوطيد دعائم الأمن والسلم العالمي، مما خوله اعتلاء منابر المحافل الدولية للدفاع عن القضايا المغربية خاصة، والعربية والإسلامية والدولية عامة.

ولا غرو، فجلالته أول من أعطى لعدم الانحياز أبعاده الحقيقية ببلغراد في مطلع عهده كملك للبلاد سنة 1961م.

كما كان أول من اقترح إنشاء قوة دولية لحفظ السلام العالمي، تعمل على تطبيق قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك، وأول من دعا إلى نزع السلاح، وتحويل ميزانيته إلى مشاريع للتنمية العالمية، لمحاربة أعداء الإنسانية الكبار: الفقر والجهل، والمرض، في سائر أنحاء العالم.

وجاهر جلالته بالحق الفلسطيني المهضوم، وبوجوب قبول الصين كعضو بهيئة الأمم المتحدة، وبحق الجزائر في الإستقلال والحرية....

واعتلى بقضية القدس منبر حاضرة الفاتيكان، حيث أجرى حوارا شجاعا على مستوى القمة مع قداسة البابا يوحنا بولس الثاني، لأول مرة في تاريخ الأديان، سنة 1980م، باعتبار جلالته رئيس لجنة القدس، مما عرف بقضية القدس الشريف، وبالقضية الفلسطينية عموما. وذلك على أعلى مستوى

عالمي وديني، مما تناقلته وكالات الأنباء العالمية، وأحدث دويا إعلاميا هائلا(382)، كان له ترديد وترجيع، وخاصة بعد أن رد البابا المذكور الزيارة لجلالته وزار المغرب.

وبعد الفاتكان، قام بمساعي مماثلة لدى عواصم دول العالم الكبرى، حيث عقد ندوات واستجابات صحفية وإذاعية وغيرها، وألقى كلمات ورفع رسائل بنفس الهدف، وفي نفس الإطار، مما أكسبه مكانة مرموقة لدى هذه العواصم كلها.

يفضل شخصيته الفذة الملتزمة وسياسته الحكيمة الرشيدة، أصبح للمغرب دور في مجال السياسة الدولية.

وحرصا منه على المصالح الحيوية للمغرب، تطلع للإنخراط في السوق الأوروبية المشتركة، فزار مركزه، واتصل بأقطابه، شارحا وجهة نظره، وأبعادها وأهدافها... مما مهد لاحتضان المغرب توقيع معاهدة "الكاط".

كما مد جسور الصداقة المغربية الأمريكية عبر المحيط الأطلسي، استمرارا لمبادرة جده المولى محمد الثالث، الذي كان في طليعة المعترفين باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1777م.

ولم يلبث جلالته أن اعتلى منبر هيئة الأمم المتحدة باسم الأمة العربية والإسلامية، مدافعا عن القضية العربية الرئيسية، القضية الفلسطينية، نيابة عن اللجنة السباعية المنبثقة عن قمة فاس، سنة 1982م (383).

(382) دعوة الحق، ع: 255، ص: 37-40، 1406هـ-1986م، الحسن الثاني والديبلوماسية الدولية، لعبد الهادي التازي.
(383) المصدر السابق والصفحة.

وتتوالى مسيراته المظفرة على جميع الواجهات والجبهات بالداخل والخارج، أفقيا وعموديا، مما يلفت أنظار أمم العالم، وينتزع إعجابها وتقديرها، ويفرض عليها احترام المغرب وتقدير ملكه وخطاب وده، والسعي للتعاون معه في جميع المجالات، وبالتالي يزيد المغاربة حبا وولاء لعاهلهم المفدى، وتعلقا بأهداب عرشه المجيد، وطاعة وامتثالا لتعليماته بانضباط والتزام عن طواعية واختيار وإخلاص ووفاء.

مدخل :
اهتمام المسلمين
بحلقات العلم

اهتمام المسلمين بحلقات العلم

المجالس العلمية قبل الإسلام :

إذا نحن بحثنا عن أصل هذه المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة، وأردنا معرفة مصادرها الزمانية والمكانية، حتى نتخذها أرضية لهذا الموضوع القيم المتشعب، فإنه يجب علينا أن نرجع خطوات واسعة إلى الوراء، وأن نتوغل في أعماق التاريخ، وأغوار ما قبل الإسلام، باعتبار أن الحضارة الإنسانية، والتراث البشري إرث مشترك لجميع الأمم والشعوب، ولا يحق لأحد أن يدعيهما لنفسه، أو يستأثر بملكيتها المشاعة والمشاركة.

وإذا كانت هذه المجالس تطورت اليوم إلى ما يعقد دوريا من المؤتمرات، والندوات، والموائد المستديرة، وما إلى ذلك من اللقاءات العلمية والأدبية والتقنية وغيرها، فإنها في الواقع قد تطورت عبر العصور، واختلفت باختلاف الأمم والشعوب، من حيث مظاهرها وشكلها، ومضمونها، وبالتالي من حيث مبادئها وأهدافها ووظائفها....

وهي في أصلها تعود إلى الأسواق العلمية والأدبية القديمة قدم الفكر الإنساني على وجه البسيطة.

فقد كان الهنود يقيمون سوقا من هذا القبيل في هردوار، على ضفاف نهر الكنج سنويا. ويعتبر من أكبر أسواق العالم -إذ ذاك- حيث كان يؤمه حوالي مائتي ألف نسمة، كل سنة (1).

وكانت روسيا تقيم مثل هذه الأسواق الفكرية الرائجة في مدينة نوفكروود، كل ستة أشهر، أي مرتين في السنة، حيث كان عدد روادها يناهز إثني عشر ألفاً كل مرة، وهم ينتمون إلى مختلف بلدانها وأقاليمها، وحتى من أوروبا الشرقية(2).

(1) تاريخ التمدن الإسلامي، لرجي زيدان، ج: 3، ص: 37.

(2) المصدر السابق و ج، و ص.

والواقع أننا نجد أنماطا كثيرة لهذه الأسواق لدى المسلمين، وفي أوروبا الغربية، بألمانيا وفرنسا وإنجلترا، وحتى في أمريكا (3). وما "الجناسيوم" لدى قدماء اليونان إلا شكل من أشكال هذه الأسواق والمجالس. فقد كانت تقام أساسا للألعاب البدنية المختلفة - كما هو معروف - لكن الفلاسفة والعلماء كانوا يغتنمون انعقادها ووجودهم بها فرصة للمباحثة والمناظرة والمنافرة في تحليل وتعليل الظواهر، وتمحيص الحقائق، ونقد وتقييم الإبداع الفكري عامة، ومقارنة بعضه ببعض، وكذا لتنقيح اللغة، (4) وتشذيبها وتهذيبها، وبالتالي للتحكيم بين المتبارين في جميع المجالات العلمية والفكرية والأدبية والفنية، وإعلان النتائج، وإجازة المبدعين الفائزين من النخبة المثقفة، الذين يشكلون الطلائع الأولى لرواد الفكر الإنساني، والآداب والفنون العالمية، والذين كانوا ولا زالوا وسيبقون قادة للنهضة البشرية، والحضارة الإنسانية، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المجالس العلمية عند العرب في الجاهلية - قبل الإسلام -

لا يمكن استثناء العرب من هذه الظاهرة الإنسانية العامة، إذ لم يكونوا بدعاً بين الأمم في شيء. فقد كانوا في الجاهلية يقيمون أسواقاً من هذا القبيل على امتداد أشهر السنة، وينتقلون بينها، كسوق دومة الجندل، وهجر بنجد، وسوق عمان، وسوق حضرموت، وسوق عدن، وسوق عرفة (5). وكانت للأشهر الحرم أسواق خاصة - باعتبار اختصاصات كل سوق - وأشهرها: عكاظ، وصحار، والشحر، وحباشة، والمستقر (6) ... إلخ. ولعل أشهر أسواق العرب في الجاهلية : سوق عكاظ، وسوق مَجَنَّة، وسوق "ذو المجاز، والمربد...

(3) المصدر السابق و ج، و ص.

(4) المزهر، ج: 1، ص: 109، والمصدر السابق و ح، و ص.

(5) تاريخ التمدن الإسلامي، لرجي زيدان، ج: 3، ص: 37.

(6) المصدر السابق و ج، و ص.

وكان يحضر هذه الأسواق العامة أشرف سائر القبائل -خلافًا لبقية الأسواق الخاصة- سواء من حيث اختصاصاتها أو من حيث روادها، فكل من أراد القيام بعمل، والإعلان عنه حتى تعرفه العرب، أو أراد أن يشهدها على أمر ما (7)، أو أراد مفاخرة شخص ما، جهازة -على مرأى ومسمع من الناس- عليه أن يقصد سوق عكاظ (8).

وكان العرب يعقدون هذه الأسواق أو المجالس كلها بصفة عامة لمناشدة الشعر، وتبادل الأخبار، والبحث في شؤونهم ومصالحهم ومشاكلهم الخاصة والعامة....

وكانوا يسمون هذه الأسواق أو المجالس بالأندية، ومنها نجد نادي قريش، ودار الندوة -التي كانت بجوار الكعبة- ولازالت أمثال هذه الندوات تعقد إلى الآن (9).

المجالس العلمية في صدر الإسلام، أي عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين :

لقد كسدت هذه الأسواق أو المجالس بعد الإسلام، لنهي النبي ﷺ عن أهم ما تقوم عليه، كالمفاخرة، والتنافر، والتهافت، والتزاحم للصعاليك وأمثالهم، حيث قال ﷺ : «الموسم يجمع رعا ع الناس» (10)

وكانوا يتفاخرون فيها حتى في كبار المصائب والنكبات، كمفاخرة (11) الخنساء مع هند بنت عتبة (12)، زيادة على المفاخرة بالأحساب والأنساب، والشجاعة، والفضائل كلها. لذلك كثرت المواقع والحروب بينهم، ولذلك نهى عنها الإسلام.

(7) المصدر السابق ج، ص: 38، والأغاني، ج: 2، ص: 13.

(8) سوق عكاظ كانت تقام أول ذي القعدة إلى العشرين منه، بين الطائف ونخلة.

(9) تاريخ التمدن الإسلامي، لرجي زيدان، ج: 3، ص: 36 أي إلى زمن المؤلف، وحتى يومنا هذا أيضا.

(10) رواه أبو هريرة.

(11) معجم البلدان لياقوت الحموي، ص: 129.

(12) تاريخ التمدن الإسلامي، لرجي زيدان، ج: 3، ص: 38-39.

لكن الإسلام عوض هذه الأسواق أو المجالس بالمساجد، التي أصبحت ملتقى لمجالس العلم والعرفان، وتفسير آيات القرآن الكريم، ومدارسة الحديث النبوي الشريف، ومناظرة اليهود والنصارى، ومجادلة المنافقين، إلى غير ذلك من المجالات العلمية والأدبية وغيرها لذلك العهد، بما في ذلك مناقشة الشعر ومدارسته.

فقد كان رسول الله ﷺ يتحدث مع جلسائه من الصحابة وغيرهم. بحديث أولهم، كما جاء في الشفا. قال الخفاجي : «أي بما كان قبل الإسلام من حروبهم، كيوم بعاث وغيره من أيامهم» (13).

وعن جابر بن سمرة قال : «جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذكرون أشياء من فعل الجاهلية، وهو ساكت، فربما تبسم معهم» (14).

ومما يؤكد ذلك أن كعب بن زهير، دخل على النبي ﷺ المسجد وهو في صحابته قبل صلاة الصبح - بعد أن أهدر ﷺ دمه، لما هجا الإسلام والمسلمين- إذ جاءه تائباً، ومادحاً إياه، -بشفاعة بعض الصحابة- فلما مثل بين يديه أنشده قصيدته اللامية المشهورة، التي -يمدحه فيها ويمدح صحابته، والتي افتتحها بالنسيب- وهي العادة التي كانت متبعة لدى شعراء ذلك العصر -المقدمة الغزلية والطلبية- ومطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم عندها لم يجز مكبول

وما سعاد غداة البين إذ برزت

إلا أغن غضيض الطرف محبول

فسُـرَّ النبي ﷺ واستبشر بإسلام كعب وشعره الإسلامي، وعفا عنه، وخلص عليه برده التي اشتراها منه معاوية بن أبي سفيان بعشرين ألف دينار، وكان يلبسها في الجمع والأعياد تبركاً، وقلده في ذلك الأمويون، ثم العباسيون بعدهم، وأعطى العطاء الجزيل للشعراء، حتى اشتهر بذلك (15).

(13) الحل البهية للمشرقي، ص: 4-5، م.خ.ع. رقم D.1463.

(14) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، المصدر السابق، ص: 19.

(15) الحل البهية : المشرقي، ص: 20.

وكان الصحابة يقبلون يد النبي ﷺ عند البيعة، أو عند عفوه عن أحدهم، أو عند وداعه، أو عند تجديده العطاء لهم.

وكانت مجالس النبي ﷺ مع الصحابة رضي الله عنهم كلها علمية كما كانت تعتبر المصدر الرئيسي للأحاديث النبوية الشريفة، وكان ﷺ يستهدف منها : الدعوة إلى الإسلام، وتوطيد صرح الدولة الإسلامية، وتعميق إيمان الصحابة، وتلقيهم تعاليم الشريعة الإسلامية، ومبادئها السامية، وتربيتهم على فضائل أخلاقها، وتعويدهم على تأدية شعائرها...

ولم تكن دروسه خلال مجالسه العلمية هذه تقتصر على الشؤون الدينية، وتلقين العبادات فحسب، بل كان يعلمهم آداب السلوك، وأحكام المعاملات في البيع والشراء، والسلف والرهن، وما إلى ذلك من شؤون دنياهم وآخرتهم. كما كان يلقنهم أساليب الحرب، ومناهج الحكم وطرقه، ويرشدهم إلى الأوجه المختلفة للسياسة الداخلية والخارجية، سواء في علاقاتهم مع الدول الموالية أو المعادية لهم، أيام السلم والحرب (16)، وكيفية تقسيم الأموال بينهم، وتوزيع الأراضي المغلة عليهم...

وكانت مجالسه العلمية ﷺ تتحول إلى مجالس للمناقشة حول ما جاء في دروسه المختلفة، وأحاديثه الشريفة الجامعة المانعة، فكان يتلقى أسئلتهم واستفساراتهم بصدر رحب، ويتولى الجواب بنفسه عنها حتى يزول الشك ويعم اليقين.

وكثيرا ما كان ﷺ يعقد مجالس استشارية مع كبار الصحابة وصفوتهم حول القضايا الهامة التي تواجه دولة الإسلام الفتية، ليديروهم على الشورى الإسلامية وتجنب الإستبداد بالرأي، وعلى كيفية الحفاظ على كيان أمتهم من بعده، ولم يترك شاردة ولا واردة فذة من قوام الحياة وحقائقها، ونظام الدنيا، إلا علمهم إياها، حتى قال المشركون لسيدنا عثمان رضي الله عنه : " لقد علمكم نبيكم كل شيء... "

(16) دعوة الحق، ع: 5، س: 7، ص: 1-3، 1383هـ-1964م، دار الحديث الحسنية أفق جديد في ثقافتنا الإسلامية، من خطاب عبد الله كنون باسم رابطة علماء المغرب، بمناسبة إعلان جلالة الملك الحسن الثاني عن تأسيس دار الحديث الحسنية، في حفل ختم الدروس الحسنية، في ليلة القدر المباركة سنة 1383هـ.

بل إن النبي ﷺ كان في تنزلاته وفي تواضعه مع صحابته في حلهم وترحالهم يحدثهم عن دقائق العلوم، ويجيبهم عن أسئلتهم العلمية المختلفة، سواء منها الطبية أو الطبيعية أو الكونية أو غيرها، وفحوى تلك الأحاديث والأجوبة النبوية العلمية لم ينقضه العلم إلى يومنا هذا.

كما كان عليه الصلاة والسلام يصح لأصحابه أخطاء الإخباريين من أهل الكتاب، وتحريف أحبار اليهود، ورهبان النصارى لحقائق التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية، وكذا أغلاط عرافهم وتدليس كهانهم في تفسير الظواهر الطبيعية المختلفة، الجوية وغيرها. وذلك خلال تفسيره للقرآن الكريم وآياته وسوره البينة.

وكم عقد من مجالس علمية مع أحبار اليهود، ورهبان النصارى، سجلها القرآن الكريم، وفي طليعتها ذلك المجلس المشهود الذي سألوه فيه عن قصة أهل الكهف، وعن تاريخ ذي القرنين (17)، وعن ماهية الروح التي تشير إليها الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ويسألونك عن الروح﴾ (18).

وجملة القول أن علم الحديث هو حصيلة المجالس العلمية للنبي ﷺ طيلة حياته، ومن ثم فهو جماع المعارف الإسلامية الدينية والدنيوية على السواء. وجله جاء تفسيراً للقرآن الكريم وشرحاً لآياته وسوره.

أما المصدر الذي كان يستقي منه رسول الله ﷺ فهو القرآن الكريم، كلام رب العزة تبارك وتعالى، الذي كان يراجع مع سيدنا جبريل عليه السلام، والذي كان يلقاه كل ليلة من كل رمضان (19)، ليدارسه القرآن، ويراجعه معه.

المرأة في المجالس العلمية للنبي ﷺ :

كان النبي ﷺ يسمح للنساء بحضور مجالسه العلمية، بل إنه خصص لهن يوماً، يعقد فيه مجلساً خاصاً بهن، استجابة لرغبتهن وطلبهن، أن يعلمهن أمور دينهن (20).

(17) الإسكندر المقدوني.

(18) سورة : الإسراء الآية : 84.

(19) من حديث عبد الله بن عباس.

(20) دعوة الحق، ع : 5، س : 7، ص : 7، 1383هـ-1964م، الجانب الروحي من المرأة المسلمة، للكتاني.

ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد : «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تعلمنا مما علمك الله، فقال : اجتمعن في يوم كذا، في مكان كذا وكذا، فاجتمعن، فأتاهن رسول الله ﷺ، فعلمهن مما علمه الله...» الحديث(21).

وكان النساء يحضرن في المصلى يوم العيد، وفي الصلوات، وبالتالي يستمعن لخطب الأعياد، والجمعة، في شبه مجالس علمية (22).

ومما يؤكد مشروعية ذلك، قول رسول الله ﷺ : «إذا استأذنكم نساءؤكم بالليل إلى المسجد، فأذنوا لهن» (23)، وعن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت : «إن رسول الله ﷺ ليصلي الصبح، فتنصرف النساء متلفعات بمروطهن، ما يعرفن من الغلس (24)».

فقد كان النساء يجلسن في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ (25)، بدليل ما رواه البخاري، عن هند بنت عتبة، أن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: عن النساء بالمسجد النبوي الشريف : «كن إذا سلمن من المكتوبة قمن، وبقي رسول الله، ومن معه من الرجال ما شاء الله، فإذا قام رسول الله قام الرجال». وفي بعض الروايات، أن النساء كن يصلين خلف الرجال، في مؤخرة المسجد(26).

المجالس العلمية على عهد الخلفاء الراشدين :

كان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم يجالون علماء عصرهم، ويقربونهم، ويتخذونهم مستشارين لهم في أمور الرعية وغيرها.(27)

(21) رواه البخاري، عن أبي سعيد.

(22) المصدر الأول.

(23) المصدر السابق.

(24) رواه الإمام مالك في الموطأ.

(25) المصدر الأول، ص: 4.

(26) المصدر السابق، ص: 4.

(27) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 4، ص: 208.

وكانت المجالس العلمية للخلفاء الراشدين تعقد بالمسجد، أو المنزل، حيث يقعدون على حصير أو جلد، ويلتفون في عباءة أو شبهها، ويدخل عليهم الناس للاستماع والمناقشة، وغير ذلك، حيث يخاطبون الخليفة باسمه، فلا يستنكف الخليفة من ذلك، ولا يستاء (28).

كما كان عمال الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، بمختلف الأمصار، يعتقدون مجالسهم العلمية على نفس النمط عموماً، لكنها اكتست لديهم نوعاً من الفخامة والأبهة والزينة - من حيث الشكل - مما اقتبسها هؤلاء العمال والولاة من الفرس والروم.

لكن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كانوا يمنعون عليهم ذلك، ويعاتبونهم ويلومونهم عليه، وربما اتخذوا في شأنهم عقوبات صارمة أحياناً، كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مع سعد بن أبي وقاص، الذي كان أميراً على الكوفة، فاتخذ قصرًا، وجعل له باباً فخماً، وأضفى على مجالسه العلمية نوعاً من العظمة والفخار، فأرسل إليه عمر من أحرق عليه باب قصره (29).

ولم يلبث الخلفاء والأمراء - بعد عهد الراشدين - أن تدرجوا وتباروا في مظاهر الأبهة والفخامة في مجالسهم العلمية وغيرها، حتى اتخذوا الحجاب (30).

وكان الصحابة يستأذنون على الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وهم في مجالسهم العلمية وغيرها (31).

وكان الصحابة يقبلون يد الخلفاء الراشدين في مجالسهم العلمية وغيرها، شأنهم مع الرسول ﷺ في مجالسه المختلفة، ثم ترفع الخلفاء بعد الراشدين عن الاحتكاك بالناس ولمسهم، فصاروا يقبلون أكماتهم وأعتابهم (32)، فإذا دخلوا للمجلس، تولى الحاجب إجلاسهم حسب مراتبهم (33).

(28) المصدر السابق، ج: 5، ص: 150.

(29) المصدر السابق، ج، و ص.

(30) المصدر السابق، ج، و ص.

(31) المصدر السابق، ج، و ص: 152، والعقد الفريد، لابن عبد ربه، ج: 1، ص: 21

(32) المصدر السابق، ج: 5، ص: 153-154 .

(33) نفس المصدر، ج، و ص: 53-54.

أما من حيث آداب مجالس الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، فقد كانت مجالسهم عادية، تتسم بالبساطة والتواضع كسائر الناس، حيث كان الصحابة يخاطبون الخليفة باسمه أو كنيته، كما كان الحاضرون يتخاطبون، ويتباحثون ويتدارسون، دونما أي تهيب أو تحفظ ولا احتراس(34)، ولم يحتج أحد من الخلفاء الراشدين المهديين (35).

ويصف لنا ابن القيم الجوزية المجالس العلمية للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، من خلال وصفه لمجلس من مجالس عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول(36) : " كانت النازلة إذا نزلت بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه - ليس فيها عنده نص عن الله تعالى، ولا عن رسول الله(ص) - جمع لها أصحاب رسول الله (ص)، ثم جعلها شورى بينهم(37).

إذ ليس صحيحا أن المسلمين لا يعملون إلا بنص من الكتاب والسنة، بل إذا لم يجدوا فيهما حكم النازلة يعملون بالقياس أو غيره من مصادر الشريعة الإسلامية(38)، ولم يمنعوا العمل بالرأي والاجتهاد، بل اشترطوا لذلك بلوغ مرتبة من العلم، يصح بها إعطاء الرأي (39) - وهي شروط الاجتهاد-

وهناك وصف أدق لأحد المجالس العلمية لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، لمحمد بن كلب رضي الله عنه (40).

المجالس العلمية بعد عهد الخلفاء الراشدين:

بعد عهد الخلفاء الراشدين المهديين، تطورت هذه المجالس العلمية شكلا ومضمونا، متأثرة بالتطور الشامل الذي عرفه المجتمع العربي والإسلامي،

(34) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 154-155.

(35) المصدر السابق وج، ص: 60.

(36) في إعلام الموقعين.

(37) و (38) حاضر العالم الإسلامي لوثيروب ستودارد الأمريكي تعريب دعجاج نوهض، ج: 3، ص:

349، ط: 4، دار الفكر.

(39) شروط الاجتهاد أهمها: الإحاطة بالكتاب والسنة، وأسباب النزول، والقراءات، والناسخ المنسوخ، والمحكم والمتشابه....

(40) الرفض الفائق في المواعظ والدقائق، ص: 78.

نتيجة الاحتكاك بحضارة وثقافة المجتمعات في الأقطار المفتوحة شرقا وغربا، ولا سيما بالفرس والروم، وبالتالي نتيجة الثراء، والسلطة، والثقافة، إذ أصبح العرب يشكلون الطبقة الحاكمة الغنية المثقفة بصفة عامة، وفي طليعتها طبقة الخلفاء والأمراء والحكام، الذين بالغوا في الاحتفاء بأهل العلم، وتكريمهم وتقريبهم.

ذلك أنه من شروط صحة الخلافة في الإسلام، أن يكون الخليفة عالما بالشريعة الإسلامية، وينطبق هذا الشرط على بقية الحكام من الأمراء والعمال والولاة، لذا كان جل الخلفاء - إن لم نقل كلهم - عالين بها، مقبلين على العلم وحملته، حيث يعقدون المجالس للنظر في الشريعة الإسلامية ومدارسها، ويستدعون لذلك العلماء والمثقفين، وخاصة الفقهاء والمفسرين والمحدثين، حتى صاروا يتنافسون في ذلك، ويتفخرون بتقريب العلماء، وتأليف الكتب، بل أصبح جلهم من كبار العلماء والمؤلفين (41) في عصرهم، بفضل تلك المجالس العلمية العالية.

ذلك أنه - كما يقول ابن خلدون - «من الشروط المعتمدة في التحصيل: المذاكرة مع الأقران، ومناظرتهم، لما قيل: العلم غرس، وماؤه درس، لكن طلبا للتوازن وإظهارا للصواب».

وقيل: «مطارحة ساعة، خير من تكرار شهر، لكن مع منطوق سليم الطبع...» (42).

وقد قامت تلك المجالس العلمية المختلفة على أساس الحوار والمناظرة بين الفئات المتصارعة، وبالتالي بين فلسفاتها ونظرياتها، تارة باللفظ وسحر البيان، وطورا بالسيف والسنان (43).

وهنا لا بأس من الاستئناس برأي ابن خلدون (44) في هذا الصدد حيث يقول: «... والحق أن أعظم الأسباب في رواج العلم أو كساده هو رغبة

(41) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص: 192.
(42) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، المجلد الأول، ص: 47، منشورات المثني، بغداد، ومقدمة العلامة ابن خلدون.
(43) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص: 190-191، من الوزراء العلماء يحيى بن خالد البرمكي، وزير هارون الرشيد، ويعقوب بن كلس، وزير العزيز بالله الفاطمي بمصر.
(44) كشف الظنون، لحاجي خليفة، المجلد: 1، ص: 35 منشورات مكتبة المثني ببغداد، ومقدمة العلامة ابن خلدون، ج، وص.

الملوك في كل عصر، أو عدم رغبتهم، فإننا لله وإنا إليه راجعون». كما يقول: «... ولم يتم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم (45)، وأما العرب فشغلتهن الرئاسة، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم، مع ما يلحقهم من انتحال العلم من أنفة، باعتباره من جملة الصنائع، والرؤساء يستنكفون من الصنائع.

أما العلوم العقلية فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه، واستقر العلم كله صناعة، فاختص بها العجم وتركها العرب، فلم يمارسها إلا العربون من العجم (46)».

المجالس العلمية وغيرها على عهد الدولة الأموية :

تطورت المجالس العلمية وغيرها على عهد الدولة الأموية، سواء من حيث شكلها وأدائها، أو من حيث مضمونها ومحتوياتها، كما استقلت عن بعضها، فصار الخليفة يعقد مجلسا خاصا بالعلماء وحملة العلوم الإسلامية، من فقه، وتفسير، وحديث، وغير ذلك، ومجلسا خاصا بالأدباء والشعراء وأمثالهم، ومجلسا لأهل الموسيقى والغناء والطرب، ويشمل الندماء والمضحكين، والمجان وأمثالهم.

والواقع أن ازدهار المجالس العلمية الخاصة في هذا العصر يرجع إلى أن الجدل والمناظرة والحوار بين الطوائف الدينية والمذهبية، بدأ في هذا العصر خافتا، ثم علا صخبه، وعم ضجيجه في العصر العباسي، حيث تحول إلى معركة ضارية، وصراع مرير (47).

هذا الخلاف المبدئي، وهذه الصراعات المذهبية، فجرت طاقة العلماء والمفكرين، فانتشرت مجالس الجدل والمناظرة والحوار، في المساجد والمدارس والمنتديات (48).

(45) المصدر السابق، والمجلد، ص: 41، ومقدمة العلامة ابن خلدون، ج، وص.
(46) كشف الظنون، لحاجي خليفة، المجلد: 1، ص: 41 منشورات مكتبة المثنى ببغداد، ومقدمة العلامة بن خلدون، تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 158.
(47) نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 115، ط: دار الكتاب اللبناني بيروت.
(48) نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 115، ط: دار الكتاب اللبناني بيروت، وحاضر العالم الإسلامي، لوثرروب ستودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، ج: 3، ص: 325، ط: 4، دار الفكر.

وهذا ما حدا بالخلفاء الأمويين إلى عقد مجالس علمية وأدبية نقدية في قصورهم (49)، استقطبوا لها خير العلماء والأدباء والفلاسفة والأطباء، وبالتالي: الرواة والأدباء والشعراء، حفاظا على الملكة اللغوية العربية وثقافتها، باعتبارها وعاء للكتاب والسنة (50).

ولم تلبث هذه المجالس أن استقلت عن بعضها، وتخصصت، وسرعان ما عم انتشارها، فعقدتها الأمراء والوزراء، والعمال والولاة في قصورهم بمختلف الأقطار والأمصار.

وكان خالد بن يزيد بن معاوية يعقد مجالس في علم الكيمياء والنجوم، فأمر بنقل كتبها من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية، وأفوق أموالا طائلة في ترجمة هذه العلوم، واستحضر آلاتها (51).

ذلك لأن الترجمة كانت لازالت محدودة في هذا العصر، إذ اقتصر فيه على الطب والكيمياء والتاريخ (52).

وقبل هذه المجالس العلمية المتطورة، كان خلفاء بني أمية يكتفون بجمع فقهاء المدينة، ويستشيرونهم في الأمور الهامة التي تعترضهم، كما يسألونهم عن الوسائل الكفيلة بتحقيق العدالة في حكمهم، ويعتبر عمر بن عبد العزيز مع الحسن البصري، أحسن مثال لذلك (53).

وممن اهتم بعقد المجالس العلمية وغيرها من الخلفاء الأمويين، معاوية ابن أبي سفيان، الذي كان يعقد مجلسا خاصا لأصحاب الأخبار في كل ليلة، بعد صلاة العشاء إلى ثلث الليل ثم ينام ثلث الليل، ثم يعقد مجلسا آخر للترجمة الذين يقرأون عليه ما ترجموه له من الكتب عن اليونانية واللاتينية، وهي تتعلق بتاريخ الدول، وسير الملوك، وأخبار الحروب ومكائدها، وأنواع السياسات (54).

(49) تاريخ الأدب العربي، لحنا الفاخوري، صك 211 و340-343 و353، ط: 5، المكتبة الدولية، بيروت-لبنان.

(50) نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 115، دار الكتاب اللبناني-بيروت.

(51) تاريخ الأدب العربي، لحنا الفاخوري، ص: 211، 340، 343، 353، ط: 5، م. دب، لبنان.

(52) المصدر السابق، ص: 211، ط: 5، المكتبة الدولية، بيروت.

(53) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص: 82-208، ونشأة الأشعرية لجلال محمد،

ص: 97-98، ط: 1، دار الكتاب اللبناني-بيروت، وتاريخ الجهمية والمعتزلة للقاسمي، ص: 55.

(54) المصدر الأول ص: 97.

كما كان عبد الملك بن مروان حريصا على عقد المجالس العلمية وغيرها للمذاكرة والمناظرة بين المفكرين وذوي الإختصاصات المختلفة، لتوسيع مداركه، وحتى يستفيد بعضهم من بعض. فقد قال لهم مرة في أحد هذه المجالس : «أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنة ؟»... فعدها سويد بن غفلة، كما عدها أحد الحاضرين مرتين (55).

وكان خلفاء بني أمية أول من أضفى مظاهر العظمة والأبهة على مجالسهم العلمية وغيرها، واتخذوا الحجاب والأسرة، اقتداء بمعاوية (56) الذي مهد دولتهم، وحَوَّل الخلافة الإسلامية القائمة على الشورى إلى ملك يتوارثه أبناؤه من بعده. أما الحجاب فاتخذة حين حاول البرك بن عبد الله الخارجي قتله، سنة 40هـ (57).

وكانت تحية الداخل للمجلس هي : السلام على أمير المؤمنين، ورحمة الله تعالى وبركاته (58). وعند الإنصراف يمشون القهقري إلى الورا، احتراماً للخليفة.

وكانت الرتبة الأولى في هذه المجالس -بعد الخليفة- للأمويين الذين يجلسون على الأسرة، والرتبة الثانية، لبني هاشم، الذين يجلسون على الكراسي (59).

المجالس العلمية على عهد الدولة العباسية (العصر العباسي الأول)

اهتم العباسيون بالعلماء والفقهاء ورجال الدين عموماً، وقربوهم وأفاضوا عليهم العناية المادية والمعنوية، باعتبارهم واسطة السلطة الدينية بين الخليفة والعامّة. فكانوا يصدرّون عن مشورتهم وآرائهم، ويحكمون

(55) المصدر السابق، وج، ص: 90-98، والكشكول، ص: 155.

(56) المصدر السابق وج، ص: 150.

(57) المصدر السابق، ج: 5، ص: 157-158.

(58) تاريخ التمدن الإسلامي، ج: 5، ص: 153 والأغاني، للأصبهاني، ج: 12، ص: 35، والمقريزي، ج: 2، ص: 288.

(59) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 154.

بفتاواهم، ويتبارون في احترامهم وإجلالهم، ويكون أمام مواعظهم، شأن أبي جعفر المنصور مع عمرو بن عبيد، والرشيد مع الكسائي، ومحمد بن الحسن (60)، اللذين كان يجلسهما مع الأمراء، ويأمرهما ألا يقوما لقيامه، وقال يوم حضر جنازتهما معا: «دفنت الفقه والعربية بالرّي».

وتبعاً لذلك كان الأمراء والوزراء والحكام، وبالتالي عامة الناس يعظمون العلم، ويقدرون أهله (61) من فقهاء، ومحدثين ولغويين، ونحاة، وأدباء، وشعراء، ومؤرخين... كالأصمعي، وأبي عبيدة، والكسائي، وسيبويه، والفراء، وغيرهم.

واقترء بالخلفاء كانوا يقربونهم، ويجلونهم، ويجيزونهم، ويفرضون لهم الأعطيات والرواتب، ويفرقون عليهم الأموال، وخاصة البرامكة وآل الفرات، فنشط العلم وأهله، وأصبح صناعة، ولا سيما الترجمة التي أقبل عليها أهل الذمة من غير المسلمين، الذين قربهم الخلفاء والحكام لعلمهم (62).

قال جيبسون في معرض كلامه عن اهتمام العرب بالعلوم والمعارف: «إن أمراء المقاطعات كانوا ينافسون الخلفاء في محبة العلم، وبفضلهم انتشر هذا العلم، من سمرقند وبخارى، إلى فاس وقرطبة» (63).

واحتلت العلوم الدينية في مطلع هذا العصر الصدارة، وظهر المتكلمون، وأقبل الناس على علم الكلام، لحاجتهم إلى كل ذلك في المعركة الفكرية التي احتدمت في العصر الأموي، وحمي وطيسها في العصر العباسي بين الفرق والمذاهب، والملل والنحل المختلفة، وبين علماء الإسلام من جهة، وبين علماء الإسلام أنفسهم من جهة أخرى، والذين انقسموا في هذا العصر إلى أهل العلم، الذين يعتمدون على النقل والإستيعاب، وأهل العقل الذين يستعملون العقل والاستنباط.

(60) تاريخ التمدن الإسلامي، لرجي زيدان، ج: 3، ص: 82.

(61) المصدر السابق، ج: 5، ص: 44-45.

(62) المصدر السابق، ج: 5، ص: 44-45.

(63) حاضر العالم الإسلامي، للوتروب استودارد الأمريكي، تعريب، دعجاج نويهيض، ص:

وكان من أثر انتشار علم الكلام وكثرة المتكلمين، أن أخذت كل فرقة تدافع عن عقيدتها، وتدحض أدلة عقيدة مخالفيها.

وكانت المناظرات بين المتكلمين تعقد بكل حرية في قصور الخلفاء والأمراء، والوزراء والولاة عموماً، وفي المساجد والمدارس والمعاهد الدينية وغير الدينية، كبيوت الحكمة (64).

ولم يكتف أبو جعفر المنصور بالمجالس العلمية العامة، التي كان يعقدها لعلماء عصره - فيما سبق ذكره - دفاعاً عن الإسلام، وإفحاماً لخصومه، وإنما كان يعقد مجالس جد خاصة لعلماء الفلك والطب والفقهاء (65)، وواظب عليها مدة طويلة، مستهدفاً توطيد دعائم الشريعة الإسلامية، وإثراءها وإغناءها على أسس علمية سليمة متينة.

واحتذى حذو المنصور حفيده هارون الرشيد، الذي آتت الحركة العلمية في عهده أكلها، لمبالغته في الاهتمام بالعلم، وتوقير العلماء، وخاصة الأصمعي (66).

فقد وضع هارون الرشيد دور العلم العامة تحت إدارة يوحنا بن ماسويه، وكلفه بترجمة الكتب القديمة التي غنمت من أنقرة، وعمورية، وبلاد الروم (67)...

فقام بترجمة كتب كثيرة عن اليونانية واللاتينية إلى السريالية، ثم إلى العربية، مما حد من العصبية العربية الإسلامية، وارتقى بالعقلية والفكر العربي الإسلامي إلى خوض أغوار الفلسفة، ومجالات العلم، فتكاملت شخصية وعظمة الإمبراطورية الإسلامية (68).

(64) تاريخ الإسلام السياسي، لحسن إبراهيم حسن، ج: 2، ص: 335، ط: 7، مكتبة النهضة المصرية.

(65) حاضر العالم الإسلامي، للوثروب استودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، ص: 148.

(66) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 159، وسير الملوك، ص: 79.

(67) حاضر العالم الإسلامي، للوثروب ستودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، ج: 1، ص: 143-144، ط: 4، دار الفكر.

(68) حاضر العالم الإسلامي، للوثروب ستودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، ج: 1، ص: 143-144، ط: 4، دار الفكر.

وكان الرشيد -كجده المنصور- يجمع العلماء في مجالس خاصة، لدراسة هذه الكتب المترجمة، لما فيها من مיתافيزيقية، وعقائد، وأفكار منافية لروح العقيدة الإسلامية (69).

كما كانت له مجالس عامة، يعقدها لعلماء عصره للتباحث والتدارس حول أهم قضايا العصر، ألا وهي الرد على الملل والنحل المختلفة. وكان لسياسة الدولة واتجاهها أثر على توجيه هذه المجالس مما يعكسه المجلس الذي عقد للتحكيم بين علماء البصرة والكوفة، وبالتالي بين سيبويه والكسائي، حول المثل العربي القائل: "كنت أظن أن الزنبور أشد لسعا من النحلة، فإذا هو إياها"، في نظر الكسائي، و"فإذا هو هي"، في نظر سيبويه.

وانتصر الأمين للكسائي استأذه، وأيد المأمون سيبويه، فحكم الرشيد لصالح الكسائي الكوفي، على حساب سيبويه البصري، رغم خطئه، مناصرة منه لأهل الكوفة الذين أيدوا الدولة العباسية، والذين كانوا في مجادلات علمية وأدبية ولغوية ودينية... مستمرة مع أهل البصرة.

وتفطن سيبويه إلى ذلك فرحل عن بغداد إلى فارس (70).

وكان المأمون أعلم خلفاء الإسلام إلى وقته، فعمل على تطوير المجالس العلمية، وإغنائها وإثرائها، وإخضاع نتائجها النظرية للمناقشات والمجادلات والحوار، وبالتالي للتجربة العملية الميدانية.

فقد جعل دار السلام عاصمة العلم الكبرى، وزودها بخزائن عديدة للكتب المختلفة، المؤلفة والمترجمة لجميع الأمم.

وزود هذه المكتبات الكبيرة بأجنحة خاصة للنسخ والترجمة (71).

وعكف مع كبار علماء عصره -في مجالس خاصة مغلقة - على مناقشة العلماء ومباحثة الحكماء، ومناظرتهم جميعاً (72)، وذلك بالطريقة التجريبية

(69) المصدر الأول و ج، ص: 147-148.

(70) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص: 89-90 و160.

(71) المصدر السابق، و ج، وص.

(72) حاضر العالم الإسلامي، للوثروب استودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نوهض، ج: 1، ص: 148.

المخبرية التي أخذوها عن يونان الإسكندرية، وليس بالطريقة النظرية التأملية ليونان أوربا.

وبموازاة هذه المجالس الخاصة التجريبية النظرية المغلقة، كان المأمون يرأس مجالس علمية عامة جهارة في قصره، للدفاع عن العقيدة والشريعة الإسلامية أمام خصومها، بالحجة والبرهان، والمناظرة والجدال، والإقناع، على أساس علم الكلام، وبواسطة المتكلمين، وخاصة بعد أن ظهر القول بخلق القرآن (73).

فقد شمر المأمون لذلك، وأخذ يعقد المجالس المطولة للمناظرة حول ذلك كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع (74).

وكان المأمون يعتز بعلماء مجالسه العلمية، ويقول عنهم بافتخار: "إنهم صفوة الله في خلقه، ونخبة من عباده، صرف أعناقهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة، فكانوا مصابيح وسادة البشر" (75).

وإلى جانب المناظرة حول قضية القول بخلق القرآن، وزيادة على مجالسه العلمية التجريبية - النظرية يوم الثلاثاء الخاصة المغلقة (76) كان يعقد مجالس عامة خلال بقية أيام الأسبوع، تضم المتكلمين وغيرهم من أهل الملل والنحل، يتجادلون ويتباحثون في الكُـمُون، والظهور، والقدم والحدوث، والإثبات والنفي، وغيرها من المواضيع الفلسفية، وذلك على أساس قواعد علم الكلام (77).

ويرى ابن خلدون أن بدعة التشبيه والتجسيم، وبالتالي الإعتزال، ثم محنة خلق القرآن نشأت من النظر في الآيات المتشابهة، بل حتى نشأة علم الكلام في نظره تعود إلى هذه الآيات المتشابهة، لأن النظر فيها أدى إلى ما حدث من حوار وجدال بين الفرق والمذاهب، ومختلف الملل والنحل، مما كانت نتيجته الحتمية نشأة علم الكلام (78).

(73) المصدر السابق وج، ص: 147، ط: 4 دار الفكر.

(74) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 162، والمسعودي ج: 2، ص: 231

(75) حاضر العالم الإسلامي، للوثروب استودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، ص: 151.

(76) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص: 223.

(77) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 162 المسعودي ج: 3، ص: 202.

(78) المقدمة، لابن خلدون، ص: 463، ونشأة الأشعرية لجلال محمد، ص: 85 ط: 1، دار الكتاب

الليباني بيروت.

والواقع أن هذه الملل والنحل كانت موجودة منذ العصر الجاهلي، إذ نجد المقدسي في البدء والتاريخ عند الكلام عن شرائع أهل الجاهلية يقول : " كان فيهم من كل ملة ودين، فكانت الزندقة والتعطيل في قريش، والمزدكية والمجوسية في تميم، واليهودية والنصرانية في غسان، والشرك وعبادة الأوثان في سائرهم(79) ".

والحقيقة أن هذه البذور كانت منذ عهد الجاهلية - كما مر بنا - وأن هذا الدس بدأ منذ فجر الإسلام (80).

ويرى بعض الباحثين أن المأمون العباسي اهتم بجمع المجالس العلمية، وخاصة حول قضية خلق القرآن، لإزالة الخلاف بين المتناظرين في المسائل الدينية وتثبيت عقيدة من زاغوا عن الإسلام من الملحدين والصابئين والمارقين(81).

أما الحقيقة التاريخية لمحنة خلق القرآن، فهي أن المأمون كان يميل للأخذ بمذهب المعتزلة، باعتباره أكثر حرية واعتمادا على العقل، فقرب علماء هذا المذهب حتى أصبح لهم نفوذ كبير في قصره، وبالتالي على سير واتجاه مجالسه العلمية الخاصة والعامة وغيرها (82).

المجالس العلمية في العصر العباسي الثاني :

استمر الخلفاء في العصر العباسي الثاني -بعد المعتصم - على تقديم العلماء وإقامة المجالس العلمية، لكن مستوى هذه المجالس تدهور، وأصبحت شكلية ومظهرا من مظاهر العظمة للدولة، أو قطعة من ديكور واجهاتها المختلفة، وطقسا من طقوسها المقدسة.

ذلك أن محنة خلق القرآن، وامتحان الأئمة من العلماء الكبار، زعزع إيمان الناس بالمعتزلة، وشحذ إيمانهم بأهل السنة والجماعة من المحدثين

(79) نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 88، والبدء والتاريخ للمقدسي ج: 4 ص: 31.

(80) نشأة الأشعرية لجلال محمد، ص : 88، مقدمة تبين كذب المفتري للكوثري، ص: 10.

(81) تاريخ الإسلام السياسي لحسن ابراهيم حسن ج: 2، ص: 223، ط: 7، مكتبة النهضة المصرية.

(82) المصدر السابق، وص نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 187، ط: 1، دار الكتاب اللبناني

بيروت.

السلفيين. كما أن الخليفة المتوكل العباسي م : 234 هـ، ألقى بثقله في الميزان حين منع المناظرة والجدال، وقرر العودة إلى التقليد والتسليم، وأصدر أوامره للمحدثين بالعمل على نشر السنة النبوية على أوسع نطاق. فكانت تعليماته هذه إنذارا للمعتزلة بأن يتركوا الساحة (83). لكن الذي حدث بالفعل هو أن المعتزلة ظلوا بالساحة. لكنهم أوقفوا نشاطهم السياسي فقط، وإلا فقد ظهر بعد ذلك كل من الجاحظ، م : 256 هـ، والخياط م : 290 هـ، وأبي علي الجبائي، م : 303 هـ وولده أبي هاشم، م : 321 هـ والكعبي م : 319 هـ، وهؤلاء يشكلون رموز المعتزلة خلال العصر العباسي الثاني.

ولا أدل على ذلك من المناظرة التي جرت بين ابن كلاب، وأبي الهذيل العلاف، م : 722 هـ أيام الخليفة العباسي الواثق، وكذا مناظرة القلانسي للنظام، وكتابتة في الرد عليه (84).

بل إن هذه المجالس عقدت حتى أيام المتوكل نفسه، إذ يرون أنه بعد مجلس من مجالسه هذه نثر مالا جليلا على المنتصر فتناهبه الأمراء والقواد بين يديه (85).

واستمر الحال على هذا - حتى بعد انهيار الخلافة العباسية - باستقلال أجزائها، وظلت المجالس العلمية تعقد للبحث والمناظرة وغيرهما في الدول التي خلفت الخلافة العباسية، أو تفرعت عنها، سواء بأسيا أو إفريقيا أو الأندلس، وذلك في قصور الملوك والسلاطين والأمراء وغيرهم، ممن استبدوا بالحكم وخرجوا عن سلطة الخلافة، كالأمويين بالأندلس، والفاطميين بإفريقيا ومصر، والأيوبيين بمصر والشام، والحمدانيين بحلب (86).

(83) نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 180-186، ط: 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(84) م : 231 هـ.

(85) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ج: 1، ص: 322 ط: 2، المطبعة الهندية بمصر.

(86) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، للدكتور النشار، ونشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 33.

المجالس العلمية للإمارات المستقلة عن الدولة العباسية :

ومن أشهر المجالس العلمية بهذه الدول الجديدة المستقلة عن الخلافة العباسية(87) : مجالس صلاح الدين الأيوبي، وسيف الدولة الحمداني، ونظام الملك، وزير ملكشاه، والحكم المستنصر الأموي بالأندلس وغيرها(88). وكان نظام الملك الطوسي، وزير ملكشاه السلطان السلجوقي، من أول من أنشأ هذه المجالس أواسط القرن الخامس الهجري، سنة 457هـ، وكان يحضر هذه المجالس شخصيا، ويناضر علماءها، وعلى رأسهم أبو حامد الغزالي، وأبو إسحاق الشيرازي.

وما إن استقل سيف الدولة الحمداني بحلب حتى أنشأ بلاطا، وجمع حوله نخبة من العلماء والأدباء والشعراء، " ولم يجتمع بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر " كما قال ابن خلكان. فكان يعقد لهم مجلسا علميا كل ليلة، حيث يناظرهم شخصيا بمنتهى التواضع واللياقة، كما كانوا يتناظرون فيما بينهم بحضرتهم. ومن ذلك مناظرة جرت بين المتنبي وابن خالويه، تطورت إلى مشاجرة بينهما، حيث ضرب ابن خالويه الشاعر الكبير المتنبي بمفتاح حتى شج رأسه، فغادر المتنبي على إثر ذلك مجلس سيف الدولة وبالتالي حلب -وهو حزين مجروح- وظل يحن إلى فردوسه المفقود (89). ذلك أن سيف الدولة كان حاضرا، لكنه لم يتدخل لحماية المتنبي، فخرج مغاضبا، وذلك سنة 346هـ-957م، لكنه ظل يحن للعودة إلى سيف الدولة، ويمدحه منتظرا دعوته إياه من جديد (90).

أما عن المجالس العلمية للدولة الأيوبية فإننا نجد لدى، ابن خلكان في وفياته أن ابن دحية السبتي -أحد كبار علماء المغرب- رحل إلى المشرق، فأكرم الكامل الأيوبي وفادته، وأنشأ له المدرسة الكاملة للحديث في القاهرة سنة 622هـ(91).

(87) تاريخ التمدن الإسلامي، لرجي زيدان، ج: 5، ص: 162، وطبقات الأطباء، ج: 1، ص: 175.

(88) المصدر السابق، ج: 5، ص: 162، ووفيات الأعيان، لابن خلكان، ج: 2، ص: 235.

(89) تاريخ الأدب العربي، لحنا الفاخوري، ص: 602، ط: 5، المكتبة الدولية بيروت.

(90) ديوان المتنبي، ص: 5، المكتبة الثقافية بيروت.

(91) وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، المجلد: 5، ص: 155، دار الثقافة، بيروت - لبنان.

وكانت دروس هذه المدرسة عبارة عن مجالس علمية حديثة، يحضرها السلطان الكامل الأيوبي بنفسه، حيث تدور مناظرات قيمة بين علمائها وغيرهم، وقد أسند رئاستها بعده لأخيه عثمان، ثم لأبيه شرف الدين (92). كما كانت للسلطان صلاح الدين الأيوبي مجالس علمية وأدبية زاهرة، ويكفي أن نعلم أن ضياء الدين بن الأثير كان من أقطاب ورواد هذه المجالس، وكتب لصلاح الدين ولأبنائه من بعده (93).

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر، أنشأ وزيرها يعقوب بن كلس مجالس علمية للمناظرة في الفقه، والأدب والشعر، وعلم الكلام، وغير ذلك من علوم العصر.

وكان هدف الدولة من وراء ذلك مناصرة مذهب الشيعة الذي قامت دولتهم على أساس، توطيد دعائمه.

لذلك كان الحاكم بأمر الله الفاطمي يحضر هذه المجالس، وينظر العلماء ويفاوضهم، ويمكنهم من وسائل البحث، ويسهل عليهم المناظرة التي كانت تقام بدار الحكمة، التي أنشأها الخليفة المذكور في القاهرة لهذا الغرض (94). واهتم خلفاء الدولة الأموية في الأندلس بإقامة هذه المجالس العلمية ولا سيما الحكم المستنصر، الذي دعم مجالسه العلمية بمكتبة عظيمة، تضم أكثر من أربعمئة ألف كتاب. فقد كان هذا الخليفة من أكبر علماء عصره، ومن ثم كان يناظر علماء مجالسه ويحاورهم، ويشارك مشاركة فعالة في التوصل إلى النتائج الإيجابية للمواضيع المطروحة في هذه المجالس (95)، وإذا كان عهد ملوك الطوائف عهد انحطاط سياسي وانهيار عسكري فإنه من الناحية الثقافية والفكرية بعث نهضة علمية وأدبية تضاهي أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية بالشرق العربي.

(92) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، لعباس الجراري، ج: 1، ص: 145، مكتبة المعارف بالرباط.

(93) تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري، ص: 751، ط: 5، المكتبة الدولية، بيروت.

(94) تاريخ التمدن الاسلامي، جرجي زيدان، ج: 3، ص: 162.

(95) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 162، ووفيات الاعيان، لابن خلكان، ج: 2، ص: 235.

وإذا كان اهتمام الخلفاء في الدولة العباسية، والملوك والسلاطين والحكام في الدويلات المستقلة عنها موجهاً بالدرجة الأولى إلى المجالس العلمية لأهميتها بالنسبة لسياسة دولتهم، وتوجهاتها، وما يواجهها من مشاكل وأخطار على الصعيدين الداخلي والخارجي، فإن المجالس الأدبية واللغوية احتلت المكانة الثانية بالنسبة لهذه المجالس، وكانت مقتصرة على الفنون الأدبية، والعلوم اللغوية، والنحوية واللسانية دون غيرها، كما كان شأنها أيام الدولة الأموية (96).

وكانت للشعراء حظوة ملموسة بالنسبة لغيرهم من الأدباء، فقربوهم، وأجزلوا عطاءهم، وخصوهم بمجالس لا يدخلها غيرهم، باستثناء المنصور العباسي، الذي كان منصرفاً عنهم، لانشغاله عنهم بتوطيد دعائم الدولة، فكانوا في أيامه يتحسرون على أيام بني أمية (97).

ولتلازم الشعر والغناء فقد اهتم خلفاء الدولة العباسية، ثم الملوك والسلاطين بالدويلات المستقلة عنها بالغناء، إلا في الأوقات الحرجة التي تجتازها دولهم، فإنهم كانوا يعزفون عنه خلالها.

ولم تلبث هذه الطقوس والعوائد أن رفعت وأزالت هيبة الخلفاء، حتى أبيع اللعب والضحك والهزل في مجالسهم (98).

وكان من أدب هذه المجالس ألا يأمر أحد بالمجلس غير الخليفة (99)، وقد اتخذوا الحجاب (100)، ثم جعلوه عدة أستار كالبرامكة (101).

(96) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان ج : 5، ص : 162، والمسعودي، ج: 3، ص: 202، وابن خلكان، ج: 5، ص: 480.

(97) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 160، والأغاني للأصبهاني، ج: 12، ص: 102-91.

(98) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان ج : 5، ص : 155، والمسعودي، ج: 2، ص: 261.

(99) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان ج : 5، ص : 156، والعقد الفريد، ج: 3، ص: 111.

(100) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان ج: 5، ص : 157، والمسعودي، ج: 1، ص: 106.

(101) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان ج : 5، ص : 157، والفرج بعد الشدة، ج: 2، ص: 23، والمستطرف، ج: 1، ص: 164.

كما اتخذوا لقصورهم عدة أبواب (102)، واتخذ كل منهم إشارة لإعلام جلسائه بانتهاء المجلس، ووجوب انصرافهم. وعند الخروج من المجلس يمشون القهقري إلى الورا (103).

المجالس العلمية على عهد الأدارسة (104) :

لم يكن عهد الولاة بالمغرب يسمح بإقامة مجالس علمية من أي نوع، اللهم ما كان يلقى بالمساجد والمدارس والرباطات من دروس دينية كخطب الجمعة، وما إلى ذلك من الخطابة الدينية الحافزة على الجهاد، والشهادة في سبيل الله.

ذلك أن عهد الولاة كان عهد الفتح الذي استهدف نشر الدين الإسلامي، واللغة كأداة له، باعتبارها لغة القرآن، إذ واكبت اللغة الفتح بكل الأصقاع، وتعرضت حركة التعريب لنفس الهزات والمصاعب التي اعترضت نشر الإسلام، كما استهدف الفتح توطيد صرح الدولة الإسلامية -بتعريب البربر- وبالتالي التمكين للوجود الإسلامي وللإمبراطورية الإسلامية في شمال إفريقيا، وهي الرسالة المقدسة الخالدة التي قام بها على التوالي كل من حسان بن النعمان، وعقبة بن نافع الفهري، وموسى بن نصير رفقة طارق بن زياد.

وجاءت الدولة الإدريسية، فحققت هذه الأهداف على أوسع نطاق، فانتشر الإسلام، وفي ركابه اللغة العربية، ودخل المغاربة في دين الله أفواجا عن طواعية واختيار، وبعصامية والتزام، حبا لآل البيت، وتعويضا لهم عما قاسوه من عسف وغبن....

وما إن وضع المولى إدريس أسس دولته العربية المسلمة، حتى تقاطرت عليه وفود العلماء والشرفاء والنبهاء من المشرق، والقيروان، والأندلس، من أنصار الأسرة النبوية الشريفة الذين ضاقوا ذرعا باضطهاد كل من الأمويين، ثم العباسيين على التوالي، فكون منهم حاشيته وبطانته،

(102) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 157.

(103) المصدر السابق، ج، ص: 157-158.

(104) نسبة إلى المولى إدريس، الذي فر من وقعة فخ، سنة 169هـ، في عهد الهادي العباسي.

وأُسند إليهم المهام الجسيمة في دولته الفتية، كأطر عليا وخبراء ومستشارين.

وكانت هذه النخبة النيرة بذرة المجالس العلمية للمولى إدريس الأكبر التي كانت تجتمع لوضع المشاريع والمخططات الضرورية لسير الدولة، وكذا لوضع القوانين والأنظمة، واستنباط الأحكام لمواجهة مستجدات الحياة اليومية، وبالتالي لطرح المشاكل التي تواجه الدولة بالداخل والخارج، ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لها على مختلف المستويات والأصعدة.

وإذا كان نشاط هذه المجالس أصيب بشيء من الفتور بعد مقتل المولى إدريس الأول أو الأكبر، فإنها لم تلبث أن عادت إلى سابق عهدها وأحسن، ببيعة المولى إدريس الثاني أو الأصغر الذي تابع سياسة والده المنعم، وسار على دربه ونهجه الحكيم.

فقد كانت بيعته -رغم صغر سنه- فاتحة عهد جديد في حياة المغرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، وبالتالي الفكرية والثقافية، ذلك أنه في عهده، تضاعف عدد الشخصيات الوافدة عليه من كبار العلماء والفقهاء، والأدباء والشعراء من المشرق والقيروان والأندلس، خاصة الذين أصبحوا يكونون مع الوافدين الأوائل في عهد والده، ومع الأطر المغربية الجديدة التي تكونت بين الفترتين طلائع الأمة المغربية، والنخبة المثقفة التي صارت تتبادل الرحلة مع الشرق والأندلس، في إطار التعاون الثقافي.

وكان على رأسهم : عبد الله بن سعادة الفاسي، ودراس بن إسماعيل، وأبو عمران الفاسي(105).

وهؤلاء وأولئك الوافدون من الشرق، أو المتوجهون إليه من العلماء والمفكرين وغيرهم، هم الذين كانوا يعقدون المجالس العلمية الحقيقية للتباحث في قضايا العصر الفكرية والثقافية والدينية وغيرها، وهم الذين كانوا مؤهلين وحدهم للقيام بهذا الدور الطلائعي كرواد أوائل للفكر الإسلامي العربي في هذه الربوع المغربية. لذلك أخذ علماء عهد المولى إدريس الثاني، وبالتالي علماء مجالسه العلمية، بالمذهب المالكي السني.

(105) دعوة الحق، ع:4، س: 10، ص: 34، 1967، عناية الملوك المغاربة بالحديث النبوي الشريف، لرضا الله ابراهيم الإلغي.

ذلك أن المولى إدريس كان هدفه تدعيم ملكه، فقد تفتن بذكائه لنفور المغاربة من مبادئ الشيعة، وعدم استعدادهم لتقبلها، رغم أن الأدارسة كانوا زيديين، أي من أكثر المذاهب الشيعية اعتدالا وقربا من أهل السنة والجماعة. وبالتالي لتعاطف المولى إدريس مع الإمام مالك الذي يروي في الموطأ عن والد المولى إدريس عبد الله الكامل، وكذا لموقف مالك المناصر لأخي المولى إدريس، محمد النفس الزكية، حيث أفتى -عند قيامه ضد أبي جعفر المنصور- بأن بيعة المنصور لا تلزم، لأنها تمت بالإكراه، وامتنح بالجلد والتطويف، لإفتائه ببطلان طلاق المكره، وبسقوط يمين الإكراه عموما.

وبذلك كانت مجالس المولى إدريس تعقد في أحضان المذهب المالكي(106).

المجالس العلمية على عهد الدولة المرابطية :

من المعروف أن يوسف بن تاشفين كان يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ويكثر من تلاوته، كما كان محبا للعلم، مكرما ومقربا للعلماء والفقهاء، ذا فصاحة باللغتين : العربية والبربرية، مع لحن في العربية. وكانت مجالسه العلمية غاصة بالعلماء والفقهاء والأدباء، فكان مولعا بمذاكرتهم ومناظرتهم في المسائل الدينية والدنيوية. كما ثبت بما لا يترك المجال للشك أنه كان يعتني في هذه المجالس بسرد حديث رسول الله (ص)، ولاغرو فقد كان من أنبه تلاميذ مدرسة عبد الله بن ياسين الجزولي، الذي لازمه منذ أن دخل بلادهم، إلى أن مات هذا الشيخ الجليل(107) .

وما كان رباط عبد الله بن ياسين إلا مجلسا علميا متواصل الجلسات والانعقاد أثناء الليل وأطراف النهار، ولا أدل على ذلك من قول المراكشي(108): «...فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة -الأندلس- من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته بني العباس في صدر دولتهم».

ويعتبر عبد الله بن ياسين الجزولي في طبيعة رواد خريجي هذه المدرسة النموذجية، أو المجلس العلمي العتيدي.

(106) المغرب قبل الاستقلال، لعبد الرحيم سلامة، ص: 15-16، ط: 2، دار الثقافة - الدار البيضاء.

(107) البستان الظريف، للزياني، ص: 67.

(108) المعجب، للمراكشي ص: 243.

ولم يكن يوسف بن تاشفين بدعا في كل ذلك، بل إن أمراء المرابطين اغترفوا من معين العربية بأوفر نصيب، وكانت مجالسهم العلمية والأدبية الزاهرة مضرب الأمثال، وموضوع روايات كثيرة تضمنتها كتب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، و«قلائد العقيان» (109).

كما كان أمير صنهاجة يحيى بن إبراهيم الكدالي من أقطاب تلاميذ وأساتذة هذه الرابطة المباركة، والرباط المجيد الذي يصدق في حقه الحديث النبوي الشريف " لا يزال أهل المغرب قائمين على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله " (110).

وذلك بشهادة العلامة أبي بكر الطرطوشي، الذي كتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رسالة يؤكد فيها أن المغاربة هم المقصودون بهذا الحديث النبوي الشريف، بدليل أن الطوائف الضالة لم تؤثر فيهم كما أثرت في غيرهم من أقطار الشرق العربي الإسلامي.

وسار ولده وخليفته علي بن يوسف بن تاشفين على نفس النهج، من تقديم العلماء والفقهاء، واستشارتهم، والأخذ برأيهم في السراء والضراء، بعد أن استقطب لمجالسه العلمية صفوتهم من مختلف أنحاء دولته المترامية الأطراف، من عواصمها ومدنها وقراها...

ولعل أهم مجلس علمي عقد على عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، هو ذلك المجلس المشهود الذي دعا إليه العلماء والفقهاء، لمناظرة محمد بن تومرت الملقب بالمهدي (111)، واختبار أمره.

المجالس العلمية على عهد الدولة الموحدية :

ازدهرت النهضة العلمية على عهد الموحدين أيما ازدهار بفضل الأرضية الخصبة التي مهدها وهياها لهم المرابطون، والبذور الطيبة التي زرعوها فيها، وجاء الموحدون لقطف أزهارها الندية وجني ثمارها الناضجة الدنية.

(109) دعوة الحق، ع: 6 و7، س: 9، ص: 104-107، دراسات مغربية البربر عربوا المغرب.

(110) رواه مسلم عن تقاتة الصحابة.

(111) مجلة المناهل ع: 9، ص: 151 وما بعدها دراسة حول رسائل ابن العربي، التي تسمى رحلة

أبي بكر ابن العربي، للدكتورة عصمت دندش.

فالحقيقة التي لا غبار عليها أن المرابطين هم الذين وضعوا الأسس المتينة التي شيد عليها الموحدون صرح نهضتهم الثقافية والحضارية والفكرية وغيرها، التي يتباهى بها تاريخ المغرب.

ولا أدل على ذلك من أن جل العلماء والأدباء والشعراء الذين ازدهى بهم عصر الموحدين، إنما تم تكوينهم المادي والروحي في مدارس المرابطين ورباطاتهم المشعة، التي قامت على هدى من الله ورضوانه، وبالتالي في مجالسهم العلمية النيرة، ناهيك بالقاضي عياض، وابن رشد، وابن الطفيل...

وقد قام الموحدون بدور إيجابي فعال لاستثمار كل ذلك، وعززوه بمبادرات ومواقف خالدة صهرته في بوتقتهم، فشيّدوا حضارة عظيمة، وبعثوا نهضة شاملة، انعكست مظاهرها على جميع مجالات الحياة، ولاسيما الثقافية منها، ولازالت معالمها ماثلة للعيان تنافس الدهر البقاء، شاهدة على عظمتهم وجدارتهم....

ذلك أن جل خلفائهم كانوا علماء كبار، ومفكرين أفذاذا، ومؤلفين بارعين باللغة العربية، باعتبار أن اللغة الرسمية للدولة المغربية، كانت ولازالت وستبقى هي اللغة العربية العتيدة.

لذلك كانت مجالسهم ومجامعهم العلمية تعج بكبار المفكرين والعباقرة، الذين أنجبهم العالم العربي والإسلامي في عصرهم.

وكانت لمجالسهم العلمية هذه - التي أسموها بالمجامع - طقوسا وبروتوكولات خاصة تختلف عن تلك التي عرفناها بالمشرق شكلا ومضمونا، لما تميزت به من تقشف ووقار.

وكان الخلفاء الموحدون يعقدون مجالسهم أو مجامعهم العلمية مع أشياخ علماء الموحدين، وكبار العلماء الواردين عليهم من الأصقاع (112).

وكانت هذه المجالس العلمية حافلة بالجدال والمناظرة، والدراسة والبحث في أنواع العلوم والفنون، التي تختلف باختلاف رواد هذه المجالس، التي كانت زاخرة بكبار العلماء والأدباء والأطباء والفلاسفة المغاربة والواردين، الذين يكلف باستقطابهم واستجلابهم علماء كبار، كأبي بكر بن الطفيل من

(112) المعجب للمراكشي، ص: 227، والعلوم والآداب والفنون للمنونني، ص: 39 .

طرف يوسف بن عبد المؤمن، ويؤكد لنا ذلك المراكشي بقوله (113):
"ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وينبئه عليهم،
ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم".

كما درج الموحدون على مكاتبة البلدان لاستجلاب العلماء إلى عاصمتهم
من أهل كل فن، وخاصة علم النظر.

ولم تكن هذه المجالس مقتصرة على علم أو فن معين فقط، بل خصصوا
لكل علم مجلسا من العلماء ذوي الكفاءة والاختصاص فيه، فهذا مجلس
للمناظرة في علم الأصول، وذاك مجلس للمذاكرة في الآداب المختلفة (114)....

وكانوا يفتتحون هذه المجالس بطرح مسألة علمية معينة من طرف

الخليفة نفسه - وهو ما كان يفعله عبد المؤمن وولده يوسف (115)

- أو تلقى نيابة عنه، من طرف الأجلة من العلماء الحاضرين، وتعطى

الأولوية في حق الكلام حسب مراتب الجلوس بالمجلس، بحيث يتوسطه

الخليفة ويحُفُّ به أقطاب الأئمة والشيوخ، ثم رئيس الأطباء، فكبار علماء

العاصمة، ثم بقية العلماء الحاضرين على اختلاف مراتبهم (116).

ولا بأس من استعراض نبذة عن المجالس العلمية لأشهر وأعظم خلفاء

الدولة الموحدية.

فقد كان عبد المؤمن بن علي يعقد مجالس أدبية وعلمية عالية المستوى،

تضم علماء المغرب والعلماء الوافدين عليه، والمستقطبين من طرفه، الذين

اتخذ منهم جميعا بطانته (117).

كما كانت لعبد المؤمن مجالس علمية جد خاصة (118) انتقى لها صفوة

الشيوخ والأئمة من العلماء والفقهاء، والأدباء والشعراء المرموقين، واختصهم

بالاستشارة، وتبادل الرأي في القضايا الكبرى، والأمور الجسيمة التي

تعترض دولته، وأبرزهم: القاضي يوسف بن حكم، والفقير القاضي الكاتب

(113) المعجب للمراكشي، ص: 158، والعلوم والآداب والفنون للمنونى، ص: 39.

(114) العلوم والآداب والفنون، للمنونى، ص: 39، وطبقات الأطباء، ج: 2، ص: 78-81.

(115) المعجب للمراكشي، ص: 227، والعلوم والآداب والفنون للمنونى، ص: 39.

(116) العلوم والآداب والفنون للمنونى، ص: 40، طبقات الأطباء، ج: 2، ص: 74.

(117) الأنيس المطرب لابن أبي زرع، ص: 308، دار المنصور الرباط.

(118) المصدر السابق و ص.

علي المغيلي، والفقيه الأديب مالك بن المرحل، والفقيه الكاتب أبو عمران التيمي، والفقيه الأديب الشاعر عبد العزيز المزورتي، وأبو شعيب بن سعيد الصنهاجي (119)، وأحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي (120)، وأحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي، مؤسس مدرسة قرطبة في النحو، وذلك لكون عبد المومن كان عالما وفقهيا كبيرا وأديبا يأخذ نفسه حتى بنظم الشعر (121).

وكان من أعلم علماء الدولة الموحدية على الإطلاق أبو يعقوب المنصور، الذي يرجع إليه الفضل في النهضة العلمية والأدبية التي ازدهرت في هذا العصر، وشع نورها في جميع الأنحاء إلى شخصيته العلمية الفذة.

فقد كان عالما فقيها، مفتيا باجتهاده، محدثا ومصنفا في جمع الأحاديث الصحيحة (122)، كما كان أديبا شاعرا، محبا للفلسفة (123)، -بعد أن تراجع عن اضطهاد الفلاسفة، وعلى رأسهم ابن رشيد، واصطفاه ليطلعه على أسرارها-.

فواظب على عقد مجالس علمية حافلة داخل قصره، بحضور كبار موظفي الدولة وعلمائها.

وكان يخصص لكل علم من العلوم يوما من أيام الأسبوع، فيوم لمجلس الفقهاء، وآخر لمجلس الأدباء، وثالث لمجلس الأطباء (124)، وهكذا. وكان يختار فحول وفتاح كل علم لمقارعتهم في اختصاصاتهم.

(119) المعجب المراكشي، ص: 484، وإعلام المغرب لابن منصور ج: 2، ص: 196.

(120) إعلام المغرب لابن منصور ج: 3، ص: 318-321، والإحاطة، ج: 1، ص: 182، والتاج، ص: 5، والأعلام للزركلي، ج: 1، ص: 146.

(121) إعلام المغرب لابن منصور ج: 3، ص: 357-359، والأنيس المطرب، لابن أبي زرع، ص: 308، دار المنصور بالرباط.

(122) نفح الطيب، ج: 2، ص: 99، ط: القاهرة، وعصر المنصور الموحد، لرشيد ملين، ص: 148، المطبعة المحمدية -الدار السلطانية-.

(123) المعجب المراكشي، ص: 190، ط: الرباط، وعصر المنصور الموحد، لرشيد خليل، ص: 148.

(124) طبقات الأطباء، لابن ابن اصبيعة، ج: 2، ص: 78-81، وعصر الموحدين لرشيد ملين، ص: 148، المطبعة المحمدية -الدار السلطانية-.

وكان يعطي اهتماما خاصا لمجالس علمي التفسير والحديث، وبالتالي لعلمائهما الذين نالوا حظوة كبيرة لديه، فظهر أئمة وحفاظ في التفسير والحديث، كعلي بن محمد بن عبد الملك بن القطان م. 628 (125).

وكل ذلك كان على أساس مذهب الظاهرية، لإعجابه بإمامه ابن حزم بن محمد الذي قال عنه : " كل العلماء عيال على ابن حزم " (126).

ومن مظاهر هذا الاهتمام، حرصه على ختم القرآن الكريم ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك كما فعل بقرطبة سنة 593هـ-1197م، حيث جعل ذلك الختم مسك الختام لغزوته الثالثة للأندلس (127).

وبلغ من اهتمامه بمجالسه العلمية أنه كان حريصا على أن يصحب علماءها في غزواته تبركا بهم، إذ كان يعدهم أهم من جنوده باعتبار أن دعاءهم من أقوى أسلحته، وكان يقول عنهم : " إنهم الجنود لاهؤلاء » (128) .

وكان يرأس مجالسه العلمية ويطرح بنفسه القضايا والمسائل على علمائها الحاضرين، ويشاركهم المناقشة والمناظرة والجدال (129) في حلولا وممن حظي باختياره للحضور في مجالسه العلمية المذكورة : الحافظ أبو بكر بن الجد، ويحيى بن أبي الحجاج، ومعلم أولاده عبد الله بن سليمان بن حوط، والطبيب الأديب بن زهر، وابن رشد، وأحمد بن يحيى ابن السعود العبدري (130).

(125) عصر المنصور الموحد، لرشيد ملين، ص: 226-229.

(126) مذهب الظاهرية يحتم الأخذ بظاهر كلام الله تعالى، مالم يمنع من ذلك نص آخر، أو بإجماع، أو ضرورة

(127) البيان المغرب، ص: 201، ج: المتعلق بالموحدين، ط: تطوان.

(128) يريد بهؤلاء عسكريه وجنوده.

(129) عصر المنصور الموحد لرشيد ملين، ص: 150، والمعجب للمراكشي، ص: 211.

(130) عصر المنصور الموحد لرشيد ملين، ص: 150، ونفح الطيب للمقري التلمساني، ج: 1، ص: 75، وأعلام المغرب العربي لابن منصور، ج: 3، ص: 369، و ج: 4، ص: 24-25.

وكان يعقد امتحانا للعلماء فلا يحضر مجالسه منهم إلا من نجح في ذلك الامتحان، وأثبت فيه كفاءته وأهليته لهذا الشرف، ومن ذلك اختباره للمحدث الكبير أبي عمر بن غاث (131).

كما كانت له مجالس خاصة بالخطباء، الذين كانوا يتبارون بمحضره لاختيار أفصحهم، وأكثرهم براعة وقدرة على ارتجال الكلام، وإقناع السامعين (132).

وكان يرأس مجالس الأطباء ومؤتمراتهم التي يقابلون فيها بين نظرياتهم وملاحظاتهم فيما بينهم، وبالتالي بين نظريات غيرهم، على أساس الدراسة والبحث والمقارنة والتجربة العلمية.

أما مجالسه العلمية الخاصة بالشعر والشعراء فقد طغى عليها الشعور الديني، فكانت جل القصائد التي تلقى فيها بين يديه تدور حول الأغراض الدينية كالزهديات والمدائح النبوية، ثم في غرض المدح الحماسي للمنصور وأعماله وملاحمه البطولية (133).

أما من حيث شكل هذه المجالس العلمية للموحدين بصفة عامة، وتقاليدها المرعية، باعتبارها مجالس للخلفاء، فكانت تطبعها الجدية ومراعاة آدابها الملوكية التي لا يغتفر الأخلال بها (134).

وكانت هذه المجالس تختتم دائما بالدعاء من قبل الخليفة جهرا، وبالتأمين من طرف الوزير (135)، ولم تكن هذه المجالس تتوقف حتى خلال سفر الخلفاء، مع اختلاف شكلها بما يتلاءم وظروف السفر (136).

(131) نفع الطيب للمقري التلمساني، ج: 1، ص: 369، عصر الموحدين لرشيد ملين، ص: 151-152، المطبعة المحمدية، الدار السلطانية.

(132) عصر المنصور الموحد لرشيد ملين، ص: 171، المطبعة المحمدية - الدار السلطانية -

(133) المصدر السابق ص: 201-202.

(134) العلوم والآداب والفنون للمنوني، ص: 40، والبيعية، ص: 62.

(135) المصدر السابق و ص، والإعلام ج: 3، ص: 85.

(136) العلوم والآداب والفنون للمنوني، ص: 40، والمعجب المراكشي، ص: 227.

المجالس العلمية على عهد الدولة المرينية :

كانت المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة المرينية مشعلا مشعا للعلم والمعرفة في أرجاء البلاد، وانعكس سناؤه حتى تجاوز حدود البلاد لما وراءها من الأقطار. كما كانت هذه المجالس مدرسة عليا قائمة الذات، تخرج منها عباقره الفكر المغربي العربي والإسلامي، والإنساني، أمثال: ابن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب، وابن بطوطة، والمسداني والعبدوسي، وابن مرزوق (137)، ومحمد بن الفضل بن الصباغ، ومحمد السطي، والعلامة الزواوي (138)....

وقد سجل ملوك هذه الدولة وخلفاؤها سوابق ومبادرات، سواء في رئاسة هذه المجالس وحضورها، أو في المشاركة في مناقشاتها ومناظراتها العلمية والأدبية وغيرها. كما سنوا سننا حسنة في مجال تطويرها، ففازوا بأجرها وأجر من عمل بها بعدهم.

وقد بلغت هذه المجالس العلمية في عهدهم أوج ازدهارها وعطائها على عهد أعظم ملوكها أبي الحسن المريني (139) الذي كان من أبرز علمائها، وفضائل أديائها.

وقد نشطت في مجالسه العلمية الدراسة الحديثية (140)، إذ كان مشغولاً بسماع الحديث النبوي الشريف يقرأ بين يديه في هذه المجالس، ولا سيما صحيح البخاري الذي كان يستكثر من قراءته وسماعه (141) ويقول ابن مرزوق في هذا الصدد: - وهو من جهابذة علماء مجالسه العلمية- "أكثر ما كنا نقرأ بين يديه كتاب الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري(142). كما يصف لنا ابن

(137) دعوة الحق، ع: 7، س: 6، ص: 38، الفكر المغربي في عصر بني مرين، للحسن السائح.

(138) ترجمة ابن الصباغ في إتخاف الأعلام، ج: 3، ص: 581، وترجمة الزواوي بالروض الهمتون، لمحمد بن غازي العثماني، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ص: 42.

(139) علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب (731-751هـ - 1331-1351م) - دعوة الحق، ع: 1، س: 8، ص: 31، 1964-1384، خصائص المدرسة المرينية بالمغرب لحسن السائح.

(140) دعوة الحق، ع: 1، س: 8، ص: 31، 1964-1384، خصائص المدرسة المرينية بالمغرب لحسن السائح.

(141) المسند الصحيح في مآثر السلطان المريني، لابن مرزوق، ص: 150م.خ.م بالرباط رقم: ق: 111.

(142) المصدر السابق، ص: 154.

مرزوق هذا - في شرح العمدة - مجلسا علميا لأبي الحسن المريني، وكان الموضوع المطروح للمناقشة والبحث "مدى شرعية زخرفة المساجد" (143). ومن عوامل تطوير هذه المجالس العلمية في عهده مده لجسور التبادل والتعاون الثقافي والفكري والعلمي بين علمائها وعلماء العالم العربي والإسلامي، ولا سيما بمصر عن طريق المراسلة، وهو نوع من المجالس العلمية فريد من نوعه، سَنَّهُ أبو الحسن المريني لعلماء عهده (144).

ومن معالم تجديد أبي الحسن المريني لهذه المجالس العلمية شكلا ومضمونا، سَنَّهُ لظاهرة علمية صارت متبعة للملوك من بعده، ألا وهي المجالس العلمية المتنقلة.

فقد كان يصطحب معه في رحلاته وأسفاره - وحتى في حملاته العسكرية - العلماء والفقهاء والمحدثين، وكذا الأدباء والشعراء والفلاسفة وغيرهم من أعضاء مجالسه العلمية المختلفة، حرصا على استمرار انعقاد هذه المجالس في ظعنه وإقامته.

ولا أدل على ذلك من حملته على تونس سنة 748-750هـ التي اصطحب معه فيها كبار علماء مجالسه العلمية وغيرها.

وقد صور لنا ابن خلدون فجيعتهم بقوله: «هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق، وتخطت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا ما قدر من آجالهم» (145).

وكان ضمنهم أساتذة لابن خلدون ذكرهم في سيرته الذاتية (التعريف بابن خلدون) (146).

(143) إتحاف إعلام الناس لابن زيدان، ج: 1، ص: 246، م.خ.م، بالرباط، رقم: 12464.

(144) نص الرسالة في نفع الطبيب، للمقري التلمساني، ج: 2، ص: 547-544، المطبعة الأزهرية المصرية، ودعوة الحق، ع: 9، س: 17، ص: 10، 1391هـ-1971م ملامح الحياة المغربية في رمضان، لحمد المنوني.

(145) ودعوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 66، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجالين الروحي والزمني، د عبد الله العمراني والتعريف بابن خلدون، ص: 45 دار الكتاب اللبناني - بيروت.

(146) دعوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 66، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجالين الروحي والزمني، د عبد الله العمراني والتعريف بابن خلدون ص: 45، دار الكتاب اللبناني.

والجدير بالذكر أن نابليون بونابرت اقتبس هذه السنة من أبي الحسن المريني واحتذى حذوه في حملته على مصر سنة 1798-1799م، حيث صحب معه في ركاب حملته على مصر علماء وأدباء وفنانين. وما أكثر أوجه الشبه بين الحملتين في الأبعاد والأهداف والنتائج، وغير ذلك (147).

ولعل أبرز معالم تجديده لمجالسه العلمية، قيامه بتدريس علماء مجالسه العلمية بنفسه (148).

وكانت المجالس العلمية للسلطان أبي عنان المريني (149) تعج بأعلام الفكر والسياسة والأدب من جميع أنحاء مملكته الشاسعة المترامية الأطراف، من تونس وتلمسان والأندلس وسبتة، وهم ينتمون إلى جميع الاختصاصات وفروع العلم والمعرفة وشعبها، الذين ترجم لهم لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة بعد أن تعرف عليهم شخصيا عن كثب، خلال سفارته ورحلته إلى المغرب حيث ظل ضيفا على أبي عنان المريني، وبالتالي على مجالسه العلمية التي كان (150) يحضرها طوال مدة سفارته التي امتدت إلى شهر، والتي ظلت مضرب الأمثال مدة طويلة (151).

واهتم أبو عنان بمجالسه العلمية، إذ كان شغوفًا بها، فكان -كوالده أبي الحسن- يجلب لها جهابذة العلماء، ويلزمهم حضور مجالسه العلمية، حيث يتبادلون الأخذ والعطاء على مستوى الفكر الإنساني. ومن أبرز هؤلاء العلماء الذين استوردتهم أبو عنان المريني : العلامة المغربي الكبير:

(147) دعوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 66، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجالين الروحي والزمني، د عبد الله العمراني.

(148) حسب قصيدة لسان الدين بن الخطيب ومنها :

معهد العلم ومسرى المنن وواحد الدهر وفخر الزمن

(149) أبو عنان المريني ولد بفارس سنة 729هـ، وبويع بتلمسان سنة 749هـ، في حياة أبيه، وخنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودي سنة 759هـ.

(150) دعوة الحق، ع: 5، س: 7، ص: 13، 1383هـ-1964م، لسان الدين ابن الخطيب في المغرب، لعبد القادر زمامة.

(151) دعوة الحق، ع: 5، س: 7، ص: 14، 1383هـ-1964م لسان الدين ابن الخطيب في المغرب، لعبد القادر زمامة.

ابن خلدون، الذي وصف لنا الطريقة التي كان أبو عنان يستجلب بها كبار العلماء مثله (152).

وكان من أقطاب العلماء الذين يتصدرون المجالس العلمية للسلطان أبي عنان المريني، زيادة على ابن خلدون، أبو عبد الله المقرئ التلمساني الجد صاحب نفح الطيب.

ولعل أهم مظاهر التجديد التي أدخلها أبو عنان على مجالسه العلمية في إطار تطويرها، يتجلى في أنه كان يقوم بتدريس علمائها، وبإجازتهم. ونجد على رأس من درس عليه في هذه المجالس، وتلقى عنه: العلامة ابن خلدون الذي درس عليه فيها كتاب الجامع الصحيح للإمام البخاري وأجازه فيه (153).

وكان أبو عنان : " حسن الثقافة فقيها، يناظر العلماء الجلة فيصيب ويخطئهم، حتى سماه ابن الخطيب " عالم الملوك، وملك العلماء(154).

ولا أدل على ذلك من قول ابن خلدون : " سمعت معظمه -صحيح البخاري - عن السلطان أمير المؤمنين أبي عنان بن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن -قدس الله روحه- بدار ملكه من فاس، في مجالس متعددة، وأجازني في سائره."

حدثني أبو عنان به، عن جماعة من الأشياخ الذين كتبوا له بالإجازة من الديار المصرية وغيرها (155).

ومن ملوك بني مرين الذين اهتموا بالمجالس العلمية، وقربوا علماءها في مختلف العلوم والفنون، أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق المريني(156)

(152) دعوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 68، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجالس الروحية والزمنية، د عبد الله العمراني والتعريف بابن خلدون ص: 60-61، وإتحاف أعلام الناس لابن زيدان، ج: 1، ص: 305-308، وكتاب أبي عنان إليه، بإتحاف إلام الناس لابن زيدان، ج: 1، ص: 308-310، وجوابه إلى أبي عنان بالرفض ص: 305-308.

(153) المصدر السابق، و ص.

(154) روضة النسرین فی تاریخ بنی مرین، للامیر إسماعیل بن الأحمر ص: 23، ط: باريز.

(155) دعوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 69، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجالس الروحية والزمنية، د عبد الله العمراني.

(156) ولد سنة 659هـ، وتوفي مجاهدا بالاندلس سنة 685هـ، ونقل إلى شالة، ودفن بمقبرة ملوك بني مرين.

الذي كان يقيمها طيلة شهر رمضان، وكان العلماء المشاركون فيها يقضون الليل عنده في قصره، يذاكرهم ويناظرهم ويحاورهم بلياقة ولباقة، في القضايا المقررة لكل ليلة، حتى ثلث الليل (157).

وبعد انقضاء مجالسه العلمية، كان ينصرف إلى ورده، ومناجاة ربه. وكان يختم هذه المجالس الرمضانية يوم عيد الفطر بحفل ديني، تنشد فيه بين يديه القصائد في مدحه، وتعداد مناقب دولته، وانتصاراته في غزواته، ويختم الحفل بتوزيعه الجوائز على الشعراء والمنشدين (158). وتدعيما لمجالسه العلمية، كان يعقوب بن عبد الحق المريني يحرص على أن يجلب لها خزائن الكتب القيمة، حرصه على استقطاب أقطاب وأعلام العلماء إلى رحابها.

وفي هذا الصدد إشتراط على ملك شريس في معاهدة الصلح بينهما (159)، أن يبعث إليه بما يجده في بلاده بأيدي النصارى واليهود من كتب المسلمين ومصاحفهم، فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملا، فأرسلها يعقوب بن عبد الحق المريني إلى فاس، وحبسها على طلبة العلم بالمدرسة التي بناها هو بفاس (160).

وكان من أبرز علماء مجالسه العلمية : أحمد بن يوسف بن مالك السرغيني (161).

المجالس العلمية على عهد الدولة الوطاسية :

اهتم الوطاسيون حتى في أخرج ظروفهم بالمجالس العلمية، غير أنها لم تبلغ ما كانت عليه على عهد الدولة المرينية، وأول من جمع هذه المجالس، وترأس جلساتها منهم : أبو زكرياء الوطاسي (162)، وكان في أول الأمر

(157) الأنيس المطرب، لابن أبي زرع، ص: 363، دار المنصور للطباعة.

(158) المصدر السابق، وص.

(159) في 20 شعبان 684هـ، 21 أكتوبر 1285م.

(160) الأنيس المطرب، لابن أبي زرع، ص: 363، دار المنصور للطباعة.

(161) أعلام المغرب العربي، لابن منصور، ج: 4، ص: 392-393، والأعلام للزركلي، ج: 1، ص: 274.

(162) الروض الهتون لابن غازي، تحقيق ابن منصور، ص: 41، ط: 2، وإتحاف أعلام الناس، لابن

زيدان، ج: 1، ص: 94، ط: 1.

يكتفي بجمع القراء، لترتيل القرآن الكريم وختمه مرة في كل أسبوع، وسمي مجلسه هذا "الأسبوع" (163). وكان يفتتحه بذكر الله تعالى.

وقد اجتمع له بهذا المجلس أقطاب علماء عصره، أمثال الفقيه القاضي محمد بن ورياش (164)، الذي كان يتبرك به، ويتلمس منه الدعاء (165).

ولم يلبث الإمام ابن غازي (166) أن سن في شهر رمضان سنة قراءة وإسماع صحيح البخاري، من أوله إلى آخره طيلة أيام شهر رمضان المعظم، متخذاً من مقصورة الخطيب بجامع القرويين بفاس مقراً لهذه المجالس العلمية (167).

وقد زواج علماء وفقهاء المجالس القرآنية بين المجلسين وجمعوا بينهما، فنفخوا فيهما من روحهم العلمية المبدعة، فتطورت هذه المجالس على العهد الوطاسي، وأصبحت مجالس لتفسير القرآن الكريم ومدارسة السنة النبوية، وما فتئت أن شملت جميع أنواع العلوم والفنون، شأنها في بقية العصور السالفة.

وسرعان ما غزت سنة ابن غازي المذكورة المساجد والمنابر في المدن والقرى، فسرى العمل بهذه العادة الحسنة إلى المساجد والرباطات، وبالتالي إلى قصور الملوك الوطاسيين وأمرائهم وعمالهم وولاتهم، حيث أقيمت مجالس علمية رمضانوية.

وكانت هذه المجالس العلمية تحتفل في ليلة القدر احتفالاً خاصاً -باعتبارها مبدأ نزول الوحي- حيث يقرأ القرآن الكريم فيها بآتمه، ويختم، ثم يقرأ آخر درس من صحيح الإمام البخاري، ويختم بمظاهر وتقاليد خاصة متعارف عليها (168).

(163) المصدر السابق، وص.

(164) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 3، ص: 580.

(165) ترجمته بالمصدر السابق، وص.

(166) من كبار محدثي القرن العاشر الهجري ودعوة الحق ع: 2، س: 8، ص: 72، 1384هـ-1964م، خصائص المدرسة الحديثة بالمغرب لحسن السائح.

(167) دعوة الحق، ع: 9، س: 14، ص: 136، 1391-1971، ملامح الحياة المغربية في رمضان، للمنونني.

(168) فاس في عصر بني مرين، لروجيه لوتورتو، تعريب د. نيقولا زيادة، ص: 192-193، نشر مكتبة لبنان والمصدر السابق وص.

وكان من أبرز علماء المجالس العلمية في العهد الوطاسي : أحمد بن الولي الصالح عبد المغيث زغبوش القرشي المكناسي(169).

المجالس العلمية على عهد الدولة السعدية :

ازدهرت المجالس العلمية على عهد الدولة السعدية أيما ازدهار، فاكتملت معالمها، وتطورت شكلا ومضمونا، فأصبحت لها تقاليد متعارف عليها، ولاسيما على عهد أحمد المنصور الذهبي، الذي كان بلاطه يعج بكبار العلماء، ونبغاء الفقهاء، وبلغاء الكتاب والأدباء، وفحول الشعراء، ومهرة الأطباء، وبالمتقنين والمفكرين على اختلاف اختصاصاتهم.

وكان شغوفاً بعقد المجالس العلمية والندوات الثقافية لهم، حيث يطرح أمامهم على بساط البحث القضايا الرئيسية التي كانت تشغل بال الرأي العام (170) في عصره.

وقد طور المنصور السعدي أسلوب الاحتفال بالمواسم والأعياد المختلفة، فجعلها تكتسي طابعا ثقافيا، ومناسبات يتبارى فيها العلماء والأدباء والشعراء بين يديه في إطار مجالسه العلمية المختلفة باختلاف العلوم والآداب، وبالتالي باختلاف اختصاصات روادها، المشاركين في برامجها وخصصها....

وكان يعقد جميع هذه المجالس والباريات المذكورة بقصره، ويترأسها بنفسه، ويشترك فيها مشاركة عالم متمكن، مستهدفا توسيع وتنمية ثقافة علماء مجالسه، وإثراء رصيدهم منها في العلوم والفنون.

كما كان شغوفاً بتثقيف نفسه لا ينقطع عن أسباب الدرس والتحصيل، حتى إنه اصطفى لنفسه شيوخا كبارا في التفسير والحديث والآداب(171).

(169) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 1، ص: 299-300.
(170) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 20، ص: 15-16، 1399هـ-1979م، احتفالات أحمد المنصور الذهبي، لعبد القادر العافية.
(171) مناهل الصفاء للفشتالي، ص: 238 و244-247 و251-252.

ومن مظاهر التطور التي أضفاها على مجالسه العلمية إحيائه ليالي رمضان المباركة في أكناف هذه المجالس التي بالغ في انتقاء أعضائها وعناصرها من مشايخ العلماء (172).

ويقسم أعمال هذه المجالس مابين الإشفاق، وتجويد القرآن الكريم (173)، بينما تستأثر مجالس الدراسة والبحث والمناظرة في التفسير والحديث، والفقه والطب، والأدب والشعر والنحو واللغة، والتاريخ والسير، والمنطق، بأغلبية، حصص هذه المجالس (174).

وكان في كل صباح من أيام رمضان الأبرك يعقد مجالس خاصة، لسرد وسماع الحديث النبوي الشريف بين يديه، وخاصة كتاب صحيح البخاري، وكانت تتخلل السرد، المذاكرة والمناقشة، مستهدفا تفهم الأحاديث النبوية، واستخراج كنوز أحكامها ومبادئها وأهدافها السامية، وذلك في مظاهر وتقاليد خاصة، حيث يجلس المحدث على كرسي خصص لذلك.

وكان صحيح البخاري يدرس برواية ابن حجر، حيث تناقش الموضوعات الحديثية المطروحة على بساط البحث على أساسه، بقداسة وإجلال.

وكان السلطان العالم المنصور السعدي يتولى قراءة صحيح البخاري في هذه المجالس - المشهودة القدسية العابقة بأريج العلم - بنفسه (175) كما كان يفسح المجال للعلماء في البحث والمناقشة بكل حرية وطلاقة، متعمدا تلطيف أجواء الدراسة والمناظرة والحوار والجدال بنكت عجيبة، وفوائد فريدة ونوادر (176) ممتعة.

(172) روضة الأس، للمقري التلمساني، ص: 112-163.

(173) المنتقى المقصور، لابن القاضي، ورقة 5، م.خ.ع بالرباط رقم د. 764.

(174) المصدر السابق والورقة

(175) وصف هذه المجالس في التكملة، ج: 2، ص: 876-868، ط: مصر. وإفادة النصيح لابن رشيد،

ص: 60-61، ومراة المحاسن، ص: 49.

(176) الأعلام للقاضي التعارجي المراكشي، ج: 2، ص: 46-47.

وكان المنصور يبالغ في إكرام وتبجيل العلماء في هذه المجالس (177)، ولاسيما الوافدين منهم من مختلف الأقطار النائية كمصر، والشام، والعراق، والحجاز وغيرها (178).

وقد تمخضت حركة المجالس المختلفة للسلطان أحمد المنصور الذهبي، وما راج فيها من دراسات، وبحوث عن مؤلفات، ألفها أصحابها رغبة منهم في إقناع أعضاء المجلس بأرائهم ووجهة نظرهم.

كما ألف له جهابذة علماء مصر والقسطنطينية كتباً عديدة قيمة (179).

ولعل أبرز مظاهر تطوير المنصور السعودي لهذه المجالس العلمية تتجلى في المجالس العلمية التي كان يعقدها في سفره وحملاته المختلفة التي كان يرافقه فيها جميع أعضاء مجالسه المختلفة، في جميع الاختصاصات دون استثناء.

ونجد صورة نموذجية لهذه المجالس العلمية والأدبية وغيرها المتنقلة، في المجلس الذي عقده المنصور بالمحلة المنصورية السعودية.

(177) مناهل الصفا للفشتالي، ص: 213.

(178) روضة الأُس، للمقري التلمساني، ص: 14-15، ط: المطبعة الملكية بالرباط.

(179) روضة الأُس للمقري التلمساني، ص: 69-70، ط: 2، المطبعة الملكية بالرباط، وروضة الأُس

للمقري التلمساني، ص: 176، ط: 2، المطبعة الملكية - الرباط.

الباب الأول

الباب الأول

اهتمام الدولة العلوية بالعلم ومجالسه

الفصل الأول :

تقاليد المجالس العلمية السلطانية في عهد التأسيس

الفصل الثاني :

تعدد أنواع المجالس العلمية بتعدد موضوعاتها وأهدافها

الفصل الثالث :

تطور المجالس العلمية للملوك والأمراء وكبار العلماء

بين عهد المولى إسماعيل وعهد الاضطراب

الفصل الأول

(تمهيد)

**تقاليد المجالس العلمية السلطانية
في عهد التأسيس**

اهتمام الدولة العلوية بالعلم والعلماء ومجالسهم

تمهيد :

كان بلاط الملوك العلويين منذ قيام دولتهم الشريفة كعبة للعلم والعرفان، وكان ملوكهم عبر عصور تاريخهم المديد مثابة للعلماء والمفكرين ومثلا أعلى ونموذجا يحتذى (1)، وخاصة في الحفاظ على التوازن العام والموازاة بين السلطتين الروحية والمادية، أو الدينية والدنيوية، وبالتالى بين سلطة الدولة، وسلطة المؤسسات.

لذلك عرف المغرب في عهدهم ازدهارا (2) علميا، وتقدما فكريا وحضاريا، بفضل عملهم الدؤوب على نشر العلم والمعرفة، بالحواضر والبوادي، وحرصهم على تكوين العلماء في جميع فنون المعرفة، ومراقبة نتائج أعمالهم عن كثب.

فقد عملوا على نشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف (3)، وتلقين مبادئ أخلاقه الفاضلة، والحفاظ على مقوماته الأساسية، وعاداته وتقاليده الثابتة الراسخة، في المدارس والمساجد وغيرها من المراكز الثقافية التي أنشأوها بالحواضر والبوادي.

وقد بدأوا في ذلك بأنفسهم، فكانوا يصطفون جهاذة العلماء، وأساطين الفكر ويستخلصونهم لأنفسهم، ويتخذونهم شيوخا لهم، ومستشارين، ولا يستنكفون من الأخذ عنهم، والتلمذ عليهم، والتأدب معهم (4)،

(1) دعوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 65، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجالين الروحي والزمني، د. عبد الله العمراني، والنهضة العلمية، لابن زيدان ميكروفيلم، خ.ع، بالرباط، رقم: 2028، ص: 1، و م.خ.م بالرباط رقم 3177، ص: 5.

(2) الحركة الفكرية لمحمد حجي، ج: 1، ص: 56.

(3) المصدر السابق، و ج، ص: 55.

(4) النهضة العلمية، لابن زيدان، ميكروفيلم، خ.ع بالرباط، رقم 2028، ص: 1.

ولم تصرفهم عن ذلك أعباء السياسة، ولا تبعات الملك (5)، فكان الملوك العلويون في جملتهم علماء وأدباء(6).

ولم يلبثوا أن طوروا مجالسهم الخاصة مع شيوخهم إلى مجالس علمية عامة ينتقون لها الباحثين والمحققين المشهورين في جميع الاختصاصات العلمية والأدبية والفنية وغيرها، ومن مختلف أنحاء البلاد.

وكانت هذه المجالس بمثابة مجمع علمي خاص، إذ كانت ميدانا للدراسة والبحث، ومجالا للجدال والنقاش بين العلماء في مواضيع حيوية قيمة، ضمن برامج ومناهج، وحصص مقننة (7).

وكانت مواضيع البحث علمية دينية في جملتها، وأحيانا تكون تاريخية أو أدبية.

أما الكتب التي كانت تدرس خلالها فأشهرها صحيح البخاري، ثم الموطأ، وبقية الكتب الستة. وكذا كتب السيرة النبوية، ولا سيما الشفا للقاضي عياض، كما درست بها البردة والهمزية أحيانا (8).... يضاف إلى ذلك بقية الكتب الستة، التي كانت تدرس بالقصر الملكي بمحضر السلطان(9)، ويحضرها كبار العلماء.

وقد أثمرت هذه المجالس العلمية السلطانية للعلويين، سلسلة من المؤلفات والرسائل القيمة في مختلف فنون المعرفة، صنفت على هامش هذه المجالس والمناظرات المختلفة، إما تلقائيا وتطوعا، أو بأمر من الملوك العلويين، الذين كان جلهم علماء وأدباء، يشاركون في أعمال تلك المجالس ونشاطاتها المختلفة عن كتب، سواء في مجال الدراسة والبحث، أو في ميدان الاجتهاد والاستنباط بما في ذلك مجال التأليف والتصنيف.

(5) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ص: 261، ودعوة الحق، ع: 3، س: 11، ص: 94-96، 1387هـ-1968م، الإسهام العلوي في خدمة العلم، لأحمد منتصر الريسوني.

(6) العز والصولة لابن زيدان، ص: 177-178 ومجلة البحث العلمي، ع: 4 و5، س: 2، ص: 23، 1384هـ-1965م، الكتاب المغربي وقيمته لمحمد إبراهيم الكتاني، والجيش العرمرم لأكنسوس، ص: 261.

(7) مؤرخ المملكة الأستاذ الجليل عبد الوهاب بن منصور، رواية شفوية.

(8) العز والصولة، لابن زيدان، ص: 177-178، ومجلة البحث العلمي، ع: 4 و5، س: 2، ص: 23، 1384-1965. الكتاب المغربي وقيمته، لمحمد إبراهيم الكتاني.

(9) مجلة البحث العلمي، ع: 4 و5، س: 2، ص: 23، 1384هـ-1965م، الكتاب المغربي وقيمته، لمحمد

إبراهيم الكتاني.

ومن معالم تجديد الملوك العلويين لهذه المجالس العلمية عقدها على امتداد الأشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان لتدارس كتاب صحيح البخاري بآتمه، بحيث يختم ليلة السابع والعشرين من رمضان المبارك.

ففي الجيش العرمرم : "ومما تقرر في هذه الدولة الشريفة -العلوية-... فيما بلغنا من قراءة السلطان صحيح البخاري في الأشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان، حتى صار ذلك أمرا لازما، لا يتخلف إلا لمانع لا يمكن رفعه... " (10).

فقد كان للملوك العلويين شغف كبير بالعلوم الدينية كلها، ولا سيما علم الحديث، الذي بلغ من تعظيمهم له، أنهم كانوا في أسفارهم وحملاتهم، يحملون معهم علما مليئة بكتب الصحاح، ويربطون نسخا صغيرة منها مع الرايات المرفوعة على أساطيلهم، ويحتفظون بنسخ فاخرة منه في أبهى وأفخم قباب قصورهم، مما يضيف عليها القداسة والإجلال، فتدعى بقبة سيدي البخاري (11). كما كانوا يجيزون حفاظه تشجيعا على نشره(12). ومن مظاهر تطويرهم لهذه المجالس العلمية، وتجديد معالمها شكلا ومضمونا، أنهم كانوا يصطحبون العلماء والمحدثين معهم في رحلاتهم وحملاتهم وأسفارهم، حيث كان هؤلاء يتبارون في استنساخ جوامع الأحاديث ومساندها.

ولعل أهم أعمالهم في سبيل نشر السنة النبوية الشريفة وخدمتها، الدروس الحديثية التي كانوا يترأسونها شخصا بقصورهم، في ظعنهم وإقامتهم، وحتى داخل أفراكاتهم (13)، حيث كان يتبارى أمامهم جهاذة العلماء والمحدثين، فيوسعون صحيح البخاري وغيره من الكتب المقررة للدرس شرحا وتحليلا وتعليلا، من خلال الدراسة والبحث، والمناظرة

(10) الجيش العرمرم لأكنسوس، ص: 261.

(11) كتاب الوثائق لمديرية الوثائق الملكية المجموعة الثالثة، خ.م، بالرباط، ص: 66-67، الوثيقة رقم 61، لعبد الوهاب بنمنصور.

(12) المصدر السابق، وص.

(13) أصلها أفراق أي الحاجز الذي يفرق بين السلطان وحاشيته وجنده في محطات الطريق، وهي مدينة من الخيام والأخبية، ينزل بها الملك ومن معه في سفره.

والجدال والحوار. حتى أصبحت هذه المجالس العلمية مدرسة حديثة بكل معنى الكلمة، وحتى صار بعض هؤلاء الملوك من أئمة الحديث، وفي طليعة المصنفين فيه.

وبلغ من مكانة المحدثين لدى هؤلاء الملوك، أنهم كانوا يتميزون عن بقية العلماء بأن يكتبوا بيعتهم على حدة كلما بويع سلطان جديد (14). بل كان لجميع العلماء والمفكرين الذين يحضرون هذه المجالس العلمية السلطانية دور قيادي طلائعي، ومكانة مرموقة، لعلاقتهم الجدلية بالجماهير الشعبية، ومبادرتهم لقيادتها في جميع المجالات بما فيها العسكرية. وخاصة في مطلع قيام الدولة العلوية، حيث كان العلماء يرابطون بالثغور والحاميات، تطوعا منهم في الجهاد، فيشاركون في المعارك الميدانية مشاركة فعالة، إيمانا واحتسابا (15).

لذلك كان صوتهم مسموعا، يرتفع عند الضرورة، فيعلو ولا يعلى عليه، مما عمل على إشاعة الحرية والشورى الإسلامية، وجعل الملوك العلويين يلجأون إلى العلماء كلما كانت هناك قضية هامة تشغل بال الرأي العام المغربي بصفة عامة، والأوساط العلمية بصفة خاصة، كالرد على بعض العلماء في بعض القضايا الدينية والشرعية الدقيقة، أو لإقناع العامة بأمر هام للصالح العام، وبالتالي لاستشارتهم وأخذ رأيهم، حتى في تصرفاتهم الخاصة أحيانا (16)، باعتبار أن سلطتهم لم تكن شخصية كملوك أوروبا، وأن السلطة التشريعية مصدرها الرئيسي هو القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف. ومن ثم كانوا لا يصدرن ظهائرهم وقراراتهم العامة إلا باستشارة علماء مجالسهم العلمية، واعتمادا على فتاواهم (17)، وغالبا ما كانوا يرفضون ذلك. ناهيك بالمولى إسماعيل في قضية عبيد البخاري.

(14) كتاب الوثائق لمديرية الوثائق الملكية المجموعة الثالثة، خ.م بالرباط، ص: 66-67، الوثيقة رقم: 65، لعبد الوهاب بن منصور وبه نص بيعتهم للمولى الحسن الأول، بتاريخ 22 رجب 1290هـ.

(15) الحركة الفكرية، لمحمد حجي، ص: 198.

(16) العلوم والآداب والفنون، للمنونى، ص: 17.

(17) المغرب قبل الاستقلال، لعبد الرحيم بن سلامة، ص: 29-30، ط: 2، دار الثقافة بالدار البيضاء.

فقد كان علماء هذه المجالس العلمية هم الذين يستنبطون الأحكام والقوانين من مصادر الشريعة الإسلامية المختلفة، ولا سيما من الكتاب والسنة، على مقتضى المذهب المالكي، ولا يصادق عليها الملك إلا بعد مصادقتهم (18)، إذ كانوا له بمثابة برلمان، أو مجلس استشاري.

ومع استقرار الدولة وتنظيمها وامتداد نفوذها، تطورت هذه المجالس فتنوعت وتنوعت (19) شكلا ومضمونا كما سيأتي.

(18) المصدر السابق، ص: 41.

(19) الحركة الفكرية، لمحمد حجي، ج: 1، ص: 56، دار المغرب.

الفصل الأول

**المجالس العلمية السلطانية
على عهد الدولة العلوية الشريفة**

الفصل الأول

المجالس العلمية السلطانية

على عهد الدولة العلوية الشريفة

لقد كان الملوك العلويون هم الذين سنوا والتزموا بعقد مجالس علمية في بلاطهم على امتداد الأشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان(1). يستدعون إليها كبار العلماء والمفكرين من المدن والقرى بسائر الأقاليم، حيث يسرد صحيح البخاري غالباً وغيره من الكتب الستة أحياناً، كما قد تسرد كتب دينية أخرى في التفسير والسيرة النبوية وغيرها.

وقد واطبوا على عقد هذه المجالس في حلهم وترحالهم (2)، حتى أصبح ذلك سنة ثابتة محكمة، يتوارثونها خلفاً عن سلف.

فقبل حلول شهر رجب، يؤمر العمال والقضاة في جميع الأقاليم باختيار نخبة من صفوة علماء أقاليمهم، وإرسالهم إلى العاصمة معززين مكرمين(3) على نفقة الدولة، هم وأعوانهم وخدامهم، زيادة على المنح والصلوات السنوية. فإذا وصلوا إلى العاصمة، كانوا محل عناية وتكريم وتبجيل، وتغدق عليهم النعم بسخاء كبير.

وفي مستهل شهر رجب تفتتح المجالس العلمية السلطانية في حفل بهيج، ووفق مخطط مسنون معلوم، ومنهج محدد (4).

فبعد صلاة العشاء، يستقبل خليفة قائد المشور وأعوانه المدعويين، ويدخلونهم إلى قاعة المجلس، حيث يجلسونهم في الأماكن المعينة لكل منهم حسب البروتوكول - كما سيأتي -.

(1) العز والصلوة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 177، ط: الملكية بالرباط.

(2) المصدر السابق و ج، ص: 177-178.

(3) نموذج لرسائل الدعوة الموجهة للعلماء بالعز والصلوة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 178.

(4) العز والصلوة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 177 وما بعدها، ط: الملكية.

وغالبا ما يرأسها قاضي العاصمة (5) -زيادة على الرئاسة الشرفية والفعلية المباشرة للسلطان نفسه- الذي يعين لكل دورة عالما كبيرا يتولى التقرير، كما يعين آخر من مرتبته ليقوم بالسرد، وقد يتناوب على السرد والتقرير نخبة مختارة من صفوة علماء المجلس (6).
وما إن يفتح الملك النسخة الملوكية لصحيح البخاري أو غيره التي بيده، حتى يشرع السارد في قراءة الباب المنصوص على دراسته في البرنامج، دون أن يتوقف، اللهم حيث يجب أن يترك السرد لعالم آخر (7).
وكل سارد يسرد حصته من الأحاديث بترنيم متوارث، وبصوت رخيم مرتل.

أما العالم المقرر فيتولى التفسير والتعليق، والتحليل والتعليل والمقارنة لنصوص بعض الأحاديث التي يأمر السلطان بالتوقف لشرحها وتوضيحها، وذلك بإشارة منه متعارف عليها، وتكون إيذانا بفتح باب المناقشة والحوار، والمناظرة حولها أمام سائر العلماء الحاضرين، لإبداء رأيهم وملاحظاتهم وتعليقاتهم، وتسجيل تحفظاتهم حول موضوع الحديث المراد شرحه.

ذلك أن السلطان كان إذا أراد التوقف عند حديث معين للتقرير، ووضعه على محك الدراسة والبحث، لإغناء موضوعه وإثرائه بأراء جميع العلماء الحاضرين، فإنه يطوي النسخة الملوكية للكتاب الذي في يده، ويومي للمقرر مؤذنا له بالشروع في تقرير وشرح الحديث الذي وقع عليه اختياره لذلك، رافعا رأسه ومنتجها بكليته نحو المقرر (8).

وهكذا يشرع المقرر في شرح الحديث المختار من طرف السلطان، وأهدافه وأبعاده... فإن اهتدى إلى الصواب ولم يعترض عليه أخذ من العلماء

(5) مكناس أو غيرها من العواصم التي يقيم فيها السلطان.

(6) دعوة الحق، ع، 4، س: 10، ص: 37، 1967م، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الألفي، والعز والصولة لابن زيدان، ج: 1، ص: 177-178.

(7) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 172، والبرنامج هو سفر يشتمل على أنصبة كل مجلس، في كل يوم من النسخة الملوكية.

(8) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 172، 1967م، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلفي، والعز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 172.

الحاضرين، واقتنع الملك بصواب رأيه، فإنه يفتح نسخته الملوكية من جديد ويستأنف السارد سرده، وهكذا دواليك إلى نهاية الحصّة المقررة لذلك المجلس، والتي كانت تتراوح بين ساعتين فأكثر في كل درس أو مجلس (9). وإذا اعترض عليه أحد، يفتح باب النقاش من جديد حتى يقتنع الجميع برأي معين لعالم أو لجماعة من العلماء.

وظلت دروس المجالس العلمية السلطانية تجري على هذه الطريقة إلى عهد متأخر، بالضبط إلى عهد السلطان المولى عبد العزيز (10).

أما بعد ذلك، فقد تطورت هذه المناقشات، حيث أخذ الجدل يحتدم بين العلماء المحافظين والمجددين، مما يعكس الأجواء الفكرية، والسياسية السائدة في المغرب -آنذاك- حيث عرفت البلاد مخاضا حضاريا، وانتفاضة فكرية أدت إلى تخلي المولى عبد العزيز، وتنازله عن العرش لمبايعة وتنصيب أخيه المولى عبد الحفيظ الذي كان رمزا لتطلعات الطبقة المثقفة الشابة الواعية كما سيأتي (11).

وكان السلطان في المجالس العلمية السلطانية يتدخل لحسم الخلاف بين العلماء المتناقشين، أو لتوجيه المناقشة نحو الأهداف المنشودة من الدرس والمناقشة بصفة خاصة، ومن عقد المجالس في حد ذاتها، بصفة عامة (12).

وأهم القضايا التي تضاربت حولها آراء العلماء في العصر العلوي، واحتدم حولها جدالهم ونقاشهم، وطالت مدته -على سبيل المثال لا الحصر- قضية السلفية، ومسألة الاجتهاد، ومدى إمكانية فتح بابها من جديد، ومسألة ثبوت الهلال وغيرها من القضايا الحيوية الهامة، التي لا يشملها عدُّ ولا حصر.

(9) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 172-173.

(10) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 39، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلغي، والعز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 172-173.

(11) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 39، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلغي، والعز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 172-173.

(12) المصدر السابق و ص.

وقد صنفت مؤلفات، وأعدت بحوث هامة، على ضوء هذه المناقشات، وتبودلت حولها الأسئلة والأجوبة بين العلماء، انطلاقاً من هذه المجالس، وعلى أساس محك النقد العلمي المجرد، والدراسة المنهجية الأكاديمية النزيهة، وفي إطار البحث العلمي البناء الهادف.

ولعل ذلك كان منهم رد فعل لملاحظة ابن خلدون على علماء المغرب -في وقته-، الذين عاب عليهم -في مجالسهم العلمية- إهمالهم لعنصر المناقشة، التي كانت سائدة بالمشرق -إذ ذاك- واعتبر ذلك سبباً لضعف الملكة العلمية (13)، والموهبة الأدبية لدى الأدباء والعلماء المغاربة على السواء. ويقول ابن خلدون في ذلك: "... إنك تجد طلاب العلم منهم، بعد زهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية، سكوت لا ينطقون، ولا يفاوضون (14)".

وإذا طالت المناقشة بأحد المجالس العلمية السلطانية المذكورة أكثر من الوقت المحدد في برنامج المجلس، فإن السلطان يعلن تأجيل المناقشة في المسألة المطروحة للدراسة والبحث إلى جلسة أخرى، أو يشكل لجنة من العلماء المقتدرين من بين الحاضرين، ويعهد إليها بإيفائها حقها من الدراسة والتمحيص، والبث في شأنها، ثم يكلف كل عالم في المجلس بتقديم رأيه كتابة (15).

وهذا ما يؤكد لنا أن الحصص المقررة للدراسة والبحث، في كل مجلس، كانت محددة في البرنامج الموضوع وغير قابلة للزيادة ولا للنقصان إطلاقاً (16). وهناك نموذج لهذه البرامج والحصص والأنصبة التي كانت تدرس كل يوم بالمجالس العلمية المذكورة وكيفية تقسيط ذلك (17).

(13) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 39، 1967م، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلغني، والعز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 173.

(14) المصدر السابق، وص.

(15) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 173.

(16) المصدر السابق، ج: 1، ص: 178.

(17) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 181.

ويعلق ابن زيدان على هذه البرامج والحصص بما يؤكد صحة النماذج المذكورة فيقول : " صح من كناشة القاضي أبي العباس أحمد بن الطالب بن سودة، شيخ المجلس السلطاني، قال : وعلى هذا استقر عمل سيدنا ومولانا أمير المؤمنين (18) مدة تنيف على العشر سنين، في سرده لصحيح الإمام البخاري، في الثلاثة الأشهر، أنه يقرأه في ستة وثلاثين نصاباً (19).

وقد قوبل على ما هو محتفظ به من أوراق برنامج الأنصبة السلطانية، المنتسخة من النسخة التي كانت معدة لقراءة الجلالة السلطانية، المحتفظ بها في المكتبة الزيدانية، فألفت موافقة لما ذكر، من غير زيادة ولا نقصان".
وتتميمًا للفائدة هناك برامج وحصص أنصبة شعبانة (20) المولوية، وكيفية تقسيطها.

هذا من حيث مضمون هذه المجالس، أما من حيث شكلها فقد كان السلطان يتصدر المجلس الذي يقام يسار المحراب، ويحف به أبناءه وإخوته، وأبناء عمه وبقية أفراد أسرته، ثم رجال الدولة المقربون من مدنيين وعسكريين.

أما العلماء، فيصطفون قبالتهم في ترتيب متعارف عليه، وخلف العلماء يجلس الأشراف، والكتاب، والوزراء، ثم العمال، والقواد، والضباط الكبار للجيش.

وكانت توضع أمام السلطان الساعة المخزنية (21) وثرثرا توقد بالشمع المصفى من العسل، بينما، يأخذ في يده نسخة من برنامج الدروس المقررة، والنسخة الملوكية أو المولوية لصحيح البخاري، المعدة لقراءة السلطان بصفة خاصة (22)، وهي مقسمة إلى أسفار، بحيث يقرأ سفر كل يوم، ويشتمل كل

(18) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 181، ويعني به الحسن الأول.

(19) المصدر السابق، و ص

(20) كانت شعبانة تقام في العشر الأواخر من شعبان، وظل العمل جارياً بها وبمجالسها إلى نهاية عهد المولى عبد الحفيظ.

(21) منجاة.

(22) محتفظ بها في الخزانة الزيدانية.

سفر على عدد من الأنصبه، حتى يسهل عليه رئاسة الجلسات وتسييرها،
بالطريقة التي ذكرناها(23)

ويؤكد لنا التزام الملوك العلويين ومواظبتهم على إقامة هذه المجالس العلمية، ورئاستها، ومدى استمراريتها قول ابن زيدان : "...وعلى هذا كان العمل جاريا، من لدن الدولة الرشيدية، إلى أواسط الدولة اليوسفية...وقد وقع الاقتصار في الدولة الحمديّة (24) على القراءة فقط في شهر رمضان...عند صلاة الظهر (25)، وتنتهي في ليلة السابع والعشرين".

وفي إطار التنظيم الشكلي لهذه المجالس والعادات المتبعة فيها، كان الطعام يقدم للعلماء خلال شهري رجب وشعبان، بعد انتهاء المجلس كل يوم مباشرة بعد انتهاء المجلس. أما في رمضان فكان يقدم لهم بعد أذان المغرب.

وكانت هذه المجالس تعقد طيلة أيام الأسبوع، باستثناء يومي الخميس والجمعة، اللهم لضرورة طارئة ملحة، فإنها كانت تقتصر على بعض أيام الأسبوع، وغالبا ما كانت تعقد مساء.

وكانت هذه المجالس العلمية تختم ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان الأبرك، بعد الدرس الأخير. ففي هذه الليلة المباركة كانت تقام حفلة دينية وأدبية كبرى، تلقى فيها القصائد التي تجود بها قرائح شعراء البلاط وغيرهم من شعراء المملكة في تمجيد هذه المناسبة العظيمة، وفي مدح السلطان.

وفي هذه الليلة من كل رمضان التي يتداخل فيها الاحتفال بليلة القدر المباركة، مع الاحتفال باختتام المجالس العلمية السلطانية، والتي يتضاعف فيها أجمع المشاركين في إحياء وإقامة هذه الحفلة المزدوجة، كانت تعبق في أرجاء قاعة الاحتفال روائح أبخرة العود الهندي، والند، والعنبر، المتصاعد من مباخير الفضة التي يشرف عليها قائد المشور، الذي يتولى أيضا استقبال

(23) العز والصولة، لابن زيدان ج:1، ص: 172-173.

(24) محمد الخامس طيب الله ثراه.

(25) دعوة الحق، ع:4، س:10، ص:38، 1967م، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا

الله الإلغي.

المشاركين والمدعوين من العلماء، وغيرهم، ويتكلف بإجلاسهم في أماكنهم الخاصة حسب البروتوكول، حيث تقدم لهم الأطعمة الفاخرة، ثم الحلويات اللذيذة مع الشاي (26).

وقبل الفجر بساعة ونصف يصل السلطان، ويتصدر قاعة الاحتفال من جديد، حيث تتلى بين يديه القصائد المختارة من بين القصائد العديدة التي نظمت وقيلت في مدحه وتهنئته بختم المجالس العلمية، وصحيح البخاري وبالتالي التي وردت عليه من سائر أنحاء المملكة.

وفي ختام هذه الحفلة، كان الملك يجزل العطاء لجميع العلماء والشعراء المشاركين، سواء في المجالس العلمية، أو في حفل اختتامها، ويوزع عليهم جوائز سنوية عالية.

وتنتهي الحفلة بأذان الفجر، وبعد أداء صلاة الصبح، وذكر الباقيات الصالحات، يفتتح السلطان قراءة الحزب كعادته، ثم يرجع إلى قصره. وأخيراً ينصرف الجميع بعد أن يودعهم بباب المسجد الحاجب السلطاني، الذي يسلم لكل منهم جائزته أو صلته في غلاف مختوم، فتملاً نفوسهم الغبطة والبهجة والحبور (27).

وبعد أن يقضوا أيام العيد في الضيافة الكريمة للسلطان حيث يببالغ في إكرامهم وإغداق النعم والصلوات عليهم، يأذن لهم في العودة إلى ديارهم معززين مكرمين، محملين بهدايا لذويهم وأهليهم، بعد أن تقضى أغراضهم ومصالحهم، وتلبى جميع طلباتهم، وبعد أن يزودوا بظواهر التوقير والاحترام، والإنعام والتوصية (28) للعمال الذين يمرون بعمالاتهم، في طريق عودتهم إلى ديارهم.

وهذا نموذج للاستدعاءات التي كانت ترسل إلى العلماء، وهو موجه من الحاجب أحمد بن موسى (29)، إلى القاضي أبي العباس أحمد بن سودة (30)،

(26) العز والصلوة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 173.

(27) لعز والصلوة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 174.

(28) دعوة الحق، ع: 4، ص: 10، ص: 39، 1967م، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلغي.

(29) حاجب المولى الحسن الأول، ثم المولى عبد العزيز، والوصي على عرشه.

(30) ابن الطالب بن سودة المري الفاسي، قاضي الجماعة بمكناس، م. سنة 1321هـ

رئيس مشيخة المحدثين بالمجلس السلطاني على عهد السلطان المولى الحسن الأول، يعلمه بافتتاح المجالس العلمية المذكورة، ويستدعيه إلى رئاستها كعادته، ونصه (31) : «محبنا الفقيه العلامة القاضي السيد أحمد بن الطالب ابن سودة.

سلام عليك ورحمة الله، عن خير مولانا نصره الله.

وبعد، فإن مولانا أعزه الله، أمرنا بافتتاح سرد صحيح الإمام البخاري بحضرة العالية بالله، بكرة غد إن شاء الله، فاقدم لذلك أنت ومن حضر ممن يحضر معك فيه ولا بد، وذلك في الساعة الرابعة والنصف، وعلى المحبة والسلام: في مستهل رجب، سنة 1300 هـ.

أنواع المجالس العلمية السلطانية العلوية :

تطورت المجالس العلمية السلطانية، وأدخلت عليها تعديلات على امتداد عهد الدولة العلوية، وتعاقب ملوكها، وذلك من حيث الشكل والمضمون، والمناهج والحصص، والزمان والمكان، وكذا حسب متطلبات وملابسات كل عصر، وحسب ظروف وإمكانيات كل ملك، كما تناولتها بالزيادة والنقصان في طقوس البروتوكول، أو في مظاهر الأبهة والعظمة، أو حتى في حصص البرنامج وأنصبتة، وبالتالي حسب شخصية كل ملك ومزاجه الخاص، ومستوى ثقافته وتطلعاته، ونوعية كل ذلك، لكن هذه التعديلات لم تتناول جوهرها وأبعادها وأهدافها، التي تعتبر من الثوابت الراسخة لملوك الدولة العلوية الشريفة.

لذلك تفرعت هذه المجالس العلمية، واتخذت عدة أشكال، في إطار شكلها التقليدي العام، الذي تكلمنا عنه بإسهاب، وذلك حسب الظروف والملابسات التي عرفها كل عصر، وحسب المواقف والتجارب التي وقفها أو أمر بها كل ملك من ملوك هذه الدولة الأفاضل.

هذا وقد خضعت هذه الأنواع بدورها إلى نوامس سنة التطور والارتقاء، ومررت في تطورها هذا بمراحل حتمية -أفقيا وعموديا-، وتدرجت في ذلك.

(31) نصها بالعز والصولة، لابن زيدان، ج:1، ص:178.

لكنها كلها لها قاسم مشترك واحد، يتجلى في أنها تقوم بنفس الدور للمجالس العلمية التقليدية المسنونة المتوارثة، في وحدة الأبعاد والأهداف والنتائج. كما أن أعضاء جميع أنواعها هم أنفسهم علماء المجالس العلمية السلطانية الرسمية.

ومن هذا المنطلق، يمكن اعتبار المناظرات والمناقشات العلمية التي كانت تدور بين العلماء، في إطار الحوار العلمي، على هامش المجالس العلمية السلطانية وخارج نطاقها -سواء كتابية كانت أو شفوية، وسواء كانت مباشرة أو غير مباشرة- يمكن اعتبارها كلها مجالس علمية أخرى من نوع خاص.

والمرحلة التأسيسية الأولى للمجالس الموازية للمجالس العلمية السلطانية التقليدية الرسمية، سواء كانت بين علماء المغرب أو بينهم من جهة، وبين علماء العالم العربي والإسلامي، أو المسيحي، من جهة أخرى، وسواء كانت بالحوار والجدال الشفاهي، أو بالمراسلة، أو على شكل استفتاء، أو على غير ذلك من الأشكال التي سنأتي عليها، فإنها كلها وفي جملتها أسفرت عن مؤلفات ومصنفات، وعن رسائل مسهبة حول موضوعاتها القيمة، كما أن نصوص عروضها أو محاوراتها، تعتبر نتائج إيجابية لهذه الأنواع الفعالة من المجالس العلمية الموازية، وروافد غزيرة متدفقة للمجالس العلمية السلطانية الرئيسية الرسمية، وبالتالي، من شأنها كلها خدمة الثقافة والفكر المغربي والعربي والإسلامي خاصة، والإنساني بصفة عامة.

ذلك أن المجالس المختلفة للملوك العلويين، أغنت الخزانة المغربية خصوصا، والعربية الإسلامية عموما، بمؤلفات ومصنفات قيمة عديدة، ألفها العلماء المشاركون في هذه المجالس العلمية، الرسمية والموازية للملوك العلويين، أو غيرها، إما من تلقاء أنفسهم، تأييدا وتأكيدا لأرائهم، أو دحضا لآراء زملائهم وشجبا لها، وإبرازا لأخطائهم وبرهانا على مجانبتها للحقيقة والصواب، أو أنهم ألفوها بأمر من السلطان نفسه، إذ غالبا ما كان السلطان هو الذي يأمر عالما أو لجنة من العلماء بالتأليف حول القضايا الحيوية التي تطرح بمجالسه العلمية، والتي يرى أنها لازالت تتطلب التعميق والتفصيل،

وأن جلسات مجالسه العامة، ليست كافية لتعميق الدراسات والبحث حولها(32).

ولعل من أهم أنواع هذه المجالس الموازية للملوك العلويين، تلك المجالس العلمية والأدبية وغيرها، التي كانوا يعقدونها في رحلاتهم الترفيهية، وحركاتهم التفقدية والعسكرية لأقاليم مملكتهم، حيث كانوا يصطحبون معهم فيها كبار العلماء والكتاب والشعراء والأدباء، ويعقدون خلالها مجالس علمية نيرة، على شكل محاضرات، ومناظرات علمية، ومساجلات أدبية، اقتداء بكبار شيوخهم من جهايزة العلماء - إذ كان جل الملوك العلويين علماء (33) - الذين كانوا يقومون بالتدريس خلال أسفارهم، حيث كانوا يصطحبون معهم خلالها تلاميذهم، أمثال الشيخ أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، والشيخ بناصر الدرعي، وغيرها من العلماء الأفاضل، وبالتالي اقتداء وتقليدا لعظماء ملوك المغرب (34) وغيرهم من عظماء الملوك كالمنصور الذهبي السعودي وأمثاله.

ومن أمثال هذه المجالس العلمية الموازية نجد أن الملوك العلويين الأوائل دأبوا على تبني محافل ختم كبار علماء عصرهم لتدريس أمهات المصادر والكتب، مما يعتبر مرحلة هامة على درب تطوير المجالس العلمية السلطانية التقليدية الرسمية، وتفرعها وتشعبها وتنوعها....

فعندما كان أحد الشيوخ العلماء الكبار ينتهي من تدريس كتاب من أمهات المصادر الدينية، في التفسير أو الحديث أو الفقه أو غيرها، فإنه كان يلقي الدرس الأخير في حفل كبير مشهود يحضره علماء المدينة أو القرية، والقاضي والعدول، وممثل السلطان بالناحية، ووجهائها وأشرافها وجمهور المواطنين....

وكان درس الختم هذا، يشتمل على ثلاثة محاور :

- ترجمة مؤلف الكتاب المحتفل بختمه، ودراسة مؤلفاته وأسانيده المتصلة بالنبي ﷺ، أو حول المذهب المالكي أو غيرها.

(32) استجواب شخصي أجريته مع مؤرخ المملكة، العلامة عبد الوهاب بن منصور بمكتبه.

(33) إذ من شروط الخلافة في الإسلام : العلم بالشريعة الإسلامية.

(34) البستان الطريف، للزياني، ص : 21. م.خ.م. بالرباط، رقم : 142.

- استعراض روايات الشيخ الخاتم لتدريس الكتاب وإجازاته، وقراءة أسانيده من حفظه، المتسلسلة إلى مؤلف الكتاب (35).

- تحليل مفصل للموضوع، وغالبا ما يركز على موضوع نص صغير كسورة الناس، أو حديث قصير، حيث يبذل الشيخ المحتفل بختمه قصارى جهوده في شرحه وتأويله وتخريجه، وتحليله وتعليقه ومقارنته....

واشتهر كبار الأئمة - المعاصرين لقيام الدولة العلوية - بإقامة حفلات ختم صحيح الإمام البخاري، في نهاية شهر رمضان، كالعلامة الطيب بن المسناوي الدلائي (36)، والشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، والشيخ أبو محمد عبد القادر بن علي الفاسي (37)، وأبو عبد الله محمد بن علي الفيلاي (38) وهو من أبرز علماء المولى الرشيد ورواد مجالسه العلمية الرشيدة، وأحمد بن عبد الوهاب (39) الوزير الغساني، الكاتب العالم الشاعر. وكانوا جميعا يسردون صحيح الإمام البخاري طيلة شهر رمضان، ويختمونه في آخره في مجالسهم الخاصة.

وكذلك كان الأمر بالنسبة لأغلبية شيوخ الزوايا كشيخ الزاوية الدلائية محمدا بن أبي بكر الدلائي، الذي كان يلقي درس الختم في نصف يوم كامل، ويقام حفلا يحضره علماء فاس ومراكش، ويقدم فيه الطعام للحاضرين، ويختمه بإنشاد الشعراء لقصائد في مدح الإمام البخاري رضي الله عنه (40)، والإشادة بشيخ الدلاء، وسعة علمه....

كما كان الشيخ محمد الدرعي، يقوم بسرد صحيح الإمام البخاري وختمه في شهر رمضان من كل عام بزاوية تمكروت (41).

(35) الحركة الفكرية، لمحمد حجي، ص: 144 .

(36) ترجمته مع تراجم علماء هذا العصر كما سيأتي .

(37) الذي وقعت زلزلة وهو بأحد مجالسه لسرد صحيح البخاري وذلك في 10 رمضان 1075هـ

حسب رواية الفقيه أحمد بن عبد الهادي الشريف السجلماسي .

(38) الاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 45 .

(39) ترجمته بنشر المثاني، ج: 3، ص: 173 .

(40) الزاوية الدلائية لمحمد حجي، ص: 273.

(41) درة ابن القاضي، ج: 3، ص: 284، وتنبية الكلاي، ص: 17، والمزايا لعبد السلام الناصري، ص: 19-20،

وفهرس الفهارس، ع الكتاني، ج: 2، ص: 25 .

ويمكن اعتبار المجالس السلطانية التي كان يعقدها الملوك العلويون احتفالاً بعيد المولد النبوي الشريف، بمثابة مجالس علمية خاصة بالسيرة النبوية، والتي كان العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم من المثقفين يساهمون فيها مساهمة فعالة، كما أن التقاليد التي كانت تقام في إطارها شكلاً ومضموناً تكرر دورها كمجالس علمية وتؤكد.

وقد اتسع نطاق هذه المجالس في هذا العهد، فأصبحت تقام ليلة عيد المولد، وليلة سابعه في مختلف الزوايا والأضرحة، وبعض المساجد والبيوتات، حيث تنشأ الأمداح النبوية الشريفة. كما تتلى قصة المولد النبوي الكريم (42).

وكان المغاربة عموماً يتلون قصة المولد النبوي للبرزنجي مخللة بتصلية المدني.

وبعد النهضة المغربية الحديثة تأثر المغاربة بالحركة السلفية في المشرق ثم في المغرب - التي ولدت النهضة المغربية الحديثة، في أحضانها - كما تأثروا بلسانها الناطق في الشرق العربي - مجلة المنار المصرية - فصاروا يتلون قصة المولد النبوي الشريف، للشيخ رشيد رضا، مخللة بتصلية ابن جعفر (43).

وكان الملوك العلويون - وما زالوا - يحرصون على إقامة هذه المجالس العلمية الاحتفالية في شكل مهرجانات ومحافل ثقافية ويتفنن كل واحد منهم في تطويرها وتجديدها وإضفاء مظاهر العظمة والإجلال والتقدير على طقوسها، كل حسب عصره والعقلية السائدة فيه.

وقد اهتم ملوك الدولة العلوية أيما اهتمام بالجانب الفكري والمذهبي والعقائدي لمجالسهم العلمية المختلفة، وذلك في إطار اهتمامهم بجوانب الفكر المغربي وتوجيهها الوجهة الصحيحة على جميع المستويات والأصعدة، سواء في المعاهد والمدارس بين الأساتذة والطلبة، أو في المساجد والزوايا والرباطات بين العامة، أو في المجالس العلمية السلطانية، حيث تنطلق الدروس العلمية

(42) مجلة البحث العلمي، ع: 4 و5، س: 2، ص: 26-27، 1385-1965.

(43) المصدر السابق، و ص.

الحديثية أو غيرها من هذه الجوانب الفكرية والمذهبية والعقائدية، وتوظف لخدمتها في آن واحد، والتي يمكن حصرها في الوحدات التالية :

- وحدة المذهب الفقهي في العبادات والمعاملات، وهو مذهب الإمام مالك.

- وحدة المذهب العقائدي، وهي عقيدة أهل السنة والجماعة، وطريقة أبي الحسن الأشعري.

- وحدة المذهب الصوفي، وهي طريقة الجنيد بواسطة أبي الحسن الشاذلي(44).

- وحدة المذهب في القراءات، وهي قراءة نافع، برواية أبي سعيد عثمان الملقب بورش.

- وحدة رواية صحيح البخاري، وهي رواية ابن سعادة.

وهذه الوحدات (45) هي التي تعمل على وحدة الفكر المغربي، وبالتالي هي التي توحد المغاربة، وتشكل قاسما مشتركا بينهم جميعا، مما يجعلهم في حرز أمين من الوقوع في شبك دعاة التفرقة، من أصحاب المذاهب الضالة المضلة على اختلاف مشاربهم.

لذلك حرص ملوك الدولة العلوية على سلامة هذه الوحدات، وجعلوا منها أرضية صلبة لمجالسهم العلمية السلطانية وغيرها التي كانت ولا زالت تشكل أهم مؤسسات وهياكل الدولة، وأمع واجهاتها بالداخل والخارج وحصنها الحصين في السراء والضراء....

الملوك العلويون والمجالس العلمية السلطانية :

تضاربت آراء الباحثين حول بداية المجالس العلمية السلطانية الحديثية وغيرها على عهد الدولة العلوية، وبالتالي حول من هو أول ملك علوي اتخذ هذه المجالس، وجعلها سنة متبعة لمن بعده.

غير أننا إذا استقرينا كتب التاريخ واستقصينا الموضوع في مصادره ومراجعته الأصلية نجد أن الجد الأعلى لهذه الأسرة المملوكة الشريفة الحسن

(44) م. 656هـ

(45) دعوة الحق، ع: 6، س: 22، ص: 58، 1401هـ-1981م، الوحدات العشر، للعمراوي.

الداخل(46)، كان عالما كبيرا مشاركا في مختلف الفنون والعلوم، ولا سيما علم البيان، ويروى أنه أول من أدخل هذا العلم إلى المغرب (47).

وأشهر أجدادهم بعد الحسن الداخل هو المولى علي الشريف، الذي يقول عنه الزياتي (48) : " ... ممن عظم العلم، واكتفى به عن الملك، وزهد فيه مولانا علي الشريف، جد الأشراف... واشتهر علمه، وظهر فضله، وراوده أهل الأندلس على ملكها، فزهد فيه،.... وقال : يكفيني قصب العلم " .

أما أول من بويع بالملك منهم، فهو المولى الشريف الذي كان وجيها عند أهل سجلماسة، وكافة أهل المغرب، يقصدونه في العضلات، ويستشفون به في الأزمات (49)، ويهرعون إليه فيما جل وقل من الملمات.... فأسندوا أمرهم إليه، لعلمه وفضله وتطوعه لخدمتهم (50) " .

فبايعه أهل سجلماسة والصحراء كلها، وضربوا عليه الطبول سنة 1043هـ-1633م (51).

ويؤكد لنا ثقافته ومشاركته العلمية القادري (52) الذي جعله من علماء القرن الحادي عشر، وقال عنه : " ومنهم الشريف الأسمى، والملاذ الأحمى،

(46) الحسن بن قاسم، الذي دخل المغرب سنة 664هـ- 1265م، وتوفي سنة 706هـ، وقبره بالريصاني، قرب قصر كرينفود. وكان رجلا صالحا ناسكا، حتى تنازع السجلماسيون مدفنه بعد موته، ثم اتفقوا على تسميحه سجلماسة، ودفنه في وسطها، بحيث يشكل قبره المركز بالنسبة لها.

(47) الأنوار الحسنية أو السننية، لأحمد العلوي، ص: 27، والحلل البهية للمشرفي، ونزهة الحادي للافراني، ص: 291-292.

(48) الروضة السليمانية، للزياتي، ورقة : 48، والبستان الظريف، للزياتي ص: 21 م.خ.ع، بالرباط، رقم 1577.

(49) الحلل البهية للمشرفي، ص: 48.

(50) تاريخ الضعيف، ص: 56، كحفره أبارا على طريق الحجاج، وكان أهل سجلماسة تناقلوا تكهن أحد صلحائها وفقهاها عبد الله بن علي بن طاهر، بظهور الملك في أسرة الشريف بن علي، الذي عرف بصلاحه، وتقواه كسائر أسلافه.

(51) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 19-20، ونزهة الحادي، للافراني، ص: 299-300.

لكنه اختطف بعد بيعته مباشرة، فقام بالملك ولده محمد الأول، فبايعه أهل سجلماسة في حياة والده، ثم افتدى أباه، لكنه لما عاد، زهد في الملك، وتنازل له عنه، وتفرغ للعبادة حتى توفي سنة 1069هـ، فجددوا البيعة لولده محمد الأول سنة 1069هـ، وهي البيعة الرسمية العامة، كما في البستان الظريف، للزياتي، ص: 21، والروضة السلمانية، للزياتي، ورقة: 48.

(52) نشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 88.

سيد الزمان، ووالد الخلفاء الأعيان..... من العلماء الأكابر، والخلفاء
المجاهدين المشاهير".

غير أن هؤلاء الأجداد الأفذاذ للملوك العلويين، رغم مكانتهم العلمية
السامية، لم يتفرغوا للمجالس العلمية وتقاليدها المستقرة، لانشغالهم
بالجهد في سبيل الله، والإصلاح الاجتماعي، وزهدهم في الملك، ومع ذلك
فقد كانوا -عن قصد أو عن غير قصد- أول من وضع أسس الدولة
العلوية، ومهدوا ووطدوا صرح الأرضية الصلبة الصالحة لانطلاقها
وإقلاعها.

المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى محمد الأول - المولى الرشيد
1050 - 1182هـ - 1640 - 1672م.

المجالس العلمية السلطانية في عهد المولى محمد الأول (53).
(1050 و 1069 - 1075هـ - 1640 - 1658م).

كل القرائن تدل على أن محمد الأول كان عالما مطلعاً، ونستشف ثقافته
الواسعة، وعلمه ومآثره من مراسلاته مع معاصريه، من رؤساء الدول
وغيرهم، كالأترك (54) العثمانيين بالجزائر، والدلائين (55) بالأطلس
المتوسط. كما نتعرف من خلالها على شخصيته الفذة التي تمتاز بالحنكة
السياسية، والشجاعة والبطولة التي شهد بها الأعداء (56)، والتي ربما كان
التاريخ قد ظلمها (57) بحكم ظروف عصره المضطرب، ولكونه جاء في
منعطف تاريخي بين دولتين وعهدين مختلفين.

(53) ترجمته بنشر المثاني، ج: 2، ص: 145.

(54) نصها بالحلل البهية، للمشرقي، ص: 54-57.

(55) توجد نصوصها في الروضة السليمانية للزياني، ورقة: 52، وفي الاستقصا ج: 7، ص: 22-25،

والحلل البهية للمشرقي ص: 57-59. والاستقصا للناصر، ج: 7، ص: 26، ومصادر عديدة،

كنزهة الحادي للأفراني، وتاريخ الضعيف، والبذور الضاوية، لسليمان الحوات.

(56) نشر المثاني للقادري، ودعوة الحق، ع: 258، ص: 26، 1406هـ-1986م، ملامح من شخصية

محمد الأول، د. محمد بن شريفة.

(57) المصدر السابق، ص: 22.

فمما لا شك فيه أنه تلقى دراسته حسب منهج الحركة العلمية في سجل ماسة (58) مع أقرانه وإخوانه (59).

وباستقراءنا لرسائله المذكورة، يتضح لنا أنه كان مولعا برواية الأشعار، مشاركاً في علم البيان - كجده الحسن الداخل (60) الذي نشره في سجل ماسة كلها آنئذ - ذا اطلاع واسع في علم التاريخ والأنساب والسير (61)، مع إلمام بعلم الجفر (62).

غير أنه - كأبيه المولى الشريف - رغم مكانته العلمية المرموقة، لم تكن له مجالس علمية بالمعنى الرسمي المعروف. لانشغاله بوضع أسس الدولة، وتوطيد دعائم صرحها، وتمهيد أرجائها، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يزهو علم، ولا فن، ولا ثقافة، ولا حضارة في بلاد، إلا إذا سادها الأمن والاستقرار، وعمتها الطمأنينة والسلام.

والواقع أنه لا يساورنا أي شك في أنه كانت لهذا البطل الرائد المغوار مجالس علمية خاصة، في دائرة محدودة من الأقران والأنداد والأقارب المثقفين، لتدارس العلوم والآداب، ولا سيما العلوم الدينية، إن لم يكن للترفيه والتسلية والمؤانسة فلاستنباط الأنظمة والأحكام، واستفتاء الشريعة فيما يعترض دولته الفتية من قضايا على جميع المستويات والأصعدة.

ومما يعزز هذا الرأي أنه ثبت تاريخياً أن المولى محمد الأول أجاز الشاعر الجزائري المشهور أبا عثمان سعيد التلمساني (63)، بحوالي خمسة وعشرين رطلاً من الذهب الخالص، على بعض أمداحه فيه (64).

ولا شك أن إلقاء هذه المدائح بين يديه، وهذا الإنعام الحاتمي وأمثاله كانا في مجلس أدبي عام أو خاص. وما كان لمثل المولى محمد أن يكون له مجلس أدبي على هذا المستوى الرفيع، دون أن تكون له مجالس علمية

(58) المصدر السابق و ص.

(59) المصدر السابق، ص: 21.

(60) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 6، والمصدر السابق و ص.

(61) المجلة السابقة، و ص.

(62) المصدر السابق، ص: 23.

(63) صاحب العقيقة.

(64) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 31، والحلل البهية للمشرقي، ص: 51-52.

موازية لها، إن لم تفقها، لمكانته العلمية والدينية والدنيوية، ولمناخ عصره الديني والاجتماعي الذي لا يسمح بذلك مطلقا.

ونعود لنلقي باللائمة على المؤرخين الذين أهملوا آثاره وأمجاده. وسجل لنا الافراني اعترافه بلسان حالهم جميعا في روضة التعريف قائلا : "وقد أضربنا عنها روما للاختصار".

وكانت له مراسلات مع بعض كبار علماء عصره يمكن اعتبارها -بتجاوز- نواة للمجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية، لما تتضمنه من نظريات وآراء سياسية، وقوانين وأحكام دينية ودنيوية ومخططات اجتماعية، ومشاريع اقتصادية، وما تنم عنه من ثقافة تاريخية وأدبية وغيرها. تلك النواة التي نمت وترعرعت، واشتد عودها بالتدرج على يد خلفائه من بعده بعوامل التطوير والتجديد التي عرفتتها العصور اللاحقة كما سيأتي.

وهذه نبذة عن أحد أشهر علماء عصره، الذين كانت له مع بعضهم تلك المراسلات العلمية المذكورة :

-الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصنهاجي الدلائي الذي قال عنه صاحب الصفوة : "أحد صدور مشايخ المغرب، انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا، فأحسن السيرة فيهما، مع المشاركة في جميع الفنون، سيما علم التفسير وعلم الحديث، فله فيهما اليد الطولى، والباع المديد. أخذ عنه رحمه الله كبار علماء المغرب بعده، كالشيخ ميارة، وأبي العباس المقرئ، وابن عاشر، والبوعناني وغيرهم".

توفي ودفن بالدلاء قرب قبر والده الذي بنى عليه السلطان محمد الشيخ السعدي قبة فاخرة، مداراة وتأليفا لقلب ولده محمد الحاج الدلائي، الذي كان -إذ ذاك- معارضا قوي الشوكة للسعديين، شأنه شأن المولى محمد ابن الشريف، الذي كان من المناوئين الأكفاء لهما معا، في مرحلة انتهاء الدولة السعدية.

وكانت للمولى محمد بن الشريف معه مراسلات عديدة (65).

(65) نشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 161.

المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى الرشيد : (66)
(1075-1082هـ - 1664-1672)

أجمع المؤرخون والباحثون على التنويه بالشخصية العلمية الفذة للمولى الرشيد، والإعجاب بعبقريته الخلاقة المتميزة، والثناء على أعماله الجليلة، ولاسيما في مجال نشر العلم، وتعميم المعرفة، وخدمة الفكر الإسلامي والإنساني بصفة عامة.

وقد حاله التوفيق على جميع المستويات والأصعدة، لسلامة طويته، وحسن نيته، وإخلاصه في أعماله، وبالتالي لبطولته، وشجاعته وإقدامه، وسمو أخلاقه...

والإجماع المذكور على التنويه بأريحيته العلمية يتجلى في شهادة هؤلاء المؤرخين والباحثين التي أقاموها لله وسجلتها ذاكرة التاريخ بأمانة. ولا بأس من تسجيل بعض هذه الشهادات الحية لأعلام هؤلاء الباحثين والمؤرخين في أمهات المصادر التاريخية وغيرها.

- ففي الشجرة الزكية نجد : " كثر في أيامه العلم، وانتشر تعلامه،... واعتز أهل العلم.... فقد أغدق عليهم النعم، فتنافس الطلاب في التحصيل(67) ".

- ويقول الضعيف في شهادته : " عمل على نشر العلم وبثه، وإتقانه وتحقيقه، وتعظيم طلبته، فأقبل الناس على العلم والتعليم " (68).
- وقال الافراني : " في أيامه كثر العلم، واعتز أهله، وظهرت عليهم أبهته(69).... " .

- ولعل أذكى شهادة وأرجحها، ما كتبه أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، في رسالته للمولى إسماعيل : " ثم جاء المولى الرشيد بن الشريف فأعلى مناره، وأوضح نهاره، وأكرم العلماء إكراما لم يعهد،

(66) ترجمته بالدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 11-23.

(67) النهضة العلمية، لابن زيدان، ميكروفيلم، خ.ع، بالرباط، رقم 2028. والنهضة العلمية لابن زيدان،

م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص: 56.

(68) تاريخ الضعيف، ص: 56-57.

(69) الاستقصا، للناصرى، ج: 7، ص: 36-37، والروضة السليمانية للزياني، ورقة: 56، ونزهة

الحادي، للافراني، ص: 303-304.

وأعطاهم ما لم يعد، ولا سيما بمدينة فاس، ففاق من قبله، وأتعب من بعده، ولو طالمت مدته، لجاؤه علماء كل بلدة (70)» .

- ويزكي المشرقي شهادة هؤلاء جميعا، معلنا أنه أول من سن سنة عقد المجالس العلمية السلطانية للملوك العلويين بقوله: " كان الرشيد محبا في جانب العلماء، مؤثرا لأغراضهم، مولعا بمجالستهم، محسنا إليهم حيثما كانوا (71) " .

وكاد إجماع الباحثين أن ينعقد على أن المولى الرشيد هو المؤسس الحقيقي للمجالس العلمية السلطانية في شكلها التقليدي الرسمي، على عهد الدولة العلوية الشريفة، وأنه أول من سن سنتها الحميدة للملوكها الذين جاؤوا من بعده.

«فقد كان حاملا لراية أهل الرواية، مولعا بمجالسة أئمة العلماء وشيوخهم، وتعظيم مجالسهم» (72).

وكان ينتقي لها كبار العلماء المجتهدين من جميع أنحاء مملكته، حيث كانوا يتدارسون الأحاديث النبوية الشريفة (73)، ويتباحثون ويتناظرون حول أحكامها وآدابها وأهدافها... فكانوا بمثابة المنظرين والمشرعين لدولته الفتية، الذين يضعون لها الاستراتيجية والتوجهات العامة، ويحددون أبعادها ومراميها، وبالتالي أهدافها القريبة والبعيدة، وذلك على أسس ثابتة من كتاب الله العزيز وسنة رسوله المصطفى الأمين. وفي ذلك يقول أكنسوس: " وكان مجلسه غاصا بأهل العلم يتجادبون فيه أطراف الأحاديث(74)، " وكان عددهم يناهز خمسة وعشرين عالما مدربين على المعقول والمنقول " .

- وقال الحسن اليوسي في ذلك: " وكذلك مولانا رشيد، قد جمع العلماء، وأتوه من الآفاق بلا جمع " (75).

(70) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 38.

(71) الطل البهية للمشرقي، ص: 101-104، والجيش العرمم لأكنسوس، ص: 48.

(72) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم: 3177، ص: 56.

(73) الجيش العرمم لأكنسوس، ورقة: 48.

(74) المصدر السابق، وص.

(75) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط رقم: 3177، ص: 56. وميكروفيلم، خ.ع.

بالرباط، 2028.

وهذه الأقوال تؤكد أن مجالسه كانت تتدارس الكتاب و السنة، وتستنبط أحكامهما وكنوزهما بمنهجية تعتمد على المأثور والرأي. كما كانوا يتناولون بالدراسة والبحث القضايا الهامة التي تشغل بال المجتمع المغربي بصفة خاصة وبال الأمة العربية والإسلامية بصفة عامة، وذلك في جميع مجالات الحياة ومرافقها.

فقد كان هم المولى الرشيد معالجة الأوضاع الفاسدة، ومحاربة المتمردين والثوار تحت مختلف الشعارات المزيفة، ونشر الأمن والاستقرار في البلاد وتوحيدها، تحت سلطة دينية، روحية و دنيوية موحدة، في ظلال الدوحة النبوية الوارفة، وآل البيت النبوي الطاهر.

وهذا ما يلخص الأهداف البعيدة التي كانت مجالسه العلمية تعمل جاهدة على تحقيقها، من خلال موضوعاتها وقضاياها...

وفي هذا الإطار كانت مواجهة المولى الرشيد للزاوية الدلائية (76) ومع غيرهم من الثوار بمختلف الجهات.

لكن المولى الرشيد، انطلاقاً من حبه للعلماء، وميله إلى مجالستهم (77) ومباستطتهم، وبالتالي إلى تعظيمهم وإكرامهم، (78) فإنه لما فتح الزاوية الدلائية، ودخلها على أهلها، عاملهم بنبل، وحلم، وشهامة هاشمية، فحقن دماءهم، وصان أعراضهم، بل وانتقم شر انتقام ممن حاول ترويعهم (79).

كما أنه نقل علماءها إلى فاس العاصمة العلمية، إذ ذاك معززين مكرمين، حيث هياً لهم سبل العيش الكريم، وتعهدهم ببره وحلمه، واختار صفوفهم من الأئمة والشيوخ لمجالسته ومناظرتة في مجالسه العلمية الخاصة والعامة، كأبي عبد الله المرابط.

(76) خربها سنة 1079هـ-1668م، ونقل محمد الحاج الدلائي مع أبنائه إلى فاس، ثم إلى تلمسان، الحياة الأدبية، لمحمد الأخضر، ص: 67-72، والروضة السليمانية للزياني، ورقة: 560، ونشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 175.

(77) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم: 3177، ص: 56، والميكروفيلم، خ.ع بالرباط، رقم: 2028.

(78) نزهة الحادي، للفراني، ص: 303.

(79) نشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 180.

وكان ذلك دأبه مع كافة أهل العلم بسائر أرجاء مملكته، الذين كانت مجالسه لا تخلو منهم. أينما حل وارتحل.

ونجد لدى الافراني في : " صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر " وصفا حيا لأحد المجالس العلمية للمولى الرشيد، ويصور لنا كيف كان يبدد أتعاب العلماء أعضاء مجلسه العلمي، ويحاول الترفيه عنهم من حين لآخر.

ذلك أنه كان من جملة العلماء الحاضرين في ذلك المجلس، ابن المرابط المسناوي الدلائي، فأراد أن يؤانسه ويزيل وحشته، ويهدئ روعه، كما أراد ممارسة بقية العلماء، الحاضرين بذلك المجلس -كعادته في سائر مجالسه المختلفة- فأنشد قول المتنبي، وهو يستطلع وقعه على ابن المرابط المسناوي بنظرة خاصة.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له مامن صداقته بد

فقال ابن المرابط : " أيد الله أمير المؤمنين، ياسيدنا رحم الله من قال : من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا (80) ". فاستحسن الحاضرون حضور بديهته، وحسن جوابه (81).

ويمكن اعتبار ما حدث بهذا المجلس، من نوادر المجالس العلمية والأدبية لهذا السلطان الجليل.

و يصور لنا ابن زيدان مجلسا من المجالس العلمية للمولى الرشيد بما مفاده: " حدث في أحد مجالسه العلمية -وكان النقاش يدور حول قواعد الإسلام، وأنها خمس- فقال أحد العلماء الحاضرين بل هي ست، فأنكروا عليه قوله واستجهلوه، فبادرهم قائلا : القاعدة السادسة هي السلطان، إن وجد وجدت القواعد الخمس وإلا فلا، فاستلطفه الحاضرون (82).

(80) الجيش العرمم، لأكنسوس، ورقة : 48.

(81) الاستقصا، للناصرى، ج : 7، ص : 48.

(82) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص : 2، وميكروفيلم، خ.م، بالرباط،

رقم : 2028.

وكان يراقب حضور العلماء إلى مجالسه العلمية و مواظبتهم على ذلك بنفسه و عن كُتُب، فيسأل عن المتأخرين و المتغيبين منهم، حرصا منه على الانضباط و الالتزام و المصداقية، باعتبار أن العلماء مثل أعلى و نموذج تحتذيه الأمة كلها.

فقد لاحظ مرة تكرر تغيب العالم الحسن بن علي بن أحمد بن موسى السملالي عن مجلسه العلمي، فسأل عنه قائلاً : «ماله لا يأتينا مع العلماء؟» ف قيل له: إنه رجل فيه نوع من الغفلة، فلم يقتنع، حتى تأكد من الأمر بنفسه، فوجدهم قد صدقوه القول، فاقتنع (83).

ومن مزايا هذه المجالس -التي تعتبر سنة من السنن الحسنة العديدة للمولى الرشيد، كملك ورائد ملوك الدولة العلوية، حرصه على تخصيص جناح (84) خاص بنساء القصر في مجالسه العلمية، وهو عبارة عن مقصورة لا يفصلها عن مجلس السلطان إلا شبك رقيق من الخشب المزخرف، ذو مربعات رقيقة، بحيث يسمعن ويرين بوضوح كل شيء، دون أن يراهنَّ أحد. وكان يحث الشريقات وزوجات الشرفاء على حضور صلاة الجمعة (85)، وبالتالي حضور مجالسه العلمية وغيرها، في المقصورة التي خصصها لهن.

أنواع المجالس العلمية للمولى الرشيد :

كانت المجالس العلمية للمولى الرشيد متنوعة، ذلك لأنها كانت متأثرة بعوامل مرحلة النشأة أو المخاض، حتى انتهت إلى عادة موحدة، وسنة

(83) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م رقم : 3177، ص: 2.

(84) دعوة الحق، ع: 1، س: 6، ص: 50، 1382هـ-1962م، المساجد وأشهرها في إصلاح العقول، لعبد الله الجراري، وحوار أحمد بنسودة، بقاعة الاستقبال في بيته، وقد روى لي ما قرأه شخصيا في تقييد لابن عمه العابد بن أحمد بن سودة، رئيس المجالس العلمية السلطانية على عهد الحسن الأول بالوراثة عن أبيه وجده، عن هذا الموضوع راويا عنهما في تقييده المذكور.

(85) دعوة الحق، ع: 1، س: 6، ص: 50، 1382هـ-1962م، المساجد وأثرها في صلاح العقول، لعبد الله الجراري. وحوار أجريته شخصيا مع مستشار جلالة الملك الحسن الثاني العلامة أحمد بن سودة في قاعة الاستقبال ببيته، وقد روى لي في هذا الشأن ما قرأه شخصيا في تقييد لابن عمه العابد بن أحمد بن سودة، الذي كان يترأس هذه المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى الحسن الأول، بالوراثة عن أبيه وجده. عن هذا الموضوع، راويا عنهما في تقييده المذكور.

متبعة، واستقرت على شكل المجالس العلمية السلطانية التقليدية الرسمية المتوارثة فيما بعد، فقد لازمتها عوامل التطور والتجديد، عبر العصور، حتى وصلت بها إلى ما هي عليه اليوم.

وأهم أنواع المجالس العلمية وغيرها للمولى الرشيد :

- كانت له مجالس علمية ثنائية خاصة وجد محدودة يخلو فيها بعالم كبير ليأخذ عنه العلم، ويتم دراسته عليه، أو ليستشيره في أمر هام من أمور الرعية وشؤون ملكه، تنفيذاً لتعليمات الشريعة الإسلامية، وتواضعاً مع العلماء حملة الشريعة، وورثة الأنبياء...

من ذلك أنه بعث إلى بعض علماء عصره، ليتدارس معه بعض الكتب على انفراد، فامتنع العالم وقال قولة الإمام مالك المشهورة : " العلم يؤتى ولا يأتي ". فكان المولى الرشيد يتردد لمنزله للقراءة عليه " (86).

وإذا كانت هذه مزية لهذا العالم، الذي اقتدى بالإمام مالك، فإنها منقبة لهذا السلطان الجليل، الذي اقتفى أثر هارون الرشيد في حلمه وأريحيته....

- ومن أنواع مجالسه العلمية أنه كان يقصد مجالس الشيوخ من العلماء الكبار بالقرويين وغيرها، فيدخل عليهم بغتة، ويحضر دروسهم كواحد من الطلبة، وخاصة مجالس الإمام أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي (87). وكان من سننه الحسنة أنه كلما دخل جامعة القرويين، إلا ويخرج منها إلى المدرسة المصباحية، حيث يحضر المجالس العلمية لكبار علمائها بدورها (88).

وذلك اهتماماً بسائر علماء عصره، والتماساً للحكمة عندهم، وتحقيقاً لمبدأ تكافؤ الفرص بينهم، وحتى ينتقي بنفسه -عن كئيب- خيارهم وأفاضلهم وصفوتهم لمجالسه العلمية وغيرها : الخاصة والعامة.

(86) الحلل البهية للمشرقي، ص: 103-106، والنهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 2، والجيش العرمم، لأكنسوس، ص: 48.

(87) الحلل البهية للمشرقي، ص: 103.

(88) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.ع، بالرباط، رقم : 3177، ص: 56، والميكروفيلم، خ.ع بالرباط،

وكلما حضر مجلسا لعالم من هؤلاء العلماء الكبار - في أية مدرسة - إلا ويتدخل ليناقشهم في أدق المسائل الفكرية والعلمية المطروحة من خلال ذلك الدرس، ويساعدهم على التوصل إلى حقائقها، عن طريق الحوار والجدال والمناظرة إلى أن يستخلص معهم قواعد هذه الدروس ونتائجها.... وفي نهاية الدرس كان ينعم على جميع الحاضرين بوافر العطايا، حسب مكانة كل منهم، تشجيعا لهم، وبثا لروح المنافسة بين العلماء والطلبة، وإحياء للنهضة العلمية التي ينشدها.

لذلك أقبل العلماء والطلبة على دراسة مختلف العلوم والفنون في عهده، إقبالا منقطع النظير، وبعثوا حركة علمية مباركة في جميع أنحاء البلاد.

"وبذلك تعرف درجته في العلم، وأنه من العلماء (89) " كما قال المشرفي. ومن الصور الحية لهذا النوع من مجالسه العلمية، أنه دخل القرويين ثم المدرسة المصباحية بطريقته المعهودة، سنة 1107هـ، حيث جالس جماعة من علمائها. وعلى رأسهم الحسن بن مسعود اليوسي، وعلي بن منصور الزموري - وهما من فحول علماء عصره، ورواد مجالسه العلمية - فأعطى لكل واحد ممن حضر المجلس، مائة مثقال من الذهب (90).

ويظهر أن شغفه بهذا النوع من مجالسه العلمية بالخصوص، يرجع إلى انتقاله الفجائي من مرحلة الدراسة في حلقات الدروس، إلى سدة الملك وعرشه وتاجه وصولجانه، قبل أن يشبع نهم عقله المتوقد، وروحه المتوثبة إلى مناهل العلم والعرفان، وظمأ نفسه الطموحة التواقفة إلى النهل والعلل من ينابيعه الصافية، حيثما وجدت....

وهذا ما يفسر ترده للدراسة على كبار الشيوخ، بمفرده، ثم ترده على مجالس هؤلاء الشيوخ بجامعة القرويين، وغيرها من المؤسسات العلمية، التي كان الحنين إليها يراوده دائما، حتى بعد بيعته واعتلائه عرش البلاد، وبعد أن دانت له العباد.

كما يفسر لنا مبالغته في تعظيم العلماء، وإكرامهم، والبرور بأبوتهم التي كان يعتز بها، مما يشهد به المؤرخون بالإجماع - كما مر بنا -

(89) الحل البهية للمشرفي، ص: 106.

(90) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 73-75.

فقد كان " كثير الاجتماع بالعلماء، وما اجتمع بهم قط إلا وبالع في
حضهم على نشر العلم وبثه، وإتقانه وتحقيقه، وتعظيم طلبته، فأقبل الناس
على التعليم والتعلم، وعمرت أسواق العلم، -وقد عفت من قديم- حسبما
أشار إلى ذلك الافراني في النزهة (91) ."

-وبموازاة المجالس العلمية للمولى الرشيد، كان يعقد مجالس أدبية
صرفة أو مختلطة، بحيث يتدارسون أحيانا المواضيع الدينية، من تفسير أو
حديث أو فقه أو غير ذلك، وطورا يتناشدون غريب الأشعار (92) -إذ لم
تكن أنواع المجالس قد استقل بعضها عن بعض -كما حدث فيما بعد- بل
كانت لا زالت تعرف نوعا من التداخل بينها، شأنها في ذلك شأن العلوم
فيما بينها، وبالتالي لم تكن أنواعها قد استقرت، واتخذت المجالس العلمية
منها شكلها التقليدي المتعارف عليه عبر العصور اللاحقة وإلى اليوم.
وهذه المجالس الأدبية للمولى الرشيد خلدت جوده وأريحته الأدبية،
التي جعلت الأدباء والشعراء يتهافتون على مجالسه الأدبية، ابتغاء عطاءه
الندي الكريم.

فقد سجل لنا التاريخ الأدبي للمغرب أن المولى الرشيد أنعم خلال أحد
مجالسه الأدبية على أحد شعراء الجزائر بألفي وخمسمائة دينار على مدحه
له ببيتين من الشعر (93) وهما :

فاض بحر الفرات في كل قطر

من ندى راحتك عذبا فراتا

غرق الناس فيه والتمس الفقـ

ر خلاصا فلم يجده فمات

كما مدحه أحد شعراء فاس، بقصيدة من أربعين بيتا، وأنشده إياها
في أحد مجالسه الأدبية، فأعطاه أربعين قنطارا من الذهب (94).

(91) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 56، وميكروفيلم، م.ع بالرباط،
رقم 2028.

(92) الجيش العرمم، لأكنسوس، ص: 48.

(93) نزهة الحادي للافراني، ص: 303-304، والحلل البهية للمشرقي، ص: 101، والاستقصا
للناصرى، ج: 7، ص: 44، والجيش العرمم، لأكنسوس، ص: 48، والنهضة العلمية، لابن زيدان،
م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص: 2.

(94) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 3.

ولما فتح مراكش وأخرج منها الشباناء جاءت الوفود المهتنة وتوافد عليه الشعراء بقصائد المدح والتهنئة، فعقد لهم مجلساً أدبياً، أنشده فيه أحمد بن عبد العزيز العلوي - مؤلف كتاب الأنوار السنوية أو الحسنية - قصيدة من نظم أحد الشعراء، وزاد فيها أبياتاً من نظمه، تتعلق بفتح مراكش ومطلعها :

جرت بمنك الدهر ملء عنانها وساعدت الإمام في عنفوانها

- وتقديراً لدور الطلبة الطلائعي في المجتمع، وروحهم النضالية العالية، واعترافاً بفضلهم وإسهامهم الفعال في تأسيس دولته التي قامت على أكتاف الطلبة أبي إلا أن يخصصهم بمجالس علمية وأدبية موازية في شكل مهرجان أو محفل أو مؤتمر ترفيهي، فسن لهم نزهة الربيع السنوية.

وكانت تقام تحت الرئاسة الشرفية للمولى الرشيد، وتشارك السلطات المحلية في تنظيمها وتسييرها بكيفية غير مباشرة. وكان يحضرها الأهالي، وخاصة آباء وأولياء الطلبة، وغالبا ما يحضرها السلطان بنفسه، تأكيداً لاهتمامه بأمر الطلبة، وإحياء لذكرى عزيزة على نفسه، ذكرى قضائه على الإقطاعي اليهودي المتجبر "هارون بن مشعل" (95)، وتخليداً لذلك الميثاق الروحي الذي يربط بينه وبين الطلبة، وبالتالي بين العرش العلوي والشعب المغربي قاطبة، ويجعلهما يداً واحدة على الأعداء، في السراء والضراء، في السر والعلانية....

ذلك أن المولى الرشيد لما فتك بابن مشعل، أقام لجنوده من زملائه الطلبة - الذين كان عددهم خمسمائة طالب - نزهة فاخرة، فظل يحتفل بذكرها كل سنة (96)، طيلة حياته، اعتزازاً بها وتخليداً لها.

أما خضوعه لسلطان الطلبة أمام رعيته، فهو رمز لمكانة العلم العظيمة، وبالتالي لمكانة العلماء من الدولة باعتبار أن العلم أساس الملك. وهو سر اهتمامه بعقد المجالس العلمية، وحرصه على استمراريتها وتطويرها، باعتبارها أهم مؤسسات الدولة، وأعتد هياكلها.

(95) المصدر السابق، ص: 3.

(96) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 23-24، والنهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م.. بالرباط، رقم

3177، ص: 3.

ومن مجالسه الأدبية التي تذكرنا بأروع ما في كتاب الأغاني، ونفح الطيب، من مساجلات ومحاورات ومناظرات ومناقشات أدبية، ما يحكيه لنا ابن زيدان (97) قائلا : " جرى في مجلس من المجالس الأدبية للمولى الرشيد نقاش في المفاضلة بين مدينتي : فاس ومراكش، فقال أحد الحاضرين " " بينهما ما بين بانيهما في الفضل " (98) .

وبموازاة مجالسه العلمية والأدبية وغيرها، وانطلاقا من أهدافها، قام بأعمال جلييلة في حقل المعارف والعلوم، من شأنها تدعيم هذه المجالس، وتعزيز دورها، وتسهيل أعمالها، وتكوين علمائها، وانتقاء صفوفهم وتزويدها بنبغائهم .

وفي هذا الصدد، قضى على النشاط السياسي للزاوية الدلائية (99)، وشيد على أنقاضها نهضة علمية عتيدة، شع نورها في البلاد، حيث بنى لعلمائها المدارس والمعاهد، وشجعهم ماديا ومعنويا، فأقبلوا على العلم والتعليم، والإصلاح والتوجيه، مما جنى المغرب خيره، فعم البلاد والعباد.

كما أنشأ خزانة للكتب العلمية والأدبية وغيرها بفاس، وحبس عليها كتبا (100) سنة 1079 هـ، " وانتقى لعمارتها ذخائر الكتب العلمية، وأنفس النفائس الأدبية " (101).

كما أكثر من بناء المدارس (102) بالمدن والقرى، -ولاسيما بالعواصم كفاس ومراكش- وزودها بالأقسام الداخلية لإقامة الطلبة، اهتماما بمشاكلهم وتكريما لهم، وتقديرا لمكانتهم ودورهم . وتوج ذلك بمدرسة الشراطين سنة 1081هـ ومدرسة حومة ابن صالح بمراكش (103) .

(97) أخذاً من تقاييد بعض شيوخه، المصدر السابق، و.ص.

(98) ومشيرا بذلك إلى أن فاسا بناها المولى إدريس الثاني، ومراكش بناها يوسف بن تاشفين، ولا شك أن القائل من فاس.

(99) في 8 محرم سنة 1079.

(100) نص عقود هذا التحبيس بالدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 24.

(101) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص: 39.

(102) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 41.

(103) المصدر السابق، و.ص.

وكان كلما دخل مدينة أو قرية إلا ويحرص على زيارة مساجدها ومدارسها، وتعهدها كلها بالعناية والإصلاح، والإحسان إلى العاملين بها، والتكفل بالمنقطعين للعلم في أحضانها، ولاسيما جامعة القرويين بفاس(104).

وفي هذا الإطار، وعملا على نشر تعاليم الإسلام الصحيحة السمحة، وخدمة للحركة الإصلاحية التي يتزعمها علماء مجالسه العلمية في جميع مجالات الحياة، اهتم باختيار خطباء المساجد، وتعيينهم بالحواضر والبوادي، والإشراف على مراقبة أعمالهم.

واهتماما من المولى الرشيد بالمجالس العلمية وتقديرا لدورها، وبالتالى لدور علمائها الطلائعي في جميع مجالات الحياة -كرواد للأمة وحملة للشريعة " وظل الله في أرضه " - كان يحترم العلماء ، ويعاملهم بإجلال وتقدير، وإكرام وتكريم، ويحرص على تقريب جهابذتهم، ويبالغ في التواضع معهم، وخفض الجناح لهم، وإغداق النعم عليهم، والسعي لكسب رضاهم عنه وعن أعماله، ولاسيما في المجال الديني والعلمي . فكان لا يصدر إلا عن رأيهم ومشورتهم (105).

ناهيك بقصته مع شيخ الجماعة بفاس، أبي زيد عبد الرحمن بن القاضي، الذي سعى لاستقباله شخصيا في داره لكبر سنه واستشارته فيمن يصلح للسلطة المحلية بفاس، طالبا منه اختيار عناصر صالحة لذلك قائلا: " أتيتك أستشيرك فيمن أوليه بفاس من حاكم وقاض ومحتسب وناظر(106) " فأشار عليه بأناس، فولاهم، ومنهم أبو العباس أحمد دعي حمدون المزوار، الذي ولاه القضاء.

(104) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص : 56 والميكرو فيلم، خ.ع. بالرباط، رقم 2028.

(105) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص : 56 والنهضة العلمية ميكرو فيلم، خ.ع. بالرباط، رقم 2028.

(106) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص : 3 والنهضة العلمية ميكرو فيلم، خ.ع. بالرباط، رقم 2028، والإتحاف لابن زيدان، ج:3، ص:39.

وكان يعتمد إشارة ابن القاضي هذا في النقض والإبرام، "حسبما أفصح بذلك الزياني في شرح ألفية السلوك، وصاحب الدر المنتخب وغيرهما" (107).

لذلك ما إن تمت له البيعة بفاس حتى "أفاض المال على علمائها وغمرهم بالعتاء وأظهر إحياء السنة والشريعة، فأحبته الخاصة والعامة" (108).

وعن علماء عصره، وبالتالي مجالسه العلمية وغيرها يقول الزياني: "كان في عهده جماعة من العلماء والأعيان والأدباء، وكتاب الديوان، لكن تاريخه لم يدون إلا في عهد مولاي إسماعيل وبعده" (109).

وهذه أسماء لبعض أشهر علماء عهد المولى الرشيد، وجلهم من أشهر علماء مجالسه العلمية والأدبية وغيرها، باعتبار أن العلوم كانت لا زالت لم تستقل عن بعضها، وبالتالي كانت المجالس العلمية السلطانية لا زالت في طور النشأة والتأسيس، ولم تأخذ بعد طابعها النهائي، وشكلها التقليدي المتبع - كما سبق القول -.

- الشيخ أبو محمد عبد القادر بن علي الفاسي (110).

- الشيخ أحمد بن بناصر الدرعي (111).

- عبد الله بن حمدون الروسي (112).

- السيد المؤذن (113).

(107) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص: 3 والنهضة العلمية فيكر وفيلم، خ.ع. بالرباط، رقم 2028، والإتحاف لابن زيدان، ج: 3، ص: 39.

(108) الحلل البهية للمشرقي، ص: 99.

(109) الروضة السليمانية، للزياني، ص: 2.

(110) ترجمته بالاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 45.

(111) ترجمته بالدرر المرصعة، ص: 276 و147-156.

(112) ترجمته بنشر المتاني، للقادري، ج: 4، ص: 238.

(113) المصدر السابق، وج، ص: 227-228.

الفصل الثاني

**تعدد أنواع المجالس العلمية
بتعدد موضوعاتها وأهدافها**

الفصل الثاني

المجالس العلمية السلطانية

على عهد المولى إسماعيل (1)

(1082 - 1139 هـ - 1672 - 1727 م)

كان المولى إسماعيل شخصية فذة متميزة، قل أن يوجد التاريخ بمثلها، فقد جمع بين العلم والأخلاق، والشجاعة المادية والأدبية، فكل جوانب شخصيته في ترجمته، وكل تصرفاته تؤكد علمه واضطلاعه، غير أن أخبار بطولته وملاحمه العسكرية، طغت على أخباره العلمية والأدبية، فحجبتها أو جعلتها تبدو باهتة بالنسبة لأخبار انتصاراته المظفرة الرائعة، وشجاعته النادرة، وسياسته الحكيمة المتزنة.

فقد كان "آية إعجاز في معرفة علوم الحديث، والأدب والتاريخ، والأنساب والسير" (2).

وأقر له بذلك العلماء والباحثون والمؤرخون، كالمؤرخ أبي عبد الله محمد الصغير الإفرائي (3) في قوله: "... وأما مسائل التاريخ ومعرفة الأنساب فهو ابن بَجْدَتِهَا، والعارف بدسائسها، يعرف القبائل العربية والشعوب البربرية، ولم يكن في وقته أعرف منه بالأنساب، كأنها جمعت إليه، فهو ينظر إليها، ولم يكتف من العلم بالقشر دون اللباب، بل نال القدح المعلى والغاية القصوى في ذلك، التي هي العمل والتخلق بمقتضياته خشية وخوفا من ربه، وعدلا وإحسانا وإنصافا، وغير ذلك من الأخلاق المصطفوية (4)".

(1) ترجمته بنشر المثاني، للقادري، ج: 3، ص: 292.

(2) المنزوع اللطيف، لابن زيدان، ص: 38-39.

(3) في كتابه الظل الوارف.

(4) المصدر الأول، ص: 39-40، والدرر الفاخرة لابن زيدان ص: 36.

فقد كان شغوفاً بالعلم، يعمل على نشره، وينفق في ذلك بسخاء (5)، حتى بعث حركة علمية، ازدهرت في ظلها جميع فروع المعرفة في عهده (6)، مستهدفاً خلق مناخ ثقافي يواكب أعمال مجالسه العلمية الجليلة، ويتجاوب معها في توافق وتناغم وانسجام، حتى لا تكون هنالك هوة فكرية تفصل بين طبقات الأمة، وفي ذلك يقول القادري: "وجدت الناس لأيام العلوم عهداً، فكانت أسواق العلم في خلافته عامرة، ونجوم أفلاكه نيرة زاهرة" (7).

وبلغ من ازدهار الحركة الفكرية في عهده وأصداء مجالسه العلمية، ما دفع بعض المؤرخين الفرنسيين المعاصرين إلى القول: "أنه بآثاره ودهائه، يساوي الملوك العظام بفرنسا الذين كان يهاديهم (8)".

وقد هياً لمجالسه العلمية الروافد التي تغذى ينبوعها الفياض، بما يكفل استمراريتها وعطاءها، ويعمل على إثرائها وإغنائها، وبالتالي على تطويرها وتجديدها، ومواكبتها للظروف المستجدة والطارئة على جميع الجبهات والواجهات، في سائر ميادين الحياة ومرافق الدولة.

ففي سبيل تكوين العلماء الأكفاء وتأطيرهم، كلف لجنة تربوية تتفقد وتتبع أحوال التلاميذ ودراساتهم في الكتابات القرآنية (9)، والإنفاق عليهم، ومن ظهرت نجابته وفرض تفوقه، أسقطت عنه الواجبات تشجيعاً لهم، وبعثاً لروح المنافسة بينهم، وحتى ينتقي نبهاءهم، ويصطفاهم أعضاء في مجالسه العلمية المختلفة، كل حسب اختصاصه.

كما اهتم بالطلبة الكبار في المعاهد العليا، فكان يجري لهم اختبارات، ويختار المتفوقين منهم للمناصب الشرعية والدينية وغيرها، وبالتالي أعضاء في مجالسه العلمية، مكافأة لهم وتشجيعاً لغيرهم.

(5) المنزح اللطيف لابن زيدان، ص: 108-109.

(6) المصدر السابق، ص: 109، والنهضة العلمية، لابن زيدان م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 5.

وميكروفيلم، خ.ع، بالرباط، رقم 2028.

(7) نشر المثاني، للقادري، ج: 3، ص: 290. والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط،

رقم: 3177، ص: 5، والنهضة العلمية ميكروفيلم، خ.ع، بالرباط، رقم: 2028.

(8) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 30.

(9) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 6.

وقد وصف هذه المدارس الكمندار "استوار"، في رحلته التي كتبها عن رحلته إلى مكناس، فقال: "توجد مدارس عديدة، يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة والحساب، ويحفظون القرآن عن ظهر قلب" (10).

أما أئمة وشيوخ العلماء بمجالسه المذكورة، فكان يعظمهم، ويقربهم، ويشجعهم على الالتزام والعطاء، والتفاني في المهام الجسيمة الموكولة إليهم في التنظير، والاستنباط، والتشريع... بأن يغدق عليهم النعم. إذ أجرى عليهم الرواتب من بيت المال طول حياته (11)، حتى يكفيهم مؤونة مشاغلهم الشخصية، ويتفرغوا للعلم، وللمسؤوليات المنوطة بهم. كما كان يقطعهم إقطاعات قيمة (12) كالشريف محمد بن عبد القادر الإدريسي (13)، وطبيبه الخاص أحمد أدراق (14)، والشريف محمد بن عبد القادر العمراني (15).

وكان يصدر لعلماء مجالسه العلمية وغيرهم ظهائر التوقير والاحترام (16)، ويجدها لأبنائهم، مكافأة لهم، وحفزا لأبنائهم، حتى يسيروا على نهجهم، وتعزيما لمجالسه العلمية بالأطر الفعالة الكفأة. كظهير عبد السلام بن عبد الواحد غريط (17) الأندلسي، الذي جدده لأولاده.

كما عزز مجالسه العلمية المختلفة بخزانات كبيرة، وزودها بعدد هائل من المصادر والمراجع القيمة، وجند طاقات هائلة في هذا السبيل، حتى قال صاحب سنن المهدي (18) في ذلك: "حوت الخزانة الإسماعيلية من التصانيف، وجمعت من أنواع الدفاتر وأسماء التأليف، مالم تحوه خزانة بغداد، ولا علق بذهن الداني الأستاذ".

(10) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 36-37.

(11) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 98-99، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 6، والنهضة العلمية، لابن زيدان ميكروفيلم، خ.ع، بالرباط، رقم 2028.

(12) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 7، والمنزعة اللطيف، وبه نصوص الظهائر بذلك.

(13) م. 1124هـ.

(14) م. 1137هـ.

(15) م. 1132هـ.

(16) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص: 87.

(17) نص الظهير بالمنزعة اللطيف.

(18) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 36-37.

فقد اعتنى بجمع الكتب بنهم، وبذل في ذلك كل غال ونفيس، مما سجله له التاريخ، حتى قال الإفرائي: "وقد جمع من الدفاتر في كل فن ما يحير العقول (19)".

كما ولع بنسخ الكتب، فجمع لذلك الخطاطين الماهرين (20)، وأسكنهم في جناح خاص من قصره، -بحيث يراقب أعمالهم عن كثب-، وكان يفيض عليهم النعم والعطايا بسخاء (21).

وفي هذا الصدد اغتتم فرصة مجيئ النصارى الإسبان يطلبون فداء أسراهم، -بعد استرجاعه لمدينة العرائش سنة 1211هـ-، فاشتراط عليهم مقابل ذلك أن يسلموا له خمسة آلاف كتاب من الكتب الأسيرة لديهم منذ سقوط الأندلس، زيادة على خمسمائة أسير مغربي، وأموالا كثيرة، وبعث مع الوفد لجنة من كتابه المثقفين لاختيار هذه الكتب، وكذا الأسرى (22).

وترغيبا وشحذا لمحبة رعيته في آل البيت، وتثبيتا لقداسة كل ما يمت إلى النبي ﷺ بصلة، تقبل توبة أهل فاس الذين تشفعوا لديه بالنعل النبوي (23). الذي كان لدى الشرفاء الطاهريين (24)، سنة 1114هـ، فتقبله من أهل فاس للتبرك به، وبنى له قبة خاصة عرفت بقبة النعل، وبقي عنده طيلة حياته (25).

(19) المصدر السابق، و ص .

(20) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص: 7، وتاريخ الضعيف، ص: 69.

(21) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 39-40، ونشر المتاني، للقادري، ج: 2، ص: 340.

(22) تاريخ الضعيف، ص: 73.

(23) كان لدى الشرفاء الطاهريين المراكشيين الصقليين الحسنيين القاطنين بمصمودة من فاس الأندلس.

(24) ذلك أن النبي (ص) لم يورث -كسائر الأنبياء- فتصدق أبو بكر بما تركه، والنعال أهديت لبني عبد المؤمن الموحد، وظلت لدى قاضي قضاتهم، وهو من الأشراف الطاهريين، فلما دخل عبد الحق المريني مراكش، وخرج منها الموحدون، ظلت النعال مع الطاهريين، إلى أن تشفع بها أهل فاس لدى المولى إسماعيل، كما في نشر المتاني، للقادري، ج: 3، ص: 144-158.

(25) نشر المتاني، للقادري، ج: 3، ص: 158-159، وطالبه به بعض الطاهريين، فدافعهم بلطف، وقيل إنهم لم يعطوه الأصل بل نسخه منه، وفقد النعل من قصر المولى إسماعيل، بعد وفاته، وزعم الطاهريون أنهم افتدوه ممن نهبه، واحتفظوا به من جديد، كما في نشر المتاني، للقادري، ج: 3، ص: 159.

وفي إطار تقديس كل ما يمت إلى النبي ﷺ، وتحقيقاً لنفس الأهداف، سمى جيشه بعبيد البخاري، ثم جمع رؤسائه، وأحضر نسخة قيمة من صحيح البخاري، وقال لهم: "أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله ﷺ، ولشرعه الحنيف المجموع في هذا الكتاب، نفعل ما أمر به، ونترك ما نهى عنه، وعليه نقاتل". فعاهدوه على ذلك، وأقسموا به، واحتفظ بتلك النسخة، فكانوا يصحبونها في أسفارهم، ويقدمونها في حروبهم، في هالة من التقديس، وعادات ومظاهر متعارفة، كتأبوت بني إسرائيل (26)، مما يؤكد مدى تقديسه للسنة النبوية الشريفة، التي هي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية، وبالتالي على جعله لها الموضوع الرئيسي لمجالسه العلمية السلطانية.

وفي هذا الصدد أمر بمراقبة الأهله - لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالعبادات - وذلك بواسطة لجنة من عدلين، مساء اليوم التاسع والعشرين من كل شهر، اللذين يقيدان شهادتهما برؤيته أو بعدمها في سجل خاص يوقعه القاضي، ثم يرسله إلى حضرة المولى إسماعيل شخصياً، على جناح السرعة (27).

وفي إطار تهيئ المنأخ الديني والعلمي الموازي لأعمال مجالسه العلمية المختلفة، تبنى مظاهر الحضارة العربية الأندلسية، وعمل على تجديدها بالمغرب، مما لاحظته الإنجليزيون: (استيورت، والكمندار أستيفار) ونقله عنهما (جون ويندروس الإنجليزي) في رحلته المغربية، سنة 1134هـ - 1721م (28).

وانطلاقاً من تفانیه في توطيد دعائم الدين الإسلامي في ربوع مملكته بصفة عامة، وأركانہ بصفة خاصة - ولا سيما ركنه الأول، وعموده الفقري: الصلاة - سن قراءة الحديث النبوي الشريف الذي يأمر المصلين بالسكوت والإنصات يوم الجمعة، بمجرد حضور الإمام، وخروجه من المقصورة (29). وفي هذا الباب، وعملاً على إصلاح

(26) الاستقصا، للناصرى، ج: 7، ص: 53-59.

(27) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 31-32، وبها نموذج الشهادتين: برؤيته، وبعدمها.

(28) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 20، ص: 41، 1399هـ - 1979م مسيرة الفتخ، مسيرة أصيلة د. عبد

الله العمراني، و الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 30.

(29) تاريخ الضعيف ص: 82، والمصدر السابق، و ص.

المعتقدات الفاسدة بالبلاد - التي كانت شغله الشاغل - حارب الزوايا وشيوخها - كسائر أسلافه الكرام - احترازا من تطلعهم للحكم، فمنعهم من التجمع في المساجد، وكان دائما يراقبهم بحذر وعن كثب. إذ لاحظ أن جل الثوار الخارجين على أسلافه كانوا من أصحاب الطرق الصوفية والزوايا (30).

وفي إطار تأليف القلوب، وتوطيد العدالة الاجتماعية، والأمن الاجتماعي، - وهما أساس كل استقرار، ويكفلان الأمن الاقتصادي - " سن يوم عاشوراء ميقاتا للعطايا... والإحسان إلى الشرفاء والعلماء والصالحين، وسائر الرعايا " (31).

وكانت المجالس العلمية المختلفة للمولى إسماعيل تشكل قطب الدائرة بالنسبة لدولته، إذ كانت سلطاتها الروحية، موازية لسلطته في مواقع اتخاذ القرار، ومركز السلطة، بحيث كانت جميع القرارات والقوانين منها وإليها، لذلك اتخذها منطلقا لتحقيق أهداف الدولة ومبادئها.

ولذلك أيضا لم يكتف بتهيئ الأرضية الصلبة، والتربة الخصبة لأعمال هذه المجالس المختلفة، ولا بإعداد المناخ المعتدل، ولا بإثراء وإغناء الروافد التي تجدد دماءها، وتكفل لها الاستمرارية والتطوير والتجديد، بل أبى إلا أن يرأسها بنفسه، ويشارك فيها مشاركة الرائد المحنك والقائد الخبير.

وهذا ما يشهد به علماء عصره، وعلى رأسهم المؤرخ الشهير الإفرائي في قوله: " كان آية إعجاز في معرفة علوم الحديث والأدب والتاريخ والأنساب.... وكثيرا ما تدور بمجلسه غرر المسائل، فإذا تكلم فيها أبهت الحاضرين، وأذهل المتكلمين (32) " .

(30) دعوة الحق، ع: 7، 6، ص: 17، 1385هـ-1964م، الصوفية وطرقها في الإسلام، لعبد الله

الجراري، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 62.

(31) الدرة المكنونة الغالية في وصف أهل الدولة العلوية العالية للعربي الفيلاي، م.خ.م، رقم 12238،

ص: 57.

(32) دعوة الحق، ع: 258، ص: 21، 1406هـ-1986م، ملامح من شخصية محمد الأول، د. محمد بن

شريفة، والمنزوع اللطيف، لابن زيدان، ص: 38-39.

أنواع المجالس العلمية للمولى إسماعيل :

تطورت المجالس العلمية السلطانية في عهد المولى إسماعيل، فاتخذت عدة أشكال وأنواع.

فقد كان تارة يعقد مجالس علمية تقليدية عادية لأئمة العلماء والشيوخ، بالطريقة التي سبقت الإشارة إليها للبحث والدراسة حول نص من القرآن الكريم أو حديث نبوي شريف، أو غير ذلك من القضايا الدينية والدينية التي يتوقف عليها سير الدولة.

وطورا كان يجمع أعيان العلماء من جميع الأقاليم، حول قضية وطنية حساسة شائكة -سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية- من القضايا التي كانت تؤرقه، وتقض مضجعه، فيسند إليهم أمر دراستها، والبت فيها بما يرونه ويجمعون عليه، اعتمادا على تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة ومصادرها، تخليصا لضميره من تبعثها، وإرضاء لربه، ومراعاة لإرادة الأمة.

وأحيانا أخرى كانت مجالسه تتخذ شكل مراسلات متبادلة ومتواصلة بينه وبين جهازة علماء عصره -سواء من داخل البلاد أو خارجها- حيث يطرح عليهم في مراسلاته أسئلة وملاحظات واقتراحات، حول مسائل وقضايا دينية عويصة أشكلت عليه، أو تضاربت حولها آراء العلماء والباحثين....

كما نجده مرارا يعطي مجالسه العلمية صورة استفتاء لعلماء عصره، حول أعمال وقرارات وأحكام اتخذها، أو يريد اتخاذها، لكنها تلقى معارضة شديدة من بعض العلماء، أو من طرف الرأي العام المغربي. وكثيرا ما كان يوسع دائرة هذا الاستفتاء، فيستفتي علماء من العالم العربي والإسلامي.

ومرات عديدة عقدها في إطار الدعوة إلى الإسلام، حيث يناظر فيها الرهبان، ويجادل أقطاب علماء الديانة المسيحية. وكثيرا ما كان يتبنى حفلات ختم أعيان العلماء لصحيح البخاري أو غيره من أمهات المصادر الدينية في التفسير والحديث والفقهاء أو غيرها.

ولا يلبث أن يجمع علماء مجالسه المختلفة في مهرجان ديني شعبي لطلب الغيث.... إلى غير ذلك من أنواع مجالسه العلمية وغيرها، التي تعددت بتعدد الجوانب الإيجابية للفكر الإسماعيلي الخلاق، وكدليل إثبات لعبقرية هذا الملك العظيم، وشخصيته المتميزة، وإرادته الفولاذية، ونفسه التواقّة المتوثبة والمتحفزة للمعالي والأمجاد....

وجميع هذه المجالس على اختلاف أنواعها وأشكالها، كان يرأسها ويسير جلساتها شخصيا، حيث يكون قطب الرchy ويعسوبها، وبالتالي كان فيها مثالا حيا للتواضع، والديمقراطية، والالتزام والامتثال لتعاليم الشريعة الإسلامية، بالنزول عند رأي العلماء، وإرادة الأمة، اللهم في القليل النادر، "والنادر لا حكم له".

1) المجالس العلمية الثنائية :

كانت للمولى إسماعيل مجالس علمية ثنائية، ينفرد فيها بأحد أقطاب العلم والمعرفة، للأخذ عنه، أو لسؤاله، أو لاستشارته.... ولعل أهم مجالسه العلمية من هذا القبيل مجالسه الاستشاري الذي قَصَره على العلامة مولاي إدريس العراقي، دون غيره من العلماء....

وقد أكد لنا ذلك، الإمام أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني، في كتابه "سلوة الأنفاس" أثناء ترجمته لمولاي إدريس العراقي بقوله: "إن أمر الشورى في خلافته -أي المولى إسماعيل- كان مقصورا عليه، لرجاحة عقله، وبهاء سمته، لا يقطع أمرا دونه، وأن أولاده -أي أولاد المولى إسماعيل- اقتفوا أثره في ذلك (33)".

كما كان يعقد مثل هذه المجالس الثنائية -الخاصة جدا والرفيعة المستوى- مع كل من الشيخ الإمام، أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، ومع العلامة السيد علي بن إبراهيم الزياتي، جد المؤرخ الكبير أبي القاسم الزياتي، المشهور.

(33) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 282. والمصدر المذكور

ميكروفيلم، خ.ع بالرباط، رقم : 2028.

ويؤكد لنا ذلك ابن زيدان بقوله : " وما زال -قدس الله روحه- يتلقى العلوم عن العلامة الأستاذ السيد علي بن إبراهيم، جد الشيخ أبي القاسم الزياني، منذ نقله من بلاده ليأتم به في الصلاة عام 1099هـ، إلى أن قبضه الله، حسبما أفصح بذلك الزياني في الرحلة الكبرى " .

" وكانت وفاة هذا الشيخ بعد وفاة السلطان بتسعة أيام " (34).

ومن فطاحل علماء عصره الذين اصطفاهم لجلساته الثنائية الخاصة، لدراسة جلائل أمور الدولة، أحد رواد مجالسه العلمية، العالم المجتهد، محمد بن أحمد بن محمد ميارة، وكان المولى إسماعيل يعتبره عميدا لعلماء عصره، ويتطرح معه مشاكله العالقة مع العلماء، ويتخذ لها الحلول على ضوء مشورته ورأيه (35).

وعلى رأس جهابذة علماء عصره الذين اختصهم بمجالسه الثنائية المنفردة، واثمتنهم على أسراره، -لما يكنه لهم من حب وإجلال، وما يعتقد فيه من إيمان وورع وتقوى، وما يتوسمه فيهم من صدق وأمانة-، الإمام العلامة عبد القادر الفاسي، الذي أرسل كتابا في طلبه للحضور إليه، فوجده مريضا. وبلغ من حرصه وإصراره على لقائه ومجالسته والاجتماع به، أنه أمره بالخروج إليه محمولا في محفة، إلى عاصمته مكناس، لكبره وعجزه، وذلك سنة 1091 هـ.

وقد بالغ في الاحتفال بمقدمه، فاستقبله بنفسه، وأنزله بقصره، وأطلق سراح المسجونين من أتباعه ومريديه إكراما له (36) .

(2) المجالس العلمية التقليدية الرسمية :

لعل أهم مثال وأصدق صورة للمجالس العلمية السلطانية التقليدية الرسمية للمولى إسماعيل التي صارت سنة متبعة من بعده، -بعد أن تطورت شكلا ومضمونا، ومن حيث زمانها ومكانها... حتى أصبحت كما

(34) المصدر السابق، و ص.

(35) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 353.

(36) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 5، ونشر المثاني للقادري، ج: 2، ص: 71، وتاريخ الضعيف، ص: 74، وبه نص الكتاب الذي أرسله المولى إسماعيل إلى العامل في طلبه.

هي عليه اليوم -نجدها عند محمد بناصر الدرعي الذي يحكي لنا على لسان والده الذي قال : إن والده (37) حضر مع جماعة وافرة من علماء عصره مجلسا علميا حديثيا لسرد صحيح البخاري تحت الرئاسة العملية للسلطان المولى إسماعيل، وحضر هذا المجلس أرباب الدولة وغيرهم.

وجلس والده في مكان منزو من المسجد لتتبع الدرس، ولم يلبث أن وقع إشكال في بعض المسائل الحديثية، فتطارحوا الأسئلة، و تبادلوا الحوار والجدال، فأجاب أحد العلماء بأقوال بعض الأئمة في الموضوع(38)، فاستنكر قوله الجميع، وتدخل والده مؤيدا له، و مؤكدا صحة قوله، ذاكرا مصادر ذلك بالتحديد، فأحضروا تلك المصادر، و تأكد لهم صحة قوله، فأخذوا به واعتمدوه.

وسأل السلطان عنه، فلما عرفه قال : مرحبا بدار العلم، ما مثله من يجلس في مؤخرة المجلس، و فسح له في مقدمة المجلس معززا مكرما، إذ زاده ذلك حظوة لديه، وشهرة بين الناس.

و صور لنا، الإفرائي جانبا آخر من هذه المجالس العلمية التقليدية للمولى إسماعيل بقوله : «و من عادته -حفظه الله- أنه يسرد عليه كل يوم فصل منه كتاب، إلى أن يختمه، و يبدأ في كتاب آخر» (39).

3) المجالس المزدوجة :

من الأمثلة الحية لمجالس المولى إسماعيل المزدوجة، أو المتنوعة من حيث موضوعاتها المطروحة على بساط الدراسة والبحث، أو للحوار والجدال والمناقشة، والتي تجمع بين العلم والأدب وغيرهما، تلك المجالس التي كان يعقدها، ويستدعي لها أعيان العلماء والمفكرين، والكتاب النابهين، والشعراء والأدباء، وأهل الخبرة وذوي التجربة في كل فن، للسمر معه، حيث يعاملهم جميعا باحترام وتقدير، ويفيض عليهم الصلات والهبات (40)، وفي ذلك

(37) مؤلف الدرر المرصعة، الدرر المرصعة، ص: 447.

(38) المصدر السابق، ص،

(39) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 40.

(40) الدرر الفاخرة لابن زيدان، 33-34.

يقول الإفراني : «.....وله من المحاضرات مع كتابه، والمباشطة في القطع الأدبية ما يبخص زهر الرياض (41).... وكل ما مر على أذنه من الحكايات الرائعة، والأخبار المستزفة، لا ينسى منه شيئا، بل يستدل بذلك في موضع الإستدلال (42)، ولم يكن أعرف منه بالأنساب . وكم مرة يسأل علماء عصره بمجلسه عن نسب أحد الصحابة، أو واقعة وقعت له، أو منقبة يوسم بها، فلا يجد معهم شيئا من ذلك، وربما أفادهم بفوائد من ذلك، ما خطرت لهم على بال (43).

كما اهتم بسرد كتب العنتريات كالأزلية وغيرها التي تحتوي على أخبار الشجعان.

فقد كان مغرما بكتب الأبطال والشجعان الذين عرفهم التاريخ، إذ كان يتأسى بهم، ويتخذهم مثلا أعلى ونموذجا يحتذى حتى صار مثلهم، وفاقهم في ذلك، بفضل إيمانه العميق، ومصداقته الدينية والوطنية العمامية الملتزمة.

4) مجالس ختم العلماء لأمهات المصادر الدينية :

مما يؤكد أن المجالس العلمية السلطانية العلوية في عهد المولى إسماعيل كانت لازالت في طور النشأة ومرحلة التكوين، احتضانه مجالس كبار العلماء لختم أمهات الكتب والمصادر الدينية، وتبنيه لها، وإقامته حفلات فاخرة بقصره في تلك المناسبة العلمية الدينية والفكرية، بل إنه كان يترأسها شخصيا ويقوم على خدمة الحاضرين من العلماء بنفسه، اقتداء بسنة جده المصطفى الأمين عليه السلام.

وأهم المجالس العلمية للمولى اسماعيل من هذا القبيل : مجلس ختم تفسير القرآن الكريم للعلامة القاضي (أبي عبد الله المجاصي) سنة 1106هـ. ذلك المجلس الذي استدعى له علماء فاس، وبالغ في إطعامهم وإكرامهم حيث

(41) المصدر السابق، ص: 40.

(42) المنزوع اللطيف، لابن زيدان ص: 113.

(43) المصدر السابق، ص: 37-38.

وزع عليهم جوائز نقدية " وكان من مشاهدته الجميلة ومصانعه الجليلة " (44).

والعلامة المجاصي يكفيه فخرا أن الشيخ أبا علي الحسن بن مسعود اليوسي اختصه بالمشورة لما كتب رسالته المشهورة إلى المولى اسماعيل (45). وظل هذا دأب المولى إسماعيل. فكلما هم عالم كبير يختم كتاب مهم من أمهات المصادر الإسلامية، إلا وتكفل بحفله وبإقامة مجلس الختم في قبته بقصره، التي تهيأ بالزرابي والفراش الفاخر، حيث يقدم للعلماء المشاركين مالذ وطاب من الأطعمة والأشربة، ثم يفرق عليهم الجوائز السنية (46). وبعد اختتام الدرس بالطريقة التي تقدم وصفها، يذيله بحفلة أدبية، تقرأ فيها القصائد في مدح السلطان، وبيان فضله في إقامة هذه المجالس، وتعداد الأهداف المتوخاة من ذلك....

ولا بأس من إيراد وصف حي لهذا المجلس، صورته لنا ابن زيدان، إذ بالوصف المباشر تتضح الفكرة وتتجسم، فتصبح ملموسة. يقول ابن زيدان: (47): " ففي جمادى الأولى 1100 هـ، استدعى - المولى إسماعيل - العلماء من فاس لقصره، لحضور ختم الإمام أبي عبد الله المجاصي تفسير القرآن الكريم، وكان يختم في قصره ببيته الخاص، وبه نصب المنبر للفقهاء المذكور.

وبعد الفراغ من درس الختم، أفاض على الضيوف الكرام قادة الأمة، وأئمتها الأعلام، ما لذ وراق من فاخر الأطعمة. وكان هو المتولي بنفسه صب الماء على أيدي ضيوفه العظام، وهو الذي تولى أيضا تفريق الجوائز فيهم بيده "

(44) تاريخ الضعيف، ص: 70، والاستقصا للناصري : ج: 7، ص: 69، ونشر المثاني للقادري، ج: 2، ص: 357، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 8، وميكروفيلم نفس المصدر، خ.ع. بالرباط، رقم 2028، ونشر المثاني للقادري، ج: 2، ص: 357، ونلاحظ اتفاق القادري والضعيف حول تاريخ هذا المجلس، بينما اختلفت عنهما الناصري الذي جعله سنة 1099هـ.

(45) المنزح اللطيف، لابن زيدان، ص: 71-72.

(46) نشر المثاني، للقادري، ج: 33، ص: 55.

(47) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 33 - 34.

ونستنتج من وصف ابن زيدان لهذا المجلس، التشابه والتقارب الموجود - وخاصة من حيث الشكل - بينه وبين المجالس العلمية السلطانية المعاصرة، مما يدل على أن المجالس العلمية للمولى إسماعيل تطورت تطوراً جعلها تقترب جداً من تكريس طابعها، وتمكن عاداتها ومنهجيتها، واستقرار شكلها النهائي وسنتها المتبعة، وبالتالي يؤكد أنها عرفت نشأتها في عهد أسلافه قبله، وبين جدران قصورهم، وربما في مجالس أجدادهم الأولين من الشرفاء الوجهاء المقصودين، والعلماء المرابطين المجاهدين، قبل أن يقلدهم الله تعالى أمر هذه الأمة، وملك هذه البلاد.

وبناء على ذلك يمكننا القول بأن المولى إسماعيل هو الذي أسس المجالس العلمية السلطانية العلوية، وقعدها على أسس وقواعد مستقرة، وكرس سنتها التقليدية المتبعة، وتوجها بالتواضع لله، وخدمة العلماء حملة الشريعة، وخلفاء الأنبياء....

كما يمكننا التأكيد أن المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى إسماعيل كانت تذييل بحفلات ختامية أدبية، تنشد فيها قصائد في مدح السلطان، وتعداد مناقبه وفضائله - ولا سيما العلمية منها - وتستعرض أبعاد وأهداف هذه المجالس، وقيمتها الدينية والدينية....

ومما يبلور هذه الفكرة، ويجعلها فوق كل شك، ولا تقبل الجدل، وصف لمجلس آخر من هذا النوع، نقله لنا ابن زيدان (48) عن الدر المنتخب، ونصه: "قال في الدر المنتخب: "إن العلامة سيدي محمد المشاط، لما أراد ختم المختصر الخليلي، نوه به المترجم -المولى إسماعيل-، وأمر من كان بفاس من البلاط الملوكي وذوي الحிثيات بحضور ذلك الختم، وقال: "لو كنت هنالك، لحضرت مجلسه".

وأعطى للفقهاء المشاط أموالاً للطعام، وهي له من الأمور العظام، وأعطى أرباب القصاص عطايا سنية.

(48) المنزح اللطيف، لابن زيدان، ص: 71-72، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص: 8، ونفس المصدر ميكرو فيلم، خ.ع. بالرباط رقم 2028.

ومن الأمداح التي أنشدت في ذلك الختم، قصيدة لأبي الحسين علي مصباح الزرويلي، من واحد وثلاثين بيتا، ومطلعها (49).

سقيم الصبا بلغ إلي أم خالد تحية صب في لغو الحب خالد
وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فلا بأس من أن نسجل هنا لتاريخ الأدب
والنقد الأدبي المغربي، أن القصيدة المغربية - إلى عهد المولى إسماعيل - كانت
لازالت تحتفظ بشكلها التقليدي الذي تمثله المقدمة الغزلية والطلعية،
والمتوارث منذ العصر الجاهلي في المعلقات وغيرها.

ذلك التقليد الذي أصبح متجاوزا في القصيدة العربية بالشرق منذ
العصر العباسي الأول، حيث تزعم الثورة ضده فطاحل الشعر العربي - إذ
ذاك - وفي طليعتهم : أبو نواس، على رأس مدرسته الشعبية، ثم أبو تمام،
على رأس مدرسته العربية القحة الصميمة والأصيلة.

5) المجالس العلمية للمولى إسماعيل - بالمراسلة - :

كان من آداب المجالس العلمية للمولى إسماعيل المتعارفة أن يقدم
العلماء أعضاء مجالسه المختلفة تأليفهم وتصانيفهم وإبداعاتهم هدية إلى
المولى إسماعيل، يتحفونه بها، وغالبا ما تكون حول مواضيع وقضايا
طرحت في مجلس من مجالسه العلمية الحافلة، وكانت تشغل بال المفكرين
والرأي العام المغربي في ذلك الوقت، سواء على الصعيد الوطني، أو الإقليمي،
أو العربي الإسلامي، وأحيانا الدولي.

فكان يتقبلها بغبطة واعتزاز، ويجب أصحابها برسائل قيمة، هي عبارة
عن دراسة نقدية وتقديرية وتقييمية لمؤلفاتهم، وإعجاب بنبوغهم، وتشجيع
لمواهبهم، وشحن لعزائمهم....

وقد اتخذت هذه الرسائل - مع الأيام - طابعا جديدا، وأصبحت تشكل
- مع الكتب المؤلفة على هامش مجالس المولى إسماعيل والمهداة له - نوعا
جديدا لهذه المجالس العلمية السلطانية للمولى إسماعيل، إذ تعتبر رسائله
التقديرية لهم وثائق علمية وتاريخية فريدة من نوعها.

(49) المنزوع اللطيف، لابن زيدان، ص : 71-72، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم

3177، ص : 8، والميكرو فيلم، خ.ع. بالرباط رقم 2028.

إهداء الكتب المؤلفة :

ولم تكن هذه العادة والسنة الحسنة مقتصرة على علماء المغرب، بل شملت علماء المشرق، كالعلامة الشيخ أبي عبد الله الخرشبي، الذي بعث إلى المولى إسماعيل شرحه على صغرى الشيخ السنوسي هدية منه، بمجرد انتهائه من تأليفه (50) يتحفه به ويهئنه على فتح مدينة العرائش سنة 1102هـ، معبرا عن فرحه وابتهاجه بذلك في رسالة خاصة رفقته. فأجابه السلطان المولى إسماعيل برسالة (51) قيمة، كلها تقرير وشكر، ويمكن اعتبارها - من حيث موضوعها - أطروحة في آداب النقد العلمي المجرى النزيه، وحلية في جيد النثر المغربي عموما، والرسائل السلطانية المغربية خصوصا.

وفيهما بجله السلطان أيما تبجيل، وأطنب في تعظيم قدره، وخاطبه بقوله: "إلى كبير فقهاء عصره، وإمام أئمة الأقطار والأمصار... خاتمة المحققين، وبقية سلف المؤيدين والموفقين وقدوة المجتهدين، ونخبة المنقطعين لخدمة المعارف، المتجردين (52)".

ويعتبر جواب السلطان هذا، أسطع برهان على مدى شغفه بالعلم، وتعظيمه وتبجيله لأهله.

والواقع أنه فتح صدره لعلماء الإسلام، سواء على الصعيد المغربي أو المغاربي، أو العربي والإسلامي، ولأدل على ذلك من توادده وتواصله مع الإمام الحلبي (53)، وإنعامه عليه.

وفي إطار تواصله مع علماء المشرق، نجد في زهر البستان : أنه كان حريصا على توطيد علاقته مع العلماء الصالحاء بالحرم الشريف، الذين كان يرأسهم باستمرار، ويبعث لهم بالصلوات السنوية كل سنة (54).

(50) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم : 3177، ص : 60، والمنزح اللطيف، لابن زيدان، ص : 99-100، وبها نصها وجواب السلطان.

(51) تاريخ الضعيف، ص : 74، وبها نص رسالة السلطان التي أجاب بها العلامة الخرشبي.

(52) نص الجواب الكامل بالمنزح اللطيف، لابن زيدان، ص : 110، كما أورده المؤرخ القادري في نشره الثاني.

(53) دعوة الحق ع:5، س : 10، ص : 32، 138هـ 1967م الثقافة والعلم في العصور الحديثة، لعبد العزيز بن عبد الله.

(54) النهضة العلمية لابن زيدان م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص : 60، وسلوة الأنفاس، ج : 1، ص : 282. للكتاني.

ومن علماء مجالسه العلمية المغاربة الذين أهدوه تأليفهم، وراسلهم في شأنها -بنفس المنهجية- الفقيه محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد الفاسي، المعروف بابن زاكور، الذي أهدى للمولى إسماعيل شرحه "الحسام المسلول، لتحقيق معنى قصر المفعول على الفاعل، والفاعل على المفعول" الذي ألفه على ضوء المناقشات والمناظرات والجدال حول هذا الموضوع بأحد المجالس العلمية النحوية للمولى إسماعيل، وذلك سنة 1103 (55)هـ. كما أهداه أحد نبغاء مجالسه العلمية، الفقيه سالم بن أحمد الشريف، المعروف بابن ضم الشاوي، شرحه على المرشد المعين لابن عاشر، الذي أصدره سنة 1108هـ (56). فأجابه السلطان المولى إسماعيل بطريقته المعهودة، المتبعة مع سائر العلماء، سواء المشاركة منهم أو المغاربة.

المجالس العلمية على شكل رسائل ديوانية وإخوانية :

في إطار المجالس العلمية للمولى إسماعيل بالمراسلة، نجد له نوعا آخر من المجالس، على شكل رسائل ديوانية وإخوانية، متبادلة بينه وبين علماء عصره بالشرق والمغرب.

وهذه نماذج لأهم هذه الرسائل وأكثرها مساسا بالأوضاع المغربية -إذ ذاك- وأكثرها دلالة على ديمقراطية المولى إسماعيل، وتمسكه بمبدأ الشورى الإسلامية بعصامية وامتنال.

- الرسالة المشهورة، للشيخ الحسن بن مسعود اليوسي، التي بعثها إلى السلطان المولى إسماعيل. لما أمر بتجريد القبائل من الخيل والسلاح. وقد تناولت هذه الرسالة ثلاثة محاور :

" جباية المال، وصرفه في وجهه، وفي إقامة رسم الجهاد، وشحن الثغور بالمقاتلة والسلاح، وفي الإنصاف من الظالم للمظلوم، وكف اليد العادية عن الرعية " (57).

(55) تاريخ الضعيف، ص : 75.

(56) المصدر السابق، ص : 78.

(57) نص الرسالة بالاستقصا، ج : 7، ص : 82-86.

ومنها فيما يتعلق بالموضوع الرئيسي، وهو تجريد القبائل من الخيل والسلاح : " إن ذلك وهن في الدين، وإضعاف للمسلمين (58) " ، علما بأن المولى إسماعيل لم يفعل ذلك حتى كون جيشا نظاميا قويا، يحمي حدود دولته.

وكانت للعلامة الحسن بن مسعود اليوسي مع المولى إسماعيل، مراسلات ومحاورات، وهذا مقتطف من إحدى هذه المراسلات، كنموذج لذلك (59) :

" فليعلم سيدنا، أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى، لا شريك له، والناس كلهم عبيد الله تعالى وإماؤه، والسلطان واحد من العبيد، وقد ملكه الله تعالى عبيده، ابتلاء وامتحانا... وإن أقام بالجور والعنف، والكبرياء، والطغيان، والإفساد فهو متجاف على مولاه في مملكته، ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير حق، ومتعرض لعقوبة الله تعالى الشديدة وسخطه، فليتق سيدنا دعوة المظلوم، فليس بينها وبين الله حجاب، وليجتهد في العدل، فإنه قوام الملك، وصلاح الدين والدنيا (60) ."

وفي إطار المراسلات والمحاورات العديدة المتبادلة بين المولى إسماعيل، والشيخ الحسن بن مسعود اليوسي، راجعه برسالة أخرى أطول من هذه، جوابا على ما نعتته به بطانة السلطان، -تقريبا وتزلفا للمولى إسماعيل- على حسابه(61).

كما عقد معه المولى إسماعيل اجتماعات ثنائية خاصة، حيث حاوره وباحته مشافهة، في مسائل دينية عديدة. وقضاياه معه كثيرة ومتنوعة، وكلها تؤكد ديمقراطية المولى إسماعيل وتقواه، وتعتبر مثالا حيا للشورى الإسلامية، كما تجعل العلامة اليوسي نموذجا حيا لعظمة العلماء، وعصاميتهم والتزامهم....

(58) دعوة الحق، ع :2و3، ص: 139 - 141، 1399هـ-1979م، كفاح الملوك العلويين من أجل الوحدة لعثمان ابن خضراء.

(59) نشر المثاني، للقادري، ج :3، ص :35-37.

(60) المصدر السابق، وج، وص : 32-35.

(61) نشر المثاني، للقادري، ج :3، ص :37.

وهل هنالك مثال للديمقراطية والشورى الإسلامية أروع من محاورة المولى إسماعيل لعميد علماء عصره وقطب مجالسه العلمية، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد ميارة، الذي كان المولى إسماعيل يرجع إليه في كل ما يتعلق بعلاقته مع العلماء ولا يتجاوزها. فقد قال له مرة في معرض حوارهما معه عنهم : " أفصلني مع إخوانك " ، -العلماء- الذين خالفوه مرارا.... فقال له ميارة : " إنني لم أسمع كلامهم " ، يريد أن القاضي يجب ألا يحكم، إلا إذا سمع كلام الخصمين معا (62).

ومن أهم رسائل المولى إسماعيل في نطاق هذه المراسلات المتبادلة بينه وبين أئمة العلماء، رسالته إلى علماء فاس، يحضهم على التفاني في نشر العلم، وبذل قصارى جهودهم، وتوظيف علمهم في خدمة البلاد ونفع العباد (63) سنة 1225 هـ .

ولما وصله جواب علماء فاس على كتابه هذا، وثقه في الدفاتر الرسمية، وبالغ في إكرامهم، ووصلهم جميعا حسب مراتبهم العلمية «ولم يزل ذلك دأبه معهم، حتى نقله الله إليه» (64).

ومن أبلغ رسائل العلماء إلى المولى إسماعيل، رسالة من صياغة العلامة الأديب الشهير أحمد بن أحمد بن محمد الحاج الدلائي (65).

ومن العلماء الذين تجرأوا على مراسلة السلطان المولى إسماعيل، ومخاطبته كتابيا وشفاهيا، العلامة محمد العربي بن أحمد بردلة (66).

ومن رسائل المولى إسماعيل إلى علماء عصره ومجالسه العلمية، رسالته إلى الشيخ أبي عبد الله محمد (فتحا) بن عبد القادر الفاسي، في مسألة علمية، سنة 1096 هـ، وهي تؤكد شغفه بالعلم وعمله على نشره، ومنها: "..... إذ ما تفتخر فاس على سائر المدن والأقاليم والأقطار إلا بالعلم والاعتناء بتدريسه، وكثرة معاطاته.

(62) المصدر السابق، وج، ص : 353.

(63) المنزح اللطيف، لابن زيدان، ص : 101، ونص رسالته الكامل، ص : 101-104.

(64) المنزح اللطيف، لابن زيدان، ص : 72، ونص جواب علماء فاس على رسالة السلطان،

ص : 104 - 108.

(65) نصها بنشر المثاني، للقادري، ج : 2، ص : 282.

(66) نصها بنشر المثاني، للقادري، ج : 3، ص : 247.

قاله الله في الاحتزام على العلم... وبثه، وإفشائه... ونطلب الله تعالى أن نكون من السعداء عنده، وأن لا يندثر العلم في زماننا (67)".
وهذه رسالة للمولى إسماعيل، وجهها إلى العلامة أبي عبد الله محمد(فتحا) بن عبد القادر الفاسي، سنة 1115هـ. وهي تطلعنا على طريقة من الطرق التي كان هذا السلطان يנהجها في اختيار وانتقاء علماء مجالسه العلمية، والشروط التي كان يشترطها فيهم، إغناء وإثراء وتجديدا لهذه المجالس.

وفي هذه الرسالة يطلب السلطان من العلامة المذكور أن يرشح له أنجب تلامذته، حتى يضمهم إلى علماء مجالسه العلمية، ويعينهم أعضاء رسميين فيها، وهذه نبذة منها: "...فطالما استقصينا الخبر والبحث عن حصل علما وأدبا جما، وبرز في فنون العلم، دراسة ورواية ومنهجا، ودرسا ومطالعة، فصاحة وخطابة، وهمة وبراعة وبلاغة من أبناء هذا العصر ممن تخرج عليك، ومن مجلسك، أو مجلس غيرك من المدعين العلم، المتفقهين في الدين، ليظهر للناس بعلمه ونجابته، نقربه من مجلسنا للإشباع به والأخذ عنه والاستفادة منه...".

مع كثرة شغفنا بحب العلم وأهله. ويعلم الله تعالى أننا ما قصرنا في التحريض، ولا تعامينا على الإرشاد إلى طلب العلم، والإشتغال به في عامة مجالسنا وخاصتها، وظاهرها وباطنها.

.....وبالجملة : العالم العامل، المنتفع به في علمه وديانته، ونصحه ومحبته -مثلك- اليوم غريب مهضوم (68)".

وكانت للمولى إسماعيل رسائل إخوانية في هذا الصدد، زيادة على رسائله الديوانية : التي ذكرنا نماذج منها. ومن رسائله الإخوانية في هذا الباب، التي تدل على مدى إنسانيته وتواضعه، وأريحيته الإسلامية، وتمثله وتأسيه بالسنة النبوية العملية، واتخاذها مثلا أعلى، ونموذجا يحتذيه

(67) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م.، بالرباط، رقم: 3177، ص: 7، وميكروفيلم نفس المصدر، خ.ع بالرباط، رقم: 2028.

(68) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م.، بالرباط، رقم: 3177، ص: 7، وميكروفيلم نفس المصدر، خ.ع بالرباط، رقم: 2028.

في سلوكه بانضباط والتزام، دأبه ومواظبته على مراسلة من يحبهم من أهل الدين والمروءة، المعتصمين بالكتاب والسنة، يعلمهم في رسائله بمحبته لهم، -اقتداء بعمل النبي ﷺ مع صحابته الكرام-، ملتصبا منهم الدعاء له، ولأحبائه وشعبه...

ومن هؤلاء الأولياء الصالحين الذين راسلهم بهذا المعنى : مولاي التهامي بن محمد بن عبد الله الشريف الوزاني (69)، وأبو عبد الله محمد (فتحا) بن عبد القادر الفاسي (70).

كما راسل بهذا المعنى عددا من العلماء الصالحين بالحرم الشريف، بالمشرق مع صلات سنوية سنوية (71).

7) المجالس العلمية للمناظرة واستفتاء العلماء :

كانت بعض المجالس العلمية للمولى إسماعيل تتخذ شكل الندوات والمناظرات، وتقوم على الجدل والحوار بينه وبين العلماء المعارضين لبعض قوانينه وقراراته التي اتخذها خارج نطاق مجالسه العلمية، وفي غياب العلماء، الممثلين الرسميين للسلطة التشريعية، وأصر على تطبيقها بالترغيب والترهيب.

وفي هذه المجالس العلمية للمولى إسماعيل، التي يحتدم فيها النقاش العلمي، كان الحوار والجدال يتطور إلى استفتاء للعلماء، وخاصة في القضايا الدينية العويصة، التي اعترضته خلال مدة حكمه الطويلة، وهي قضايا احتدم الجدل والنقاش حولها داخل مجالسه العلمية الخاصة والعامة، وألفت حولها الكتب والرسائل المطولة -سلبا وإيجابا، نقدا وتأييدا- بين علماء المغرب من جهة، وبينهم وبين علماء المشرق من جهة أخرى، وهي عديدة ومتنوعة، وكلها كانت قضايا ذات أهمية بالغة، وبعضها اقتضى

(69) المنزوع اللطيف، لابن زيدان، ص : 113-116، وبها نص الرسالة المذكورة.

(70) المصدر السابق، ص : 116-119.

(71) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم : 3177، ص : 7، وميكروفيلم نفس المصدر،

خ.ع بالرباط، رقم : 2028.

استفتاء العلماء على الصعيدين الوطني، والعربي الإسلامي، لخطورة الاجتهاد فيها، باعتبارها مواضيع دينية حساسة. لكنني سأكتفي بأهمها، وأمساها بالحياة المغربية، والأوضاع المحلية الدينية وغيرها، ألا وهي قضية تمليك العبيد (72).

وقد سجلت لنا المجالس العلمية للمولى إسماعيل ذلك الصراع العنيف الذي احتدم بين السلطتين التشريعية والتنفيذية حول هذه القضية، والذي أدلى فيه المغرضون والذين في قلوبهم مرض -من أعداء الدولة- بدلوهم، فلم تلبث المعارك الفكرية القانونية والتشريعية -بالقلم واللسان-، أن تطورت إلى معارك وحروب ميدانية -بالسيف والسنان-.

فقد دس هؤلاء المغرضون السم في الدسم، وقاموا بحملات واسعة من الوشائيات والسعايات بالمداهنة والتدليس بين ذوي السلطة والنفوذ، وأصحاب القرار، فقبلوا حتى الابن على أبيه، وأوقعوا بين السلطان العظيم وولده البار العالم.

أ - المجلس العلمي الأول للاستفتاء :

ولعل أهم قضية شغلت الرأي العام المغربي بصفة عامة، والعلماء -بالمغرب والمشرق- بصفة خاصة، قضية تمليك العبيد.

ذلك أنه في مطلع عهد المولى إسماعيل كثرت الفتن، وتعدد الخارجون على الدولة، الطامعون في الحكم. فاتضح للمولى إسماعيل أن عدد جيشه - المكون في جملته من رجال القبائل - غير كاف، وغير مؤهل لتمهيد البلاد وحمايتها، ونشر الأمن والاستقرار في ربوعها على المستوى المطلوب. كما أن جيوش القبائل لم تكن محل ثقته، إذ تتحكم فيها العنصرية القبلية الضيقة، وتميل مع ريحها حيثما هبت (73).

واستشار المولى إسماعيل في ذلك، العلامة الفقيه القاضي أبا عبد الله محمد ابن العياشي، فأشار عليه بجمع عبيد جيش أحمد المنصور (74)

(72) مجلة البحث العلمي، ع: 4 و5، س: 2، ص: 27-56، 1385هـ-1965م، وتشتمل على جميع تلك القضايا، وجميع المؤلفات التي صنفت حولها، وعلى هامشها بتفصيل ودقة متناهية وموثقة.

(73) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 117-118 و123.

(74) المصدر السابق، ص: 118.

الذهبي السعدي. ولما اقتنع السلطان برأيه، كلفه بجمعهم (75)، وقلده القضاء للفصل في ذلك، وسماه قاضي القضاة، وعين له وكيلا، وهو الباشا محمد بن قاسم أعليش، الذي شرع في جمع العبيد من المدن والقرى، ونادى عليهم في الأسواق بأن يأتوه حتى يوظفهم في خدمة السلطان. فتوافد عليه السود من العبيد والأحرار، ولما بلغ عددهم خمسة آلاف عبد، أعطاهم جميعا اللباس العسكري، والسلاح، والفرس، والراتب....

ولما توقف توافدهم التلقائي التطوعي عليه أخذ يجمعهم للتوظيف والعمل في خدمة السلطان، ويحملهم على ذلك حتى بلغ عددهم سبعين ألفاً، فاكتفى بهم المولى إسماعيل، واعتنى بهم، واتخذ منهم الولاة والقواد (76) كما قال الزياني في ذلك: «واعتنى هذا السلطان بجمع العبيد وجعلهم عسكرياً» (77).

ولما كان للعلماء رأي مخالف، وموقف مشرف ضد تملك العبيد، فقد رأى المولى إسماعيل عرض الأمر على أنظارهم، والاحتكام إلى تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة، فقد استفتى علماء المغرب والمشرق، راضياً بما ستسفر عنه الفتوى فأجازوا له ذلك (78).

عقد لذلك عدة مجالس علمية كان خلالها يستمع إلى رأي العلماء في الموضوع، ويتقبل بيانهم لحكم الشرع فيه.

وهناك شهادة في الموضوع لأبي عبد الله محمد أكنسوس، الذي يقول في هذا الصدد: " قضية جمع العبيد، مفصلة في الكناش الكبير للإسماعيلي، وفيه تمييز الممالك والأرقاء المشتريين شرعاً، والمجلوبين من القبائل. ولم يدع السلطان ملكيتهم... ووجه في ذلك أسئلة إلى العلماء

(75) المصدر السابق، ص: 117-123.

(76) نشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 220-221.

(77) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 119.

(78) الاستقصا، للناصر، ج: 7، ص: 88.

بالمشرق والمغرب، فأجازوا ذلك، وحاشاه أن يدعي تملك الأحرار (79) " .

وهناك حجة دامغة تبرئ المولى إسماعيل، وتبرر موقفه، وتضفي على عمله الصبغة القانونية والشرعية.

ذلك أن المولى عبد الحفيظ، أخذ عقود البيعة للملوك العلويين-التي كانت معلقة في ضريح مولاي إدريس، بجدار القبة الشريفة- للاطلاع عليها، لكنه أرجع لإدارة الضريح بدلها - خطأ طبعا - رسما مزخرفا بالذهب الإبريز، يتضمن عقود شراء المولى إسماعيل للعبيد، وفتاوى لعدة علماء، تحمل توقيعاتهم، وتنص على صحة ذلك الشراء (80).

والواقع أن السياسة الدينية للمولى إسماعيل لا غبار عليها، وفوق كل شبهة، فقد أجمع العلماء على تقديره وتكريمه للعلماء، واحترام وجهة نظرهم، مما يؤكد موقفه من العلامة، أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، رغم ولائه للدلائيين، وراثته لهم بالتلميح.

ب - المجلس العلمي الثاني للاستفتاء :

وهناك قضية أخرى هزت الأوساط العلمية المغربية، وأحدثت ضجة مدوية بين علماء المشرق والمغرب، وبالتالي اقتضت تدخل علماء المجالس العلمية، واضطرت المولى إسماعيل إلى استفتائهم، ألا وهي انحراف محراب القبلة بضريح مولاي إدريس، وبسائر مساجد مدينة فاس (81).

ذلك أنه بعد تجديد ضريح المولى إدريس الثاني، سنة 1131هـ، أمر المولى إسماعيل بإقامة الجمعة فيه، فاكتشف المؤقت العالم العربي بن أحمد الفاسي انحراف محرابه عن القبلة، وأكد أنه يجب تحريف المحراب، فاستفتى المولى إسماعيل العلماء في مجلس خاص، وأمر بتنفيذ فتواهم دونما أي تردد.

(79) الاستقصا، للناصري، ج : 7، ص : 88 و 56 - 59.

(80) العز والصولة، لابن زيدان، ج:1، ص:27-29.

(81) مرآة المحاسن، لمحمد العربي الفاسي، ص:41-43.

ذلك أنه جمع مجلساً علمياً، ضم صفوة من أئمة علماء عصره، وطلّاع مجالسه العلمية - من ذوي الاختصاص في الموضوع -، الذين عقدوا مناظرة فقهية حول الموضوع، وهم العلماء السادة : محمد ميارة الحفيد، ومحمد ابن حمدون بناني، ومحمد بن عبد السلام بناني، وعلي الشراطي، والمؤقتون السادة : العياشي الخلطي، وأحمد بن شنون، والعربي قصارة، مؤقت القرويين.

وانعقد المجلس بمجلس الأحكام الشرعية لدى القاضي ابن أبي عنان، وبحضور ممثل السلطة المحلية أبي علي الروسي.

وبعد دراسة القضية من سائر وجوها بما تتطلبه من عناية واهتمام، اتفقوا على عدم هدم المحراب، والاكتفاء بقول المؤذن بعد انتهائه من الإقامة: "إنحرفوا بانحراف الإمام يرحمكم الله" (82) وذلك في جميع المساجد بمدينة فاس.

ووافق على ذلك شيخ الجماعة المسناوي، وكتبوا للسلطان بذلك، ورفعوا إليه نص الفتوى التي وقع إجماعهم عليها. وأقيمت بعد ذلك صلاة الجمعة في الضريح الإدريسي، وأمها شيخ الجماعة أبو عبد الله المسناوي، ليطبق الفتوى ويدشنها (83).

ج - المجلس الثالث للاستفتاء :

عقده المولى إسماعيل، في إطار إصلاح الأوضاع والمعتقدات الفاسدة، ومحاربة البدع والشعوذة بجميع مظاهرها، وخاصة في بعض جهات الجنوب، التي وجد فيها بعض المشعوذين والمضللين مخبأً لترويج ضلالاتهم المغرضة، ومجالاً لبليلة العامة وتآليبها واستغلال مشاعرها الدينية من خلال مواسم الأولياء والصالحين. فكان أهم عمل قام به المولى إسماعيل هو التصدي لظاهرة انتشار البدع والأهواء والتضليل في تلك

(82) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 241-242.

(83) المصدر السابق، والحركة الفكرية في عهد السعديين، لمحمد حجي ج: 1، ص: 290 - 291، وفيه

تفصيل قضية انحراف القبلة والمحراب المذكورة.

الجهات، وبالتالي العمل على إصلاح الأحوال والأوضاع الاعتقادية وفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية، وترتضيه ملتها الحنيفية السمحة.

فقد عقد مجلسا علميا أعلى، ضم كبار علماء مجالسه العلمية، تحت رئاسة العلامة الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي، واستفتاهم حول مدى ثبوت صحة سبعة رجال لرسول الله ﷺ، فافتوا بعدم صحة ما قيل من زيارتهم للنبي ﷺ، وبالتالي بعدم ثبوت الصحبة لهم، بدليل أن الصحابي الوحيد الذي دخل المغرب : زمعة البلوي دفين القيروان.

لكن فيما بعد، دافع علماء آخرون عن صحة صحبتهم، واعتمدوا على أحاديث واجتهادات، وعلى رأسهم : ابن سعيد المرغيثي (84)، وهناك لائحة بالعلماء القائلين بثبوت صحبتهم (85).

والخطوة الثانية للمولى إسماعيل في هذا الصدد كانت هي تنظيم زيارة مضادة لسبعة رجال عرب بمراكش، مقابل سبعة رجال رجاجة البربر.

وأحاط موسم سبعة رجال العرب بكامل عنايته ورعايته، ليحتل مكان الزيارة التي تنظمها رجاجة وموسمها.

وأجمعت المصادر على أن الإمام الحسن بن مسعود اليوسي هو الذي أشرف على هذه الزيارة المضادة (86) سنة 1100هـ (87).

وثبت أن المولى إسماعيل كان يزور الصالحين (88)، لكنه كان ينتقد تقديس الأولياء والصالحين، وسؤالهم الحاجات (89).

(84) العيون المرضية، ص : 12 - 13.

(85) مجلة المغرب، يونيه - يوليوز، 1936، ويرى " ميشوبيريان " أن الشخص الذي زارته رجاجة هو صالح بن طريف البرغواطي، الذي كان يتكلم البربرية، فأشاعوا أنهم زاروا نبي الإسلام في مكة

(86) Les sept patrons de marrakech H . De castrès H esperis 1924

(87) الإستقصا للناصري، ج : 7، ص : 49-60-63.

(88) الصفوة، ص : 208-209.

(89) رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل، ج:2، ص : 397.

ويظهر أن الحكمة في كونهم سبعة، ترجع إلى أهمية رقم سبعة في مظاهر الكون (90).

د - المجلس الرابع للاستفتاء :

ومن القضايا الشائكة التي حيرت المولى إسماعيل واضطرت له لعقد مجلس لاستفتاء العلماء، قضية اكتشاف قبر المولى إدريس، الذي عثر عليه سنة 1131هـ، في أساس حائط القبلة، وقد كتب على ممرته : أنه دفن بمسجد الشرفاء، دون تعيين موضع القبر بالضبط (91).

وكأن القبر أصبح مجهولاً منذ أن تغلب البربر من مغراوة وبني يفرن على الأدارسة، وأخرجوهم من فاس (92)، وبالتالي أهملوا قبر المولى إدريس - الثاني - ونزعوا عنه هالة التقدير والاحترام، فلم يجيروا من استجاربه، وأذوا من أظهر تقديره واحترامه، فتنوسي وضاع مكانه (93).

فجمع المولى إسماعيل مجلساً ضم جهابذة علماء مجالسه العلمية، واستفتاهم في الموضوع، وترك لهم مهمة وحق البت في أمره.

فاجتمع المجلس من جديد تحت رئاسة إمام الفتاوى، عبد الله العبدوسي وعضوية العلماء الكبار السادة : الفقيه الوزير يحيى بن زيان، وسليل المولى إدريس الفقيه علي بن محمد بن عمران وغيرهم.

وبعد دراسة الموضوع بجميع أبعاده وحيثياته، ولاسيما الدينية منها، قر رأيهم واتفقوا بالإجماع على إظهار لافتة القبر، وما كان مكتوباً عليها، ووضعها وراء الضريح (94)، وأفتوا بذلك. فأمر بتطبيق الفتوى وتنفيذها.

وعاد الضريح إلى سابق عهده، وإلى مكانته المرموقة المحترمة.

(90) درة الحجال، للإفراني، ص : 57.

(91) الاستقصا للناصري، ج : 7، ص : 93.

(92) أخرجهم موسى ابن أبي العافية الكناسي الزناتي إلى قلعة حجر النسر، وادعى أن لا ضريح بمسجد الشرفاء، وأن أهل أورباً حملوه إلى وليلي ودفنوه مع والده وأهمل مسجد الشرفاء، وأبطل الخطبة فيه.

(93) نشر المثاني، للقادري، ج : 3، ص : 240 - 243.

(94) المصدر السابق، وج، ص : 243 - 244.

هـ - المجلس الخامس للاستفتاء :

ومن المجالس العلمية التي عقدها المولى إسماعيل للاستفتاء مجلس حول قضية فتح مدينة العرائش، وهل كان فتحها صلحا أو عنوة؟ وذلك تنصلا من تبعتها، ومسؤوليتها أمام الله، وضميره، والناس أجمعين.

فقد ادعى أسرى النصارى أنها فتحت صلحا، وأن السلطان نكث وغدر بهم، فاعتبرهم أسرى، وكأنها فتحت عنوة، وهذا ما تبناه مانويل في كتابه.

لذلك عقد المولى إسماعيل مجلسا علميا، وأسند رئاسته المباشرة إلى قاضي مكناس أبي عبد الله محمد المعروف بأبي مدين، واستفتى علماء هذا المجلس في هذه القضية العسكرية الشائكة، والخارجية والدولية في آن واحد.

وبعد البحث والتحري، والاستماع إلى شهود الإثبات والنفي، ودراسة ملف القضية من جميع جوانبه وأبعاده بتجرد ونزاهة علمية، أفتى المجلس بأنها فتحت عنوة، وبالتالي باعتبار النصارى أسرى، فنفذ فحوى هذه الفتوى بأمانة والتزام، وأرسل الأسرى إلى مكناس، لاستخدامهم مع المساجين وبقية الأسرى في البناء، وكان عددهم : ثمانمائة وألف أسير.

و - المجلس السادس للاستفتاء :

ومن أهم المجالس العلمية التي عقدها لاستفتاء العلماء، مجلس حول قضية هدم سارية سيدي عبد القادر الجيلاني، من مسجد القرويين ومصادرتها، وذلك في إطار محاربته للبدع الضالة، والطرق المضلة.

فقد كانت هذه السارية بالصف الأول من المسجد، وكانوا ينسبون لها إلى سيدي عبد القادر الجيلاني باعتبارها الخلوة المنسوبة إليه، وبناء على ادعائهم بأن أحدهم رآه بتلك الخلوة في المنام، فصار الناس يتبركون بها.

وهذا ما اضطر المولى إسماعيل إلى عقد مجلس للعلماء، برئاسة القاضي أبي عبد الله بردلة، للبت في أمر هدمها أو تركها.

وبعد جلسات من الدراسة والبحث، والمجادلة البناءة الهادفة، أجمع رأيهم على وجوب هدمها (95)، وأصدر مجلسهم فتوى بذلك. فأمر المولى إسماعيل القاضي بردلة بتنفيذ ذلك شخصياً، وذلك سنة 1104هـ.

وكان هدمها أسوة واقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، في قطعه الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضوان، وذكرت في القرآن، لما رأى ملازمة الناس لها للصلاة والتعبد تحتها، تبركا بها، فخاف عمر أن يتحولوا في يوم من الأيام لعبادتها، فأمر بقطعها، محاربة للوثنية في جميع أشكالها ومظاهرها.

ولنستمع إلى القادري، الذي يحدثنا عن مدى صحة هذا الإدعاء، وعلاقة تلك السارية بالخلوة المزعومة في قوله: "...وهذه السنة من الكذب المحض، جرت على لسان العامة، لأن الشيخ عبد القادر الجيلاني لم يدخل المغرب قط أصلاً، ولا خرج من مكانه لأية ناحية أخرى، وإنما استقر في بغداد وماوالاها، ولم يخرج منها إلا للحج، ورجع لعامه" (96)

ز - المجلس السابع للاستفتاء :

وكان أخطر وأصعب مجلس عقده المولى إسماعيل للاستفتاء، ذلك المجلس الذي عقده حول قضية خروج ولده محمد العالم عليه، وحكم الله تعالى والشريعة الإسلامية فيه. فأفتى أعداء ولده من العلماء المتشددين بالحد الشرعي، ألا وهو قطع يديه ورجليه من خلاف، فنفذ فيه الحد الشرعي المذكور، بوادي بهت، سنة 1119هـ. ولم يأذن السلطان بعلاجه فمات (97).

ذلك أن ثورة المولى محمد العالم، كانت مدعومة من طرف عدد كبير من العلماء ورجال الدولة الكبار (98)، إلا عبد الله الروسي الذي كان يكتب له،

(95) الاستقصا للناصري، ج : 7، ص : 74.

(96) نشر المثاني، ج : 3، ص : 61.

(97) المصدر السابق، وج، ص: 166-168 و172.

(98) المصدر السابق، ج: 4 ص: 238-240.

يعظه بحقوق الوالدين، وبما ورد في الخروج عن طاعة السلطان كما ذكر ذلك القادري(99).

8) المجالس العلمية للمولى إسماعيل، المتعلقة بالأسئلة :

من أنواع المجالس العلمية الإيجابية التي سنها المولى إسماعيل، وتعتبر عن مرحلة حاسمة من مراحل تطور هذه المجالس، طرحه لأسئلة حول قضايا هامة على كبار علماء مجالسه العلمية، وغيرهم من علماء عصره، فرادى أو جماعة، مباشرة داخل المجالس أو بالمراسلة. وذلك على شكل رسائل علمية رسمية ديوانية أو سلطانية متبادلة بينه وبين علماء عصره بالشرق والمغرب.

وأحيانا تكون حول أمور حيوية دقيقة، تتعلق بحياته الشخصية الخاصة، أو بحياته العملية العامة كملك، أو غير ذلك.

ويؤكد ذلك ابن زيدان بقوله : « وكان هذا الإمام يلقي الأسئلة على أهل العلم، ويرجع إليهم في كل شاذة وفاذة من أمور الدين (100).

وأهمية هذه الأسئلة تكمن في المجالس العلمية التي كانت تعقد حولها، والمناقشات والمباحثات والمناظرات التي كانت تدور على هامشها، وحول موضوعها، وبالتالي الكتب والرسائل العلمية، التي كانت تؤلف وتحرر على ضوئها حتى ينعقد إجماعهم على صحة الجواب، وصوابه وشرعيته، حيث يتحمل أعضاء المجلس جميعا مسؤولية الجواب وصوابه، كمؤسسة رسمية للدولة، أمام الله، والسلطان، وعلماء العالم الإسلامي، والرأي العام المغربي بصفة عامة.

أ - السؤال الأول :

ونجد أهم نموذج للأسئلة السلطانية التي كان يرفعها المولى إسماعيل لعلماء مجالسه العلمية في السؤال التالي :

(99) المصدر السابق، وج، و ص.

(100) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط رقم 3177، ص : 9. وميكروفيلم نفس المصدر

خ.ع، بالرباط، رقم 2028.

"سيدي رضي الله عنكم، جوابكم في رجل وقعت بيده أمة في إنصاف من قبيلة أهلها، فأصابها الرجل المذكور. هل وطؤه إياها ينشر الحرمة بينها وبين أقاربها -كابنتها مثلا - أم لا (101).

و تصدى للجواب عن هذا السؤال السلطاني، الفقيه القاضي أبو مروان ابن عبد الملك التجموعي بقوله :

" إن إصابة المشار إليه في السؤال للأمة المأخوذة من أهلها على الوجه المنبه عليه، إصابة ملغاة في نشر الحرمة في أصولها أو فصولها، فلا يترتب شيء من لوازم الوطاء الشرعي، فيحل وطء ابنتها مثلا بالملك أو النكاح، وعليه درج الإمام مالك. (102) وكفى به قدوة وحجة. و ما وقع في المدونة محمول عند بعض العلماء على الكراهة، و عليه فالخطب في المسألة سهل، والله أعلم " . (103)

كما أجابه عن نفس السؤال، القاضي أبو عبد الله سيدي محمد بن الحسن المجاطي فقال : الجواب أعلاه صحيح - يقصد جواب التجموعي - وما نقل عن الإمام مالك في الموطأ، قال الحافظ : عليه جل أصحابه، بل قد قال غير واحد : إن جميعهم عليه - يقصد أصحاب الإمام مالك - (104) .

ب - السؤال الثاني :

ومن جملة هذه الأسئلة التي كان المولى إسماعيل يرفعها إلى علماء مجالسه العلمية، سؤال رفعه للعلامة أبي علي، الحسن بن مسعود اليوسي، ونصه : " جوابكم، فأنا أردت منكم الإعلام بما عمل سيدنا عثمان - رضي الله عنه - في ذلك المغنم الذي أعطى مروان بن الحكم بإفريقية : هل كان الخمس فقط، أو واجب الغنيمة كلها ؟ وما قصده بذلك في إعطائه له، وما وجهه من الاجتهادات ؟ وما أراد بذلك ؟ هل على مصلحة أو صلة رحم ؟ وما قاله له الصحابة في ذلك ؟ وما اتفق عليه رأيهم ؟ وما صح في هذه المسألة ؟

(101) المنزح اللطيف، لابن زيدان، ص: 83

(102) المنزح اللطيف لابن زيدان، ص: 84

(103) المصدر السابق و ص .

(104) المصدر السابق و ص .

بينوا لنا ذلك بيانا شافيا : تعريفا، وكتبا وإيضاحا، والسلام (105) .
فأجابه العلامة أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي بقوله :
" الحمد لله .

فهذه الواقعة معروفة عندنا، ولم يحضر عندنا تواريخها في الوقت، لنذكر توجهاتها، وتفصيلاتها، وغاية المحفوظ منها، وهو ثمرتها : أن الناس أنكروا على سيدنا عثمان فيها وقالوا: إن هذه المسألة قصد الفتنة على عثمان رضي الله عنه. ولا بد أن يعتقد أنه لم يتعمد فيها بل اجتهد في مصلحة، وهو غير معصوم من الخطأ، فلا إثم عليه، ولا يذم، بل قول الجمهور أولى (106) ."

ج - السؤال الثالث :

وفي هذا الصدد طرح المولى إسماعيل سؤالا على العالمين الجليلين : سيدي العربي بردلة، وأبي عبد الله محمد بن أحمد المسناوي عن قول النبي ﷺ : " ستغربلون حتى تصيروا في حثالة من الناس قدت عهودهم، وخربت أمانتهم، قال قائل : فكيف بنا يا رسول الله؟ فقال : تعملون بما تعرفون وتتركون ما تنكرون بقلوبكم (107) " .
فأجابه سيدنا العربي بردلة بما يأتي (108) :

بعد الحمد والتصليّة، جاء بروايات عديدة للحديث، وأعتذر عن الخوض في التصرف وتأويل الأحاديث النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، بغير دليل، إذ لا يجوز الخوض فيها إلا بإسناد نصوص الأئمة الهادية(109).

د - السؤال الرابع :

كما رفع المولى إسماعيل سؤالا آخر إلى أحد أقطاب مجالسه العلمية، الشيخ أبي عبد الله بن عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي، وهو يتعلق

(105) المنزعة اللطيف لابن زيدان، ص: 87

(106) المنزعة اللطيف لابن زيدان، ص: 88 - 90

(107) المصدر السابق ص: 90

(108) بتصرف

(109) المنزعة اللطيف لابن زيدان، ص: 90.

بإعطاء الدليل على قول والده في جواب للمولى إسماعيل، عن أسئلة كان قد رفعها إليه من قبل: " من قلد علما، لقي لله سلما. "

فأجابه بعد البسملة، والتصلية بما نصه :

" مولانا أمير المؤمنين..... هذا وقد وصل كتابكم الأغر، مشتملا على البحث، عن المسألة التي تكلم بها مع الوالد -رحمه الله- وأردتم منا زيادة بيان في معناها، فلم يكن بد من امتثال الأمر و إن كنا قاصرين فنقول، وبالله نستعين : إن شاء الله تعالى....." (110)

وسأله أيضا عن المراد من قول والده المذكور العلامة محمد الفاسي للمولى إسماعيل في محادثة كانت بينهما :

" قلد نفسك "

فأجابه أبو عبد الله بن عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي " جوابا شافيا في الموضوع " (111) .

هـ - السؤال الخامس :

كما وجه المولى إسماعيل إلى علماء مجالسه العلمية حول أمر خلافة ابن الزبير، ومدى شرعيتها . فأجابه -باسم المجلس- أحد كبار علماء عصره، وأقطاب مجالسه العلمية، محمد المسناوي الدلائي " بما يبهر العقول من التحقيق بالعقول " (112) .

ومن أئمة علماء مجالسه العلمية الذين وجه إليهم المولى إسماعيل أسئلة، وكانت له أجوبة علمية وشرعية صائبة، تدل على سمو مكانته العلمية، العلامة محمد العربي بن أحمد بردلة (113).

9 - المجالس العلمية لمناظرة الرهبان :

من مظاهر التطور الذي عرفته المجالس العلمية المتعددة والمتنوعة للمولى إسماعيل -بتعدد وتنوع أوجه نشاطه المنقطع النظير- نجد هذه المجالس الخالدة، التي عرفها عهد المولى إسماعيل خاصة، وعهد الدولة العلوية عامة،

(110) المنزح اللطيف لابن زيدان، ص : 94 والنص الكامل للجواب ص 95 - 99

(111) المصدر السابق ص : 99 - 101 وبها النص الكامل للجواب.

(112) نشر الثاني، ج : 3، ص : 267 - 278، وفيها نص جوابه الكامل

(113) نشر الثاني للقادري، ج 3، ص : 247، وبها نص ذلك كاملا.

والتي تعتبر فريدة من نوعها، تميزه وتجعله في طليعة أئمة الإسلام، ودعائه
المغاور الأفاضل.

فقد كان من سننه الحميدة التي واظب عليها، أن يستدعي رهبان
النصارى الموجودين بالمغرب، ويعقد لهم مجالس علمية مع جهابذة وأقطاب
علماء المغرب للمناظرة، حول موائد مستديرة، حيث يتناظرون بحضرتة،
وتحت رئاسته الفعلية، رغبة منه في إقناعهم بأحقية وصحة دين الإسلام،
وأنه دين يقوم على المنطق والحجة والبرهان (114)، مستهدفاً دعوتهم
للإسلام، أملاً دخولهم فيه.

وفي هذا الصدد، وخدمة لهذه الأهداف الدينية السامية،
وأبعادها العظيمة البعيدة، كاتب ملوك أوربا يدعوهم إلى الإسلام،
ويحاججهم فيها بالحكمة والبرهان والموعظة الحسنة، ويجادلهم
فيها بالتي هي أحسن، مؤكداً على أحقية دين الإسلام وصحته، أملاً أن
يهداهم الله للدخول فيه على يده (115)، فتدخل شعوبهم في دين الله
أفواجا.

وذلك إحياء لسنة جده المصطفى الكريم ﷺ، في دعوة ملوك ورؤساء
الدول في عهده إلى الإسلام.

فقد كتب المولى إسماعيل في هذا الموضوع إلى لويس الرابع عشر -ملك
فرنسا- الملقب بالملك الشمس يدعوهم إلى الإسلام.

كما راسل في نفس الشأن ملك إنجلترا المخلوع جيمس الثاني -أخا
شارل الثاني- بمنفاه في فرنسا، ينصحه دينيا ودينيا، داعياً إياه للدخول
في الإسلام (116)

كما عرض الإسلام على الأسير البرنابوسي -الذي اتخذه لتعليم ولد من
أولاده اللغة الإسبانية- ودعاه للدخول فيه بالترغيب والتقريب.

(114) دعوة الحق، ع : 7، س : 8، ص : 20، 1382 هـ - 1963 م المولى إسماعيل، د. عبد الله العمراني
ومجلة البحث العلمي، ع : 4 و 5، س، 2 ص : 286 - 299، 1385 هـ - 198 م والإتحاف،
لابن زيدان، ج : 2، ص : 51
(115) المصادر السابقة، و ص.

(116) دعوة الحق ع : 2 و 3، س : 20، ص : 41، 1399 هـ - 1979 م مسيرة الفتح عملية أصيلة،
د. عبد الله العمراني، ومجلة البحث العلمي، ع : 4 و 5، س : 2، ص : 286 - 299، 1385 هـ -
1965 م والإتحاف لابن زيدان، ج : 2، ص : 5، ونصوص الرسائل نشرها، د. عبد الله العمراني
بمجلة المعرفة بتطوان، عدد نوفمبر و دجنبر 1947 م.

فقد كان المولى إسماعيل يحبه ويريد تقريبه ورفع قدره، لكنه رفض حسب ما جاء في كتاب فويت (117) .

وكانت دعوة المولى إسماعيل ملوك أوروبا إلى الإسلام تعتبر تحقيقاً لأهداف مجالسه العلمية البعيدة، وعلى أوسع نطاق.

ويقول الأستاذ " روم لاندو " في ذلك : " بما أن الفيلايين- العلويين- كانوا سلاطين وشرفاء معا فقد شرعوا يزاولون الحكم كمصلحين دينيين، ومن المحتمل أن أي قطر إسلامي لم يزاوج بين الدين والأسرة الحاكمة، بمثل النشاط والحيوية التي زاوج بينهما المغرب " (118) .

ويقول المؤرخ الفرنسي " سان أولون " في نفس الموضوع :

"....ويدعو المسيحيين للدخول في دين الإسلام، وصدرت منه مكاتيب بذلك لجل دول أوروبا، أشهرها كتابه للويس الرابع عشر - ملك فرنسا - يذكره بكتاب النبي ﷺ له رقل عظيم الروم، ويدعوه إلى الإسلام (119) .

واشتهرت هذه الرسالة أكثر من غيرها لأنها نشرت في كتيب خاص بأربع لغات : العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية (120).

وهذه الرسائل أعطت للمولى إسماعيل في نظر أوروبا وغيرها من دول العالم صورة الملك القوي، وبالتالي جعلت المغرب من الدول التي يقام لها ويقعد، ويحسب لها حسابها، كما أحاطته بهالة من المهابة والاحترام بين أقطار العالم المتمدن - آنذاك - (121).

(117) المنزح اللطيف لابن زيدان، ص : 108، وإتحاف أعلام الناس لابن زيدان ح : 2، ص : 51.
(118) دعوة الحق، ع 2 و 3، ص 20، ص : 41، 1399 هـ - 1979 م، مسيرة الفتح عملية أصيلة لعبد الله العمراني.

(119) إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ح : 2، ص : 51.
(120) كتابه هذا يوجد بكلية دار العلوم بالقاهرة تحت رقم 5357، والرسائل كلها توجد نصوصها بإتحاف أعلام الناس لابن زيدان، ج : 2، ص : 51. تم نشرها د. عبد الله العمراني بمجلة المعرفة بتطوان، عدد نونبر - دجنبر 1947 م، وعلق عليها.

(121) مجلة البحث العلمي، ع : 4 و 5، س : 2، ص : 286 - 289، 1385 هـ - 1965 م.

10 - المجالس العلمية على شكل مهرجان ديني :

من المحافل والمهرجانات الدينية الكبرى التي ترأسها المولى إسماعيل بنفسه، وجمع فيها العلماء والأدباء والشعراء من رواد مجالسه العلمية المختلفة، زيادة على كبار رجال دولته المدنيين والعسكريين، والأمراء، والشرفاء، والأعيان ورجال البلاط والحاشية...، حفل إقامته لصلاة الاستسقاء حيث خرج على رأس موكبها في خشوع وخضوع لله تعالى، منقطعي النظر.

فقد قلب أذيال جلبابه مشمرا، ومشى فيها حاسر الرأس حافي القدمين، داعيا ربه الدعاء المأثور : " اللهم اسق عبادك وبهيمتك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت ". و " اللهم أغثنا غيثا نافعا " .

كما أمَّ الناس في صلاتها شخصيا، بنفس الخشوع والخضوع والاستسلام لإرادة الباري عز وجل (122).

(122) دعوة الحق، ع : 2 و 3، س : 20 ص : 41، 13/99هـ - 1979م ، مسيرة الفتح عملية أصيلة، د. عبد الله العمراني

الفصل الثالث

تطور المجالس العلمية
للملوك والأمراء وكبار العلماء
بين عهد المولى إسماعيل
وعهد الإضطراب

المجالس الأدبية للمولى إسماعيل :

كما اهتم المولى إسماعيل بالمجالس العلمية الحديثية وغيرها مما تقدم، كانت له مجالس أدبية رائعة صال فيها وجال، وشارك فيها مشاركة فعالة لا تقل عن مشاركته في مجالسه العلمية المختلفة، كرائد خبير محنك، مما يؤكد أريحيته الأدبية وتأثره بالشعر وسحر البيان، حتى إن مجالسه الأدبية الرائعة، لتذكرنا بالمجالس الأدبية الفاخرة للمشاركة، في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وللأندلسيين في كتاب نفح الطيب، للمقري التلمساني.

ولعل أول مجلس أدبي عقده المولى إسماعيل كان يوم بيعته، حيث أشده الشعراء قصائد في تهنئته بالملك، ومدح خصاله، وتعداد مناقبه وفضائله.

وفي طليعة هذه القصائد نجد قصيدة أحمد بن عبد العزيز العلوي - مؤلف كتاب الأنوار السنوية أو الحسنية - التي يرثي فيها المولى الرشيد، ويهنئ المولى إسماعيل، ويبشر به، ومطلعها :

قد ضجت الأرض أنجاد وأغوار
وأنهد من صدمات الدهر أمصار
نبكي لفقْد الرشيد أكرم من
زالت بفضلُه أحزان وأكـُـدار

كما مدح المولى إسماعيل بقصيدة، ضمنها ما قرأه عنه في (1) بعض الأجدار، وهو الجفر الأكبر المسمى " المفتاح في أستار الفتاح ". ونجد على رأس المجالس الأدبية للمولى إسماعيل، تلك التي كانت تذييل بها مجالسه العلمية السلطانية الرسمية، ولا سيما المجالس الحديثية الرمضانية، وخاصة مجالس الختم لصحيح البخاري، وبالتالي لهذه المجالس.

حيث كانت تنشد مدائح في السلطان، وفضائله وأياديه، وتعداد مناقبه، وخاصة العلمية منها، ولا سيما المتعلقة بتشجيع المجالس العلمية والأدبية، وتقريب وتكريم علمائها الأبرار.

وكان يجيز الأدباء والشعراء بكرم وسخاء، وينعم عليهم بالعطايا والخلع السنوية.

(1) الأنوار السنوية، لأحمد العلوي، ص: 77-83.

فقد أجاز الشاعر علي مصباح، بأن خلع عليه كسوة فخمة، وأعطاه مائة مثقال من الذهب، على قصيدة مدح بها العلامة محمد بن محمد المسناوي، الذي ختم عليه ولد السلطان -المولى إسماعيل- الأمير محمد، كتاب الشفا، ومطلعها :

يا أهل ودي هل لديكم من شفا مما غدا منه الفؤاد على شفا.(2)

ويصف لنا ابن زيدان(3) أحد هذه المجالس وصفا حيا رائعا في قوله : " ومن ذلك أنه نصره الله خرج يوما، وخلفه جارية وسيمة، حاملة لسيفه، فاستنزل قرائح الكتاب في وصفها، فقال في ذلك خاتمة أهل الأدب، وسراج من تأدب عبد الحق السحيمي (4) :

حملت سيوف الهند وهي غنيّة

عن حملها بفؤات الأجفان

حسب الفتاة جلالة ومهابة

عز الجمال وهيبة السلطان.(5)

ومن هذه المجالس الأدبية النادرة، أنه كان يفتتحها أحيانا بأن ينشد بيتا من الشعر الجاري مجرى الأمثال - الذي كثيرا ما كان يتمثل به - ويأمر شعراء مجالسه الأدبية أن يجيزوه، ويذيلوا عليه، فيتهافتون على ذلك، ويتنافسون فيه.

فقد أنشد في أحد هذه المجالس بيتا كان معجبا به، ومولعا بترديده دائما

وهو:

وجربت الأمور وجربتني كأني كنت في الأمم الخوالي (6).

وطلب من الشعراء الحاضرين في ذلك المجلس الأدبي إجازته، والتذليل عليه، فقالوا في ذلك مقطوعات عديدة قيمة.

(2) المنزح اللطيف، لإبن زيدان، ص:72، والنهضة العلمية، لإبن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص:9.

(3) الدرر الفاخرة، لإبن زيدان، ص:40.

(4) المصدر السابق، وص.

(5) المنزح اللطيف، لإبن زيدان، ص:39.

(6) المنزح اللطيف، لإبن زيدان، ص:39.

وكان انتصاره على الإسبان، وتحريره لمدينة العرائش معين إلهام
لا ينضب للشعراء، استقى منه كل واحد منهم على قدر عزمه وملكته،
وشاعريته وقريحته...

ومن القصائد التي أقيت في هذه المجالس الزاهرة، قصيدة لعبد السلام
بن الطيب القادري (7)، ومطلعها :

علا عرش دين الله كل عرائش وهد بنصر الله حصن العرائش
كما أنشده الشاعر الأديب أبو حفص عمر الحراق قصيدة (8) في نفس
المناسبة، بتلك المجالس الزاهرة، ومنها :

ومن عجب تروم الروم حربا
بسهل أو حزون أو جبال
وجربت الأمور وجربتني
كأني كنت في الأمم الخوالي

وقد أجازه المولى إسماعيل عنها بجائزة سنوية قيمة.

وفي أحضان هذه المجالس الأدبية المسترسلة بهذه المناسبة
العظيمة، أنشده أبو محمد عبد الواحد بن محمد البوعناني قصيدة (9)،
مطلعها :

الا أبشر فهذا الفتح نور قد انتظمت بعزمكم الأمور
ويقول ابن زيدان عن هذه المجالس الأدبية المسترسلة، التي عقدها
المولى إسماعيل بمناسبة فتحه للعرائش : "... وقد خلد فتحه للعرائش
الشعراء : عبد الواحد البوعناني، وعبد السلام بن حمدون جسوس،
وعبد السلام بن الطيب القادري. وأجاز أبا حفص عمر الحراق عن قصيدته
في ذلك، بأربعمائة مثقال (10) ".

(7) نشر المثاني، للقادري، ج:3، ص: 50-53، وفيها نصها الكامل.

(8) المنزع اللطيف، لابن زيدان، ص: 39-40.

(9) الإستقصا للناصري، ج: 7، ص: 74، ونزهة الحادي، للأفراني، ص: 307-309، ونصها في نشر
المثاني.

(10) الحلل البهية للمشرفي، ص: 129-138، حيث نصوص القصائد كلها والتفاصيل عن هذه
المجالس.

كما أجازته بمائة مثقال على قصيدة هنا فيها بتمام بناء مدينة
الرياض(11).

ومن أروع ما مدح به في أحد مجالسه الأدبية :

مولاي إسماعيل يا شمس الورى
يامن جميع الكائنات فدى له
من لا يرى لك طاعة فالله قد
أعماه عن طرق الهدى وأضله

ولعل أبلغ هذه القصائد كانت تلك التي مدحه بها شعراء شنكيط(12).

ومن الأخبار الظريفة لمجالس المولى إسماعيل الأدبية أنه سأل في أحد
هذه المجالس عما روي من أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج بن
يوسف كتابا وقال له فيه : " إنك عندي كقدح ابن مقبل. "
فاغتم الحجاج لما قاله له عبد الملك فقيل له : لابس عليك. أما سمعت
مدح ابن مقبل لقدحه...وأنه فار أربعين مرة متواليه...وكان عبد الملك كثيرا
ما يمتحن الحجاج بمثل هذا (13).

وكان سؤال المولى إسماعيل هو : هل كان مراد عبد الملك بذلك مدح
الحجاج أم ذمه ؟ وما هو قدح ابن مقبل ؟ وما خبره الذي اشتهر هذا
الإشتهار؟ فعجزوا جميعا عن الجواب.

وقصة قدح ابن مقبل مشهورة، وملخصها : أن النجاشي الشاعر هجا
بني عجلان، فشكوه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فحكم عمر حسان
ابن ثابت في القضية، باعتباره خبيرا في الشعر، وأغراضه وأبعاده... فقال
حسان : صبيان، ما هجاهم، ولكن سلم عليهم...

وكان أقطاب شعراء وأدباء المجالس الأدبية للمولى إسماعيل يحكمون بين
الشعراء والأدباء المنتجين والمبدعين، ويرجعون إليهم كمصادر، إذ كان لهم
القول الفصل في القضايا والمسائل التي تطرح على بساط البحث في هذه

(11) النهضة العلمية، لإبن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177. ص:4-5، وميكروفيلم نفس المصدر،
خ.ع بالرباط، رقم 2028.

(12) النبوغ المغربي، لعبد الله كنون، ج : 1، ص: 312.

(13) الجيش العرمم لأكنسوس، ورقة: 145-146.

المجالس، سواء كانت نقدية أو أدبية أو غيرها. وعلى رأس هؤلاء الشعراء والأدباء الحكام نجد : أبا علي الحسن بن مسعود اليوسي، الذي له قصيدة قيمة في مدح شيخه بناصر الدرعي، ورائية في رثاء الزاوية الدلائية وأيامها، تلميحا لا تصريحاً -مراعاة للعلويين -

كما مدح أبو سالم العياشي شيخه الحسن بن مسعود اليوسي بقصيدة قيمة منها :

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

ومن شعراء هذه المجالس المبدلين : أحمد بن عبد القادر القادري(14)، وله قصيدة قيمة رثى بها ابن عمه عبد السلام بن الطيب القادري (15)، ومنها :

يشق على الأقسام موت إمامهم كعبد السلام القادري المبجل

ويذكر ابن زيدان بعض فطاحل شعراء (16) هذه المجالس الأدبية المشاركين في مبارياتها وحلباتها وهم :

القاضيان أبو عثمان سعيد العميري، وولده أبو القاسم، وأبو محمد عبد الحق التميمي، وأبو حفص عمر الحراق، المذكور.

ومما يدل على تأثره بالشعر، وتقديره لدوره الطلائعي والإعلامي، واستخدامه له في أغراضه الإدارية وغيرها، إجازته لشاعر بلاطه، وعضو مجالسه الأدبية وغيرها، عمر الحراق على قصيدة (17) يخاطب بها كتاب العاصمة الإسماعيلية بأربعمئة مثقال، ومطلعها :

كتاب الإمام لقد سعدتكم

بأثار لسيدنا سيديدة

(14) جد مؤلف كتاب نشر المثاني.

(15) نشر المثاني للقادري، ج : 3، ص : 53.

(16) المنتزع اللطيف لابن زيدان، ص : 329.

(17) أتحاف اعلام الناس، ج : 1، ص : 156، والنهضة العلمية، لابن زيدان، ج، خ، م بالرباط،

رقم 3177، ص : 4 - 5. وميكروفيلم نفس المصدر، خ، ع، بالرباط رقم 2028.

دنوتم من قصور أبي المعالي
وقد كانت منازلكم بعيدة
ما دار تقرب منه إلا
مباركة بلاريب سعيـدة

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كرمه وأريحيته الأدبية، ويستشف من القصيدة وأهدافها، أنه هو الذي أوحى لشاعره بنظمها في هذا المعنى، توجيهها وتذكيرا لكتابه، حتى لا يزيغوا عن الجادة، ويكفروا بنعمه.

المجالس العلمية والأدبية للأمرء :

كان بعض أبناء (18) المولى إسماعيل علماء وأدباء، وكانت لهم مشاركة فعالة في الحياة العلمية والأدبية، على عهد أبيهم العظيم. وقد تركوا أثارا قيمة في المجالين العلمي والأدبي، وعلى رأسهم المولى محمد العالم، والمولى المرتجي، والمولى إدريس، والمولى الشريف (19). وكانوا يعقدون مجالس علمية وأدبية ترددت أصدائها في أنحاء البلاد، وتركت بصماتها على سائر المجالات العلمية والأدبية، كما ساهمت في إغنائها وإثرائها، وبالتالي في تجديدها وتطويرها.

المجالس العلمية للمولى محمد العالم :

كان محمد العالم وليا لعهد والده المولى إسماعيل، ونبغ في العلوم الدينية والأدبية واللغوية (20) وغيرها، وترك تصانيف وأثارا شعرية ونثرية فريدة. وكان حريصا على مجالسة العلماء، فأقام سوقا رائجة للعلم والأدب، وشكل مجلسا من كبار العلماء والأدباء والشعراء بإقليم سوس - حيث كان خليفة عن والده - فقصدته الوفود من جميع النواحي، وبعث هنالك حركة علمية وأدبية زاهرة.

(18) البستان الظريف، للزياني، ص: 44-45، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة 68-69.

(19) دعوة الحق ع 2 و3، ص: 20، ص: 115-117، 1399هـ-1979م، مسيرة الفتح، عملية أصيلة. د. عبد الله العمراني.

(20) نشر المثاني، للقادري، ج: 3، ص: 166، والحلل البهية للمشرقي، ص: 112 و14-15، والإستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 90-91.

وكان يعقد لعلماء مجلسه جلسات خاصة، حيث يتباحثون ويتناظرون حول مشكلات وقضايا علمية عويصة، وذلك في أعلى المستويات العلمية والدينية، ويثون في شأنها بإشراف شيخ الأمير محمد العالم، سعيد بن أبي القاسم العميري الذي كانت له الكلمة الأولى والأخيرة في مجالسه، وكان يأخذ بمشورته، ولا يكاد يفارقه. ونافسه بقية العلماء على مكانته لديه، وغبطوه على حظوته، وقرروا إفحامه أمام المولى محمد العالم، فأخرجوه أمامه بأن طلبوا منه أن يقرئهم الشرح المطول على التلخيص للقزويني، بغتة دون أن يكون على علم بذلك، ودون أن يكون قد استعد أو حضر الموضوع.

لكنه استجاب لطلبهم، فألقى ذلك الدرس ارتجالاً بكفاءة واقتدار منقطعي النظر، فبهروهم بتحقيقه وتقريره، وبمنهجيته في التحليل والتعليل، والمقارنة القائمة على أساس من المعقول والمنقول (21).

ومن المجالس العلمية الهامة للمولى محمد العالم، مجلس عقد للمباحثة حول موضوع: "الغيب، ومدى علم النبي ﷺ به".

وقد وقعت المباحثة والمجادلة الهامة سنة 1089هـ، (22) في مجلس البخاري، بين يدي المولى محمد العالم، وحضرها جمع غفير من العلماء، من جميع الأنحاء (23).

وفي هذا المجلس، أعلن العالم أبو عبد الله محمد بن محمد الدلائي أن النبي ﷺ يعلم الغيب، ودعم رأيه في تدخله بحجج واستشهادات علمية وافية.

وأنكرت عليه قوله جماعة من المشاركين في المناظرة، ومنهم العلامة أبو العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي.

فاستفتى المولى محمد العالم شيخه، العلامة عبد المالك التجمعتي، فأجابه بأن النبي ﷺ لم يمت حتى أطلعه الله تعالى على الغيب.

(21) نشر المثاني، للقادري، ج: 3، ص: 238-239.

(22) الإستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 57.

(23) رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل، ج: 2، ص: 506. حسب ما ذكره أحمد الهشتوكي في كتابه هدية الملك الغلام.

وانتشر خبر هذه المناظرة، ووقائع حلباتها بفاس، فتضاربت آراء علمائها حول الموضوع، وعمت البلبلية.

فكتب الشيخ أحمد بن عبد الحي الحلبي، إلى العلامة عبد الملك التجمعتي في الموضوع، فأجاب العلامة التجمعتي بأنه ألف كتابا في الموضوع عنوانه «ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب» (24).

وتصدى للرد على مؤلف عبد الملك التجمعتي الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، في رسالته الثلاثين (25).

ولم يتردد العلامة عبد الملك التجمعتي في الرد على اليوسي بجواب مطول، شديد اللهجة، عنيف الأسلوب، حاد العبارات، غريب المضمون (26).

ومن أهم المجالس العلمية للمولى محمد العالم، مجلس عقده لاختبار الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن ناصر، المغربي المالكي، الشاذلي، الأشعري، الصوفي.

ذلك أن المولى محمد العالم لما قدم إلى وادي درعة خليفة عن والده المولى إسماعيل، منع الناس من قراءة صحيح البخاري، احترازا من التصحيف، واللكنة، والتحريف، إلا في الزاوية الناصرية.

وكان يختبر الطلبة (27) بالسرد في نسخة من الصحيح بخط شرقي، خال من النقط والشكل، فمن أحسن القراءة أقره، وإلا فلا.

وكان الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن ناصر المذكور يقرأ صحيح البخاري رغم المنع المعلن عنه، فوشى به إلى المولى محمد العالم، فاستدعاه للحضور عنده، واختبره في مجلس عام من العلماء الكبار لمجالسه العلمية الخاصة، فوجده يتقن القراءة والسرد بفصاحة وكفاءة، فأقره على قراءته، وأذن له بها رسميا.

(24) رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل، ج: 2، ص: 506.

(25) من رسائل اليوسي المشهورة، وذلك سنة 1091هـ باعتبار أن المناظرة جرت سنة 1089هـ ويؤكد اليوسي في رده أنه كتبه بعد عامين من المناظرة، المصدر السابق، وص.

(26) رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل، ج: 2، ص: 56.

(27) الدرر المرصعة، لمحمد بن ناصر الدرعي، ص: 119.

فهجاً الشيخ المذكور الوشاة الذين سعوا به لدى الأمير بقصيدة مشهورة (28).

المجالس الأدبية للمولى محمد العالم :

كان المولى محمد العالم شاعراً، وله مساجلات ومعارضات شعرية مع الشعراء، وخاصة مع أخيه المولى الشريف (29).

وكان حريصاً على مجالسة الأدباء والشعراء حرصه على مجالسة العلماء، مبالغاً في تعظيم وتكريم هؤلاء وأولئك. فقصده الشعراء بقصائدهم، والعلماء بمصنفاتهم العلمية، كل في مجال اختصاصه (30). مما جعل مجالسه محافل ثقافية هامة، استقطبت النبغاء والمبدعين، الذين بعثوا نهضة ثقافية وفكرية ساطعة، شع نورها في البلاد، ونفع العباد (31).

وكان شاعراً يتأثر بالشعر ويتذوقه، وترك قصائد عديدة بليغة. ومن شعره يخاطب أخاه زيدان (32) :

أبلغ الزيدان عني آية

فسيوف العدل تشفي ذا العليل

ححص الحق ولاحت شمسُه

وزمان الغي ولى وانخذل

وزمان النصـر قد آن ولم

يبق إلا الجـد قولاً وعملاً

(28) نفس المصدر السابق، وص.

(29) نشر المثاني، للقادري، ج 3، ص : 168-170.

(30) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 112.

(31) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 178، 1386هـ-1967م، النهضة العلمية على عهد العلويين قبل الحماية، لمحمد العلمي.

(32) الحلل البهية للمشرقي، ص 112-115-116، أخوه زيدان انتصر عليه، وقيده، وساقه إلى أبيه الذي حده في وادي بهت، سنة 1119هـ.

وكان كأبيه شغوفا بأدب الفروسية (33) والشجاعة والبطولة. وإذا كان المولى إسماعيل قد اهتم بالعنتريات والأزلية وأمثالها، فإن ولده محمد العالم كان شغوفا بأشعار أولاد السلطان صلاح الدين الأيوبي الكردي (34).

المجالس العلمية للمولى المرتجي :

من الأمراء العلماء والأدباء الشعراء في عهد السلطان المولى إسماعيل، الذين كانت لهم مجالس علمية خاصة : المولى المرتجي بن المولى إسماعيل.

وكان عالما جليلا، ورعا تقيا مقبلا على العلم وأهله، حريصا على التحصيل، منكبا على قراءة الكتب القيمة وخاصة الفقهية والحديثية.

كما كان يعقد مجلسا علميا كل أسبوع (35) يحج إليه جماعة من كبار علماء عصره، ويشاركهم شخصا وعمليا في أعمال ذلك المجلس، بالتدريس والتباحث، والتناظر حول قضايا العصر، ولا سيما الدينية منها على الصعيدين : الوطني والعربي الإسلامي، كالاقتداء والسلفية، ونحو ذلك.

كما كان يسرد الحديث النبوي الشريف في هذا المجلس - على الطريقة المعتادة - إذ ذاك - وخاصة خلال شهري : شعبان ورمضان (36).

ومن علماء مجالسه العلمية نجد نخبة نيرة : منهم أولاده العلماء الأمراء: محمد، وإسماعيل، وإدريس.

وقد رثاه بعض العلماء والأدباء الذين نادموه كؤوس العلم والعرفان في مجالسه العلمية والأدبية، وفاء لذكراه، وحنينا إلى مجالسه الزاهرة، ومنهم : محمد بن احمد لعلو، ومحمد معينو، واحمد قيطس، وأحمد بن محمد الحافي، وعبد السلام حماس (37).

(33) النبوغ المغربي لكتون، ج : 3، ص : 81.

(34) الإستقصا، للناصر، ج : 8، ص : 52.

(35) دعوة الحق، ع : 2 و 3، ص : 20، ص : 115 - 117 - 1399 هـ 1979 م المولى المرتجي بن المولى

إسماعيل. للتازي.

(36) المصدر السابق : و ص.

(37) المصدر السابق : و ص.

المجالس العلمية للمولى الشريف

كان المولى الشريف بن المولى إسماعيل من كبار العلماء والأدباء والشعراء في عهد والده المولى إسماعيل، غير أنه كان أكثر ميلا للأدب والشعر. استخلفه والده على وادي درعة، حيث سكن قصبة أغلان الشهيرة. وعرف بحب العلم وتقدير أهله وخاصة شيوخه، وعلى رأسهم العلامة أبو الحسن علي الترغي.

كما أشتهر بجمع الكتب القيمة، ولا سيما كتب التاريخ والأدب والشعر التي كون منها خزانة كبيرة.

وكان يعقد مجالس علمية وأدبية، يقصدها كبار مثقفي عصره، من العلماء والشعراء، الذين لازمه بعضهم حتى أصبحوا في حاشيته وبلاطه وبالتالي شعراءه.

وقد مدحه شعراء مجالسه الأدبية ووصفوا قلعتة العجيبة، فأجاز كل واحد منهم على قدر مرتبته الشعرية، التي كان خير من يقيمها. وعلى رأسهم : الأديب الشاعر الشريف أبو عبد الله محمد العلمي الحوات، الذي مدحه بقصائد (38) ومقطعات رقيقة بليغة، فأجازه، وبالغ في إكرامه.

والشاعر أبو عبد الله محمد العلمي الحوات (39) هو من شعراء مجالسه الأدبية، كما مربنا، وهو من بني موسى بن مشيش أخي مولاي عبد السلام بن مشيش.

وتوفي المولى الشريف بداره في القلعة المذكورة سنة 1139هـ ودفن بزاوية سيدي عمرو المحادية لقصبته.

المجالس العلمية لكبار العلماء :

من مظاهر تطور المجالس العلمية على عهد المولى إسماعيل، ظاهرة عقد أئمة العلم وشيوخه لمجالس علمية خاصة بهم، تأكيداً للمثل السائد : "الناس على دين ملوكها". وجل هؤلاء العلماء أصحاب المجالس الخاصة، كانوا من رواد المجالس العلمية السلطانية الرسمية للمولى إسماعيل.

(38) الدرر المرصعة لمحمد بن الناصر الدرعي، ص : 167 - 174

(39) المصدر السابق و ص :

وكانت هذه المجالس العلمية بمثابة ندوات علمية وأدبية، موازية للمجالس العلمية السلطانية الرسمية، حيث يتدارسون القضايا التي تشغل بالهم، سواء على الصعيد الوطني، أو الإقليمي، أو العربي الإسلامي... وربما تناقشوا وتجادلوا وتناظروا من جديد حول قضايا سبق طرحها في المجالس الرسمية للسلطان، دراسة متأنية هادئة، بعيدا عن هيبة مجلس السلطان ورهبته.

وكثيراً ما كانت المناقشات والمناظرات تدور حول الأسئلة التي كان المولى إسماعيل يرفعها إلى لجنة منهم، أو إلى أحدهم، حتى يكون الجواب صائبا أو حتى تكون الفتوى مدعمة بالإجماع المطلوب، وحتى يتقاسموا مسؤوليتها الدينية والشرعية والقانونية، في السراء والضراء. وغالبا ما كانوا يعقدون هذه المجالس في شهر رمضان (40).

والواقع أنها كانت صورة مصغرة من المجالس العلمية السلطانية، وبالتالي فقد تنوعت بتنوعها ونهجت نهجها، حيث يطرح العلماء الأسئلة على بعضهم، ويتصدون للرد والجواب عليها، فرادى وجماعة، وحيث تصنف الرسائل والمؤلفات على هامش المناقشات والمناظرات الحادة، والمراسلات المتبادلة، والأسئلة المطروحة....

وفي هذا الصدد نجد جوابا قيما فريدا من نوعه للعلامة عبد السلام بن الطيب القادري (41) - وهو من أقطاب المجالس العلمية السلطانية الرسمية للمولى إسماعيل - على سؤال ورد على العلماء في مجالسهم الخاصة هذه، من العالم علي بركة الأندلسي التطواني، يطلب فيه جوابهم على خمس (42) مسائل وهي :

1 - قول النبي ﷺ : " وضع ربي يده بين كتفي، فوجدت برد أنامله بين ثديي " هل ثبت ؟ وعلى ثبوته، ما تأويله ؟

(40) اقتداء بالمجالس الرسمية السلطانية التي أصبحت تعقد طيلة شهر رمضان، ثم أضيف إليها شعبان ثم رجب فيما بعد، وكما سيأتي.

(41) جد مؤلف كتاب نشر المتاني، ولد سنة 1058 هـ، وت، في سنة 1110 هـ، وأثنى عليه كثير من أشيائه

(42) نشر المتاني، للقادري، ج : 3، ص : 86، ونص السؤال بنفس المصدر، ص : 111.

2 - قول النبي ﷺ : " حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة، فلا تأكل منها دابة، إلا نافقت " هل هذا لفظه ؟ وما المراد به ؟

3 - " حب الدنيا رأس كل خطيئة " قيل: قرئ بين يدي عبد الكريم المراكشي، فقال لأصحابه : " وأنا أقول لكم : " حب الآخرة، رأس كل خطيئة " فبلغ ذلك الشيخ عبد الله الغزواني، فقال : " وأنا أقول لكم: " حب الله رأس كل خطيئة " ما محل هذا الكلام على ثبوته... وما وجه زيادة الشيخين المذكورين، على ما في الخبر؟

4 - قول أبي زيد البسطامي : " كنت من الزاهدين في الله " ما معنى هذا الزهد ؟

5 - قول بعض العارفين : " لو عرفت الله، ما دخل قلبي حق ولا باطل ". ما معناه ؟

وقد أجابه العلامة القادري -المذكور- عن هذه الأسئلة الخمسة كلها كتابة، في نحو كراستين، فقرظ جوابه محمد بن عبد القادر الفاسي (43) والفقير الطيب بن محمد الفاسي (44)، والحاج أحمد الجراندي (45)، والشيخ محمد المرابط الدلائي (46).

ومن الشيوخ الكبار الذين كانوا يعقدون هذه المجالس الخاصة ويتأسونها : العلامة الحجة أحمد بن عبد الوهاب، الوزير الغساني، الأديب الكاتب الشاعر، أحد أقطاب المجالس العلمية السلطانية للمولى إسماعيل، ترك مؤلفات وقصائد وأمداحاً نبوية وخطبا وتقاييد... وكلها في منتهى الجودة.

وكان في مجالسه هذه يسرد صحيح الإمام البخاري كل يوم، بعد صلاة العصر. كما كان يختمه ختمة كل شهر رمضان، من كل سنة.

(43) المصدر السابق، ص: 111 و 94.

(44) المصدر السابق، وج، ص: 96.

(45) المصدر السابق، وج، ص: 97.

(46) المصدر السابق، وج، ص: 98.

ولمكانته المرموقة. كان يحضر مجالسه العلمية الخاصة المذكورة، العالمان الشهيران : أحمد بن محمد بن عبد الله معن، وأحمد اليميني، اللذان كانا يحرصان على الصلاة خلفه، فلقب " بصاحب الأحمدين " .

ومن أهم القضايا التي أثارت الوسط العلمي المغربي، وأثارت مناقشات حادة في مجالس العلماء الخاصة، وتسربت أصدائها إلى قبة المجالس العلمية السلطانية للمولى إسماعيل، قضية القصيدة التي نظمها العلامة الشاعر سراج الدين أحمد الحلبي(47) الشافعي الفاسي، أحد طلائع أقطاب المجالس العلمية للمولى إسماعيل، والتي تكلم فيها على لسان الله تعالى - على سبيل التجريد والمجاز -

وقد اطلع الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي على هذه القصيدة. - وكان يتردد عليه ويواصله - فانكر عليه ذلك بشدة وصرامة، وجرحه، وقطع عنه وده ومواصلته، ودعا إلى مقاطعته، وحذر من مخالطته أو معاملته أو الإجتماع به....

واستتابه فرفض وأبى التوبة، وأصر على إنكار التهم الموجهة إليه، مبررا موقفه بأنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في النثر، وأن أعذب الشعر أكذبه...

وعجز العلامة اليوسي عن رده، لأنه كان من المقربين إلى بلاط المولى إسماعيل. كما كانت له مكانة مرموقة لدى السلطان، إذ كان في طليعة المقرئين الذين يحسنون إنشاد الأمداح النبوية بين يديه، في حفلات المولد النبوي الشريف، زيادة على عضويته للمجالس العلمية السلطانية - كما سبق القول - وبالتالي فقد كان موقِّرا معظما مكرما في البلاط والديوان السلطاني، وينعم بصلات العلماء والشرفاء.

لكن السلطان المولى إسماعيل ما إن أطلع على قصيدته المشبوهة، وعلم برفضه التوبة، وبخروجه عن مذهب أهل السنة، وانتحاله للبدع، حتى منعه من حضور مجالسه العلمية وغيرها، وأبعده بأن نفاه من عاصمته، رغم مكانته العلمية المرموقة. فقد ترك مؤلفات نفسية كثيرة، وقصائد قيمة عديدة، ومقامات في معارضة مقامات الحريري.

(47) نشر المتاني، ج 3، ص : 197-200، وبها قصته بالتفصيل.

وقد قرظ مؤلفاته وأثنى على نبوغه كبار علماء عصره، كالعلامة عبد القادر الفاسي والأديب الشاعر الكبير محمد البوعناني، والشيخ القاضي أبي عبد الله المجاصي. لكنه ظل منبوذا حتى توفي سنة 1120هـ.

وتطورت المجالس العلمية الخاصة للعلماء وتنوعت بتطور وتنوع المجالس العلمية السلطانية الرسمية، فاتخذت بدورها شكل المراسلة بين العلماء خارج نطاق المجالس العلمية السلطانية التقليدية الرسمية والأميرية.

ولعل أحسن نموذج لهذا النوع من المجالس تجسده الرسائل المتبادلة بين الأئمة : أحمد بن عبد الحي الحلبي، والحسن بن مسعود اليوسي، وعبد الملك التجمعتي، حول قضية علم النبي ﷺ بالغيب، التي طرحت بالمجالس العلمية للمولى محمد العالم، بمقر خلافته في سوس - كما سبق القول - كما تجسده لنا الكتب والأطروحات التي ألفت وصنفت حول هذا الموضوع، وغيره من المواضيع الحيوية الهامة التي عرفها هذا العصر.

المجالس العلمية السلطانية في عهد الاضطراب

(1139 - 1171 هـ - 1727 - 1757 م)

المولى عبد الله بن إسماعيل : (1141 - 1171 هـ / 1729 - 1757 م)

كان المولى عبد الله أبرز ملوك هذه الفترة المضطربة، الذي أجمعت كلمة أهل المغرب على طاعته (48)، ويصفه لنا القادري في التقاط الدرر فيقول: " كان له حزم وعزم، وقوة ونجدة واحترام، وعلو همة وجود، ومن عظمة شيمه احترامه للثرفاء والطلبة، والمرابطين والضعفاء. " (49) وقال عنه أيضا : " عمرت به سوق العلم بعد دروسه. " (50) وقال عنه الزياني : " إنه أحد من تولى أيام الفتن. " (51)

(48) الحلل البهية للمشرقي، ص : 158 .

(49) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص : 53 .

(50) نشر المثاني للقادري، ج 4 - ص : 121 .

(51) الروضة السليمانية للزياني ورقة : 187 .

وقال عنه أكنسوس : " والحق الذي لا شك فيه، أن كل من قام منهم - أبناء المولى إسماعيل - بعد بيعة المولى عبد الله، فإنما هو تائر عليه، لا إمامة له، وإنما يكون خبره مسوقا من جهة أخبار المولى عبد الله." (52)

وقام المولى عبد الله بأعمال جليلة، من شأنها تنمية الحياة الفكرية والحركة العلمية والأدبية بالبلاد في جميع المجالات، الثقافية والإبداعية حسب إمكانياته، وفي نطاق ما تسمح به ظروف عهده الحرجة المضطربة... وقد عمل على إيجاد الأجواء الثقافية المناسبة حتى يمكن للمجالس العلمية الرسمية وغيرها أن تقوم بدورها الحيوي في تحقيق التوازنات التشريعية والقانونية وغيرها في البلاد.

كما حافظ على وشائج الروابط الدينية والثقافية التي تربط بين المغرب والعالم العربي والإسلامي. فعمل على إحيائها وتنشيطها، تمهيدا لأعمال هذه المجالس على هذا الصعيد اللاحب.

فعلى الصعيد الوطني المحلي، سار على نهج أسلافه الميامين، في إصدار ظهائر الإجلال والإكبار، والعناية والرعاية لكبار العلماء، وأئمتهم، والنص فيها على مبرراتها، ألا وهي، مكافأتهم على اهتمامهم بالعلم، وعملهم على نشره وتشجيعهم على مواصلة نشاطهم العلمي، والاستمرارية فيه هم وأولادهم، جيلا بعد جيل.

ومن ذلك، تجديده ظهير التوقير والاحترام للعالم السيد محمد عبد السلام بن عبد الواحد غريط، وأولاده، سنة 1141هـ وإصداره ظهيرا بنفس المعنى للعلامة الحاج احمد بن عاشر العامري سنة 1143هـ (53).

واهتم بخزانة القرويين، فعمل على تزويدها بأمهات المصادر القيمة : الدينية والعلمية والأدبية واللغوية وغيرها، كما حبس عليها نفائس الكتب وذخائرها (54).

(52) الأتحاف الوجيزة للدكالي، ص : 48، والجلل البهية للمشرفي، ص : 43 .

(53) النهضة العلمية لابن زيدان، م . خ م . بالرباط، رقم : 3177 ص : 30 - 31 .

(54) نشر المتاني، للقادري، ج : 3، ص : 335 .

وحفاظا على وشائج القرابة والرحم، وتوطيدا للمودة مع ذوي القربى مهد قسبة تافيلالت لسكني الشرفاء آل سيدي أبي الغيث، بالزاوية المشهورة (55) .

وفي إطار عملية تنقية الأجواء وتحقيق المصالحة الوطنية، حرص على تأليف قلوب المتصوفة واستمالتهم، ولا سيما السيد الشرقي الذي كان معجبا به شخصيا، لدرجة أنه نهج طريقته، وسمى ولده باسمه، ووجهه للعلم والمعرفة، ويسر له سبلها ووسائلها (56). وذلك تفاؤلا به، ومجاملة للرجل الذي كان المغاربة - إذ ذاك - يجلونه ويجعلونه شعارا صوفيا محترما، (57)، رغم مسلك أسلافه في مناهضة بعض الزوايا والطرق الصوفية التي خرجت عن خطها المستقيم.

وذلك لعمرى لدهائه السياسي، وسياسته الحكيمة الرشيدة.

أما على صعيد العالم العربي والإسلامي، فإنه لما بعث أمه الملكة خناتة بنت بكار - العالمة الجليلة - إلى الحج بالديار المقدسة، ومعها ولده المولى محمد، سنة 1143هـ، وجه مع الركب النبوي المرافق لهما هدية سنوية إلى الحجرة النبوية الشريفة تضم ثلاثة وعشرين مصحفا محلاة بالذهب، ومرصعة بالدر والياقوت، وألفين وسبعمائة حصة من الياقوت المختلف الألوان، والمصحف العقباني (58)، أما المصحف العثماني فقد كان عند بني أمية بالأندلس، ونقله إلى المغرب عبد المؤمن بن علي (59)، وورثه المرينيون، ثم غرق في البحر مع أسطول أبي الحسن المريني، وهو أحد المصاحف الخمسة التي أرسلها سيدنا عثمان إلى الآفاق.

أما المصحف العقباني الذي أرسله المولى عبد الله في هديته إلى الحجرة النبوية فقد كان بالقيروان، ووصل إلى الأشراف الزيدانيين، فتداولوه، حتى

(55) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ص : 210 .

(56) دعوة الحق، ع : 234، ص : 36، 1404هـ 1984م مآثر المولى محمد بن عبد الله، لأحمد بن شقرون .

(57) المصدر السابق، و ص .

(58) نسبة إلى عقبة بن نافع الفهري .

(59) الجيش العرمم، لأكنسوس، ص : 92 - 93 والروضة السليمانية للزياني، ورقة : 78 - 91،

ودعوة الحق، ع : 234، ص : 36، 1404هـ 1984م، مآثر المولى محمد بن عبد الله، لأحمد بن

شقرون .

وصل إلى المولى عبد الله. أما نسبة هذا المصحف إلى المصحف العقباني الأصيل فقد سجل عليها الشيخ المسناوي تحفظه، لبعده العهد. وقد نظم لخروج الوفد ودخوله موكبا جليلا، وكان توديعه واستقباله في محفل عظيم (60).

وتدعيما للحياة الفكرية، وبالتالي للمجالس العلمية السلطانية وغيرها، أمر بإحياء كناشه وزير المولى اسماعيل، العلامة محمد ابن الحسن اليعمدي بمجلداتها العشر (61)، وكل مجلد مفتوح بصحابي من الصحابة المبشرين بالجنة (62)، في هذه الكناشة للوزير اليعمدي (63).

المجالس العلمية للمولى عبد الله

مما لا جدال فيه أن التقدم العلمي والأدبي والفني، والإزدهار الحضاري رهينان بالإستقرار والأمن، وبالتالي بالسلام السياسي والعسكري، والأمن الإقتصادي والإجتماعي بالداخل والخارج.

ولا غرابة إذا عرفت الحياة الفكرية بصفة عامة والمجالس العلمية السلطانية وغيرها بصفة خاصة - في هذا العهد - فتورا، فكسدت سوقها، وركدت ريحها لانصراف السلاطين إلى التقارع بالسيف والسنان، فانصرف العلماء والأدباء والشعراء عن العلم والشعر وسحر البيان.

غير أن ذلك لم يمنع من انعقاد مجالس علمية وأدبية وغيرها من حين لآخر، كلما دعت الضرورة، ومست الحاجة إلى ذلك.

غير أن هذه المجالس اتسمت بطابع العنف والفوضى والإضطراب، فكانت صاخبة صارخة.

(60) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 35 .

(61) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 54 .

(62) المجلدات كلها بالخرانة الزيدانية، رقم 833، ولعلها النسخة الوحيدة، و النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م . بالرباط رقم 3117، ص 25 .

(63) سنن المهدي في مفاخر الوزير اليعمدي، لعلي مصباح الياصوتي، ص: 4، م.خ.م.

رقم: 2365 .

ومن هذه المجالس المتسمة بالعنف والتعسف، ذلك المجلس الفريد من نوعه، الذي عقده المولى عبد الله، بمجرد بيعته ودخوله مكناس، سنة 1153هـ.

فقد عقد مجلسا خاصا، ضم كلا من القاضي بلقاسم العميري، والقاضي أحمد بن علي الشراذي، والفقير بلعباس بن رحال المعدني، وأحمد بن عبد الله عليلش، فألقى عليهم القبض، واعتقلهم داخل المجلس، وفضحهم شر فضيحة، حيث نزعت عماثهم، ولطموا على وجوههم -على رؤوس الأشهاد ممن حضر ذلك المجلس- وقال لهم : " كيف تزوجون نسائي من أخي، وأنا غائب " (64)

ومن مجالس العنف في هذه الفترة، التي تحولت إلى مأساة دموية، قضية محمد يعيش الزرهوني الذي تولى التدريس بالقرويين، والفتوى والإمامة والخطبة والقضاء في هذا العهد، وحمدت سيرته في كل هذه الأعمال.

لكن في هذا المجلس وقع له خلاف في شروط الشهادة، مع الفقيه عبد الواحد الشريف البوزيدي الحسني ناظر المواريث، فلطم هذا الأخير الفقيه القاضي محمد يعيش الزرهوني، وعلم السلطان بذلك، فأمر بقطع رأسه، فقطع وعلق على باب الفتوح، دون أن يتفطنوا لحصانته، باعتباره عدلا وشريفا(65).

فقامت الفتنة، ووثب الرعاع على دار محمد يعيش الزرهوني المذكور، وقتلوه، ونهبوا داره سنة 1151هـ (66).

أنواع المجالس العلمية في عهد الاضطراب :

استأنفت المجالس العلمية السلطانية في عهد الإضطراب إلى جانب الأحداث المروعة، التي كان سببها استبداد الجيش بالسلطة وتلاعبه بتولية

(64) نشر المثاني، للقادري، ج : 4، ص : 24 - 25، والحوليات ص : 37 .

(65) نشر المثاني للقادري، ج : 4، ص : 7 - 9 .

(66) المصدر السابق ج، و ص .

الأمراء وخلعهم حسب أهواء قواده ومصالحهم (67). ولم يتركوا لهم من الأمر إلا الدعاء على المناير.

فما إن بويع المولى عبد الملك بن اسماعيل، حتى شرع في عقد المجالس العلمية السلطانية التقليدية في شهر رمضان الأبرك، لسرد أحاديث صحيح البخارى، وغيره من الكتب الدينية (68).

كما عقد المولى عبد الملك مجالس للإستفتاء في شأن أخيه أحمد الذهبي المخلوع، وحكم الشرع فيه، فامتنع العلماء عن الإفتاء، وتركوا الأمر له، فاستفتى كاتبه العلامة محمد الفاسي على حدة، فأفتى بعدم قتله، فاكتفى عبد الملك بنفسه إلى سجلماسة، ولم يلبث العبيد أن بايعوه من جديد، فعاد إلى الملك (69).

وعاد المولى عبد الملك لعقد مجلس لاستفتاء العلماء في قضيته مع أخيه، فحاول العلماء رد العبيد عن غيرهم، دون جدوى.

وتحارب الإخوان، لكن العبيد قتلوهما معا، فبويع المولى عبد الله سنة 1141 هـ (70).

وضمن المجالس العلمية التي عقدت للإستفتاء في هذا العهد المأساوي، نجد أن العبيد (71) لما عزلوا المولى أحمد الذهبي، واستدعوا المولى عبد الملك خطبوا بالصحابة، وجعلوا أمر اختيار السلطان في يد العلماء - في الظاهر - فأجمع العلماء - بإيعاز من العبيد طبعاً - على مبايعة عبد الملك، مع تعداد حيثيات ذلك، لتبريراتهم المزعومة (72).

كما عقد المولى عبد الله مجالس على شكل استفتاء، حيث جمع كبار العلماء، تحت رئاسة العلامة القاضي أبي عنان في مجلس خاص، واستفتاهم في شأن سالم الدكالي وأصحابه الذين بايعوا أخاه محمد بن عربية، فأفتوه بوجوب قتلهم فقتلوا جميعاً سنة 1149 هـ (73).

(67) نشر المتاني للقادري، ج: 4، ص: 214 - 220 .

(68) المصدر السابق ج: 3 ص: 299 .

(69) المصدر السابق ج: 3، ص: 301 - 303 .

(70) المصدر السابق ج: 3، ص: 299-300 و316 - 322 .

(71) عبيد مشرع الرملة .

(72) المصدر السابق، وج: 3، ص: 299 - 301 .

(73) الإستقصا للناصري، ج: 7، ص: 142 .

ومن المجالس العلمية التقليدية الجادة التي عقدت في هذا العهد، مجلس عقده المولى عبد الله في قضية هامة -إن ذاك - انقسم حولها العلماء إلى محلل ومحرم، بعد أن تضاربت آراؤهم، وذهبوا فيها كل مذهب - ألا وهي قضية شرب القهوة، وهل هو حلال أم حرام ؟
وقد ألفت حول هذا المجلس -المسلسل الصاخب- الكتب والرسائل العلمية الطويلة في هذا الموضوع.

ومن المؤلفات الهامة في ذلك : الرسالة التي صنفها ابن الطيب الشرقي(74)، وسمّاها " الإستمساك بأوثق عروة، في الأحكام المتعلقة بالقهوة " التي ضاعت منه في رحلته مع ماضع من متاعه، لكنه لخصها ضمن رحلته الحجازية المخطوطة (75).

المجالس الأدبية للمولى عبد الله :

كان المولى عبد الله يعقد مجالس أدبية من حين لآخر، لولوعه بالأدب عموماً، وبالشعر خصوصاً. كما كان يجزل العطاء لهؤلاء الشعراء، قال القادري في ذلك : " عمرت به سوق العلم بعد دروسه " (76).

لذلك نجد شعراء وأدباء رسميين، يلازمون مجالسه الأبية وأعتابه، وأشهرهم : محمد البوعصامي، ومحمد بومديان، والطاهر بن عبد الواحد، والطيب ادراق (77).

ومن الشعراء الكبار الذين مدحوا المولى عبد الله : الشاعر عبد القادر القادري الحسني، الذي مدحه بقصيدة مطلعها :

عليك السلام يا ضياء العوالم

ويابهاجة الإشراق من آل هاشم

ويامن سما شمساً على كل جاهل

وأصبح مسروراً به كل عالم

(74) أبو عبد الله محمد بن الطيب بن محمد بن موسى الشرقي 1110هـ - 1170 رحل إلى المشرق بعد اضطراب الأحوال بموت المولى اسماعيل، وجاور بالحرمين الشريفين .

(75) الرحلة : ل . ص . 57 - 60 .

(76) نشر المثاني، للقادري، ج : 4، ص : 121 .

(77) تاريخ الضعيف، ص : 112 .

ومن القصائد العديدة التي قيلت في مدحه (78) بهذه المجالس، نقتطف
مطلعا لإحداها :

ويامن كساه الله من مهابة
تذل لها -رغما- أنوف الأعاجم(79)
ويامن له حزم وعز وسطوة
تفتت -إرهايا- قلوب الضراغم

المجالس العلمية للأمرء في عهد الاضطراب :

المجالس العلمية للأمير المولى محمد بن عبد الله :

كان المولى محمد بن عبد الله خليفة عن والده بمراكش وآسفي، وقد مهدهما وضبط أمرهما، فأحبته الخاصة والعامة، بعد أن ساد ربوعهما الأمن والإستقرار، والرخاء.....

كما ازدهرت الحياة الفكرية، بفضل مجالسه العلمية والأدبية التي كان نورها يشيع في تلك الربوع والأصقاع.

وقد اهتم في مجالسه هاته بسرد الكتب التاريخية والأدبية، حتى كادت أن تكون مجالس أدبية صرفة، وقد ردد المؤرخون شغفه بهذه الكتب، وأجمعوا على أنه كاد أن يحفظها عن ظهر قلب، وأنه لم يشتغل بالعلوم الدينية إلا بعد أن تولى الملك، وأدرك أهميتها الشرعية والقانونية، وقيمتها المادية والمعنوية بالنسبة لسير الدولة، وتوطيد صرح الملك.

يقول الناصري (80) في هذا الصدد : "..... ولما فاته الإشتغال بفنون العلم في حال الصغر، اعتكف أولا على سرد كتب التاريخ، وأخبار الناس، وأيام العرب ووقائعها، إلى أن تمكن من ذلك، وبلغ فيه الغاية القصوى، وكاد يحفظ ما في كتاب الأغاني من كلام العرب، وشعراء الجاهلية والإسلام".

(78) نصها الكامل بتاريخ الضعيف، ص : 113 .

(79) المصدر السابق، وص .

(80) الإستقصا، ج : 8 ص : 66 - 67 .

ويفصل لنا أحمد بن حمدون بن الحاج (81) ذلك بقوله :
"..... قد كان أمير المؤمنين - قدس الله روحه وأسكنه من الجنان فسيحه
- أيام خلافته بمراكش، مولعا بسرد كتب التاريخ والأدب، إلى أن امتلأ منها
وبلغ الأرب، حتى كاد أن يحفظ ما في كتاب الأغاني من أشعار العرب
والمولدين، ومن الوقائع والأخبار وغير ذلك، وأزال عن ذلك الأستار "

وكان من أبرز علماء المجالس العلمية والأدبية : للأمير المولى محمد ابن
عبد الله بمراكش -على عهد والده المولى عبد الله- : العالم الكاتب الأديب أبو
جيدة الكتاني الأندلسي -من أولاد الكتاني العوام - وكان له صوت حسن،
يرتل به في سرده لأي كتاب، وكان أولا في خدمة المولى عبد الله، ثم التحق
بولده المولى محمد بن عبد الله بمراكش، حيث وجد ضالته المنشودة، فلزمه،
وكان يسرد الكتب بالترتيل بين يديه في مجالسه المختلفة، إلى أن توفي
بمراكش سنة 1180هـ (82).

وفي هذه الأثناء أبدى إعجابه بأحمد المنصور الذهبي، وحاول تقليده
في أحواله الخاصة والعامة، بما فيها مجالسه العلمية والأدبية، وواكبه
في حركاته ورحلاته وأسفاره. يقول الزياني في ذلك : "..... ولما استوطن
مراكش -خليفة لأبيه- رفع إليه بعض طلبية مراكش تأليف الفشتالي، فكان
يسرد عليه، ويحسن سيرة السلطان أحمد المنصور الذهبي في ترتيبيه أمور
دولته في الأكل واللباس، والندماء، والأطعمة، وطبقات الخدام والكتاب، وأهل
الأشغال، ووظائفهم. وكل عمل له وقت مخصوص، وعوائد لا تتمزق.

فتبع سيرته في موكبه، ومنشوره، وحركاته وسكناته، إلى أن بلغ الغاية
القصوى التي ما بلغها أحد من أسلافه رحمه الله "

(81) الدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م. رقم : 1920 : ص : 189-190، والترجمة
الكبرى للزياني، ص : 30، والنهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. رقم 3177، ص : 37، والحلل
البيهة للمشرقي، ص : 162 - 163، ودعوة الحق، ع : 234، ص : 6 سنة 1404هـ - 1984م،
مأثر المولى محمد بن عبد الله، لأحمد بن شقرون .
(82) نشر المثاني، للقادري، ج : 4، ص : 250 .

الباب الثاني

الباب الثاني

المجالس العلمية السلطانية بين

1171-1276هـ (1757-1859م) أو المجالس العلمية
لسيدي محمد بن عبد الله، والمولى سليمان،
والمولى عبد الرحمن

الفصل الأول : المجالس العلمية على عهد سيدي محمد

ابن عبد الله: أنواعها - مذهبها - نشاطاتها على الصعيدين :
الوطني والعربي الإسلامي - مؤلفاتها - علماءؤها.

الفصل الثاني : المجالس العلمية على عهد المولى سليمان:

تطورها وتنوعها بتطور وتنوع أعمالها على الصعيدين الداخلي
والخارجي - مذهبها - كتبها - علماءؤها.

الفصل الثالث : المجالس العلمية على عهد المولى

عبد الرحمن، وتعدد أنواعها وأعمالها بالداخل والخارج :-
مذهبها - كتبها - علماءؤها.

الفصل الأول

المجالس العلمية على عهد

سيدي محمد بن عبد الله.

أنواعها - مذهبها - نشاطاتها على

الصعيدين: الوطني والعربي الإسلامي:

- مؤلفاتها - علماءها

المجالس العلمية بين 1171-1276هـ - 1757-1859م
المجالس العلمية السلطانية على عهد
سيدي محمد بن عبد الله - المولى سليمان -
المولى عبد الرحمن

تمهيد :

سيدي محمد بن عبد الله : (1171-1204هـ - 1757-1790م).
كان سيدي محمد بن عبد الله ملكا مسلحا، أسدى لبلاده كثيرا من
المكرات، وحقق لها معجزات عديدة جمّة، فاكتسى الاسلام في عهده حلة
قشيبية من البساطة والصفاء.

فقد طهره مما علق به من البدع والضلالات والأوهام، وعاد به إلى صفاء
ينابيعه الأصيلية الفياضة : الكتاب والسنة. فكان بدون منازع، نافخ روح
النهضة العلمية والفكرية والاصلاحية في البلاد، وباعث أمجاد هذه الأمة،
الذي جدد لها أمر دينها، كما قال ابن زيدان (1) : " هو الإمام الموهوب لهذه
الأمة على رأس المائة، مجددا لها أمر دينها - كما ورد ذلك مرفوعا- ".

وذلك في إطار إعداد وتهيئ التربة الخصبة والمناخ الملائم لأعمال مجالسه
العلمية السلطانية، التي كانت لدولته بمثابة العمود الفقري، والروح من
الجسد، باعتبارها المؤسسة الرئيسية لهذه الدولة، وأهم هيكلها، وبالتالي
باعتبارها مجمعا علميا وقانونيا وتشريعيا للتنظيم والتخطيط للمشاريع
البناءة القيمة، التي تستهدف إصلاح جميع مرافق الدولة وقطاعاتها،
وتنميتها، والنهوض بها في جميع مجالات الحياة، ولا سيما الثقافية والعلمية
منها.

فجدد معالم الدولة العلوية، ووطد صرح كيائها على دعائم قوية
متينة، تقوم على الموازنة والاتزان بين الشؤون الدينية والدينية، أفقيا
وعموديا، في جميع مجالات الحياة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية،
والثقافية، فحقق نوعا من التنمية الاقتصادية، والعدالة الاجتماعية، في نطاق

(1) الدرر الفاخرة، ص: 56، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 36.

التكافل الضمني. وتوج كل ذلك بنهضة علمية فكرية، شملت الحواضر والبوادي، وعمّت البلاد من أقصاها إلى أقصاها (2).

ولا غرو، فقد ولد وترعرع في بلاط جده المولى إسماعيل الذي كان يزخر بجهابذة العلماء وفطاحل الأدباء وفحول الشعراء (3)، وفي كفالة جدته العالمة خناثة بنت بكار (4)، فأصبح واحدا من أولئك العلماء، وعمل على إحياء مفاخر وأمجاد جده المولى إسماعيل، بشهادة كثير من علماء عصره، كالعلامة الحافظ أبي محمد عبد السلام بن الخياط القادري في قوله: "....وكان إماما من علماء الإسلام له تصانيف تقرأ بالمشرق والمغرب (5)". ويقول الزياتي في نفس المعنى: "كان نسابة إخباريا حافظا لأيام العرب، ووقائعها، حافظا للسير والحديث (6)"، وقوله أيضا: "وكان حافظا يستحضر كل ما يطالعه، حتى كاد يحفظ كتاب الأغاني (7)".

ذلك أن بيعته واكبت نشأة النهضة الغربية الحديثة، فاستطاع بحكمته وتوازناته المدروسة أن يعيش قويا عزيزا مهابا على بعد أميال منها (8).

المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى محمد بن عبد الله

1171-1204هـ - 1757-1790م

يعتبر سيدي محمد بن عبد الله، السلطان العلوي الذي قعد المجالس العلمية السلطانية للدولة العلوية، وأعطاه طابعها النهائي التقليدي المتبع، الذي التزم به ملوك الدولة العلوية بعده، وذلك من حيث جوهر مضمونها ومنهجيتها، وأدابها، وشكلها وزمانها ومكانها وطقوسها.... مهما أدخلوا عليها من تعديلات جزئية، سواء بالزيادة أو النقصان في كل ذلك.

(2) دعوة الحق ع: 4، س: 10، ص: 31، 1386هـ-1967م، النهضة العلمية على عهد العلويين لمحمد العلمي.

(3) الترجمانة الكبرى، للزياتي، ص: 9.

(4) المصدر السابق، ص: 12.

(5) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 56.

(6) الترجمانة الكبرى للزياتي، ص: 63.

(7) المصدر السابق، ص: 5، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.مخ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 37.

(8) الترجمانة الكبرى للزياتي، ص: 9.

ولا أدل على ذلك من شهادة الزباني الذي يقول : " وهذه المجالس المحمدية كانت أساسا للمجالس الحديثية عند ملوك الدولة العلوية الشريفة بعده... فأصبحت المجالس الحديثية من العوائد الرسمية والسنن المرعية، للدولة، واستمر على ذلك الملوك من بعده (9) ".

كما اقتدوا به في اتخاذ أساطين الفكر المغربي شيوفا لهم، يأخذون عنهم، ويستنبطون بأفكارهم، ويقيمون ندوات، ومناظرات علمية وحديثية، يصطفون لها فحول الباحثين والمحققين من جميع أقاليم البلاد، مع التكفل بنفقاتهم في حلهم وترحالهم، خلال الأشهر الثلاثة : رجب، وشعبان ورمضان (10).

وكان يهتم بتكوين العلماء، وينتقي لمجالسه العلمية نبغاءهم، ويصطفاهم لنفسه، فيقربهم ويغدق عليهم العطايا والنعم، حتى يتفرغوا معه للبحث والدراسة، والاجتهاد والاستنباط في هذه المجالس، التي كان يترأسها بنفسه رئاسة عملية فعلية مباشرة، ويقودهم فيها، بعبقرية وذكاء ودهاء....

وفي ذلك يقول ولده عبد السلام (11) : " كان والدي نصره الله.... يجلب العلماء لحضرته السعيدة... فقد وسع أهل العلم إنعاما وإحسانا، وعطاء وامتنانا ".

ويقول القادري في نفس الموضوع : " وكان يطعمهم بعد (12) الفراغ من صلاة الجمعة من أنواع الأطعمة المختارة المنتخبة ".

وذلك أن هذه النهضة العلمية المباركة - التي كان هو قطبها ورائدها - قامت على أكتاف أئمة وجهابذة علماء عصره الذين قربهم، وشكل منهم مجالسه العلمية الخاصة والعامة وغيرها حسب مراتبهم العلمية وقدراتهم العقلية وآثارهم الإبداعية....

(9) مقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: هـ.

(10) دعوة الحق ع: 3، س: 11، ص: 64-96، 1387هـ-1968م الاسهام العلوي في خدمة العلم، لمحمد المنتصر الريسوني.

(11) دعوة الحق ع: 234، ص: 36، 1404هـ-1984م، دعوة لإحياء ذكرى وفاة سيدي محمد بن عبد الله، ودراسة السلوك لولده المولى عبد السلام.

(12) يريد العلماء وأعضاء مجالسه العلمية، نشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 123-124.

كما اتخذ منهم حاشيته وبطانته يرجع إليهم ويستشيرهم ويستعين
بآرائهم على ما ندب إليه نفسه، وكان بصدده من تجديد الدولة، وتعديل
قوانينها وأحكامها، ووضع برامجها ومناهجها بجميع ميادين الحياة،
وقطاعات المجتمع، ومرافق الدولة.

فقد كان بدوره عالما نحريرا، و"على قدر ذوي العزم تأتي العزائم".
يقول القادري عن ثقافته ومكانته العلمية: "... فكان نصره الله - في سائر
العلوم - بحرا لا يجارى، وفي التحقيق لا يبارى. وقد جمع من المعارف
والمعالي ما أبقى به العلماء دونه، فكملت له بذلك شموسه وأقماره، فكان من
منة الله تعالى على العباد، وأحیی به الدين في الأرض والبلاد، مع فرط الكرم
والجود المتوارث.... فهو عالم الشرفاء، وشريف العلماء أو الخلفاء بعد
الأربعة الراشدين (13)".

وفي هذه المجالس كان يقبل على علمائها وعلمهم بنهم، فيطيل
مجالستهم، ومفاوضتهم (14) في القضايا التي يطرحها عليهم. ولا سيما في
علم الحديث النبوي الشريف، الذي كان يكثر من المجالس العلمية الخاصة
به، ومن سرد كتبه المختلفة (15) - بإجلال وتعظيم - ومن تحقيق معانيه،
واستنباط أحكامه، وكذا من إتقان علومه ومصطلحه، وكل ما يتعلق به :
متنا ورواية، وجرحا وتعديلا، ورجالا... وبالتالي في دراسته ورفعته
وإسناده، والاجتهاد فيه، وتوظيفه في الإصلاح، إلى غير ذلك، مما كان أهمله
في مطلع شبابه.

كما كان يدرس في مجالسه بقية العلوم الدينية الأخرى، كالتفسير،
وعلوم القرآن المختلفة، التي يجب على المفسر أن يلم بها كلها، كالقراءات،
والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والمكي والمدني من سور القرآن الكريم،
ومراحل جمع القرآن الكريم، وغير ذلك. زيادة على الفقه وفروعه ومذاهبه
المختلفة، وآراء أئمة مذاهبه، وعلم الأصول...

(13) نشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 125.

(14) تاريخ الضعيف، ص: 165.

(15) الحل البهية للمشرقي، ص: 158-159.

وقد ندم على أنه لم يهتم بهذه العلوم منذ صغره وشبابه، حتى يتمكن منها، وتحصل له ملكتها، فكان يعبر عن ندمه جهارة، ويعلنه في مجالسه العلمية الحديثية، مما يؤكد الناصري على لسانه : ".... وكان كثيرا ما يتأسف أثناء ذلك -مجالس الحديث-، ويقول : " والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة "، ويتحسر على ما فاته من قراءة العلم أيام الشباب".

إذ كان في شبابه -بمجالسه الأميرية بمراكش -معتكفا على سرد كتب التاريخ. والأدب، وأخبار الناس، وأيام العرب وأنسابها. حتى بلغ الغاية القصوى في ذلك، وحتى كاد أن يحفظ كتاب الأغاني -كما مر بنا- (16).

لذلك ما إن تمت بيعته حتى شعر بحاجته الملحة إلى معرفة هذه العلوم وإتقانها، وعرف قيمتها وأهميتها، سواء بالنسبة لسير الدولة، أو بالنسبة للحركة الإصلاحية الشاملة التي كان يريد القيام بها كرد فعل لمعايشته المريرة للفترة المتأزمة وعهد الاضطراب -في طفولته الباكرة- الحالك الذي كاد يطيح بصرح الدولة العظيمة، التي شيدها جده المولى إسماعيل، فعقد العزم على تجديد معالمها وإحياء أمجادها.

فقد شمر منذ اليوم الأول لتحقيق أهدافه السامية، وبدأ من أول السلم، إذ توجه رأسا إلى تشخيص مصدر الداء، من الأوضاع الفاسدة، والقوانين والأنظمة المتجاوزة، والأحكام العرفية البالية، والبرامج والمناهج العقيمة.

ولم تشغله عن أهدافه السامية، وإصلاحاته الجريئة الشجاعة -خاصة بالنسبة لوقته- لا أعباء الملك، ولا مشاغل الدنيا ومغرياتهما، ولا ملاذ الحياة الزائفة، ولا غرائز وأهواء الشباب الجامحة، بل كرس وقته وعقله وشبابه وإمكانياته الطائلة لخدمة أهدافه النبيلة، ومصالح أمته وشعبه، التي جعلها نصب عينيه، وفوق كل اعتبار.

وسرعان ما اهتدى إلى الدواء الكفيل بالإصلاحات الجذرية المتوخاة، ألا وهو الرجوع إلى الكتاب والسنة، والعمل على تدريسهما، ونشرهما على أوسع نطاق، وعلى استنباط أحكامهما مباشرة.

(16) الحل البهيبة للمشرقي، ص: 162-163، ومقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص:

و-ف-ن-لا، هـ، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة : 25.

ويؤكد لنا ذلك أكنسوس قائلًا : ".... ولما ولاه الله أمر المسلمين -بعد موت والده- زهد في التاريخ والأدب -بعد التخلي منهما- واشتغل بسررد كتب الحديث والبحث عن غريبها... ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم، ورتب لذلك أوقاتا مخصوصة مضبوطة لا تنخرم (17) ".

ويؤكد لنا المشرقي ذلك بقوله : ".... ثم زهد في التاريخ والأدب -لما تولى الخلافة- وصرف همته للعلوم الشرعية، ومجالسة أهلها، ورتب لذلك أوقاتا مضبوطة لا تنخرم (18) ".

من هذه المنطلقات كلها بادر لاستدراك ما فاتته منذ اليوم الأول لبيعته، حيث شرع في انتقاء علماء مجالسه العلمية وتكوينها، باعتبارهم نواة كل إصلاح وأداته، وباعتبار أن المجالس العلمية مصدر ومنبع ومركز لإشاعته ومداره....

ومما يؤكد لنا ذلك قول أكنسوس (19) : ".... لما دخل فاس -بعد مبايعته- كان كلما صلى الجمعة بفاس الجديد جلس مع العلماء والفقهاء، وسأل عنهم واحدا بعد واحد إلى أن عرف أعيانهم -بأسمائهم وصفاتهم- ". وذلك حتى يختار كلا منهم لما يصلح له من أنواع مجالسه المتوخاة وأعمالها الجسيمة المبتغاة من اجتهاد واستنباط وتأليف واستفتاء....

ولعله كان يعرض عليهم برامج ومشاريعه الإصلاحية قصد إغنائها وإثرائها بأرائهم وملاحظاتهم واقتراحاتهم، في إطار عمل جماعي موحد، حتى يوقعوا معه ميثاقا للإصلاح العام الشامل الذي يطمح إليه ويسعى إلى تحقيقه بحزم وعزم وثبات.

ويؤكد لنا ذلك المشرقي (20) قائلًا : " بويع بمراكش، ثم ورد على فاس.... ولازال بها خاصا العلماء بالمجالسة والمفاوضة في العلم، إذ كان رحمه الله في العلوم بحرا لا يجارى، وفي التحقيق والمعارف لا يمارى

(17) الجيش العرمرم، ورقة : 106 و 135-136.

(18) الحل البهية، ص: 159-160.

(19) الجيش العرمرم، ورقة : 113، والاستقصا للناصرى، ج: 8، ص: 5، ونشر المثاني للقادري، ج: 4، ص: 123-124.

(20) الحل البهية، ص: 158-159.

لا سيما علم الحديث. كانت له عناية كبيرة بسرد كتبه وتحقيق معانيه ومزيد إجلاله وتعظيمه".

ويلخص لنا الزباني ذلك بقوله (21): "كان يعقد مجلسه كل يوم جمعة في جامع الكبير يحضره جلة العلماء الذين قَرَّبهم".

وكان يبالي في تعظيم العلماء وتبجيلهم وإكرامهم والإنعام عليهم، ولم يلبث أن رتب لهم (22).... زيادة على صلاتهم في كل عيد.... "، فقد "كان كريما يعطي عطاء من لا يخاف الفقر" (23).

وذلك تمهيدا لتنمية الأجواء الثقافية وإنعاشها وتنشيطها، وتأليفا لقلوب العلماء، وتشجيعا لهم على مرافقته وملازمة مجالسه عن طواعية واختيار، حتى ينعكس رضاهم على أعمالهم، فيكون عطاؤهم وإنتاجهم في المستوى المطلوب.

أنواع المجالس العلمية السلطانية لسيد محمد بن عبد الله :

تعتبر المجالس العلمية التقليدية الرمضانية التي كان يقيمها سيدي محمد بن عبد الله خلال شهر رمضان الأبرك أصلا لجميع الأنواع والأشكال والنماذج للمجالس التي تفرعت عنها، وتعتبر تطورا وامتدادا لها. فكان يحيي ليالي هذا الشهر المعظم بعقد المجالس العلمية التي كان يفتتحها بالقراءة والذكر، قبل أن يشرع في سرد صحيح الإمام البخاري -غالبا- أو غيره من أمهات كتب الحديث -أحيانا- أو غيرها من المصادر الدينية نادرا.

غير أن مجالسه العلمية الرمضانية هذه كانت لازالت في عهده تمثل مرحلة تمهيدية لهذه المجالس التي لم تستقر عاداتها المتبعة، ولم تأخذ شكلها وطابعها التقليدي المتوارث إلا على عهد المولى سليمان كما سيأتي. ورغم أن المجالس العلمية السلطانية للدولة العلوية اتخذت في عهد سيدي محمد بن عبد الله طابعها التقليدي المرحلي من حيث أبعادها

(21) الترجمانة الكبرى، ص: 18.

(22) الاستقصا للناصرى، ج: 8، ص: 70، ونشر المثاني، للقادري ج: 4، ص: 123-124.

(23) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 163-171.

وأهدافها، وتقاليدها وخطوطها العريضة بصفة عامة، فإن ذلك لم يمنع تنوعها وتطورها، سواء من حيث شكلها أو مضمونها، بحكم سنة التطور والارتقاء الذاتية الأزلية والسرمدية.

ويمكن حصر هذه الأنواع -على اختلافها- في نوعين رئيسيين : المجالس الخاصة، والمجالس العامة، زيادة على المجالس الأدبية.

- المجالس العلمية السلطانية الخاصة :

المقصود بالمجالس العلمية الخاصة، تلك المجالس العلمية الاجتهادية السامية، التي كان سيدي محمد بن عبد الله يعقدها يوم الجمعة من كل أسبوع، في جامع الكتبية (24)، على أعلى مستوى علمي، مع كبار الأئمة والشيوخ من العلماء الذين رفعهم إلى جانبه في موقع اتخاذ القرار، كمستشارين في الشؤون والقضايا المصرية والحيوية للدولة، كالاقتصاد والتشريع، والتنظيم والتخطيط، فاتحا بذلك باب الاجتهاد على مصراعيه، مما يعتبر منقبة، وسابقة إيجابية للمغرب وملكه.

وكان يعقد هذه المجالس الخاصة دوريا كل جمعة، في مقصورة الجامع بمراكش أو غيرها من العواصم، التي كان يقيم فيها بالتناوب والتراوح، خلال أيام السنة وفصولها.

وكانت تحضر تلك المجالس الصفوة المختارة من كبار العلماء، الذين كانوا يرافقونه في حله وترحاله، والذين حرص على اختيارهم وانتقائهم من جميع أنحاء المملكة بالحواضر والبوادي، حتى تكون ممثلة لجميع الأمة، تحقيقا لمبدأ تكافؤ الفرص لجميع أفراد شعبه، فكان هذا المجلس بمثابة برلمان أو مجلس استشاري مصغر، أو مجمع علمي أكاديمي وطني، وكان هذا المجلس ينكب على دراسة نصوص الأحاديث النبوية الشريفة، ووضعها على محك البحث العلمي المنطقي المجرد، بالذاكرة حولها، وتفهم معانيها ومبانيها، وأبعادها وأهدافها (25)، والنقاش حولها بتجاذب أطراف الحديث،

(24) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 68، ط: دار الكتاب، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 164،

1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسين.

(25) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 66.

الذي قد يجر إلى إدخال علوم أخرى، فتدور بدورها في فلك المحور الرئيسي لهذه المجالس الخاصة، ألا وهو الحديث النبوي الشريف.

وإذا تتبعنا أقوال الباحثين والمؤرخين في الموضوع، نجد أنهم أجمعوا على رأي واحد مهما اختلفت صيغتهم وأسلوب تعبيرهم، كما اتفقوا في التعريف بهذه المجالس الخاصة، وتحديد أبعادها وأهدافها، القريبة والبعيدة.

ولا بأس من استعراض أهم هذه الآراء، مع التعليق، والتحليل والتعليل، والمقارنة، ومحاولة استخلاص رأي موحد، يكون قاسما مشتركا بينها كلها. ونبدأ بشهادة الزباني (26) الذي يقول: ".... وكان بعد صلاة الجمعة يجلس بمقصورة الجامع، مع فقهاء مراكش، ومن يحضر عنده من علماء المغرب الوافدين على حضرته، فيذاكرهم في الحديث، وفقهه ومعانيه".

ويفصل لنا ذلك المشرفي (27) قائلا: ".... لما تولى الخلافة، صرف همته للعلوم الشرعية، ومجالسة أهلها، ورتب بذلك أوقاتا مضبوطة لا تنخرم".

ويؤكد لنا الناصري (28) ذلك بقوله: ".... جمع العلماء الكبار من أنحاء المغرب، واختار منهم جماعة لمجالسته ومذاكرته في الحديث النبوي، وخصص لذلك أوقاتا مضبوطة لدراسة كتب الحديث دراسة استيعاب".

ويفصل ولده عبد السلام (29) ذلك، ذاكرا بعض العلوم الأخرى التي كانت تدرس في هذه المجالس، زيادة على موضوعها الرئيسي الحديث النبوي الشريف، فيقول: "... وكانت عنده أوقات خاصة لسرد كتب الحديث مع علماء كبار، اختارهم لمجالسته ومسامرته، وفي غالب الأحيان يتعرض في مذاكراته معهم إلى طرح مشكلات في الحديث أو في السيرة، أو في علوم العربية، فيفيض -بفكره الثاقب- عويصها، ويحل مشكلها".

فهذه المجالس العلمية الخاصة لسيدي محمد بن عبد الله، كانت -كما يتضح من هذه الأقوال لكبار الباحثين والمؤرخين- بمثابة مجمع علمي

(26) البستان الطريف، ص: 117، م.خ.ع، بالرباط، رقم: 1577، ومقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: ف.ن.لا.

(27) الحل البهية للمشرفي، ص: 162-163.

(28) الترجمانة الكبرى، للزباني، ص: 18.

(29) في كتابه اقتطاف الأزهار من حدائق الأفكار.

أو ندوة علمية يجتمع مع أعضائه بانتظام حيث تدور المذاكرات العلمية،
والمناظرات الفكرية...

وقد اهتم فيها بتأليف وترتيب الأحاديث النبوية الشريفة حسب فهم
خاص به، يواكب مخططاته، وبرامجه، ومشاريعه التي كان لها تأثير كبير،
حيث نشطت في عهده الحياة العلمية بصفة عامة، فانتشر العلم، وكثر
العلماء، من فقهاء، ومحدثين ومفسرين، وأدباء ومؤرخين وغيرهم، بفضل
هذه المجالس التي تحررت من الجمود والقيود.

وكانت أعمال هذه المجالس متسلسلة، يفضي بعضها إلى بعض، بحيث لا
يستأنف المجلس عمله، حتى يستخلص نتائج المجلس الذي قبله، ويوظفها
فيما استنبطت واستخرجت من أجله من الغايات : التشريعية والتنظيمية
وغيرها.

وقد تطورت هذه المجالس العلمية الخاصة بدورها من حيث منهجيتها.
ففي المرحلة الأولى، كانت مجرد مجالس لدراسة الحديث، وتقهمه
واستيعابه، واستنباط غرر أحكامه وآدابه المتعلقة بالعبادات والمعاملات،
في سائر ميادين الحياة لكنها لم تلبث أن أصبحت - إلى جانب ذلك -
مجالس للتأليف والتصنيف في الحديث، حسب مذهب خاص، ومنهجية
محددة - من ابتكار واجتهاد سيدي محمد بن عبد الله، وضعها في إطار
برنامج الإصلاح العام الشامل.

ومرحلة التأليف والتصنيف هذه جاءت بعد أن تمت له الملكة العلمية،
وتبحره في العلوم الدينية والشريعة، إلى جانب الملكة الأدبية واللغوية، التي
كان يملك أعنتها قبل بيعته واعتلائه العرش، أيام خلافته عن والده بمراكش
وسوس، في مجالسه الأدبية واللغوية والتاريخية وغيرها.

وإذا كانت بداية هذه المجالس العلمية الخاصة للمولى محمد بن عبد الله،
بمجرد بيعته وتحمله مسؤولية الأمة الجسيمة أمام الله والناس أجمعين.
فإن ذلك يؤكد مدى استشعاره بثقل الأمانة الملقاة على عاتقه، وبالتالي مدى
كفاءته وجدارته، وأهليته لتحملها.

ذلك أنه كان يترأس هذه المجالس علميا وعمليا، وهو الذي يتولى تدليل
الصعاب التي كانت تعترض عملية الدراسة والبحث العلمي والمنهجي، بعلمه

واضطلاع الواسع، وبقدراته الفكرية، وطاقاته العقلية الفطرية، وملكته وحنكته العلمية المكتسبة بالتمرس والاستمرارية، والمواظبة الدائبة.

حتى أصبح يجيز العلماء ويستجيزهم، شأن الأئمة الأقطاب الكبار (30)، كإجازته، للشيخ سليمان الفشتالي، ولأبي القاسم الزياني، ولولده المولى سليمان (31)....

وفي هذا الصدد يقول الناصري (32) : ".... ولما ولاه الله -بعد والده- زهد في التاريخ والأدب -بعد التضلع فيهما- وأقبل على سرد كتب الحديث، والبحث عن غريبها، وجلبها من أماكنها، ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها، ورتب رحمه الله لذلك أوقاتا لا تنحرم".

ويقول صاحب الدر المنتخب (33) في هذا المعنى : ".... ولما قلده الله أمر المسلمين، ترك ذلك -التاريخ والأدب وأمثالهما- وأولع بكتب الحديث والسير، وجلب المحدثين من فاس ومكناس ومراكش، لهذا الأمر المعتبر". وهذه الآراء رغم تشابهها، فإن كلا منها يطلعنا على جانب من جوانب هذه المجالس العلمية الاجتهادية العتيدة للمولى محمد بن عبد الله.

ذلك أننا نستنتج من الدر المنتخب مثلا، أن هؤلاء العلماء المجتهدين كان أغلبهم من العواصم الكبرى : فاس ومكناس ومراكش، وأن الدراسة والبحث كانت تتناول كتب السيرة النبوية العطرة أيضا، وذلك للعلاقة التي تربط بينهما، وللتداخل المستحكم بين موضوعاتهما. فالسيرة النبوية لدارس الحديث النبوي الشريف، هي بمثابة أسباب النزول لمفسر سور وآيات القرآن الكريم.

كما تشعرنا بأهمية هذه المجالس، وقيمة وجلال أعمالها بالنسبة للدولة، ومصالح الأمة على السواء.

فقد عمل من خلالها على تجديد الدولة، وتوطيد كيانها وخدمة مصالح الأمة : الدينية والدنيوية.

(30) الاستقصا للناصرى، ج: 8، ص: 17.

(31) النهضة العلمية، لابن زيدان.م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 33.

(32) الاستقصاج: 8، ص: 66-67، ومساند الأئمة لسيدى محمد بن عبد الله تحقيق الفريد البستاني

1941م منشورات مؤسسة فرانكو للأبحاث العربية الاسبانية السلسلة الأولى رقم : 3.

(33) الدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م، بالرباط، رقم 1920، ص: 190.

وسار في حركته الإصلاحية على خطة رشيدة، مستهدفاً أن يشمل الإصلاح المنشود جميع مناحي الحياة، في إطار السنة والجماعة، والسلفية الأصلية، التي من شأنها بعث أمجاد عصر صدر الإسلام الخالدة. وكرس وقته الثمين لإنجاز برامجه ومشاريعه ومخططاته الجريئة الطموحة التواقية، معتمداً في ذلك -بعد الله تعالى- على عبقريته الخلاقة، وعلى تلك النخبة والصفوة من العلماء الأجلاء، ونبوغهم وإبداعهم....

واهتمامه بالحديث النبوي الشريف، أكثر من غيره من العلوم الدينية الأخرى، يرجع إلى أنه المصدر الثاني للشريعة الإسلامية -بعد القرآن الكريم- وباعتباره -في جملته- يشتمل على تشريع متكامل ومتزن للحياة، جامع لخير الدين والدنيا، والبلاد والعباد، دون إفراط ولا تفريط، ولا ضرر ولا ضرار. أضف إلى ذلك أن مجال البحث في الحديث مجال رحب، وخال من الحواجز المادية والمعنوية والنفسية.... باعتباره كلام إنسان بشر ونبى لا ينطق عن الهوى، رغم الخوف والحذر من ولوجه، لوعيده ﷺ: "من كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار (34)".

وذلك بالنسبة لمجال البحث في علم التفسير الشائك، المحفوف بالرهبة والمخاطر، والمحاط بهالة من التقديس، والمملوء بعدد من الحواجز النفسية والدينية واللغوية، ابتداءً من الغيبيات، ومروراً بالمسلّمات، وليس انتهاءً بالآيات المحكمة والغير المحكمة، والناسخة والمنسوخة....

وكان معجبا بالمنصور الذهبي السعودي أيّما إعجاب، ويقلده في كثير من عادات وتقاليد ملكه، ولا سيما مجالسه.

والواقع أن المنصور الذهبي نفسه كان يقلد الأتراك في كل ذلك، بل وفي جميع أمور دولته، ولا سيما تنظيم الجيش، وهو ما أتاح له الانتصار على ملك البرتغال "سبسطيان"، الذي جاء للمشاركة في موقعة وادي المخازن الخالدة، مناصرة وتدعيماً لابن أخي المنصور الذهبي، محمد المتوكل -المسلوخ-.

كما كان مثله الأعلى في الحياة والملك، جده المولى إسماعيل، الذي كان معجبا به، ويحتذي حذوه، لاحتكاكه به عن كثب. فقد تربى في أكنافه،

(34) مسند الإمام الربيع، من رواية عبد الله بن الحارث.

وفي كفالة جدته العالمة الفقيهة -خناثة بنت بكار-، لذلك قلده في عظمته وجلائل أعماله، ثم شمر لتجديد دولته، وإحياء مفاخرها، وبعث أمجادها. وإذا كان قد اقتفى أثر جده المولى إسماعيل في جوانب كثيرة من شخصيته وسلوكه، وأعماله وأقواله، فإن تأثير المنصور السعدي عليه يتجلى في المجالات العلمية والثقافية، ولا سيما في مجالسه العلمية، سواء الخاصة منها أو العامة، وسواء كانت في ظعنه أو إقامته، في حله وترحاله. وذلك من حيث منهجيتها، وهيئتها، وتقاليدها غالباً، وكان يصرح بذلك جهارة، ولا يجد فيه غضاضة، كقوله: " وهو أستاذنا في هذه الأمور " (35) وهذا لعمرى منتهى التواضع والعظمة.

بل إننا نجدها مطابقة لها ومقتبسة عنها، إذ كان يحذو حذوها من حيث شكلها وهيئتها -كما ذكر-، وكذا من حيث برامجها وزمانها، وحتى مكانها أحياناً، حسب ما رواه أكنسوس (36) في جيشه: " لما ظفر بتأليف الفشتالي المترجم بمناهل الصفا، أعجب به وبأخباره، وخصوصاً أخبار المنصور الذهبي، فإنه كان يستحسن أحواله في الركوب، والأكل واللباس، والأطعمة، وطبقة الكتاب، وأهل الأشغال المخزنية، وكل شيء جعل له وقتاً مخصوصاً وحداً محدوداً، لا يتعدى شيء مركزه ".

ويؤكد الزياتي (37) بدوره هذا التقليد بقوله: " ولما ولاه الله أمر المسلمين -بعد موت والده-.... اشتغل بسرد كتب الحديث، والبحث عن غريبها، وجلبها من أماكنها بالمشرق، ومجالسة العلماء، والمذاكرة معهم. ورتب لذلك أوقاتاً مضبوطة لا تنخرم، على عادة المنصور، في أوقاتها، حسب ما هي في سوقه عند الفشتالي في المناهل، حتى إنه كان -رحمه الله- لما يخرج للنزهة أو لزيارة في فصل الربيع، أوللصيد، يقيم عليه الستة أيام، إلى أن يأتي لصلاة الجمعة، فلا ينزل إلا في منازل المنصور، التي كان ينزل بها وقت خروجه للزيارة بأغमत، وللصيد بوادي نفيس، ويقول: " هذه منازل المنصور -رحمه الله- وهو أستاذنا ومقتدانا ".

(35) البستان الطريف، للزياتي، ص: 117.

(36) الجيش العرمم، لأكنسوس، ورقة: 106.

(37) البستان الطريف، للزياتي، ص: 117، والروضة السليمانية، للزياتي، ورقة: 125.

وبالجملة فقد كان معجبا بالملوك العظام، ويحب تقليدهم، سواء من أسلافه أو غيرهم (38).

وهذه نماذج للمجالس العلمية الخاصة التي كان يعقدها سيدي محمد ابن عبد الله مع أئمة العلماء الكبار، الذين اختارهم لذلك بمقصورة جامع الكتبية بمراكش، بعد صلاة الجمعة. اللهم إذا كان في سفر، أو، رحلة. أو زيارة، أو حملة، فإنه يعقدها حيثما تأتي، دون توقف ولا مماطلة.

1- " فقد كان سيدي محمد بن عبد الله في زيارة لمكناس سنة 1171هـ (39)، فاستدعى العلماء أعضاء مجالسه العلمية الخاصة كعادته، وبعد صلاة الجمعة، عقد لهم مجلسا علميا للمذاكرة في العلوم الشرعية : القرآنية والحديثية والفقهية وغيرها، وفرق عليهم خلال ذلك ملفات لجدول أعمال الجلسة، والأدوات والوثائق الضرورية لها.

وبعد مباحثات ومناقشات علمية حول موضوع الزكاة، أمر برفع الجلسة، وأقام لهم حفلة عشاء فاخرة، ثم أنعم عليهم بصلات سنوية، وأمرهم أن يقدم له كل واحد منهم رأيه في الموضوع كتابة.

وبعد ذلك أذن لهم في الانصراف، على أن يأتيه يوم الجمعة الأولى من كل شهر (40).

كما عقد لهم مجلسا علميا آخر -بعد عودتهم يوم الجمعة المذكورة- بداره من فاس الجديد، حيث وزع عليهم ملفات بجدول أعمال الجلسة، ووثائقها، وتدارس معهم موضوع الزكاة المطروح للبحث، وكيفية جمع الزكوات والأعشار، وطريقة دفعها، وما يجوز دخوله إلى بيت المال من الأموال... فاجتهدوا في ذلك، وبذلوا جهد طاقتهم في الحوار والجدال بين يديه، ثم قدم له كل واحد منهم دراسة كتابية وافية حول الموضوع. تنفيذًا لتعليماته السامية. ولم يلبث أن ضمها إلى بعضها، وشكل منها كتابا واحدا في الموضوع.

ثم صرفهم بعد أن بالغ في البر بهم والاحسان إليهم كعادته (41).

(38) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ص: 145.

(39) بمجرد توليته.

(40) نشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 132.

(41) الدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م، بالرباط، رقم: 1920، ص: 45-46، ونشر

المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 130-131.

2 - ويصف لنا القادري (42) أحد هذه المجالس قائلاً : ".... دخل فاس -على حين غفلة من أهلها-.... ثم استدعى العلماء لمحلته، فجمعهم قاضي فاس عبد القادر بن العربي بوخريص الكامل، وعددهم أربعة وعشرون، ومراتبهم على ثلاث طبقات. فجلسنا معه، فذاكرنا في أنواع العلوم، كل واحد في فن مهرفيه، فكان نصره الله في سائر العلوم بحرا لا يجارى، وفي التحقيق لا يبارى".

ومن خلال هذه المجالس كان يختبر العلماء واحدا واحدا في صلب اختصاصهم، لتصنيفهم، واختيار صفوتهم في كل اختصاص، وإلحاقهم بمجالسه العلمية الخاصة، وداخل الخلية التي يمكنه العطاء في إطارها.

أما منهجية العمل داخل هذه المجالس، فكانت تقوم على طرح المحاور للدراسة والبحث والمناقشة في موضوعاتها، لإغنائها وإثرائها بالعروض المختلفة، للمتدخلين من العلماء أعضاء المجلس، حيث يفرغ كل واحد منهم في تدخله خلاصة خبرته وتجربته، وكل ما لديه في ذلك الموضوع، ثم بتقديم المذكرات الكتابية المركزة الخاصة، من طرف كل واحد منهم.

تلك المذكرات التي أصبحت -بعد أن تكاثرت وتنوعت وتشعبت- نواة للمؤلفات التي أصدرتها هذه المجالس زيادة على المؤلفات التي كلف السلطان أعضاء مجالسه العلمية بتصنيفها، فرادى أو جماعات.

3- ومما يؤكد أنه كان قد وضع برنامج الإصلاح، وحدد مخططاته ومشاريعه وأهدافه، بمجرد توليته، وسعى سعيا حثيثا لتنفيذه من خلال مجالسه العلمية، وبواسطة علمائها المختارين، قول الناصري، واصفا لهذا المجلس : « بعد بيعته، انتقل إلى فاس، حيث حضر الجمعة بفاس الجديد في نظام (43) بديع، وزى عجيب، وجلس للفقهاء، وعرفهم واحدا واحدا ».

(42) نشر الثاني، للقادري، ج: 4، ص: 125.

(43) الإستقصا للناصرى، ج: 8، ص: 53-54.

4- وهذا نموذج، ووصف حي، لأحد المجالس (44) العلمية الخاصة لسيدي محمد بن عبد الله، الذي عقده سنة 1172هـ، وكان يستهدف التشريع - واختلف حول مكانه هل كان بفاس أو بمكناس.

وقد حضره العلماء السادة : القاضي عبد القادر بوخريص، وشيخ الجماعة السيد محمد جسوس، ومولاي عبد الرحمن المنجرة، والسيد محمد ابن عبد الصادق، والسيد عمر الفاسي، والسيد التاودي بنسودة. وكان جدول الأعمال يتمحور حول : مدى إمكانية الإنفاق على الجيش من الزكاة.

وقد افتتح السلطان سيدي محمد بن عبد الله الجلسة بنفسه، وأعلن عن جدول الأعمال المذكور، وطلب منهم البحث في مدى إمكانية ذلك، معلنا لهم بأنه يطمح للسير في حكمه على نهج الخلفاء الراشدين المهديين، وتعهد أمامهم بذلك.

وأعطى الكلمة للعلامة محمد جسوس، الذي أوضح أن نفقة الجيش، ليست من مصارف الزكاة.

وأخذ الكلمة العلامة سيدي عبد الرحمن المنجرة، الذي زكى رأي محمد جسوس، وأكد ذلك بالحجج والنصوص الدامغة.

وعقب على كلامه الشيخ التاودي بنسودة، معلنا ومؤكدا أن نفقة الجيش وراتبه تؤخذ من بيت المال.

فاهتم به السلطان، وفسح له إلى صدر المجلس.

وبعد أن تعرف عليه السلطان، أذن له في الكلام، وإعادة ما قاله، فأعاد كلامه، موضحا أن نفقة الجيش وراتبه تؤخذ من بيت المال. وإن لم يوجد، فذلك واجب على سائر الرعية والمسلمين. فقال له السلطان : « أحسنت » وأمر جميع العلماء الحاضرين، بأن يكتب كل واحد منهم رأيه في الموضوع، على شكل بحث علمي، ويقدمه كتابة، بعد أن يؤيده بالنصوص والحجج والشواهد اللازمة. ثم رفع الجلسة.

وتردد العلماء في الأمر، وتماطلوا في الجواب، فجمعهم القاضي، وأخذ منهم البحوث التي كتبها كل واحد منهم حول الموضوع، فوجد أن كلا

(44) الدر المنتخب، لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م. بالرباط، رقم 1920، ص : 67.

من محمد جسوس، وعبد الرحمان المنجرة، قد كتب باب الزكاة ومصارفها، ولم يتعرض لنفقة الجيش مطلقا، وأن ابن عبد الصادق قد تغيب عن حضور الإجتماع، ولم يقدم أي بحث.

أما التاودي بنسودة، فكتب بحثا على أساس رأيه الأول، ومفاده : أن السلطان إذا عجز عن عطاء الجيش ومرتبته فإن إعالة الجيش وراتبه تصبح واجبة على سائر المسلمين، شريطة العدل وعدم الحيف.

وقد اعتمد في ذلك على ما أجاب به علماء الأندلس يوسف ابن تاشفين، لما سألهم قائلا : « إذا لم يكن هنالك بيت مال، فمن أين تكون إعالة الجند » ؟ فقالوا: « تفرض في أموال المسلمين، فأمرهم أن يكتبوا له ذلك، ففعلوا، لإقاضي المرية محمد بن يحيى بن البراء، الذي امتنع، ولما عاتبه يوسف بن تاشفين على ذلك، أجابه كتابة في الموضوع بما يبرر موقفه.

وفرّح القاضي بجواب بنسودة قائلا : " أخرجتنا من العهدة "، وخرج الشيخان: جسوس والمنجرة مغاضبين. (45) فكتب القاضي الجوابين في محضره، وأرسل الباحثين إلى السلطان، الذي تبني رأي ابن سودة، ونفذه(46).

لكنه دمج في بقية الأجوبة. الموقعة من طرف سائر العلماء أعضاء المجلس المذكور حول الموضوع، وكون من تلك البحوث كلها مؤلفا واحدا اعتمده، فوظف على الأبواب والسلع، على أساسه (47).

(45) الدر المنتخب، لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م. بالرباط رقم : 1920، ص:70-67، والإستقصا، للناصري، ج : 8، ص : 7-9، ونص الفتوى ووصف المجلس كله بنفس المصدر، وج، وص، ومساند الأئمة تحقيق الفريد البستاني، ص : 13، منشورات مؤسسة فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية، السلسلة الأولى، رقم : 3، سنة 1941.

(46) الدر المنتخب، لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م. بالرباط رقم : 1920، ص:70، والإستقصا، للناصري، ج : 8، ص : 7-9، ووصف هذا المجلس كله بنفس المصدر، وج، وص. ومساند الأئمة تحقيق الفريد البستاني، ص:13، منشورات مؤسسة فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية، السلسلة الأولى، رقم : 3، سنة 1941.

(47) البستان الظريف للزياني، ص : 102، والجيش لأكنسوس، ورقة : 120.

5 - ومن المجالس العلمية الخاصة المتعلقة بالتشريع التي عقدها سيدي محمد بن عبد الله، مجلس حول قضية ترحيل أهل الرباط (48).

ذلك أنه استفتى العلماء أعضاء مجالسه الخاصة في ذلك، فأفتوه بالإيجاب - حسب إرادته -

إلا أن العلامة التاودي بنسودة خرج عن إجماعهم، وأفتى؛ "بأن من نزل أرضاً إحدى عشرة سنة، صارت ملكاً له، وبأن الأمير لا يرث ما بناه الأمير".

وكان هدفه من هذه الفتوى، الاحتراز من أن يقيس السلطان على هذه الفتوى، ويفعل ذلك بأهل فاس، فغضب عليه السلطان وعزله.

ويظهر أن الشيخ التاودي بنسودة - رحمه الله - كان مولعاً بمخالفة العلماء الآخرين في فتواه سلباً أو إيجاباً، عملاً بالمثل السائد "خالف تعرف".

6 - كما استفتى العلماء في قضية المكس (49)، فأفتوه حسب الشريعة الإسلامية، فاعتمد فتواهم، وصار يأخذ المكوس على الأبواب والأسواق، وجميع السلع والغلل (50).

وكان ذلك في مجلس من مجالسه الخاصة بالتشريع، وبحضور جميع العلماء أعضاء مجالسه العلمية السلطانية الرسمية الخاصة، وبموافقتهم وتوقيعهم.

7 - ومن النماذج الحية الفريدة من نوعها لهذه المجالس العلمية الخاصة، المتعلقة بالتشريع، المجلس الذي عقده سيدي محمد بن عبد الله، حول قضية خاصة للغاية، وعمامة جداً، ألا وهي قضية عزل ولده اليزيد من ولاية العهد سنة 1203هـ، حيث أشهد العلماء - أعضاء المجلس المذكور - أنه يتبرأ من عهدة تولية أحد، ويترك الأمر شورى للمسلمين حتى يختاروا من تجتمع عليه كلمة جماعة المسلمين، وأهل الحل والعقد فيهم، وكتب العزل، ووقعه العلماء (51).

(48) تاريخ الضعيف، ص: 177.

(49) لأن المولى عبد الله كان قد أسقط المكوس كلها.

(50) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة: 244.

(51) تاريخ الضعيف، ص: 197.

لكنه ندم على كل ما فعله مع ولده اليزيد، وبالتالي على عزله، بدليل أنه قصده في ملجئه في سيدي عبد السلام بن مشيش وهو مريض في محفة، ومات في طريقه إليه، وهو يهتف بإسمه، لذلك أجمع العلماء على بيعته بعده، وبايعوه.

وخلاصة القول، أن المجالس العلمية السلطانية الخاصة لسيدي محمد ابن عبد الله، كانت عبارة عن ندوات ومؤتمرات متواصلة، بل مجامع علمية اجتهادية، تشريعية أكاديمية عليا، شكلها السلطان من كبار علماء الأقاليم والعواصم لمملكته. فكان يعقد لهم اجتماعات دورية أسبوعية - كل جمعة - تحت رئاسته، لمدارسة الأحاديث النبوية الشريفة بصفة خاصة، وجميع النصوص التشريعية بصفة عامة، للاجتهاد، واستنباط الأحكام، والتنظيمات الضرورية لتقنين البرنامج الإصلاحي الشامل والطموح، الذي أعده المولى محمد بن عبد الله، وما يشمله من المخططات والمشاريع والتعديلات الجديدة، وبالتالي لإصدار المراسم والظواهر والمنشورات المتعلقة بها. في جميع مجالات وقطاعات الحياة، وكذا للاستفتاء وإصدار الفتاوى في العضلات التي تعترض سبيل الأمة، أو في القضايا التي يختلف حولها العلماء بما فيهم أعضاء المجلس المذكور فيما بينهم، أو بينهم من جهة، وبين السلطان من جهة أخرى.

وبتراكم البحوث والعروض الكتابية، ومحاضر الجلسات - التي حرص على تسجيلها بدقة - تطورت هذه المجالس، وأصبحت عبارة عن ورشة للتأليف والتصنيف، في إطار مذهب السني، الذي يتوخى التوسط بين أهل الحديث والسنة والجماعة، وبين أهل العقل والرأي، وبالتالي بين التزمّت والتطرف. مثله في ذلك مثل الإمام الشافعي رضي الله عنه.

أعمال المجالس العلمية التشريعية الاجتهادية :

كانت هذه المجالس العلمية السلطانية التشريعية الخاصة لسيدي محمد ابن عبد الله بمثابة مجالس استشارية دورية، وكان أعضاؤها بمثابة مستشارين له.

بل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك فنقول: إنها كانت تقوم مقام البرلمان باعتبار أن السلطان كان يختار أعضائها من مختلف أنحاء البلاد - كما مر بنا- ثم لطبيعة أعمال هذه المجالس التي كانت تجتهد وتستنبط الأحكام، وتدخل تعديلات جذرية على القوانين، وتصدر الظهائر والمناشير الاقتصادية والاجتماعية والادارية والتربوية الثقافية وغيرها بعد الدراسة والبحث والنقاش والحوار، تحت رئاسة السلطان، وأحياناً بإشراك غيرهم من أئمة علماء العالم العربي والاسلامي.

ولم تكن الدراسة في هذه المجالس لكتب الحديث أو السيرة النبوية أو غيرها من الكتب الدينية دراسة نظرية محضة، كما أنها لم تكن مقصودة لذاتها، بل كانت تستهدف فتح باب الاجتهاد على أوسع نطاق، واستنباط أحكام وتنظيمات جديدة للأمة في جميع ميادين الحياة، بما في ذلك القطاع التربوي والتعليمي، على أن تكون تلك الأحكام والتنظيمات ملائمة لروح العصر ودون أن تخرج عن أحضان الشريعة الإسلامية وتعليماتها.

"وفي هذه المجالس كان يملئ عليهم الحديث النبوي الشريف، ويشير عليهم بتأليفه وجمعه، واستخراج كنوزه من أحكام وغيرها، وهم يقومون بذلك وفق ما يشير عليهم به (52) ."

كما أنه من هذه المجالس العلمية الاجتهادية التشريعية الخاصة انطلقت إصلاحاته الجذرية التي تناولت جميع مجالات الحياة كما تناولت بشكل لم يسبق إليه المناهج، والبرامج والحصص التعليمية، والكتب المقررة للتدريس، وبالتالي حقوق المرأة، واليتامى، والأموال والمعاملات (53)، مما كان في وقته يعتبر نهضة عامة، وسابقة سجلها عهده الزاهر، لكنها هزت الأوساط العلمية والدينية والفكرية بالداخل والخارج، إذ وصلت أصدائها إلى ربوع العالم العربي والإسلامي.

ويتجلى نشاط مجالسه المذكورة في تلك المناشير التي كانت تصدرها دورياً، والتي كان يرسلها إلى قضاته وعماله، التي يستشهد فيها كثيراً

(52) دعوة الحق، ع: 246، ص: 166، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب

الفروع، لعبد الهادي الحسين.

(53) الترجمة الكبرى، للزياني، ص: 13، والاتحاف، لابن زيدان، ج: 3، ص: 164-165.

بالأحاديث النبوية الشريفة -على سبيل التضمنين- مستهدفا إحياء سنة أو إماتة بدعة، ومن ذلك ما كتبه إلى قضاته عندما غالى الناس في المهور وتباهوا بها، مستشهدا بقوله (ص) : " من يمن المرأة، قلة مهرها(54) ". والذي أمر فيه ألا تتعدى المهور أربعين مثقالا، كحد أقصى. وكل ما صدر عن المجالس من منشورات وقوانين وظهائر وغيرها، يعتبر نتيجة إيجابية لأعمالها الجليلة المتواصلة. كما كانت القطرات التي تسبق الغيث النافع، والبداية التي دشنت بها هذه المجالس أعمالها العتيدة.

إصلاح القضاء من خلال مجالسه العلمية :

أهم هذه المنشورات، المنشور المتعلق بإصلاح القضاء (55) الذي وضع له مسطرة جديدة، وجعل السلطة التنفيذية والإدارية في خدمة القضاء، كما تبعته ظهائر ومراسيم عديدة في مجال إصلاح القضاء، على أساس استقلاليته، والفصل بين السلط، وعدم تداخلها مع السلطة القضائية الخاصة.

وقد ضم هذا المنشور أحكاما جديدة، وأخرى معدلة، أرسلها إلى القضاة والعمال والولاية، ليهتدوا بهديها، ويحتذوا حذوها. وفيها يذكرهم بواجبهم، وبعدم الانسياق مع الفتاوى، وبطرد الوكلاء المدلسين، ويوصيهم بالضعفاء.... وبالتالي باتباع الشريعة، والاعتداء بتاريخ السلف الصالح، من الخلفاء الراشدين، والصحابية، والتابعين (56)، مما يعتبر دستورا إسلاميا، يوجه الأمة إلى الطريق السديد اللائق، الموصل لما فيه خيرها وصلاحها، وفلاحها.

وفي إطار اهتمامه البالغ بالقضاء في مجالسه العلمية الخاصة، وبالتالي بنشر العدل، وحرصا منه على تتبع الأحكام الجديدة التي تصدرها مجالسه العلمية -وتضمنها المنشور المذكور- ومراقبة مدى تنفيذ كل ذلك، ونتائجه، كان يراقب أحكام القضاة عن كثب، بواسطة لجان مختصة من العلماء

(54) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ظ.

(55) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 60، ونص المنشور ص: 60-62.

(56) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ج.ط.

أعضاء هذه المجالس، ويعزل كل من ثبت لديه إخلاله بها، أو مجانفته للعدالة من القضاة، بعد أن يحاسبه حسابا عسيرا، بحضور خصومه وضحاياه.

وذلك بواسطة تلك اللجان المختصة المذكورة من علماء مجالسه، التي تستمع لشكاوى هؤلاء الضحايا، وتأمّر العمال بإنصافهم (57).

وكان برنامجه المتكامل لإصلاح القضاء، يتضمن جانبا إداريا، مما سجل به سابقة إيجابية في هذا المجال.

فقد عمل على تكوين القضاة، بأن نظم لهم تكوينا مستمرا بالتدريب الدورية (58).

إن كان يوجه الفقهاء والقضاة المبتدئين إلى الصويرة للتدريس بها ستة أشهر، قبل أن يوليهم القضاء، حيث يرمي عصفورين بحجر واحد، ويحقق هدفين إيجابيين (59).

الهدف الأول : نشر التعليم وتعميمه في جميع أنحاء البلاد، خاصة وأن الصويرة مدينة جديدة، شيدها حديثا، فما كان أحوجها هي ونواحيها إلى هذه الإلتفاتة الأبوية.

والهدف الثاني : أن يهضم القاضي الجديد مادته، حتى تختمر معلوماته. وقد أثبتت التجربة أن الإنسان مهما درس، فإنه لا يتمكن من مادته إلا بعد الممارسة العملية، والتجربة الميدانية، وبالتالي رافة بدماء الناس وأموالهم، وأعراضهم، حتى لا يسلم رقابهم إلى قضاة مبتدئين، يتكونون على حساب مصالحهم.

وكان يحث القضاة والمفتين على نبذ كتب المتأخرين المتشعبة، وأن يرجعوا إلى آراء السلف الصالح، حتى لا يكونوا " كمن يريق الماء، ويتبع السراب " .

فقد ورد في أحد منشوراته (60) : " من أخذ الفقه من مختصر خليل وشروحه، وترك كتب الأقدمين كمن أهرق الماء، وأتبع السراب " .

(57) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ج-ط.

(58) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 36.

(59) المصدر السابق، و ص.

(60) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ج-ط.

إذ كان ينهج نهج الموحدين في وجوب الرجوع في الأحكام إلى الكتاب والسنة مباشرة (61).

ولا بأس من الإشارة إلى أن موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، كان أكثر تسامحا وتفهما من موقف الملوك الموحدين عموما، الذين كانوا يرغمون الناس على ذلك، ولا سيما يعقوب المنصور (62).

ذلك أن سيدي محمد بن عبد الله اكتفى بإصدار المنشورات والمراسيم والظواهر في شأن مصادرة كتب الفروع، لكنه لم يحرقها، ولم يمتحن أو ينكب أحدا من العلماء بسببها، كما فعل يعقوب المنصور الموحد، سنة: 591هـ.

بل إن سيدي محمد بن عبد الله أباح استعمالها كمصادر (63) ومراجع لجهازة العلماء من ذوي الاختصاص والتجربة، والحكمة العلمية، الذين لا ضرر عليهم من ذلك.

إصلاح التعليم من خلال مجالسه العلمية :

لقد اتخذ سيدي محمد بن عبد الله مجالسه العلمية التشريعية منبرا للدعوة إلى الرجوع للمصادر الأصلية للشريعة الإسلامية، وأمهاة الكتب في التدريس، والإفتاء والحكم، وإلى نبذ المختصرات، حتى ألف في ذلك كتبا (64) كان لها أثر بعيد في تطوير برامج ومناهج وطرق وكتب وخصص التدريس (65)، وخاصة بالقرويين.

وانطلاقا من مجالسه العلمية الرشيدة، وضع برامج ومناهج تربوية تعليمية شاملة، لإصلاح نظام التعليم، وأصدر منشورا (66) في ذلك سنة 1203هـ، ويتأمل فصوله وبنوده، تتأكد لنا نيته في الإصلاح، وعبقريته الفذة الخلاقة.

(61) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 31.

(62) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 87.

(63) المصدر السابق، و ج، و ص.

(64) دعوة الحق، ع: 246، ص: 166، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسين.

(65) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 67 ط. دار الكتاب، والمصدر الأول، ص: 166-167.

(66) نصه بالنبوغ المغربي، لعبد الله كتون، ج: 1، ص: 276.

وقد ألزم المطلعين على ذلك المنشور، من العلماء ورجال الدولة، وجميع المواطنين، بتنفيذ بنوده وتعليماته (67).

وكان لبرنامج التعليم والتربوي الجديد تأثير غير مباشر على تطوير أحوال الطلبة، وعقليتهم، ووسائل تعبيرهم، حيث قاموا بالتنافس للتعبير عن رأيهم، والمطالبة بحقوقهم، وذلك سنة 1201هـ، إذ اعتصم خمسمائة طالب "بللا بلقاست"، يختمون السلكة ليلا ونهارا، بعد أن قدموا مطالبهم(68)، المتعلقة بإصلاح أحوالهم، وصون كرامتهم الممتثلة.

وفي هذا المنشور بين ما يجب تداوله واعتماده، سواء في الحكم، أو الافتاء، أو التدريس، من الكتب المؤلفة على مذهب الإمام مالك، باعتبارها سهلة المتناول، ومفيدة.

ونص في منشور آخر أصدره سنة 1203هـ، على أسماء الكتب التي يجب تدريسها. فكتب الحديث، والمسانيد، والفقه، تدرس في المدونة، وكتاب البيان والتحصيل، والمقدمات، والنوادر والزيادات، والرسالة، وغيرها من أمهات كتب المالكية القديمة.

ومنع كتب المختصرات المعقدة، ولا سيما مختصر خليل، وابن عرفة. وحث على الاهتمام بالمصادر المبسطة، كالرسالة، والتهذيب، وأمثالهما (69).

وهذا الرأي طالما رده كبار الباحثين والمؤرخين، وعلى رأسهم أبو بكر بن العربي المعافري، وابن خلدون وغيرهم (70)، قال سليمان الحوات(71): "ولم ينقطع شيخنا (72) عن قراءة مختصر خليل، إلا ما كان أيام السلطان سيدي محمد الحسني، فإنه صدر عنه الأمر-إذ ذاك- بتأكيد

(67) دعوة الحق، ع: 10، ص: 178، 1386هـ-1967م، النهضة العلمية على عهد العلويين، لمحمد العلمي.

(68) تاريخ الضعيف، ص: 192.

(69) الاستقصا، للناصرى، ج: 8، ص: 67، ط: دارالكتاب.

(70) المصدر السابق، و ج، و ص، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 165-166، 1405هـ-1985م، موقف

سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع لعبد الهادي الحسيين.

(71) م. 1231هـ.

(72) محمد التاودي بن سودة.

قراءة التهذيب للبراذعي، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، فامتثل أمر السلطان» (73).

وتدعيما لبرنامج الإصلاح التربوي التعليمي منع كتب الفروع، والكلام، والجدل والخلاف، وعوضها بكتب الأصول، والحديث، وبعث المنشورات بذلك إلى كافة العلماء بجميع أرجاء البلاد، مؤكدا عليهم في وجوب اتخاذ الكتاب والسنة المرجع الوحيد، والأول والأخير في مجال التشريع، والقضاء والحكم، والتعليم والتدريس.... امثالاً لقوله تعالى : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (74).

وفي هذا الصدد نظم الدراسة بالقرويين سنة، 1203 هـ، باعتبارها من أهم وأغزر روافد مجالسه العلمية.

فجدد مناهج التعليم بها على الأسس المذكورة آنفاً، معتمدا العقائد السلفية، والتشريعات السماوية والنبوية.

كما أصدر منشورا سنة 1203 هـ (75)، وحدد فيه مايباح تدريسه من العلوم والكتب، وما يمنع منها (76) حيث قرر تدريس بعض أمهات الكتب بالقرويين، التي لم تكن مقررة بها من قبل (77).

ذلك أنه كان يرى أن اعتكاف طلاب العلم على دراسة المختصرات (78) في الفقه وغيره من المواد العلمية، وتركهم التعامل مع أمهات المصادر الأصلية الواضحة مضيعة للوقت وللأعمار، ولا جدوى منها.

لذلك منع المختصرات، ولا سيما مختصر خليل، وابن عرفة المتداولين -كما سبق القول-، وتشدد في ذلك حتى تركها الناس، ولذلك أيضا حث على كتب الأصول، كالرسالة، والتهذيب -كما مر بنا-.

(73) الروضة المقصودة، م.خ.ع، بالرباط، رقم : 2211، ص: 307، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 166،

1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسين.

(74) سورة : الحشر، الآية : 7.

(75) نصه في الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 60-62.

(76) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 60-61، ونص المنشور، ص: 60-62.

(77) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 67، ومقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: .

(78) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 31.

كما وجه إلى علماء القرويين منشورا آخر في نفس المعنى يحدد لعلمائه ما يجوز لهم تدريسه للطلبة منها، ومنه -بتصرف- : "وأول ما يجدر بالعلماء تدريسه : كتاب الله الكريم، مع إدراك كنهه وأحكامه (79). وبعده يدرسون السنة النبوية الشريفة في كتب الصحاح، والمسانيد. ويجوز تدريس الفقه في الدرجة الثالثة، شريطة الابتعاد عن المختصرات والفروع، وتوخي أمهات المصادر، كالمدونة، والبيان والتحصيل، ومقدمة ابن رشد، والجواهر لابن شاس، والنوادر، والرسالة لابن أبي زيد (80) "

أما مختصر خليل، فيجب تجنبه ما أمكن، ومن اضطر للرجوع إليه، فليقتصر على شرح بهرام الكبير، والمواق، والحطاب، والشيخ علي الأجهوري، والخرشي الكبير، دون غيرها (81).

ويجب تجنب علم الأصول أيضا، مع الاكتفاء في علم الكلام بعقيدة ابن أبي زيد باعتبار أن علم الكلام يغض من قدر العالم الوقور الجليل "

وبذلك كان أول من فكر في إصلاح التعليم عموما، ونظامه بالقرويين خصوصا. كما اهتم بجامع السنة بالرباط وطلبته، ودراستهم وأحوالهم فرتب لهم الرواتب، وكان يصلي فيه فيتفقد أحوالهم دائما، ويزودهم بالطعام يوميا، ولا يفارق طلبته، طيلة مقامه بالرباط .

وهنا لا بأس من التأكيد على أنه توصل إلى الأخذ بهذا المذهب وتلك العقيدة باجتهاده الذاتي الخاص، مع علماء مجالسه العلمية، دون أي تأثير بنظريات وآراء محمد بن عبد الوهاب، التي لم تصل أصداؤها إلى المغرب، إلا أيام ولده المولى سليمان (82).

وتتويجا لأعمال مجالسه العلمية، ولبرنامج الإصلاح العام، وتأكيدا لرأيه وموقفه ومذهبه الوسط، بين الإفراط والتفريط، ألف المولى محمد بن عبد الله كتبا، جمع فيها بين محاسن الأصول والفروع، وبين النصوص

(79) م. الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: و - ز

(80) مساند الأئمة تحقيق الفريد البستاني، ص: 14، منشورات مؤسسة فرانكو للأبحاث العربية

والإسبانية السلسلة : 1، رقم: 3

(81) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ب-ك.

(82) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 14-15.

الحديثية والفقهيّة، في محاولة للتوفيق بينهما، والجمع بين الحسنيين، ككتاب مساند الأئمة، والفتوحات الإلهية، وغيرهما.
وتعزيزا لبرنامج التربيّ التعليمي، ألف -بمساعدة علماء مجالسه العلميّة الخاصّة- كتابه (83) "مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان"، الذي يعتبر ثورة في مجال التعليم بالنسبة لعصره، وقبل النهضة الحديثيّة بقرن ونصف القرن، مساهما بذلك في تطوير مناهج التعليم والتصنيف على السواء(84).

مذهب المولى محمد بن عبد الله في مجالسه العلميّة :

كان المولى محمد بن عبد الله، رغم أعباء الملك ومسؤولياته، عالما كبيرا، فقام بدور المصلحين المجددين، انطلاقا من مجالسه العلميّة النيرة.

فكان يحض الناس على الإعتصام بمذهب السلف، والإقتصار على العقيدة المأخوذة من ظاهر الكتاب والسنة، دونما أي تأويل، وذلك على مذهب جماعة من الأئمة المجتهدين الكبار: كالإمام أحمد بن حنبل، وداود الظاهري، وابن حزم، وابن القيم الجوزية، وأتباعهم.

فقد أعلن موقفه من علم الكلام صراحة، موضحا أن العقيدة يجب أن تكون بسيطة ، تنسجم مع الفطرة، وتقبلها عقول العامة. لذلك فضل طريقة الحنابلة في علم الكلام، باعتبار أن ابن حنبل قطع طريق الخوض في علم الكلام، سدا للذرائع كلها (85).

لذلك كان ينهى العلماء عن الخوض في علم الكلام، على طريقة المتأخرين(86). كما كان ينهاهم عن قراءة كتب

(83) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 67، ط: دار الكتاب.

(84) دعوة الحق، ع: 5، س: 10، ص: 178، 1386هـ-1967م، النهضة العلميّة على عهد العلويين، لمحمد العلمي.

(85) دعوة الحق، ع: 246، ص: 146، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسين.

(86) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 68، ط: دار الكتاب، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 146، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسين، والنهضة العلميّة، لابن زيدان م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 32.

التوحيد (87) المؤسسة على القواعد الكلامية، ويحثهم على قراءة رسالة ابن أبي زيدان القيرواني المبسطة وأمثالها.
وصرح في مقدمة كتابه الفتوحات الإلهية، مؤكداً على: "أنه مالكي مذهباً، حنبلي اعتقاداً (88)".

ويعقب قائلاً (89): "افتتحت كتابي بعقيدة الإمام محمد بن أبي زيد القيرواني. التي ابتدأ بها رسالته، لما اشتملت عليه من الفوائد الدينية، وسلامة قواعدها من القوادح الواردة على غيرها من الكتب التي صنفت في علم العقائد".

وأعمال مجالسه العلمية كلها كانت تصب في هذا الاتجاه، وله في ذلك أخبار طريفة في محاولته اختيار بعض خدامه (90).

وشبه الإمام الغزالي علم الكلام في كتابه "الإحياء" بالدواء، لا يتوقف عليه الإنسان إلا إذا أصيب بمرض، وبالتالي فلا يلجأ إليه إلا عند وقوع البدع، وانتشارها في البلاد (91).

وفي إطار مذهبه السلفي، وتحقيقاً لأهداف برنامجه الإصلاحية الشامل، وانتهاجاً لمسلك أجداده الملوك العلويين، عمل على محاربة البدع والشعوذة التي كانت سائدة في عهده، وعلى مناهضة بعض الطرق والزوايا التي حاول بعض أصحابها آنذاك الخروج عن النهج الذي تسير عليه من التوجيه والإرشاد الديني والاجتماعي، والتطلع إلى السلطة والحكم، (92) مما اقتضى منه اتخاذ موقف الحزم والصرامة إزاءهم، بهدف التزامهم طريق الجادة والوضوح، وبغية الحفاظ للبلاد على الاستقرار والوحدة التي كانت الهدف الأول لجميع ملوك هذه الدولة العلوية الشريفة (93).

(87) الحل البهية، للمشرقي، ص: 159-160.

(88) المصدر السابق، ص: 160-163.

(89) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 68، ط: دار الكتاب، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 165.

1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسين.

(90) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة: 243-244.

(91) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 68.

(92) إتحاف أعلام الناس ج: 1، ص: 153-161.

(93) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 17.

نشاط مجالسه العلمية على الصعيد العربي والإسلامي وغيره :

كان سيدي محمد بن عبد الله حريصا على الوحدة العربية الإسلامية، عاملا على تمتين أواصرها على صعيد الدول والشعوب، متطلعا إلى تحقيق الأخوة الإنسانية، والسلام العالمي المادي والمعنوي، وبالتالي كانت له رغبة أكيدة في التعاون الثقافي والعلمي، المتبادل مع علماء المسلمين بالأزهر الشريف، وغيره من الجامعات الإسلامية الكبرى، وخاصة في مجال القضاء والتعليم، واضعا نواة المجمع العلمي العربي الإسلامي في هذا المجال، متطلعا إلى فتح باب الاجتهاد على الصعيد الإسلامي....

وذلك في تواضع العلماء التلقائي، النابع من تحليه بالروح العلمية السمحة، والعملية التواقة الوثابة.

وفي هذا الصدد وجه المنشورات المهمة التي أصدرها، والمتعلقة بإصلاحاته الجذرية المختلفة - ولا سيما في مجال إصلاح القضاء والتعليم - إلى علماء الأزهر الشريف بمصر، طالبا مراجعتها من طرفهم، وتقييمها على أساس النقد العلمي النزيه، والبناء الهادف، بوضعها على محك الشريعة الإسلامية، لمعرفة مدى صوابها أوخطئها، وبالتالي مدى تطابقها مع نصوصها وتعاليمها، وتسجيل إيجابياتها وسلبياتها، وإرجاع ذلك إليه، واعدة مقدما بتقبل نتائج الدراسة والبحث، والامتنثال لتعليماتها، وتطبيق توجيهاتها وتوصياتها، مشرطا أن يوقع علماء الأزهر كل ذلك، بيراعهم وخط أيديهم.

ومما جاء في كتابه (94) الذي رفعه إلى علماء الأزهر، مع المنشورات المذكورة : ".... نريد منكم أن تطالعوا مسائل أخرى مذكورة من هذا الدفتر يمينته. - وقد أمرنا قضاة المغرب أن يحكموا بها - فما كان منها على صواب، أثبتوه، واكتبوا عليه بخطوط أيديكم، وما كان منها على خطأ، اكتبوا عليه بخطوط أيديكم، في الدفتر المذكور ليرجع عنها. ووجهوا لنا الكناش بعينه، وعليه خطوط أيديكم".

وفي هذا الإطار راسل علماء الأزهر بمصر - مرة أخرى - يستفتيهم في شأن من يقدر في النبوة، وفي النبي (ص)، أو في الصحابة رضي الله عنهم، وبالتالي في شأن من يقدر في المقدسات الإسلامية كلها. فجاءه الجواب بتحريم كل ذلك (95).

(94) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 62.

(95) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 62.

وقد قرظ علماء الأزهر نهضته العلمية، وبرامجه الإصلاحية، ونوهوا بمجالسه العلمية التشريعية النموذجية، ونبوغ علمائها.

وعلى رأس علماء الأزهر الذين راسلوه في هذا الصدد : العلامة محمد بن محمد الأمير المالكي الأزهري، والشيخ محمد بن عبد الله المعطي الحريري الحنفي الأزهري (96).

وكانت المكاتبة والمشاورة متبادلة ومتواصلة بينه وبين علماء الأزهر المصريين وغيرهم - عبر مجالسه العلمية السلطانية الخاصة - الذين يطلعهم على آرائه ونظرياته ومشاريعه ومخططاته العلمية، وبالتالي على برنامجه الإصلاحي في هذا الباب.

كما كانوا يوقعون مؤلفاته، أو يذيلون توقيعهم بتقريظها، والتنويه بقدراته العلمية (97).

ومن جهة أخرى كان يصلهم بالهدايا السنوية، فيجيبونه برسائل الشكر والامتنان، والاعتراف بمكانته العلمية والدينية.

ومن علماء مصر الذين شملتهم صلاته : الشيخ مرتضى الزبيدي، شيخ الحنفية، الذي شرح القاموس في عشرة أسفار (98)، وشيخ المالكية أحمد الدردير، الذي قبل هديته شاكرًا ممتنًا (99).

ومن مظاهر هذا التعاون والتبادل والتفاعل الثقافي بين أئمة علماء مجالسه العلمية، وبين شيوخ العلماء بالعالم العربي والإسلامي - ولا سيما بالشرق - نجد النشاط العلمي المعروف للعلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي (100).

وفي هذا النطاق، وتعزيزًا لهذا التعاون والتوادد الثقافي أرسل مجموعة ضخمة من الكتب الأدبية والتاريخية وغيرها، " لابن خلدون، وابن خلكان،

(96) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ص-م.

(97) المصدر السابق، ص: ب-ن.

(98) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 39-40، وعجائب الآثار، للجبerty، ج: 3، ص: 203، والاتحاف، ج: 2، ص: 225-233، والروضة السليمانية، للزياني، ص: 143-144.

(99) المصادر السابقة كلها، والأجزاء والصفحات نفسها، لكن شيخ الحنفية رفض الهدية.

(100) نشر المثاني، ج: 4، ص: 143-149.

وقلائد العقيان، والأغاني، ونفح الطيب، وتأليف ابن الخطيب.... ووجهها مع الكاتب الصنهاجي، ليوقف بعضها بمصر، وبعضها بالأسكندرية(101) ".

وهي الكتب التي كانت بخزانة ولده وخليفته على فاس، المولى علي -مما سيأتي تفصيله-.

ومن أبرز مظاهر هذا التعاون الديني والثقافي والفكري بين علماء مجالسه العلمية، والعالم العربي والإسلامي في عهده -والذي كان يحرص على تنميته وتكريسه- ذلك التواصل المستمر بين علماء مجالسه العلمية من جهة، وبين علماء وشرفاء الحرمين الشريفين بالحجاز من جهة أخرى. فقد كانت هداياه وصلاته لا تنقطع عن علماء وطلبة بيت الله الحرام، والمدينة المنورة (102).

وما زالت جل أوراقه وكتبه التي حبسها على الحرمين الشريفين موجودة وشاهدة على أريحيته الهاشمية (103).

ومن هذه الصلات المسترسلة، ما كان يرسله لعلماء وأشرف مكة والمدينة المنورة والحجاز واليمن، مع ركب الحجاج كل سنة، من هبات مالية على وجه الهدية، وخاصة سنة 1187-1189هـ، حيث بلغ قدرها خمسين وثلاثمائة ألف ريال، موزعة في أحقاق على حدة، كل واحد يحمل اسم صاحبه.

وكان يرسل ذلك مع وفد خاص، يرأسه ابن عمه وصهره عبد الله بن إدريس، وعضوية كاتبه : محمد بن عثمان، وعمر الزيرق، وشيخ ركب الحجاج المغاربة -إذ ذاك- عبد الكريم بن يحيى (104).

ذلك أنه رتب لأهل الحرمين الشريفين، وعلماء وشرفاء الحجاز واليمن، مائة ألف مثقال في السنة (105).

(101) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 64، تحقيق عبد الكريم الفيلاي.

(102) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 39-40، وعجائب الآثار للجبرتي، ج: 3، ص: 203، والإتحاف ج: 2، ص: 225-233.

(103) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 70.

(104) الروضة السليمانية للزياني، ورقة 143-144.

(105) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 70.

كما كان يخص الشرفاء العلويين الحضرميين بالحرمين الشريفين بعنايته ورعايته الخاصة، ويغدق عليهم النعم بالهدايا والصلوات والهبات.

من ذلك أنه أرسل إليهم أواخر القرن الحادي عشر مائة ألف ريال لتوزع عليهم. فأضاف إليها أمير الحجاز الشريف سرور -صهره- ستين ألف ريال، قبل أن يوزعها عليهم (106).

وفي هذا الإطار بعث سفيره الحاج المكي كركاش الرباطي بصلات نقدية قيمة، لعلماء وشرفاء الشام، وبيت المقدس، ومكة، والمدينة المنورة، بلغت مائتي قنطار (107).

وتلك كانت سنته المتبعة مع علماء المغرب - ولاسيما علماء مجالسه العلمية - وشرفائه من باب أولى وأحرى (108).

وقد كان يصدر ظهائر بذلك كظهير توريث الشرفاء الأدارسة الصرحاء مال المنقطعين، وجباية الأعشار الذي سجله في حوالة القرويين (109). كما رتب لعلماء وأشرف تافيلالت ألف مثقال سنويا، ولعلماء المغرب وشرفائه بأسره، مائة ألف مثقال (110).

وعمل على تعزيز روابط الأخوة والمودة بينه وبين حكام الحرمين الشريفين، وبالتالي بين المغرب والحجاز بأواصر القرابة والدم، وذلك بمصاهرته لسلطان مكة الشريف سرور (111)، الذي زوجه ابنته، كما زوج أختها لولده سنة 1182هـ.

ورافق موكب العرس إلى الحجاز ولداه الأميران: علي وعبد السلام، مع هدايا لأمرء مصر، وطرابلس، والحرمين الشريفين، وأموال طائلة لعلماء وأشرف الحجاز واليمن، وجوائز سنوية لكبار العلماء، والموظفين وغيرهم.

(106) (حاضر العالم الإسلامي)، لو ثروب تودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، المجلد : 2، ص : 168.

(107) الروضة السليمانية للزياني، ص : 143-144.

(108) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ص : 113.

(109) المصدر السابق، وج، وص.

(110) الإستقصا للناصري، ج : 8، ص : 70.

(111) الحلل البهية، للمشرقي، ص : 163-171.

زيادة على مجوهرات كثيرة وثمانية للعروستين، كما بعث في ركاب موكب العرس كبار علماء مجالسه العلمية، والوجهاء، وأمراء القبائل، بالخيول والسلاح والشارة، مما ظل مضرب الأمثال هنالك دهرا (112).

وقد توفيت إحدى الأميرتين المغربيتين بمكة، ورجعت الأخرى إلى المغرب بعد وفاة زوجها - مع أخيها اليزيد سنة 1202هـ (113) -.

ومن منطلق التعاون والتبادل الفكري والعملية والديني وغيره، بين علماء مجالسه العلمية، وعلماء العالم الإسلامي، حرص سيدي محمد بن عبد الله باستمرار على ربط أمتن الصلات مع الدولة العثمانية بصفة عامة، وعلمائها وكتابها بصفة خاصة. فكان يكتبهم ويراسلهم ويهاديهم.... وكان العثمانيون يخاطبونه في مراسلاته، مخاطبة السادة الأنداد الأكفاء (114).

ومما يؤكد الأواصر العلمية لهذه الروابط، هدية السلطان عبد الحميد إلى سيدي محمد بن عبد الله، التي كانت عبارة عن سفر كبير، يجمع بين الموطأ للإمام مالك، وصحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم، والمسانيد الستة، والشمائل، وعمل اليوم والليلة.

وقد سر بها - رحمه الله - أيما سرور (115).

ومما وطد دعائم هذه العلاقات العلمية السامية مع الدولة العثمانية، سفارات العلامة المؤرخ الكبير أبي القاسم الزياني إلى القسطنطينية، وهو من أكبر علماء المغرب وفقهائه، وكتابه، ووزرائه، ومؤرخيه.

وقد أخذ عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الذي أجازته - كما مر بنا -.

فخلال هذه السفارات، اجتمع العلامة الزياني وبقية أعضاء وفوده من العلماء، بعلماء القسطنطينية (116). وفي مسجدها العتيق، اجتمع بإمامه

(112) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 34.

(113) تاريخ الضعيف، ص: 193.

(114) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 163-171، والاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 68.

(115) دعوة الحق، ع: 1 و2، س: 19، ص: 131-132، 1398هـ-1978م.

(116) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 153-154.

وخطيبه الولي الصالح مبارك بن عمر الصائفي، وبالعلامة الصوفي أبي الحسن علي بن مسعود الوسيني، الذي ذكره وحاضره كثيرا، وبالفقيه القاضي أبي عبد الله سيدي الحفصي العلمي، الذي استضافه. وبالغ في إكرامه، وبالعلامة، أبي القاسم المحتالي، الذي أضافه وأكرمه، وبالمفتي العلامة أحمد بن مبارك العلمي، والعلامة محمد المجاري الخوجة، الذي أنسه وأكرمه وأخذ عنه أورادا، والكاتب محمد بن كشك، الذي كان مقربا من الباي، لكنه نكبه فيما بعد.

وقد عقد باي القسطنطينية مجلسا علميا لعلماء بلاده، واستدعى له أبا القاسم الزياني ووفده، وقال له حين استقباله: "أردت أن تشرفنا بحضورك (117)".

وظل يستدعيه كل جمعة لحضور مجالسه المختلفة، مع علمائه، وأدبائه وندمائه، لإيناسه ومسامرته.

وكان الباي يؤاكله في مقصورة محفوفة بمظاهر الثراء، وعلى أنغام الموسيقى، معظما مبعلا، حيث يقوم للقاءه (118)، ويجلسه بجانبه، ويأمر الجميع بالقيام للقاءه.

ومن مواقفه الخالدة التي تشهد بصدق مشاعره الإسلامية السامية، وبروحه المثقفة الواعية، ونبل مقاصده وأهدافه الإسلامية البعيدة، وعمله على تحقيق الجماعة والوحدة الإسلامية، أنه في إحدى حركاته التفقدية بتايفالالت سنة 1199هـ، سقط عليه الثلج في الطريق، فتبعثر موكبه، وتفرق جنده، وكان ذلك صبيحة عيد الأضحى.

وفي الغد أصبح عيد الأضحى، فخطب في الناس بنفسه، ودعا للسلطان عبد الحميد بن أحمد العثماني (119).

وهذا لعمري منتهى التواضع والنبل، والتسامي والترفع....

ومن مآثره التي تستحق الذكر في سجله الإسلامي الحافل، أنه مر سنة 1198هـ، برباط شاكر - من أصحاب عقبة بن نافع - رضي الله عنه -

(117) المصدر السابق، ص: 153.

(118) المصدر السابق، و ص.

(119) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 53-54، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة: 143.

الذي كان مجمعا للمجاهدين المرابطين الصالحين، فأمر بتجديد مسجده (120).

ومن أهم أعماله - في إطار مجالسه العملية - التي تعتبر سابقة إيجابية على الصعيد الديني وبالتالي الإنساني والدولي، اتفاهه مع لويس السادس عشر (121) على إلغاء الرق بين المسلمين والمسيحيين، كخطوة أولى نحو العمل على إلغائه نهائيا، وذلك سنة 1777م. " حتى صار يضرب به المثل لسمو أخلاقه، وثقافته، وكرمه... عند ملوك الإسلام والروم".

مؤلفاته في إطار مجالسه العلمية :

كان لسيدى محمد بن عبد الله الفضل في نشاط حركة التأليف في هذا العصر، انطلاقا من مجالسه العلمية الخاصة، وكناتج حتمية لها. وتمثل حركة التأليف، مرحلة متطورة ومتأخرة لأعمال هذه المجالس، على عهده (122).

ويصف لنا الزيانى (123) كيفية تطور حركة التأليف ومراحلها باختصار جامع مانع في قوله : " كان علماء مجالسه الخاصة يحضرون مجلسه بعد صلاة الجمعة. للمذاكرة في الحديث، إلى أن صار يؤلف فيه على مقتضى غرضه، وعين لذلك من يستخرج له ما يريد".

وكان يرأس مجالس التأليف شخويا وعمليا، ويشارك في أعمالها مشاركة فعالة، ويوجهها حسب نظرياته، ويوظفها لخدمة أهداف برنامجه الإصلاحى العام، وسائر مشاريعه، ومخططاته....

كما عمل على تطويرها، وطبعها بطابعه الخاص، سواء من حيث شكلها وآدابها وعاداتها، وتقاليدها، أو من حيث إدارتها وسيرها، أو من حيث إنتاجها وإبداعها وتصانيفها (124)....

(120) الاستقصا، للناصرى، ج: 8، ص: 53-54، والروضة السليمانية، للزيانى، ورقة 143.

(121) المصدر السابق، م ج، ص: 197.

(122) نشر المثنى، للقادرى، ج: 4، ص: 130-131.

(123) الترجمانة الكبرى، للزيانى، ص: 63، تحقيق عبد الكريم الفيلالى

(124) الاستقصا للناصرى، ج: 8، ص: 66.

ولم يلبث -بمواظبته على عقد هذه المجالس واحتكاكه الدائم بأئمة وشيوخ علمائها، وإكبابه على الدراسة المعمقة لكتب الحديث والسيرة وغيرها في أحضانها، ومشاركته الفعالة في الدراسة والبحث، والمناظرة والجدال داخلها- لم يلبث بكل ذلك أن " أدرك ملكة التأليف، وحل الأمر العسير، وتمنى أن يكون سائر عمره أمضاه في هذا الأخير (125) ".

والواقع أنه حصل له تكامل في الملكة العلمية عموماً، باعتبار الملكة اللغوية والأدبية التي اكتسبها في شبابه بمجالسه الأدبية الأميرية بمراكش(126).

و هذا لا يمنع من استعانته بخبرة ورأي جهابذة علماء مجالسه العلمية، في تأليفه و تصنيفه، رغم انفراده بالتنظير و التخطيط، و التأطير، والرئاسة العملية المباشرة في التطبيق و التنفيذ، " و كثيرا ما كان يفاوض هؤلاء الأعلام في تأليفه، و يأخذ رأيهم، و يستفتيهم في ذلك " (127).

و الذي ساعده على التأليف، أنه كان يسجل أهم ما يروج في مجالسه العلمية المختلفة، من مذاكرات، و مباحثات، و مناظرات و غيرها في محاضر خاصة، أصبحت بمرور الأيام نواة وروافد غنية غزيرة لما نشره من مؤلفات، كانت لها أصداء طيبة داخل البلاد و خارجها.(128)

و يظهر انه كان يعمل داخل مجالسه العلمية الخاصة بطريقة اللجينات والخلايا، المختصة، أو بطريقة المعامل -بلغة العصر-

و هكذا سارت أعمال مجالسه العلمية الخاصة سيرا طبيعيا منطقيا على طريق التجديد و التطوير المرحلي التدريجي، حتى نضجت تجربتها، و كثرت مادتها، و تضخم رصيدها، فأفضت بتلقائية عفوية الى مرحلة التأليف الناضج المتكامل، المنطقي الموضوعي، و المسؤول.

(125) الدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، ص: 189، م.خ.م، رقم : 1920.

(126) أيام خلافته عن والده بمراكش.

(127) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 63، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، ومساند الأئمة، تحقيق،

الفريد البستاني، ص: 12، منشورات مؤسسة فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية -سلسلة:

1- رقم:3، ومقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ف.ن.لا.

(128) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين،

وفي إطار هذه المجالس، وعلى المستوى الرفيع للتأليف والتصنيف، ألف عدة كتب (129) زواج فيها بين الأصول والفروع، والنصوص الفقهية والحديثية، انطلاقاً من مذهبه وعقيدته، وبالتالي تنفيذاً لبرنامج وأهدافه الإصلاحية السامية.

وأهم كتبه المؤلفة كانت في الحديث النبوي الشريف، بإعانة كبار العلماء الملازمين لمجالسه العلمية الخاصة وغيرها. وفي ذلك يقول المشرفي (130): "ألف كتباً في الحديث، قلَّ أمثالها في القديم والحديث، وذلك بإعانة بعض العلماء الملازمين لمجلسه للمذاكرة فيه.... ولم يسبق بمثل هذا" (131) أي بمنهجيته.

وأهم هذه الكتب وأشهرها على الإطلاق :

- مساند الأئمة الأربعة، وهو كتاب قيم، التزم ألا يخرج فيه من الحديث إلا ما اتفق على روايته الأئمة الأربعة، أو ثلاثة منهم، أو اثنان. فإذا انفرد به إمام واحد، أو رواه غيرهم لم يخرج، وهذا ما لم يسبق إليه في هذا الباب (132).

- الفتوحات الإلهية - الصغرى والكبرى - الذي انتهى منه سنة 1198هـ (133)، وحبس أوقافاً على تدريسه (134).

- الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد، أتمه سنة 1200هـ، وقرظه علماء مصر، وعلى رأسهم الشيخان: محمد بن عبد المعطي الحريري الحنبلي، ومحمد بن محمد الأمير المالكي (135).

(129) اقتطاف الأزهار من حقائق الأفكار، لعبد السلام ولده.

(130) الحلل البهية للمشرفي، ص: 158-159 و162، والاستقصا، للناصرى، ج: 8، ص: 66.

(131) الحلل البهية، ص: 162.

(132) الحلل البهية للمشرفي، ص: 162، والاستقصا للناصرى ج: 8، ص: 66.

(133) دعوة الحق، ع: 246، ص: 166-167، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسين.

(134) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط رقم 3177، ص: 41، ونسخة خزانة القرويين، قسم الذخائر م، رقم: 745.

(135) نسخة خزانة القرويين م، رقم: 146.

- مواهب المنان. مما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان، أنها سنة 1203هـ (136).

- الفتح الرباني، أخرج فيه ألفي حديث، سنة 1204هـ (137).
ومؤلفات سيدي محمد بن عبد الله بمستواها العلمي الرفيع، إن دلت على شيء فإنما تدل على ازدهار الحركة الفكرية والعلمية بالمغرب، وتطورها، وخروجها من طور التقليد إلى طور الإبداع والتجديد (138).
ولم يكتف سيدي محمد بن عبد الله بالتأليف من خلال خلايا ولجان مجالسه العلمية، ورئاستها، والمشاركة الفعالة الرائدة في سائر أعمالها ومؤلفاتها، بل شجع على التأليف بإصداره الأوامر لكبار علماء مجالسه العلمية بتأليف كتب معينة - كل في مجال اختصاصه - وحفزهم على ذلك بالجوائز السنوية، وبإذكاء روح المنافسة بينهم في ذلك بشتى الوسائل الترغيبية المادية والمعنوية، حتى ألفت كتب عديدة في مختلف أنواع العلوم.

وهذه أسماء أهم الكتب التي أمر بتأليفها :

- كلف الشيخ التهامي بن عمر، بشرح الأربعين النووية.
- أمر الأديب أحمد الغزال بتدوين رحلته (139) عن سفارته بالأندلس.
- أمر الفقيه العلامة سيدي عبد الله فنيش السلاوي بوضع شرح على مقدمة ابن آجروم في النحو. وقد ذكر في مقدمته سبب تأليفه (140)، وهو أنه أراد لتدريس ولده المولى هشام بن سيدي محمد بن عبد الله.
- أمر ثلاثة من كبار العلماء بشرح مشارق الأنوار للصغاني (141) وهم: الشيخ التاودي بنسودة، والعلامة عبد القادر بوخريص، والحافظ إدريس العراقي.

(136) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 13، تحقيق عبد الكريم الفيلاي.

(137) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ص-م.

(138) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 42.

(139) دعوة الحق، ع: 1 و2، س: 19، ص: 131-132، 1398هـ-1978م.

(140) الإتحاف الوجيز للدكالي، ص: 126-127.

(141) الإمام المحدث الحافظ أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن، المولود سنة 555هـ، م.650هـ.

فشرح الشيخ التاودي بنسودة الثلث الأول منه، وشرح الشيخ عبد القادر بوخريص الثلث الثاني، وشرح الثلث الأخير الحافظ إدريس العراقي، لكن وافته منيته قبل إتمامه، فأمر سيدي محمد بن عبد الله ولده عبد الله العراقي بإتمامه، فأتمه (142). وجاء الشرح في عدة أسفار.

- أمر ابن عمه محمد (فتحا) بشرح قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ...﴾ الآية، فشرحها (143).

- وكلف كاتبه ابن عثمان بكتابة رحلته الحجازية، فكتبها، وسماها "أحراز المعلى، أو الرقيب".

- كلف آخرين غير هؤلاء بتأليف كتب أخرى عديدة (144).

وكانت مجالسه العلمية الخاصة لا تتوقف، حتى أيام سفره وترحاله وظهره في النزهة والحركات الأخرى، في السراء والضراء. وبالتالي كانت حركة التأليف تواكب هذه المجالس العلمية المتحركة المتنقلة (145).

ففي رحلته الربيعية للاستجمام، سنة 1198هـ، أخذ معه العلماء أعضاء مجالسه العلمية الخاصة -المذكورين- فكان يعقد لهم جلسات عمل طيلة الرحلة، حسب النظام المتبع في إقامته، ودونما أي تأخير (146).

وهذا ما يؤكد لنا أنه كرس أوقاته لخدمة الشريعة الإسلامية، ولا سيما الحديث النبوي الشريف، حتى في أوقات راحته واستجمامه (147).

ولم يكتف بمجال التأليف، بل شجع استنساخ الكتب، فأمر عددا من علماء مجالسه العلمية باستنساخ عدد من الكتب المهمة، ومن ذلك :

(142) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 59-60، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 42-43.

(143) المصدر السابق، و ص، وفهرسة الشريف العلمي بن محمد الصادق بن ريسون، سورة الأنفال، الآية: 60.

(144) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: س-ط : 2.

(145) الاستقصا للناصري، ج: 8- ص: 54.

(146) الروضة السلیمانیة للزیانی، ورقة: 121-126، والاستقصا، ج: 8، ص: 54، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة: 135، والبستان الطريف، للزياني، ص: 116، م.خ.م، بالرباط، رقم: 1577.

(147) البستان الطريف، للزياني، م.خ.ع، بالرباط، رقم: 1577، ص: 177.

- كون لجينة من أربعة علماء كبار - من علماء مجالسه العلمية -
وكلفهم باستنساخ نسخة ممتازة من كتاب البيان والتحصيل،
لابن رشد.

وأمر كاتبه وسفيره محمد الغزال، بالاشراف على توثيقها
وتحقيقها(148).

ومن اهتمام سيدي محمد بن عبد الله بالتأليف ومساهمته فيه، وعن
مؤلفاته يقول معاصره أبو محمد عبد السلام بن الخياط القادري :
".... وكان إماما من علماء الإسلام، له تصانيف تقرأ بالشرق
والمغرب(149)".

علماء المجالس العلمية الخاصة :

لقد شكل سيدي محمد بن عبد الله مجلسه العلمي الخاص بطريقة
انتقائية نخبوية، فكانوا صفوة الصفوة، وأحسن ما في الأحسن.

فقد جمع كبار العلماء من جميع أنحاء المملكة، ثم اصطفى أئمتهم
وشيوخهم، واختارهم لمجالسه العلمية الخاصة حتى يجالسهم، ويذاكرهم،
ويباحثهم، في دراسة الحديث النبوي الشريف، دراسة علمية استقرائية
واستنتاجية، ويعملوا على توظيفه لخدمة برنامجه الإصلاحية الشامل
العام.

وكان يتولى اختيار هؤلاء العلماء بنفسه، بعد أن يختبرهم واحدا واحدا
شخصيا.

أما الأئمة والشيوخ الكبار، فكان يكتفي باستدعائهم إلى عاصمته،
ويضمهم إلى مجلسه دون اختبار.

ويصور لنا القادري (150) هذه الطريقة في اختيار علماء مجالسه بقوله:
".... ولم يلبث أن دخل فاسا -على حين غفلة من أهلها-.... ثم استدعى

(148) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 32.

(149) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 56.

(150) نشر المثاني، ج: 4، ص: 125.

علماء فاس لمحلته فجمعهم قاضي فاس عبد القادر بن العربي بوخريص
الكامل، وعددهم أربعة وعشرون، ومراتبهم على ثلاث طبقات....
فجلسنا معه فذاكرنا في أنواع العلوم، كل واحد في فن مهرفيه ".

وجملة القول أن علماء مجالسه الخاصة كانوا من الحضرة والمدرة، نقلهم
إلى مراكش، وفرقهم على مساجدها للتدريس بها طيلة الأسبوع، حتى إذا
كان يوم الجمعة، حضروا معه الصلاة، ثم اجتمعوا به في مجالسه الحديثية
الأسبوعية الخاصة (151)، للدراسة والبحث في الحديث، ومن هؤلاء العلماء
الذين نقلهم إلى مراكش من جهات أخرى، العلماء السادة: عبد الله المنجرة،
ومحمد بن الشاهد من فاس، أحمد بن عثمان من مكناس، محمد بن عبد
الرحمن الشريف من تادلة، الطاهر بن عبد السلام من سلا(152)، وغيرهم.
ويفصل لنا الزيانى(153) ذلك قائلاً: " لما قلده الله أمر المسلمين -بعد
موت والده -ترك ذلك - الأدب والتاريخ - وولع بسرده كتب السيرة
والحديث، وجلب المحدثين من فاس ومكناس، ونقلهم لمراكش، كالعلامة
الشريف مولاي عبد الله المنجرة أخي مولاي عبد الرحمن، والسيد محمد بن
عبد الرحمن، والسيد أحمد بن عثمان، والسيد محمد بن الشاهد، والسيد
الطاهر السلاوي، والسيد الطاهر بن عبد السلام، وفرقهم على مساجد
مراكش لتدريس العلم، ويحضرهم بعد صلاة الجمعة، للمذاكرة في
الحديث ".

ومن هؤلاء الأئمة الأعلام الذين اختارهم لهذا المجلس أيضا : المحدث
الكبير إدريس العراقي، والفقير محمد الغربي، والفقير محمد بوخريص،
والفقير علي بن إدريس الفيلاي (154)، وغيرهم.

(151) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ف.ن.لا.هـ.

(152) الاستقصا للناصرى، ج: 1، ص: 68، ط. دار الكتاب، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 164،
1405هـ-1985م، والدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، ص: 189-190.

ومقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: ك.ن.لا.هـ.

(153) الترجمانة الكبرى، ص: 63، تحقيق عبد الكريم الفيلاي.

(154) الاستقصا للناصرى، ج: 1، ص: 68، ط. دار الكتاب، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 164،
1405هـ-1985م، والدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، ص: 189-190، ومقدمة

الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: ك.ن.لا.هـ.

ومن الأئمة الأعلام الذين استدعاهم لإغناء مجالسه العلمية وإثرائها،
دونما أي اختبار (155) :

العلامة القاضي محمد بن عبد السلام الغربي الرباطي، والعلامة القاضي
محمد بن المير السلوي، والعلامة القاضي عبد الرحمن بوخريص، والعلامة
عبد الرحمن المنجرة، وغيرهم . ومن أقطاب هذه المجالس الأعلام (156) :
العلامة أبو عبد الله الرشيد، والعلامة الأديب أحمد بن المهدي الغزال،
وشاعر البلاط العلوي ابن الونان.

ومنهم (157) : محمد بن قاسم السجلماسي، وعبد الرحمن السراري
والفقيه محمد بن الإمام (158)، والفقيه عبد السلام بن بوعدة حركات،
والعلماء : محمد بن حجي زبير السلوي، وبناصر معين، ويوسف بوغان،
وعبد الله بناني الرباطي، وأحمد بن علي العلوي، وأحمد زروق، وأبو
القاسم العميري (159)، والتهامي بن عمر الرباطي، ومحمد بن عبد
الصادق (160)، وعبد الكريم بن زاكور، والمهدي الكحاك (161) المراكشي،
وأحمد بن عثمان المكناسي (162)، والطيب بن كيران (163)، والطاهر بناني
الرباطي، وسعيد الشليح الجزولي، ومحمد الحاضي، والطيب الحناش،
ومحمد بن عبد الله بن إدريس المنجرة (164)، والفقيه عمر الفاسي (165).

(155) دعوة الحق، ع: 246، ص: 166، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب

الفروع، للحسيين.

(156) مساند الأئمة، تحقيق الفريد البستاني، ص: 12، منشورات فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية

1941 السلسلة : 1، رقم : 3.

(157) الدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، ص: 189-190.

(158) البستان الطريف، للزياني، ص: 116، والروضة السليمانية، للزياني، ص: 125، والجيش

لأكنسوس، ورقة : 135.

(159) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 18.

(160) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ف.ن.لا.هـ.

(161) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 18، تحقيق عبد الكريم الفيلاي.

(162) إتحاف أعلام الناس، ج: 1، ص: 153-163.

(163) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 18، تحقيق عبد الكريم الفيلاي.

(164) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 9، تحقيق عبد الكريم الفيلاي.

(165) الدر المنتخب، لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.ع، بالرباط رقم 1920، ص: 67-70.

"وهؤلاء هم أهل مجلسه الذين كانوا يسردون له كتب الحديث، ويخوضون في معانيها (166) ."

وكان يخول لهؤلاء العلماء الأئمة مكانة مرموقة، فيبالغ في تعظيمهم وتبجيلهم، ويغدق عليهم الجوائز والصلوات، ويقضي أغراضهم، حتى يتفرغوا معه لما هو بصدده من الدراسة والبحث... ومجازاة لهم على مثابرتهم، وتشجيعا لهم على الاستمرارية والابداع والعطاء بتقان، وحثا لهمم غيرهم من العلماء المبتدئين، وبعثا لروح المنافسة العلمية بصفة عامة.

ويؤكد لنا الزياتي أن هؤلاء جميعا كان سيدي محمد بن عبد الله "يعلي مجالسهم، ويستخرج نفائسهم، ويكثر جوائزهم، ويقضي حوائجهم... ممن صهرهم بمدرسته، ورفع بعضهم إلى درجة الوزارة، والسفارة، والكتابة الخاصة. وجلهم امتاز بالعلم والكفاءة والاقتماد، كما تدل آثارهم العلمية والسياسية الباقية (167) ."

وهكذا نرى أن من أنواع النعم التي بالغ سيدي محمد بن عبد الله في إغداقها على علماء مجالسه العلمية، تعيين أئمتهم في المناصب العليا للدولة، ومواقع اتخاذ القرار، مما أكده لنا الزياتي فيما سلف.

ومن هؤلاء العلماء العمال السادة : محمد المكي الشاوي، وأحمد بن عثمان، وأبو القاسم الزياتي، والطيب بن كيران، وأحمد الغزال، والطاهر بن عبد السلام السلاوي، وإبراهيم الميل السوسي، ومحمد الموزيري المراكشي، وعبد الكريم بن زاكور، والمهدي الكحاك المراكشي، والطاهر بناني الرباطي، وسعيد الشليح الجزولي، ومحمد بن عثمان المكناسي، ومحمد الحاضي، والطيب الحناش وغيرهم (168). وعين في تطاون الفقيه عبد الكريم بن زاكور كاتبه (169) وواليه على العرائش من قبل، "لأنه حضري مثل أهل تطاون".

وقد تضمنت مخططاته الاصلاحية الشاملة في مجالسه العلمية الخاصة، برنامجا لتكوين العلماء بجميع أنحاء البلاد. وفي هذا الصدد كان يوزع

(166) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 66.

(167) الترجمانة الكبرى للزياتي، ص: 18، تحقيق الفيلاي.

(168) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 66.

(169) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 197.

العلماء الأكفاء على جميع أقاليم البلاد بعدالة (170)، حتى يعم نفعهم من جهة، وحتى يعملوا على تكوين علماء آخرين من بين طلبتهم من جهة أخرى، وهي بمثابة عملية لزرع العلماء في جميع أنحاء البلاد.

ومن أمثلة ذلك نجد العالم الكبير محمد بن الحسين الكنوني (171)، الذي استقدمه من وزان للتدريس بمكناس، بتزكية من الشيخ التاودي بنسودة، ولما تحقق من كفاءته واقتداره، صار ينقله بين الأقاليم لفترات بالتناوب، فقد نقله من مكناس إلى طنجة، ومنها إلى تطوان، وهذا كان دأبه مع كافة العلماء الذين كان يتم اختيارهم وتوزيعهم (172) ونقلهم بواسطة لجنة من كبار علماء مجالسه العلمية الخاصة، كالشيخ التاودي بنسودة المذكور في هذا المثال.

وكان لمخططاته الرشيدة المذكورة على جميع المستويات والأصعدة -وبالتالي لبرنامج الإصلاح الشامل- أثر كبير في إنعاش الحركة العلمية بالمغرب على عهده، حيث نبغ جهاذة العلماء والمؤلفين في جميع المجالات العلمية، ولا سيما الدينية والشرعية منها، ممن لا زالت خزاناتنا تزخر بأثارهم، وكانوا نجوم مجالسه العلمية الزاهرة.

المجالس العلمية السلطانية العامة :

إلى جانب المجالس العلمية السلطانية التشريعية الخاصة لسيدي محمد ابن عبد الله -التي تقدم الكلام عنها- كانت له مجالس علمية عامة موازية لها، يعقدها في أوقات فراغه مع مختلف طبقات علماء عصره، في مختلف العلوم والآداب والفنون، للترفيه عن نفسه، والترويح عن الأئمة والشيوخ الكبار، أعضاء مجالسه العلمية الخاصة السامية، عما يلحقهم من عناء وتعب ونصب، في جلساتها الطويلة المتواصلة، ومن ثقل المهام الجسيمة

(170) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 37.

(171) المصدر السابق، و ص.

(172) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 31، 1386هـ-1967م، النهضة العلمية على عهد العلويين،

لمحمد العلمي.

التي يحملون أعباءها، ويتحملون مسؤولياتها -إلى جانبه- على الصعيدين :
الوطني، والعربي الاسلامي.

والواقع أن المجالس العلمية العامة أو الأدبية وغيرها، مهما سمت وجلت،
فإنها تبقى دون المجالس العلمية الخاصة بكثير.

ذلك أن الإقبال والتنافس كان منصبا ومنصرفا إلى المجالات العلمية
والفقهية، بل إنهم كانوا يجدون غضاضة في ممارسة الأدب عموما والفن
خصوصا، وحتى من مارسه منهم في -هذا العهد- فعن استحياء، أو في
الخفاء، حفاظا على هالة الإجلال والوقار التي تحيط كل من ينسب إلى
المجالات العلمية المختلفة، مع تفاوت طفيف بينها أيضا.

وكان رواد هذه المجالس، هم في الغالب رواد المجالس العلمية الخاصة
أنفسهم، مع إضافة عناصر جديدة من الأدباء والشعراء الصرحاء الخالص
-إن صح التعبير-.

ويرجع ذلك إلى أن المواد العلمية والأدبية، كانت لازالت تشكل كتلة
واحدة مترابطة، ولم تستقل بعد عن بعضها، وبالتالي فقد كان جل العلماء
والفهاء أدباء وشعراء وفلاسفة وأطباء وفلكيين، لأنهم كانوا يدرسون
جميع هذه المواد، وكل منهم يبرع وينبغ في الاتجاه الذي شغف به، وينسجم
مع ميوله ونزعاته، واستعداداته الفطرية، أكثر من غيره من الاتجاهات
الأخرى.

وجرت العادة في هذا العهد وغيره، أن تختم المناسبات العلمية والدينية
وغيرها بحفلات أدبية شعرية، مما يؤكد أن الأدب والفن وبالتالي الشعر،
كان لازال لم يفرض وجوده أمام صولة العلوم الدينية والفقهية -إذ ذاك-،
لذلك نجد أن أدب تلك العهود كلها، مهما تألق واستلهم وحلق، فإنه يبقى
باهتا ركيكا متكلفا، حتى لدى أبرع الشعراء وأفصحهم.

ولم يكن الشاعر يجد أية غضاضة في ذلك، لأنه دائما تكون له
اختصاصات أخرى عديدة، قد يتقن إحداها أو بعضها، لكنه قطعاً لا يتقنها
كلها.

وكانت هذه المجالس العلمية الموازية أو الترفيهية العامة، لا تنقطع في حله
وترحاله، حيثما حل وارتحل، في حربه وسلمه، لأن تعاطي العلم مع العلماء،
كان هوايته المفضلة، يجد فيها نفسه، ويحقق من خلالها ذاته.

حتى إنه كان يتحسر على ما ضاع من وقته قبل أن يتذوق لذة العلم، ويتعرف، على فوائده ومنافعه قائلًا (173) : " والله إننا ضيعنا أعمارنا في البطالة واللهم أيام الشباب، ويتأسف على مافاتة من قراءة العلم في صغره "

وكان شغوفًا بهذه المجالس العلمية العامة الموازية الترفيهية، إذ ينطلق فيها على سجيته في مباحثة العلماء ومداعبتهم، ويتعمد فيها خلق أجواء المفاجأة والمنافسة بينهم، بأن يطرح عليهم المسائل الغريبة والعجيبة البعيدة عن المؤلف، حتى يفهمهم ويستثير ذاكرتهم وقرائحهم ويستنزل مواهبهم وحفظهم، ويبعث فيهم روح المنافسة العلمية السمحة، وحتى يأتوا هم بمثل ذلك، عن طريق تداعي المعاني والأفكار.

ويوضح لنا ذلك ولده عبد السلام بقوله : " وكان له ولوع بمجالسة الفقهاء، واعتناء عظيم بهم وبمذاكرتهم، وإلقاء المسائل الغريبة عليهم، وتعجيزهم بها. يريد بذلك مباحثتهم، واستخراج ما عندهم من ذلك. وله أخبار في ذلك يطول ذكرها (174) "

ويقول أكنسوس (175) : " كانت عادة السلطان - رحمه الله - مع كتابه وجلسائه، يمتحنهم بغرائب العلوم، كما حدثنا بذلك شيخنا العلامة الحافظ أبو عبد الله سيدي محمد بن عامر التادلي، وكان من جلسائه "

أما شكل هذه المجالس العلمية العامة، فكان مقتبسًا عن مجالس أحمد المنصور الذهبي السعدي، شأنها شأن المجالس العلمية الخاصة. والواقع أن هذا التقسيم لمجالسه العلمية إلى : مجالس علمية خاصة للتشريع والتخطيط والتقنين....، ومجالس علمية عامة موازية للترفيه والمتعة والفائدة....، أو مجالس أدبية للسمر والمؤانسة والرحلة والسفر....، هذا التقسيم لم يكن قاعدة عامة، بل نجد له استثناءات وخروقات، لكنها قليلة نادرة " والنادر لا حكم له "

(173) الروضة السلمانية، للزياني، ورقة: 25، ودعوة الحق، ع: 2 و3، س: 19، ص: 131-132، 1398هـ-1978م.

(174) الجيش العرمم، لأكنسوس، ورقة: 113.

(175) الجيش العرمم، ورقة: 113-145.

ومن هذه الاستثناءات عن القاعدة العامة للتقسيم المذكور، نجد مجلساً عقده سيدي محمد بن عبد الله خلال رحلته إلى الصويرة (176)، سنة 1198هـ.

فرغم أن الرحلة كانت للنزهة والمتعة والراحة والاستجمام، فإنه خلال هذه الرحلة عقد مجالسه العلمية الخاصة، للدراسة والبحث، والاجتهاد والاستنباط، وبالتالي للتأليف في الحديث، حسب مذهبه المذكور.

وهذا يؤكد لنا أن العلماء أعضاء مجالسه العلمية الخاصة، كانوا يرافقونه حيثما حل، وأينما سار، لأنهم هم الذين كانوا يسردون الأحاديث بين يديه، وهم الذين كانوا يناقشونه في آرائه ومخططاته، حتى لا يجمع به طموحه وتطلعه الكبير، ورغبته العارمة في الإصلاح بعيداً، ويحيدان به عن الجادة، وبالتالي هم الذين كانوا يؤلفون له الكتب بناء على اجتهاده، ومنهجيته، وبرنامجه الإصلاحي المتكامل، على ضوء المصادر والمراجع الكبرى التي جلبها من الشرق كما سيأتي.

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أنه كرس حياته للعلم - ولا سيما للسنة النبوية الشريفة - سواء في طعنه أو إقامته.

ويصف لنا الزياتي (177) هذه الرحلة وصفا وافيا فيقول: "ففي حركته إلى الصويرة، ربيع سنة 1198هـ.... كان معه جماعة من علماء الوقت.... كان يملئ عليهم الحديث النبوي، ويؤلفونه له على مقتضى إشارته، وهم: الفقيه المشارك السيد محمد بن الإمام، والسيد عبد السلام الغربي، والفقيه العلامة السيد محمد بن المير السلوي، والفقيه الدراكة السيد محمد الكامل الرشيد، والفقيه السيد عبد الرحمن بوخريص.

"هؤلاء أهل مجلسه الذين يؤلفون له ويسردون، ويخوضون معه فيما يستخرجه من كتب الحديث، التي جلبها من المشرق: كمسند الإمام أحمد رضي الله عنه، ومسند أبي حنيفة النعمان، والصحيحين، والشفاء، وغيرها من كتب الحديث وشروحها.

(176) الصويرة: مدينة شيدها سيدي محمد بن عبد الله ليبطل بها ميناء أكادير الذي كان بيد الثوار سنة 1178هـ، وكان مولعاً بزيارتها والإقامة بها في أوقات راحته واستجمامه، التي قد تمتد إلى شهرين.

(177) البستان الطريف، ص: 116-117، والروضة السليمانية، للزياتي، ورقة: 125، والجيش لأكنسوس، ورقة: 135.

فكان رحمه الله مستغرق الأوقات في الحديث حضرا وسفرا".
أما بقية المجالس العلمية العامة، فكان يعقدها لكافة المثقفين والمفكرين
في عصره. من علماء وفقهاء وكتاب وشعراء وغيرهم، حيث تتنوع المواضيع
والمحاور وتتشكل.

فقد كان "لا شغل له في أوقات فراغه إلا المطالعة مع العلماء.... لكتب
الحديث والسيرة.... والتاريخ والأدب، والسياسة (178)".

ويقول ولده عبد السلام (179) في ذلك: ".... وكان له مع الفقهاء
مذاكرات ومحادثات في سائر الأيام، ومر الدهور والأعوام، فيلقي عليهم من
المسائل والمشكلات في الحديث، والسير والأخبار، ومن ضروب الفنون
العربية ونكت من المقطعات الأدبية، ما لا يهتدون إليها إلا بعد الإطلاع
والبيان، وسواء في ذلك ذو العارض أو قصير الباع".

ويقول الزياتي في نفس المعنى:

"وكثيرا ما كان يجالس العلماء ويذاكرهم في الحديث، والفقه، والأدب،
وأيام العرب، وينوه بهم، مع ما كان يحصل له من النشاط بتبادل الآراء
معهم، حيث يبين عن باع في العلوم طويل (180)".

ويقول الزياتي (181) أيضا عن مجالسه العلمية العامة: «وكان إذا تذكر
مسألة غريبة قيدها خوفا من نسيانها، فإذا خرج للمشور وتكلم مع
الفقهاء، يلقيها لهم كالمستفهم عنها، فإذا لم يجيبوه عنها، بينها. ويقول لي:
-للزياتي- زد هذه في جرابك، ويضحك.

المجالس العلمية وكتبها المدروسة:

كان اهتمام المولى محمد بن عبد الله بالكتب، ولا سيما أمهات المصادر
والمراجع لا يقل عن اهتمامه بالعلماء، باعتبارها المواد الأولية الخاصة
لأعمال مجالسه العلمية، والنبع الذي يستقي منه العلماء، ويرجعون إليه

(178) دعوة الحق، ع: 246، ص: 166، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب
الفروع، لعبد الهادي الحسين.

(179) اقتطاف الأزهار من حقائق الأفكار، لولده عبد السلام، وأورده في الاعلام.

(180) الترجمانة الكبرى، للزياتي، ص: 64-65، تحقيق عبد الكريم الفيلاي.

(181) الترجمانة الكبرى، للزياتي، ص: 64-65، تحقيق عبد الكريم الفيلاي.

للنهل والعلل من حوضه الفياض الصافي، وبالتالي للاستئناس بما فيها من آراء واستشهادات..

وفي هذا الصدد، وتدعيما وتعزيزا وتعميقا للنهضة العلمية التي بعثها في البلاد، وبالتالي لأعمال مجالسه العلمية قام بتأميم خزانات الكتب القيمة الخاصة، وحبسها، ووزعها على المساجد، بجميع أنحاء المملكة بالمدن والقرى.

وابتدأ في ذلك بنفسه، حيث أمم حوالي اثني عشر ألف مجلد كانت بالخزانة الإسماعيلية، وحبسها ووزعها على المساجد بجميع النواحي بدورها.

كما حبس الكتب القيمة منها على كبار أئمة العلماء، كتحبسه كتاب المعيار (182) بجميع أجزائه وأسفاره الستة على قاضي دمنات، العلامة أحمد ابن عبد الرحمن الدمناتي اليعياوي، سنة 1202هـ.

وأجمع المؤرخون على أن الكتب التي كانت تسرد بالمجالس العلمية لسيدي محمد بن عبد الله الخاصة، هي كتب الحديث، والسيرة النبوية العطرة.

وأول الكتب التي كانت مادة للسرد والدرس بهذه المجالس، في أول عهدها : كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، وصحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم.

ولم يكتف بهذه الكتب التي كانت الكتب الحديثية الوحيدة الموجودة بالمغرب -إن ذلك-، بل عمل على استجلاب ما لم يكن متداولاً منها بالمغرب (183)، ككتاب مسند الإمام أبي حنيفة النعمان، من المشرق.

فكان له أثر كبير على جلسات مجالسه العلمية الخاصة، إذ اطلع علماء هذه المجالس، وبالتالي علماء المغرب جميعاً على مجموعة لا يستهان بها من

(182) ونص في عقد التحبیس أنه یحبسه علیه وعلى عقبه، فإذا انقرض عقبه یحول الحبس إلى قسبة دمنات بصفة مؤبدة دائمة. النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 37-38، والمعيار، ج: 6، الورقة: 1، والجيش العرمم لأكنسوس، ورقة: 122.

(183) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 126-127، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 32.

الأحاديث الصحيحة، وعلى روايات وطرق جديدة، فانكبوا على دراستها وروايتها....

ولم يلبث أن استورد مسندين لم يدخلوا المغرب من قبل، وهما : مسند الإمام أحمد بن حنبل، ومسند الإمام الشافعي. واتسع أفق المجالس العلمية السلطانية الخاصة لسيدي محمد بن عبد الله، وتدفقت على بساط بحثها كنوز السنة النبوية الشريفة، وروافدها الصافية العذبة المدرارة.

فشمر مع علمائها لاستيعابها، والاجتهاد والاستنباط على ضوءها، حتى استوفاهما، وأوسعها بحثا ودراسة، وتحقيقا وتمحيصا....

وإذا علمنا بأن مسند الإمام أحمد وحده، يحتوي على ثلاثين ألف حديث(184)، أدركنا سعة هذه الدراسة، وأهمية ذلك المجهود العلمي الجبار للسلطان، وأعضاء مجلسه العلمي الخاص، من جهابذة العلماء وفحولهم.

وسجل لنا المؤرخون عملية استجلاب واستيراد سيدنا محمد بن عبد الله لأمهات كتب السنة، والسيرة النبوية القيمة، وغيرها، ولا بأس من الاستئناس بسرد بعضها.

يقول المشرقي (185) في ذلك : ".... ومن ذلك جلبه من بلاد المشرق كتباً نفيسة من كتب الحديث، لم تكن بالمغرب مثل، مسند الإمام أحمد، وأبي حنيفة رضي الله عنهما، وغيرها".

ويقول الناصري (186) متحدثاً عنها : ".... كتب الحديث التي جلبها من المشرق، كمسند الإمام أحمد، ومسند أبي حنيفة، وغيرها".

ويقول الزبيري (187) في نفس المعنى : ".... من كتب الحديث التي جلبها من المشرق : مسند الإمام أحمد رضي الله عنه، ومسند أبي حنيفة النعمان، والصحيحين، والشافئ، وغيرها من كتب الحديث وشروحيها".

(184) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: و.ز.

(185) الحلل البهية، ص: 158-162.

(186) الاستقصا، ج: 8، ص: 54.

(187) البستان الظريف، ص: 116-117، والجيش العرمم، لأكنسوس، ورقة: 135.

ويقول أيضا (188) : ".... وأولع بسرد كتب الحديث، والسيرة، ولم يكفه ما يوجد من ذلك بالمغرب، فاستجلب من الشرق ما لم يكن متداولاً منها، كمساند : أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد ."

وفي إطار اهتمامه بالكتب عموماً، ونهمه لكتب الحديث خصوصاً، بعث سيدي محمد بن عبد الله وزيره وسفيره أبا القاسم الزياني إلى الخارج، لشراء هذه الكتب الحيوية بالنسبة لأعمال مجالسه العلمية، وخاصة من الدولة العثمانية.

ولنستمع إلى قول الزياني (189) في الموضوع، وهو شهادة من أكبر شاهد : " ... واشترت الكتب التي أوصاني أمير المؤمنين بشرائها وهي : مسند أبي حنيفة النعمان، ومسند الإمام الشافعي، ومسند الإمام أحمد، والطريقة المحمدية -المختصرة من الإحياء- اقتصر فيها على ما هو مشهور بين أعلام الأمة يدور.

وأعطاني الوزير الأعظم -العثماني- اختصار المواهب الأربع في سفر، وتأليف الدرر المتداول عندهم -العثمانيين- في الفقه الحنفي، كخليل عند المالكية، وشرحه المسمى بالغرر على الدرر في سفرين، كالزرقاني ."

المجالس الأدبية :

من أنواع المجالس التي كان يعقدها سيدي محمد بن عبد الله مع قادة الفكر من العلماء والمثقفين في عصره، المجالس الأدبية التي تعتبر ندوات أدبية ترفيهية، ومجالس موازية للمجالس العلمية بنوعيتها : الخاصة والعامّة. فقد كان يعقد مجالس أدبية رائعة، سجلت بها المذاكرات والمناظرات الثقافية (190) المختلفة، التي يسودها المرح والحبور والفكاهة، وتحفها أجواء مفعمة بالمشاعر الإنسانية السامية، حيث يطلق خيال الأدباء والشعراء والكتاب والمبدعين، مستلهما جلائل أعمال هذا السلطان العظيم في سائر

(188) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 126-127، تحقيق الفيلاي.

(189) الترجمانة الكبرى، ص: 126-127، بتحقيق الفيلاي، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م،

بالرباط، رقم : 3177، ص: 32.

(190) مساند الأئمة، تحقيق الفريد البستاني، ص: 13، منشورات مؤسسة فرانكو للأبحاث العربية

الإسبانية، السلسلة : 1، رقم: 3-1941.

مجالات الحياة، فيصوغ دررها، وينظمها في عقد فريد يحلي جيد عهده الزاهر، ويرصع تاجه المجيد.

وكان يعقد هذه المجالس الأدبية مع العلماء والأدباء والشعراء بالمشور، أو في غيره من القاعات والقبب، حيث يلقي عليهم المسائل الغربية في الأدب والأخبار، أو مشاكل علمية حديثة أو فقهية، أو من السيرة النبوية العطرة، التي لا يهتدون إلى حلها إلا بالرجوع إلى المصادر والمراجع في شأنها. وأحيانا كان يعقد مجالس أدبية صرفة، بحيث لا يحضرها إلا الأدباء والشعراء والكتاب المرموقون في بلاطه بصفة خاصة، وفي مملكته بصفة عامة.

وكان يقربهم، ويذاكرهم (191)، ويناقشهم في القضايا الأدبية واللغوية والشعرية المعاصرة، وكذا في الأحداث التاريخية، وأخبار العرب، وأيامها، وأنسابها....

وفي هذه المجالس كان ينطلق على سجيته، فيصول ويجول، مسترجعا ذكرى أيام تفرغه لتلك العلوم والفنون، التي لم يكن أبرع منه فيها، وبالتالي كان يبرز في جميعها، وينال فيها قصب السبق، والقدح المعلى. مما كان يدخل الفرح والبهجة إلى قلبه، فتنتطلق أساريه، وينعكس ذلك على الحاضرين جميعا سرورا وانشراحا، مما يعمل على إنجاح تلك المجالس، فيبدع فيها الأدباء، ويأتي كل منهم بأحسن ما لديه.

وفي هذه المجالس كان السلطان يتواضع لجلسائه، فيداعبهم، ويلاطفهم، ويمازحهم، كأنه واحد منهم (192).

وأشهر (193) أعضاء هذه المجالس الأدبية الصرفة : أحمد بن الونان، صاحب الشمقمقية الشهيرة، وأبو عبد الله محمد بن الطيب سكيرج، وأحمد ابن المهدي الغزال، والكاظم الإسحاقى الذي دون رحلة السلطان مع جدته خنائة بنت بكار -في صغره-.

(191) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 19، ص: 131-132، 1388هـ-1978م، ومقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: أ.

(192) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 59-60.

(193) مقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: أ، ودعوة الحق، ع: 2 و3، س: 19، ص: 131-132،

1388هـ-1978م.

ويقول ابن زيدان (194) عنهم : " وكان بأبوابه وخدمة أعتابه كثير من الأدياء والشعراء، أشهرهم : أحمد بن الونان صاحب القافية المشهورة والمحفوظة، ومحمد الطيب السكيرج، وأحمد بن المهدي الغزال السفير، وأحمد بن عثمان وغيرهم ".

وأخبار بعض مجالسه الأدبية، تطلق بنا، وتعود بنا إلى أجواء المجالس الأدبية الرائعة لعهد ازدهار الأدب العربي، مما سجلته لنا كتب الأغاني، والعقد الفريد، ونفح الطيب، وغيرها.
ومن نماذج مجالسه هذه وأمثالها :

أنه كان يوماً بأحد هذه المجالس، مع نخبة من كبار أدباء وشعراء وكتاب بلاطه " الملائمين لحضرته (195) ". ومجالسه، وعلى رأسهم الشيخ حمدون بن الحاج (196)، فجاء وصيف اسمه ميمون بكؤوس الشاي، وناول الكأس الأولى للسلطان، وكان السلطان يجلس على اليسار (197).

فقال السلطان : إذن يقول الشيخ حمدون :

صددت الكأس يا ميمون عنا وكان الكأس مجراها اليمين

فأجاب الشيخ حمدون وقال (198) : نعم، وأزيد :

ولم تعمل بحكم الشرع فينا

كما جلاه خير المرسلين

رسول الله فيما صح عنه

من أنه قال ناولها يميناً

إلى أن قال :

به طلعت شموس لأهل فاس

بأقصى مغرب للناظرين

ولم يعرف لها من قبل ذكر

ولا طرقت بأذن السامعين

(194) مقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: س-ط : 2.

(195) مما يؤكد أن هذه المجالس كانت تعقد رسمياً و بانتظام.

(196) م. 1132.

(197) مقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: ه-ب.

(198) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 62-63.

وجامعة تضمن ماحوته

وجمعه فيه سؤل الراغبين (199)

وقد مدحه شعراء مجالسه الأدبية، وعدادوا مزاياه العديدة، التي ماكانوا يستوفونها حقها ولا حقه. ولعل أشهر الشعراء الذين مدحوه، وأشهر القصائد التي مدح بها على الإطلاق، الشاعر أحمد بن الونان بقصيدته وأرجوزته الشمقمقية (200)، التي طبقت شهرتها الافاق ومطلعها :

مهلا على رسلك حادي الأنيق

ولا تكلفها بما لـم تطق

وقد أجازها عنها بألف دينار (201)

وتناول هذه القصيدة بالشرح كثير من العلماء الأدباء : الذين أوسعوها شرحا وتحليلا وتعليلا.... وعلى رأسهم العلامة والمؤرخ أحمد الناصري، مؤلف كتاب الإستقصا.

وبلغ من ثقافة السلطان اللغوية والأدبية الواسعة الشاملة، أنه كان ينظم الشعر، ومن شعره يخاطب أحد شعراء مجالسه الأدبية :

جسمي معي غير أن القلب عندكم

يا عجباً لافتراق القلب والبدن

وقد اقترح على الشيخ التاودي بنسودة إجازة هذا البيت في أحد هذه المجالس فقال :

نفسى وأهلي وما جمعت من نشب

معي الفداء لذاك القلب من شجن

وقد تناوبا النظم والإجازة والمعارضة حتى بلغا بهذه القطعة أحد عشر بيتاً(202).

(199) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص : ص - ب. ط : 2.

(200) دعوة الحق، ع : 234، ص : 37، 1404 هـ 1984م، سيدي محمد بن عبد الله ومآثره الخالدة، محمد بن شقرون.

(201) دعوة الحق، ع : 234، ص : 37، 1404 هـ 1984م، سيدي محمد بن عبد الله ومآثره الخالدة، محمد بن شقرون.

(202) النهضة العلمية، لابن زيدان م.خ.م. بالرباط، رقم : 3177، ص : 43.

ويحدثنا ولد ه المولى عبد السلام عن أمداح الشعراء في والده فيقول :
" ... ولأدباء المغرب أمداح في أموره المتجددة، من الأعياد والحركات شيء
كثير (203) ".

وكما كان يأمر علماء مجالسه العلمية بالتأليف، كان يأمر أدباء وشعراء
مجالسه الأدبية بالتأليف في الأدب وإعداد دراسات أدبية أو شروح
لنصوص أدبية قيمة.

من ذلك أمره للشيخ التاودي بنسودة المري بشرح هذين البيتين :
إذا المال لم يوجب عليك عطاءه

صنوعة تقوى أو حبيب تذاوقه

منعت وبعض المنع حزم وقوة

فلم يفتلك المال إلا حقائقه

وهكذا فقد كان للنهضة الفكرية والثقافية الشاملة التي بعثتها
المجالس العلمية والأدبية المختلفة لسيدي محمد بن عبد الله في
ربوع البلاد، أثر وأي أثر في إنعاش الحركة الأدبية، ونبوغ عدد من
الشعراء الفحول، والأدباء المفلحين، كابن الونان - (204)، صاحب الشمقمقية،
وعمر الفاسي، وأحمد الغزال، وابن عثمان الوزير، وأخيه أحمد
وغيرهم (205).

وكانت أغلب المجالس التي يعقدها سيدي محمد بن عبد الله في سفره
وتحركاته المختلفة مجالس أدبية عامة لطبيعة الظروف والمواقف
ومقتضياتها ومتطلباتها.

أما المجالس العلمية الخاصة فلم تكن تعقد في هذه الرحلات إلا لماما
ومتى دعت الضرورة ومست الحاجة، وفي حدود ظهر يوم الجمعة المخصص
لها، وبالتالي فقد كانت تشكل استثناء بالنسبة للمجالس الأدبية
التي كانت هي القاعدة العامة في رحلاته وتنقلاته المختلفة.

(203) الجيش العرمرم، لأكنسوس، 113-145.

(204) ابن الونان، لعبد الله كَنُون رقم 15، ص : 7-15 دار الكتاب بيروت

(205) دعوة الحق، ع : 4، س : 10، ص : 31، 1386 - 1987 النهضة العلمية على عهد العلويين لمحمد
العلمي.

وكان كثيرا ما يخرج بحاشيته وبطانته وأعضاء مجالسه المختلفة للنزهة والترفيه من عناء الأعمال الجليلة والمسؤوليات الجسيمة وروتين الطقوس الرسمية والبروتوكولات الرتيبة المملة.

وكان معجبا بالمنصور الذهبي السعدي - كما مر بنا - ويحرص على تقليده في أموره الخاصة والعامة، وخاصة في رحلاته المخصصة للصيد أو للراحة والنزهة.

فقد كان في رحلاته وأسفاره المختلفة يتوخى النزول بالمنازل التي كان ينزل بها المنصور في رحلاته أيام ملكه سواء في زهابه أو إيباه. وكان يجاهر بهذا الإعجاب وبهذا التقليد، ولا يجد في ذلك أية غضاضة، وكثيرا ما كان يقول : " هذه منازل المنصور رحمه الله، وهو أستاذنا في هذه الأمور "

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى شهامته وثقته بنفسه ونبله وأريحيته.....

ويصف لنا الزباني (206) إحدى هذه الرحلات قائلا : " لما خرج رحمه الله - سيدي محمد بن عبد الله - للحركة إلى الصويرة، عام 1198 هـ خرج مع الخاصة، والقواد، والكتاب لمضاربهم."

وكان معه جملة وافرة من الكتاب المعتبرين في الإنشاء والترسل، كالمهدي الكحاك المراكشي، وعبد العزيز الكامل المراكشي، وأحمد بن عثمان المكناسي، وأحمد الغزال الفاسي، ومحمد سكيرج الفاسي، والطاهر بناني الرباطي، والطاهر بن عبد السلام السلاوي، وسعيد الشليح الجزولي، وأبراهيم أقبيل السوسي وغيرهم.

وتوجه في موكب عجيب يرتاد النزهة، وأقام شهرين، يجني اللذات والمناظر (207).

وبلغ أغمات فجاءه فجأة أهلها بكبش جيد، وبأنية من الشهد،... فبعثه إلى خباء القاضي عبد الرحمن بن الكامل - الذي عينه على السوس - بكبشه وشهده.

(206) البستان الظريف، ص : 117، والروضة السلیمانية، للزباني ورقة : 126، والإستقصا

للناصري، ج : 8 ص : 54-55 والجيش العرمم، لأكنسوس، ورقة : 136 .

(207) المصادر السابقة وص.

وعاد إلى مراكش، وفي وادي نفيس - في طريق عودته إلى مراكش - ضرب صيوانا على النهر، واستدعى جلساءه (208) - المذكورين - ... والقاضي أبا زيد، وسأل القاضي.....: بماذا اجزت ضيفك على كبشه وعسله، فاحتار، وتفطن إلى أنه لم يعمل شيئاً، فقال : لعلك لم تجزه، فلو مدحته على كبشه وعسله لصادفت المقصود، وما بعثته إليكم الا لهذا الكبش والعسل، لأنني تذكرت ما اتفق للمنصور السعدي مع كتابه في مثل هذه القضية، وعلمت أنه لم يبق في وقتنا كتاب، ولا أدباء ولا أمراء...

وأمر كاتبه ابن المبارك، أن يقرأ عليهم ما حكاه الفشتالي في مناهل الصفا عن خروج المنصور السعدي إلى أغمات بقصد الزيارة والنزهة، وما اتفق لابن مالك عبد الواحد الحميدي مع من أهدى له الكبش والعسل من الشعر، والذي تابعه عليه جماعة من كتاب الدولة، فقرأ الكتاب.

وعاب السلطان عليهم تقصيرهم في قضيتهم الموافقة لها. ويظن أن السلطان أمرهم بنسخ ذلك ومراجعته، تحريكا لهمهمم (209) وسخرية بهم."

ويمكن أن نضيف إلى مجالسه الأدبية -بتجاوز- مجالس احتفاله بليلة عيد المولد النبوي الشريف، التي كانت أجواء تقاليدها وعوائدها أدبية وفنية وتاريخية، لما كان ينشد فيها من قصائد شعرية، وأمداح نبوية، وما يسرد فيها من كتب السيرة، وقصة المولد النبوي، وما يقدم من عروض حولها.....(210).

وهذا وصف حي وموجز لإحدى هذه الحفلات للضعيف في تاريخه :
" وفي ليلة المولد، ورد عليه أهل فاس مع الحاج عبد الرحمن بن زكري، لقراءة الأمداح، والهمزية، والبردة، وكذلك طلبه تطوان. فأكرمهم، وفرش الجامع من داره، وجلس بين أهل فاس وتطوان، وتناوبوا على الإنشاد بين يديه.

وأمرهم بقراءة "بانة سعاد"، لكعب بن زهير.

(208) الروضة السلیمانیة للزیانی، ورقة : 126، والإستقصا للناصری ج : 8، ص : 55-56، والجیش لأکنسوس، ورقة : 136-137، والبستان الظریف، للزیانی، ص : 117.

(209) الإستقصا للناصری، ج : 8، ص : 56، والجیش، لأکنسوس، ورقة : 136-137، والروضة السلیمانیة، للزیانی، ورقة : 126، والبستان الظریف للزیانی، ص : 117.

(210) تاریخ الضعیف، ص : 187 - 188.

وصباح العيد خرج بهما -بأهل فاس وأهل تطوان- خارج المدينة، وهم راكبون يذكرون الأمداح. ولعب السلطان بالمزراق، ثم فرق عليهم الأموال، وعلى الطلبة، والفقهاء، والمجاهدين " .

ومن تكامل شخصية هذا الملك العظيم، وسمو ذوقه الفني والأدبي، أنه كان مولعا بالسماع للألحان الموسيقية الأصيلة (211).

ذلك أن الفنون هي مقياس ومعيار حضارة الشعوب، وبالتالي هي معيار وعنوان سمو الفرد ووعيه ونضجه، وعزة نفسه ونبل مشاعره، وسلامة ذوقه، وبالتالي عظمته وأريحيته.....

المجالس العلمية والأدبية للأمرء :

كان الأمرء والعلماء وأعيان موظفي الدولة يقيمون -بدورهم- مجالس علمية وأدبية رائجة، سيرا على سنة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، واقتداء به، وتعبيرا صادقا عن مدى ازدهار الحياة الفكرية والثقافية بالديار المغربية، في عهده وبفضله.

وكان في طليعة الأمرء الرواد الذين اهتموا بإقامة هذه المجالس العلمية والأدبية الزاهرة، ولده وولي عهده وخليفته على فاس، الأمير المولى علي.

وكان من كبار العلماء والأدباء والشعراء، متضلعا في جميع العلوم والفنون السائدة في عصره، ولاسيما الأدب شعرا ونثرا. كما كان راجح العقل كريم النفس، ذا همة عالية تطمح للمعالي والمفاخر والأمجاد.

ويصور لنا أحمد بن حمدون بن الحاج (212) شخصيته الفذة قائلا :

".... مولاي علي الخليفة الأمجد، الطالع سماء المعالي، طلوع البدر الأوحده، المخصوص بالمآثر العامة، واتباع وصايا والده في السر والعلانية، نجل أمير المؤمنين.

(211) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ص : 87.

(212) الدرر، لأحمد بن حمدون بن الحاج، ص: 360، م.خ.م. بالرباط رقم : 1920.

كان -رحمه الله- ذا باع في كل فن من فنون العلوم، له اليد الطولى في النظم والنثر، والإنشاء، والطب، والنشر".

وكان يعقد مجالس علمية وأدبية باستمرار، ويحرص على أن يجمع بها عددا كبيرا من العلماء والأدباء، والنبلاء والفضلاء، لإعجابه واقتدائه بكل من والده، وعم أبيه المولى محمد العالم، وخاصة في أدبهما وكرمهما وسائر خصالهما، سواء الشخصية الذاتية، أو العلمية والأدبية.

وقد ازدهرت مجالسه العلمية والأدبية، فقصده كبار العلماء والأدباء والشعراء، الذين كان يجزل عطاءهم، ويكثر جوائزهم السنوية. يقول عنه الناصري (213) : "... وكان من سادة العلويين ونجبائهم، ومن أهل المروءة، عقلا وعلما ، وأدبا، وكرما وهمة " .

وكان لا يجالس إلا العلماء الأخيار، ويعطي عطاء الكرام الأبرار (214). وكان من أقرب جلسائه إليه، وأكثرهم علما وأدبا وجاها وثروة، العلامة الشريف سيدي زيان العراقي، والعلامة سيدي محمد بن الطاهر الهواري(215).

ولم يكتف المولى علي بعلماء مجالسه العلمية والأدبية، حيث كان يمارس هوايته المتوارثة على أوسع نطاق، وفي أعلى المستويات، ومع فطاحل البلاغة والفصاحة، وفحول الأدباء والشعراء، وجهابذة العلماء، بل كان مولعا بمراسلة العلماء والأدباء والشعراء، شعرا ونثرا، توسيعا لدائرة مجالسه ونشاطها، وبالتالي توسيعا لمداركه، وتنويعا لتجاربه ومعلوماته.

يقول الناصري في ذلك : "... وكان كثيرا ما يبعث بأشعاره ومخاطباته لأهل عصره، وأدباء وقته، من الفاسيين والبكرين، والقادريين (216) ". وتوطيدا لدعائم مجالسه العلمية والأدبية، وتعزيزا لدورها الإشعاعي، وتكريسا لوجودها، وتطورها وازدهارها، اهتم بنسخ الكتب العلمية والأدبية، وخاصة الغربية والنادرة منها (217).

(213) الإستقصا، ج : 8، ص : 52.

(214) الدر المنتخب المستحسن، لأحمد بن حمدون بن الحاج م.خ.ع، بالرباط رقم : 1920، ص : 360.

(215) المصدر السابق، وص : 191.

(216) الإستقصا للناصرى، ج : 8، ص : 52، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 137 - 138،

والروضة السلیمانیة، للزباني، ورقة 125 - 126.

(217) الإستقصا، ج : 8، ص : 52.

لكن اهتمامه بالأدب والشعر والتاريخ والأخبار وميله لذلك أكثر من غيره، أزعج والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وخاف أن تشغله مجالسه الأدبية عن التطلع في العلم، ولا سيما العلوم الشرعية والدينية وغيرها (218).

فأمره أن يجمع كل الكتب الأدبية والشعرية وما إليها بخزانته، ويرسلها إليه إلى مراكش على جناح السرعة، ودونما أي تأخير ولا مماطلة.

وكتب إليه (219) ينهاه عنها، ويوصيه، ويوجهه في هذا الشأن :
" إن كتب التاريخ آخر ما يقرأ، فإن اشتغلت بكتب التاريخ أولاً أتلفت دينك وقراءتك، ووقع لك مثل ما وقع لي.

فقد شغلت بها نفسي أيام الشباب، و تركت القرآن و التفسير والحديث، حتى حصلت لي الندامة، فإياك ثم إياك أن تعمل عملي، فتكون مثلي.

فتشبه بمن هو أعلى منك، ولا تتشبه بمن يماثلك أو أدنى منك، فتعلو همتك، كما قيل :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام رباح
وامتثل المولى علي لتعليمات والده، وأرسل له الكتب المذكورة، فضمها سيدي محمد بن عبد الله إلى ما كان عنده هو منها بمراكش، ووجهها إلى مصر، مع كاتبه الصنهاجي، ليحبسها بالقاهرة و الإسكندرية (220) كما سبق القول.

ومما يؤكد لنا اهتمام هذا الامير الجليل بالعلوم الدينية، خاصة -بعد وصية والده و موعظته إياه- ومدى امتثاله لتعليمات والده، و بره به، وبروره بوعده له في الانصراف عن كتب الأدب، الى العلوم الدينية والشرعية- قيامه بنسخ المصحف الشريف سنة : 1182 هـ - 1768 م.

(218) الدر المنتخب المستحسن، لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.ع بالرباط رقم : 1920، ص : 189 - 190.

(219) الاستقصا، للناصرى، ج : 8، ص : 190، و الترجمانة الكبرى للزياني، ص : 64. و بها النص الكامل لهذه الرسالة.

(220) المصدر السابق، و ص.

وذلك في مستوى رفيع جدا، فهو محلى بالذهب و الألوان، و مرصع بالياقوت....

و لعله أهداه لأحد الحرمين الشريفين : المسجد الحرام بمكة، أو المسجد النبوي بالمدينة المنورة، أو لثالث هذين الحرمين الشريفين المسجد الأقصى بالقدس الشريف، لكنه لأمرٍ ما صار في حوزة محمد أبو الذهب، حاكم مصر سنة 1188هـ-1773م في الفترة التي كان يجمع فيها الكتب، لخزانة الجامع الذي بناه.

و بعد غزو نابليون لمصر، نقل هذا المصحف إلى متحف اللوفر سنة 1868م، ثم أعيد إلى القاهرة .
و يوجد الآن ببنائة الهيئة المصرية العامة للكتاب. (221)

المجالس العلمية لكبار العلماء

اقتداء بسيدي محمد بن عبد الله، كان كبار علماء عصره، وأعيان مجالسه العلمية، يقيمون مجالس علمية خاصة بهم، بعيدا عن طقوس المجالس الرسمية، وما يحيطها من هيبة السلطان، ورهبة الموقف. وغالبا ما كانت تعقد للإحتفال بختم أمهات المصادر الدينية، التي كانوا يقومون بتدريسها، أو لدراسة ظاهرة أو قضية، أو مشكلة طارئة، تهز الأوساط العلمية، أو تشغل بال الرأي العام المغربي، أو العربي والإسلامي أيضا، وبالتالي للتناظر والتحاور حول الكتب الجديدة التي كانت تصدر -إذ ذاك، - سواء الرسمية منها أو الشخصية - وما كان أكثرها -، مواكبة للنهضة العلمية التي بعثها سيدي محمد بن عبد الله. وهذه أسماء أئمة العلماء (222) الذين كانوا يقيمون أمثال هذه المجالس، مع ذكر نماذج لبعضها :

- العلامة التاودي بن الطالب بنسودة المري الفاسي.
- العلامة محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري الفاسي.

(221) دعوة الحق، ع : 234، ص : 48 - 1404هـ 1984م مصحف الأمير مولاي علي بن السلطان

سيدي محمد بن عبد الله، لعبد الهادي التازي

(222) تراجمهم بالنبوغ المغربي لكنون، ج : 1.

- العلامة إدريس بن محمد بن إدريس بن حمدون الحسني
العراقي الفاسي.

- العلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي.

- العلامة أبو العباس أحمد بن الرضى بن عثمان المكناسي. (223)

- العلامة محمد الطاهر بناني (224)، وغيرهم كثير.

وكانوا، زيادة على هذه المجالس، يتبادلون رسائل إخوانية ومراسلات
علمية، كالمراسلات المتبادلة بين أحمد بن عبد العزيز الهلالي (225)،
وبين القادري صاحب نشر المثاني (226).

(223) اتحاف أعلام الناس، ج 1، ص 353 - 361.

(224) نشر المثاني للقادري، ج : 4 ص : 209.

(225) المصدر السابق، ج : 4، ص : 143.

(226) المصدر السابق، ج، و ص.

الفصل الثاني

المجالس العلمية

على عهد المولى سليمان :

تطورها وتنوعها بتطور

وتنوع أعمالها على الصعيدين

الداخلي والخارجي

كتبها - علماءها - مذهبها

الفصل الثاني

المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى سليمان

(1206-1238هـ - 1792-1822م)

تابعت الحياة الفكرية ازدهارها وتآلقها على عهد المولى سليمان، لأنه سار على نهج والده في إقامة المجالس العلمية، والاهتمام بالحديث النبوي الشريف، واتخاذ هذه المجالس قمة هرم هياكل الدولة ومؤسساتها، ومركزا ومجمعا علميا للتنظيم والتشريع والتخطيط، ومرجعا في كل ما يواجهه الدولة من مشاكل وقضايا، ومصاعب وأخطار. سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي.

ولعل أصدق وصف للمولى سليمان نجده عند الزياتي (1) -الذي عايشه عن كثب منذ صغره إلى ملكه- إذ يقول: ".... وكان المولى سليمان ذا أخلاق فاضلة، واشتهر بالحلم والدين، والصبر، والعفو والعدل، وحسن السيرة، وجميل السياسة، والسخاء والشجاعة....".

لذلك كان والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله يحبه ويثيبه على ذلك، وينوه به في المحافل الخاصة والعامة (2).

وقد نوه به المؤرخون المغاربة والأجانب، من ذلك قول الناصري (3): " كان موصوفا بالعدل، محترما محبوبا، لحسن سيرته وسريرته، واتفق له -أواسط دولته- من السعادة والأمن، والعافية والرخاء، ما جعل تاريخا، وبويع مطلوبا لا طالبا."

وقال عنه "هوفير" (4) من المؤرخين الأجانب: " كان من أحسن ملوك دولة الأشراف".

(1) الروضة السليمانية، للزياتي م.خ.م. رقم 999 ص: 205.

(2) المصدر السابق، و ص، والحلل البهية، للمشرقي، ص: 181، والجيش العرمم، لأكنسوس، ورقة: 150.

(3) الاستقصا، للناصرى، ج: 8، ص: 112.

(4) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 173.

وفي الاستقصا (5) عن ثقافته : " كان متضلعا في جميع العلوم، وخاصة في الفقه، والفتوى، وعلوم القرآن، حاملا لواء الشريعة، وارثا للأنبياء.

ولا يعرف مقدار هذا السلطان، إلا من تغرب عن الأوطان، وشاهد سير الملوك في العباد، ولا يتحقق أهل المغرب بعدله إلا بعد غيبته وفقده "

ويقول الزياتي (6) في شهادته ".....: وإذا نظرت بعين الإنصاف، ونطقت بلسان الحق، فهو -المولى سليمان- عمر بن عبد العزيز في وقته، ولم يكن في دولة بني إسماعيل -بعد والده- رحمه الله - أفضل منه علما وعقلا، ودينا وحولا، وحلما وصبرا، وكرما ومروءة، وحسن خلق، ولين جانب وتواضع، وهو الواسطة، لولا أنه يستبد برأيه، ويعتمد على من لا خبرة له بالحروب "

هذه الأوصاف جعلت المولى سليمان مهتما بمجالسه العلمية، حريصا على تهيين المناخ الثقافي المناسب لأعمالها، والترية الخصبة التي تساعد على تنميتها وازدهارها.

فقد عمل على نشر العلم بالحواضر والبوادي، والاهتمام بطلبته، وتقريب العلماء، وتشجيعهم على القيام بمهمتهم السامية إلى جانبه في مركز اتخاذ القرار، وتحمل المسؤولية الكبرى، وبالتالي على القيام برسالتهم التربوية التعليمية المقدسة بالمساجد والمدارس، حيث يتحملون مسؤولية لا تقل عن الأولى أهمية، ألا وهي تربية وتعليم الأجيال الصاعدة، وتربية المواطنين وتوجيههم وإرشادهم، إلى غير ذلك من إنشاء المكتبات بالمدارس والمعاهد، وتشجيع التعاون والتبادل الثقافي والفكري، سواء بين علماء المغرب فيما بينهم، أو بينهم وبين علماء العالم العربي والإسلامي.

غير أن هذه المجالس عرفت في عهد المولى سليمان تطورا جذريا من حيث المذهب والعقيدة، وبالتالي من حيث أنواعها، وأشكالها....

ذلك أن المولى سليمان نهج منهجاً وتوجهاً مخالفاً لمنهج والده سيدي محمد بن عبد الله، ولمذهبه فيما يتعلق بالأخذ بالفروع الفقهية وعلم الكلام.

(5) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 169-170.

(6) الروضة السلیمانية، للزیاتى، م.خ.م، ص: 187.

فقد عمل على بعث مذاهب المتكلمين، وإحياء العمل بكتب الفروع، وشجع على تداولها وتدريسها، دون أن يمس مذهب أهل السنة والجماعة، أو يمس اعتماد أمهات المصادر والمراجع والأصول.

لكن هذا الاختلاف، وهذا التناقض، لم يتناول أسس هذه المجالس، وجوهرها، وأبعادها، وأهدافها التي ظلت كما كانت، ألا وهي خدمة الشريعة الإسلامية، وتوطيد صرحها الشامخ، وتعميق أسس الإسلام، ورفع رايته عاليا، خفاقة في العالمين.

كما كانت مجالسه العلمية دائبة النشاط والانتاج، والإبداع والعطاء، في سائر المجالات والقطاعات، ولا سيما في المجال الديني، والفكري، والثقافي، للمستوى الثقافي الرفيع الذي كان عليه رئيسها ورائدها المولى سليمان، وكذا الذي كانت عليه النخبة من أعيان العلماء، التي اختارها لعضوية مجالسه العلمية الاجتهادية العليا، وارتضاها للعمل بين يديه، وتحت إمرته، من جهاذة علماء عصره، في سائر العلوم، ولا سيما العقلية منها، كالبيان، والأصول، والمنطق، والكلام، والتفسير، والحديث....

والذي ساعده على هذه التطورات الجذرية، وعلى تنفيذ برنامجه الإصلاحية، -الذي أعده داخل مجالسه العلمية، وبمعية علمائها- المناخ العالمي العام، الذي كانت رياحه تجري بما تشتهي سفن المولى سليمان.

فقد واكب عهده الثورة الفرنسية، وحملة نابليون بونابارت على مصر، وظهور الحركات السلفية بالعالم العربي : الوهابية بالحجاز، والمهدوية بالسودان، والسنوسية بليبيا.

ولا بأس من استعراض بعض أعماله الجليلة في مجال تدعيم مجالسه العلمية، وتعزيز دورها، وتعميق أسسها، وتمهيد ميدانها.

فقد كان يقرب العلماء، ويعلي مكانتهم، ويشجعهم حتى إنه كان يزور أئمة أعلامهم، ويلبي دعواتهم، ويعود مرضاهم، ويحضر جنازتهم (7)، كما كان يؤثرهم بالعطاء مرتين في السنة (8).

(7) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 49، والدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 73.

(8) الابتسام، تحقيق مخطوطة، مجلة المناهل، ع: 36، ص: 4، لعبد الهادي التازي.

فقد زار الشيخ التاودي بنسودة، ويحيى بن المهدي الشفشاوني، ومحمد عبدلي، وعاد عبد القادر بنشقرن، وأحمد بن التاودي بنسودة، ولبي دعوة حمدون بن الحاج، وحضر جنازة عبد القادر بن شقرون - حتى حشره في قبره - وكان يتردد خفية على شيخه ابن عبد السلام الفاسي، وربما بات عنده (9).

قال المشرقي في ذلك : " كان صاحب علم وعدل، وحكمة وهدى، وسيرة حميدة، سعى في تقريب كل ماهر وقطب (10) " .

وكان يستدعي النبغاء، ويختبرهم، ثم يكرمهم وينعم عليهم بثأ لعنصر المنافسة بين العلماء، ولاختيار أعضاء مجالسه العلمية (11)، وتجديد عناصرها.

كما كان يحسن إلى المدرسين والطلبة، ويضاعف الأجر والإحسان للمجدين منهم. فقد أعطى مرة لصبي - ظهرت نجابته - ألف مثقال (12) " حتى تنافس الناس في أيامه في اقتناء العلوم، وانتحال صناعتها، لاعتزاز العلم وأهله في دولته، وسعة أرزاقهم (13) " .

وفي إطار حرصه على نشر العلم بين الصغار، كان يبدأ بنفسه فيحض أولاده عليه، وخاصة على حفظ القرآن الكريم (14) .

المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان :

كان المولى سليمان عالما جليلا كوالده سيدي محمد بن عبد الله، فلا غرابة إذا اقتفى أثره. في عقد المجالس العلمية الاجتهادية، لمدارس الحديث النبوي الشريف، تلك المجالس التي خلدت جلساتها قصائد رائعة طنانة،

(9) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 49-50.

(10) الحل البهية، ص: 178.

(11) الابتسام تحقيق مخطوطه، مجلة المناهل، ع: 36، ص: 5، لعبد الهادي التازي.

(12) المصدر السابق، ص: 4.

(13) الحل البهية للمشرقي، ص: 179، والروضة السليمانية، للزياني، ص: 205.

(14) المصدر الأول، ص: 6.

نظمت في حفلات ختم هذه الدروس الحديثية، وهي مسجلة بديوان كل من سليمان الحوات(15)، وحمدون بن الحاج السُّلَمي (16) .
وهذه المجالس رغم تعددها وتنوعها -حسب الملابس والظروف- فإنها ترجع في أصلها إلى نوع رئيسي أساسي، ألا وهو المجالس العلمية السلطانية التقليدية، مع إضافة المجالس الأدبية.
ولم يطرأ عليها تغيير جذري من حيث شكلها، بينما عرفت تطورا وتعديلا جذريا من حيث مضمونها، واتجاهها، وخطابها...
ويمكن القول أنه كانت للمولى سليمان مجالس جد خاصة مع نفسه، يعقدها بمفرده، ويحرص على عقدها في أوقاتها المحددة المعلومة، مما يجعلنا -ولو من نافلة القول- نرى أن نبداً بها، وهي تؤكد مدى ورعه وتقواه، وتصوفه الصادق.

فقد كان يختم القرآن في كل شهر ثلاث مرات، ويوزع ذلك على الأيام في حصص معلومة محدودة "يعد ذلك عدا، ولا يشغله عنه شاغل (17)".
كما كان يختم دلائل الخيرات في كل جمعة، ولا يطلع عليه الفجر إلا متوضئاً، مستقبل القبلة، مصليا أو تاليا (18). وكان يلتزم بذلك في حله وترحاله. يقول أكنسوس في ذلك: ".... وكان يوصينا في السفر أن نوقظه.... فإذا جئنا نوقظه وجدناه قد سبقنا، وجلس في مصلاه، وكان لا يتلو إلا إذا حضر من يسمعه، وإن كان حفظه غاية، إلا أنه يفعل ذلك حزما. وإن بقي عليه شيء من ورده من التلاوة، تلا وهو راكب في الطريق، بحضور من يسمعه (19)".

كما كانت له مجالس ثنائية يخص بها بعض أعلام علماء مجالسه، حيث يحاورهم، ويناقشهم، ويستشيرهم في قضايا ومسائل علمية هامة، كجلساته من هذا النوع مع أكنسوس (20).

(15) م.خ.م، رقم : 101، ص: 72،74،79-86، ودعوة الحق، ع: 1، س: 8، ص: 31، خصائص المدرسة الحديثية بالمغرب، لحسن السائح.

(16) م.خ.م، رقم : 225، ص: 31، 177، 158، 46، 84، 165، 193، 196 و202، ودعوة الحق ع: 1، س: 8، ص: 31، خصائص المدرسة الحديثية بالمغرب، للسائح حسن.

(17) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ص: 246.

(18) المصدر السابق، و ص.

(19) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 246.

(20) المصدر السابق ورقة : 244.

أما مجالسه العلمية السلطانية الاجتهادية والتشريعية الخاصة، فكان حريصا على عقدها باستمرار، وفي أوقاتها المحددة، دونما أي توقف، ولا تأخر. ومهما كانت الظروف. كما كان يرأسها بنفسه، ويشارك في أعمالها وأبحاثها، مشاركة عملية فعالة، وبالتالي يساهم في عروضها، ومحاضراتها، ومناظراتها بحصة الأسد.

كما كان يسهر على تسجيل محاضرها، والاحتفاظ بها، للاستعانة بها، وتوظيفها في أعمال الخلايا المكلفة بالتأليف والتصنيف.

يقول المشرقي في ذلك: ".... ولا شئ يشغله عن كسب المحامد والمفاخر الدينية، كطلب العلم، وتحقيق مسائله، وأصول مذاهبه، ومعرفة آراء المجتهدين، ومن أين أخذهم الأحكام..... وبها صار من ذوي العلوم والعدة (21)".

ولم تكن هذه المجالس العلمية الخاصة للمولى سليمان تعقد في العاصمة فقط، بل كان يعقدها -حسب أوقاتها- حيثما حل وارتحل. وفي ذلك يقول الضعيف الرباطي (22): " ففي 20 محرم، 1212هـ، جمع علماء هذا المجلس بدار المرايا، من فاس البالي، حيث عقد جلسة عمل معهم، شارك فيها في البحث والدراسة، وفي الحوار والنقاش والذاكرة (23)".

ويصف لنا صاحب الابتسام نشاطه في مجالسه بأنه كان: " يكثر من المذاكرة مع العلماء، والبحث معهم (24).... وكانت له مشاركة حسنة في العلم، وخصوصا الحديث، فإنه كان يأخذ فيه بالحظ الأوفر، فيتناول منه في رسائله ما شاء (25)".

ويؤكد الزباني عقده لمجالسه العلمية حتى في أسفاره وتنقلاته، واصفا لنا معاملته لعلمائها قائلا: إنه كان: ".... محبا للعلماء، موقرا لهم، يعطيهم العطاء الجزيل، ويكرمهم. ومجلسه لا يخلو منهم، حضرا أو سفرا....(26)".

(21) الحلل البهية، ص: 175.

(22) بتصرف.

(23) تاريخ الضعيف، ص: 307.

(24) الابتسام، تحقيق مخطوطه، مجلة المناهل، ع: 36، ص: 5، لعبد الهادي التازي.

(25) عقد الجمان، للزباني، م.خ.ع، بالرباط رقم: 40، ص: 16.

(26) المصدر السابق، و ص.

أنواع المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان :

المجالس العلمية السلطانية الخاصة :

لقد عرفت المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان أهم تطور جذري، إذ يعتبر أول من كرس عادة عقدها طيلة شهر رمضان، وبلور معالم تقاليد ومظاهر هذه المجالس الرمضانية، شكلا ومضمونا.

فقد كان يقيم ليالي شهر رمضان الأبرك التي كان يبتدئها بالإشفاق والذكر، ثم يعقد جلسات مجالسه العلمية السلطانية التقليدية الرسمية، التي يحضرها أعضاء هذه المجالس، من أعيان العلماء، وأئمة التفسير والحديث. حيث تسرد الأحاديث النبوية الشريفة، وتتلى الآيات القرآنية الكريمة، مما هو مقرر في كل يوم، بين يديه، فيتولى العلماء -تحت رئاسته وتسييره- تفسير النصوص الحديثية والآيات القرآنية وتقريرها، من حيث المعنى والمبنى، وتفهم أبعادها وأهدافها القرية والبعيدة، والمناقشة والجدال في كل ذلك، بروح البحث العلمي النزيه المجرد، مستهدفين استنباط أحكامها، وتوظيفها لخدمة القضية المطروحة على بساط البحث، والتي هم بصدد دراستها، أو الجواب على الأسئلة المطروحة حولها، وذلك على أساس المنهج الرائد لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الاجتهاد المنتج، الذي يقوم على فهم النصوص الشرعية في إطارها الصحيح، خدمة للمقاصد والأهداف الشرعية والدينية، وتحقيقا للمصالح الاجتماعية، ومراعاة للتطورات الزمانية والمكانية. يقول الزياني (27) عن هذه المجالس العلمية السلطانية الرمضانية للمولى سليمان : ".... وأما الدين والتقوى فذاك شعاره... من أداء الفريضة المكتوبة عليه لوقتها المختار، -حضرا وسفرا،...- وقيام رمضان، وإحياء ليليه بالإشفاق، يستنفر لذلك مشايخ القرآن والأسانيد، ويجمع أعيان العلماء لسرد الحديث الشريف، وتفهمه، والمذاكرة فيه، على مر الليالي والأيام، ويتأكد ذلك في رمضان،... ويشاركهم بغزارة علمه، وحسن ملكته، ويتناول راية السبق في قمم المسائل التي يعجز عنها غيره، فيصيب المفصل".

(27) الروضة السلطانية، للزياني، م.خ.م. بالرباط، ص : 205.

ويقول المشرفي (28) مبهورا بغزارة علمه : "...وبالجمله فقد أقلت إليه العلوم زمامها، وأصبح لائمة الأنام حجتها وإمامها".
وعن مجالسه العلمية الرمضانية يقول المشرفي (29) "... وكان دأبه جمع أعيان العلماء لسرد الحديث، على مر الليالي والأيام، ولاسيما في شهر رمضان، ويشاركهم بغزارة علمه، وحسن ملكته".
وكان يجمع العلماء لهذه المجالس من كل أنحاء البلاد -بانتهاء واختيار- وي طرح على بساط البحث فيها المشاكل العويصة، والقضايا الجلية والمسائل الغامضة التي تعترض الدولة من خلال تلك النصوص. حيث يجمع آراءهم وملاحظاتهم، ثم يقودهم في استنتاج واستنباط الأحكام، والاهتداء إلى الحلول الناجعة، وغالبا ما كان يهتدي قبلهم إلى الحل الحاسم، والدواء الناجع".

ويوضح لنا ذلك المشرفي (30) بقوله "... كان وحيد عصره في الإعتناء باقتناء العلوم في المغرب، وسعى في تقريب كل ماهر، وجمع أئمة الحديث من كل أعجمي ومعرب، للمذاكرة والتفهم، إلى أن بلغ الغاية في التقدم، وتضلع في المعقول والمنقول، والمعلوم والمجهول. كما تضلع في التفسير والحديث... حتى صار علما يهتدى به، وإماما يقتدى به، وسار من يحضر مجلسه من الفقهاء لسرد كتب الحديث والتفسير، والمذاكرة في حل الخاطر العسير، يكسبون من وفره، ويغترفون من بحره. ويتناول راية السبق في فهم المشكلات، وحل المعضلات التي يعجز عن فهمها وإدراكها جهابذة النقاد".

ومن المظاهر الجوهرية لتطور هذه المجالس في عهده، اهتمامها بالتفسير، وبالتالي بعلوم القرآن كلها، وكذا بالفقه. إلى جانب الحديث وعلومه الذي ظلت له الصدارة، والمكانة المرموقة والأولى في مجالسه طيلة حياته. كما ازدهر الفقه في عهده، وأخذ مكانه المرموق في حصص مجالسه العلمية السلطانية، التقليدية الرسمية الخاصة، الرمضانية وغيرها.

(28) الحل البهية للمشرفي، ص : 176.

(29) المصدر السابق، وص.

(30) المصدر السابق، وص : 175 - 180.

ولا غرابة في هذا التطور، فهو نتيجة حتمية للتطور الجذري في مذهب وعقيدة المولى سليمان، وبالتالي في التوجه والمعتقد الذي تقوم عليه الدولة، ابتداءً بهيكلها ومؤسساتها، وفي طبيعتها هذه المجالس الاجتهادية التشريعية.

كما أننا نلاحظ من جهة أخرى ميل المولى سليمان بفطرته وجِبَلَّتْهُ الصوفية إلى القرآن وعلومه، تأثراً بشيوخه الذين كان جلهم من المفسرين الكبار، مما تجلّى بوضوح في إنتاجه الشخصي، وإبداعه الخاص، من تأليفه وتصانيفه، وتقاييده، وحتى هوامشه وتوقعياته. ولعل أصدق برهان علي هذا التطور يتجلّى في عقده مجالس علمية خاصة بالتفسير، ويقول عنها العلامة أحمد العبدلاوي (31): " إن مولاي سليمان - قدس الله روحه في الجنان - كان يجمع في حضرته العلماء، والجلة من فحول عصره، للمذاكرة في العلوم، وتدارسها، وقراءة التفسير، وكان من جملة من يحضر معه لذلك - من الشيوخ الكبار الذين أخذ عنهم - الشيخ الطيب بن كيران، م. فاتح عام 1227هـ، والشيخ سيدي عبد القادر بن أحمد بن العربي بن شقرون، م 15 شعبان 1219هـ، والشيخ سيدي حمدون بن الحاج "

وكان من نتيجة ازدهار التفسير والفقه، واهتمامه بهما في مجالسه العلمية وغيرها، الإقبال على دراستهما، ونبوغ عدد كبير من المفسرين والفقهاء في عهده، وانتعاش حركة التأليف فيهما، وذلك في أحضان التسامح، والتفتح لمذهبه الأثير، وعقيدته المفضلة.

ويوضح لنا الشيخ أحمد العبدلاوي (32) ذلك بقوله : " ... كان له اهتمام بالتفسير، وفي أيامه نبغ الشيخ الطيب بن كيران في التفسير. وتأثر الفقه أيضا فانتعش، ولم يبق قاصرا على نصوص الفقهاء المجردة وأقوال الخلافيين غير المسندة "

وإذا كان والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله معجبا بجده المولى إسماعيل، فاتخذه مثله الأعلى ونموذجه المحتذى، وسار على نهجه في كثير من شؤون ملكه وغيرها، فإن المولى سليمان كان - في المجال العلمي خاصة

(31) دعوة الحق ع : 1، س : 8، ص : 31، خصائص المدرسة الحديثية بالمغرب، لحسن السائح.

(32) المصدر السابق، وص.

- يقندي بالمولى الرشيد. فقد ظل مثله متعلقا بحلقات الدروس، متصلا بشيوخ العلماء، مبالغا في تعظيمهم وتكريمهم - كما مر بنا - .

المجالس الفرعية الخاصة :

لذلك نجد من أنواع مجالسه العلمية الفرعية نوعا سنه المولى الرشيد في مرحلة نشأة المجالس العلمية السلطانية للدولة العلوية، وكان قد انقرض بعده في مرحلة استقرار هذه المجالس، وتلقيها، واتباعها منها محددات متبعا.

حضوره مجالس الشيوخ الكبار :

ذلك أنه كان يدخل على شيوخ العلم في حلقات مجالسهم الدراسية بغتة، حيث يحضر الدروس، ثم يصل الطلبة، ويشجعهم، وخاصة دروس الشيخ الطيب بن كيران.

وذلك لتفقد أحوال الطلبة، ومراقبة عمل الشيوخ، وسير الدراسة بصفة عامة. وكذا إرضاء لرغبته، وحنينه الدفين إلى تلك الحلقات.

فهو - كالمولى الرشيد - اعتلى العرش فجأة، وانتقل من حلبة الدراسة وحلقاتها، إلى سدة الملك وتاجه وصولجانه.

وفي ذلك يقول صاحب الابتسام (33) : ".... وكما مرة ينزل من دار المخزن، ويغشاهم - العلماء - في مجالس التدريس بغتة " .

ونجد في الابتسام أيضا وصفا حيا لأحد هذه المجالس، على لسان الأديب الكاتب العربي الدمناطي، الذي - يحكي للمؤلف شخصيا (34) : ".... إنه كان يحضر على شيخه الطيب بن كيران - رحمه الله - شرح " مغني اللبيب " لابن هشام، هو وجماعة من الطلبة، في مسجد زقاق الحجر بفاس، فدخل عليهم مولاي سليمان، فوجد الشيخ يقرر في ختم الكتاب المذكور، فجلس

(33) مجلة المناهل ع: 36، ص: 5، تحقيق مخطوط الابتسام، مقالة لعبد الهادي التازي، والنهضة

العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 49.

(34) المصدر السابق، ص: 4-5.

حتى ختم الدرس، ثم أمر لكل من حضر منهم بدبلون من الذهب. وهكذا كان دأبهم معه (35) .

وفي هذه الزيارات المفاجئة كان لا يكتفي بالزيارة والمراقبة، بل يتدخل في المناقشات، والمباحثات، وي طرح الأسئلة على الشيوخ، ويتولى الجواب على الأسئلة المطروحة سواء من طرف الشيخ، أو من قبل الطلبة، حتى يصل بهم إلى حل المشاكل المطروحة من خلال تلك الدروس، ببراعته العلمية.

ويؤكد لنا ذلك ابن زيدان (36) بقوله : ".... كان يزور جامع القرويين في كل حين، ويتردد على مجالس دروس الصدور، ويباحث، ويبيدي آراءه -أخذا وردا-، ويحل عويص المشكلات المطروحة " .

ويؤكد لنا ذلك صاحب الابتسام (37) : ".... دشن أعماله بعد توليته بالتيمن ببناء المساجد، وتشجيع العلماء والطلبة، حيث كان يحضر مجالسهم بين الفينة والأخرى " .

2 - مجالس الاستفتاء :

وكانت المجالس العلمية الخاصة للمولى سليمان تتخذ شكل استفتاء، أو التحكيم الشرعي للعلماء، امتثالا لتعاليم الشريعة الإسلامية، التي كان يقدها بانضباط، ومصداقية، والتزام منقطع النظير.

وذلك في القضايا الدينية والشرعية، التي تعترض دولته، ويتورع عن الانفراد برأيه فيها، حتى لا يتحمل تبعه نتائجها وحده، أمام الله، وأمام أمته، وبالتالي أمام العلماء أعضاء مجالسه العلمية، حملة الشريعة وورثة الأنبياء، وظل الله في أرضه....

وهذه نماذج لأهم المجالس العلمية السلطانية الخاصة، التي عقدها المولى سليمان للاستفتاء :

أ - لما خرج على المولى سليمان أخوه سلامة، راسله شخصيا، وأرسل الأمرء، داعيا الجميع إلى التحكيم أمام العلماء، في مجلس علمي خاص،

(35) المصدر السابق، و ص.

(36) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 72.

(37) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 95-96، تحقيق مخطوطة كتاب الابتسام، مقالة لعبد الهادي التازي.

على أن ينزل الجميع عند حكم الفتوى التي يصدرها المجلس المذكور، ويبايعوا من يرى العلماء أحقيته، وذلك حقنا لدماء المسلمين (38) التي كان متوقفا فيها، حتى إنه لما عرضت عليه البيعة، اشترط لقبولها ألا يقاتل، خوفا من تورطه في سفكها.

ووقع التحكيم في مجلس علمي خاص، باستفتاء علمائه في الموضوع، والاحتكام إلى الشريعة الإسلامية بواسطتهم. وكان يمثل الأمير سلامة علي ابن أحمد الوزاني، الذي ادعى أن المولى سلامة أشجع، وسبقت بيعته، وكانت الرعية تتطلع إليه (39).

وأصدر المجلس الفتوى المطلوبة، وكانت لصالح المولى سليمان، وقال العلماء في حيثياتها: لأن المولى سليمان أفقه، والعالم يقدم على غيره في الصلاة، وأيضا في الخلافة، واستظهروا بنسخة مما وقع في مثل هذا الموضوع بين مولاي عبد الله وأخيه المستضىء، على سبيل القياس (40).

ب - وهناك مجلس للاستفتاء من نوع خاص، عقد بكيفية غير مباشرة، واستجاب المولى سليمان لحكمه وفتواه، امتثالا لروح الشريعة الإسلامية، ورجوعا إلى الحق، وتواضعا لله تعالى....

ذلك أنه أصدر سنة 1212هـ، قرارا يمنع حمل السلاح على غير خدام الدولة، المسموح لهم به.

فكتب علماء تطوان وطنجة والعرائش، إلى علماء فاس، يستفتونهم في القضية، وطرحوا عليهم سؤالا هو: "هل يحق للسلطان أن يمنع حمل السلاح إلا للمخزن؟ مع أن النصارى يحاصرون البلاد بحرا بسفنهم وهم عُزَلٌ".

فسكت علماء فاس، وتجاهلوا الموضوع، ولم يصدروا فيه أية فتوى. لكن العالم شاذان الفاسي اللطى أصدر فتوى بأنه لا يحق للسلطان ذلك، وأضاف إلى الفتوى عبارة: "دون علماء فاس، الذين سكتوا عن الحق".

(38) تاريخ الضعيف، ص: 251-252.

(39) تاريخ الضعيف، ص: 251-252.

(40) المصدر السابق، و ص.

ورفع نسخة من الفتوى التي أصدرها إلى أخي السلطان، المولى عبد السلام، حتى يرفعها إلى أخيه، السلطان المولى سليمان.

ولم يلبث المولى سليمان أن أصدر أمره بالإذن في بيع السلاح للعموم (41).

ج - قضية وقع الاستفتاء حولها، والتحكيم في شأنها، خلال انعقاد مجلس علمي خاص لسرد أحاديث صحيح البخاري. وبث في شأنها المولى سليمان، على رأس ذلك المجلس.

ذلك أنه حدث فتنة في فاس، بسبب خلاف بين قاضيها العلامة العباس ابن أحمد بن التاودي بنسودة، ومفتيها محمد بن إبراهيم الدكالي حول قضية الشريفيين: الشفشاوني، والعراقي، من أهل فاس.

فعزل السلطان المفتي المذكور، وتعصب العلماء للمفتي المعزول، ورفعوا للسلطان شهادة بجور القاضي المذكور، وجهله، مرفوعة بقصيدة في هجو القاضي بنسودة المذكور، ومطلعها :

يا يها الملك الذي عدالته أحييت مآثرها الصديق أو عمرا

ثم هجموا على القاضي، ويأرادوا قتله. فقد رماه العالم محمد الطاهر الكتاني بالرصاص، لكنه أخطاه، فلزم القاضي داره، ونصب العلماء مكانه الفقيه محمد بن عبد الرحمن الدلائي، ثم القاضي محمد العربي الزرهوني (42).

وفي هذه الأثناء انعقد المجلس العلمي السلطاني بالعاصمة، وكان يسرد فيه صحيح البخاري بين يدي السلطان المولى سليمان، الفقيه العلامة الشريف سيدي محمد بن الطاهر، وكانت بينه وبين القاضي العباس بن أحمد بن التاودي بنسودة إحن وضحائن ومنافسة، فاستشهد في معرض تقريره بالقضية، وبالغ في التهويل والتشنيع على القاضي المذكور، مما كان

(41) المصدر السابق، و ص : 112-113.

(42) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 146-148.

له تأثير على السلطان، الذي أصدر أمره بتوجيه إنذار إلى أهل فاس جميعا(43)، مع لجنة خاصة من العلماء أعضاء المجلس المنعقد، وباسم المجلس المذكور.

د - ومن أهم القضايا وأخطرها التي واجهت المولى سليمان، وعقد لها سلسلة من المجالس العلمية السلطانية الخاصة، واستفتى علماءها في شأنها(44)، وخاض معهم غمار المناظرات العديدة والمتشعبة، وساهم في النقاش والجدال حولها بأرائه النيرة، وبت فيها بقراراته الحاسمة، وإجراءاته الحازمة، قضية التبغ، وهل هو حلال أم حرام؟ وهل يباح أو يمنع (45) بالبلاد؟.

وكان بته فيها طبعا على ضوء الفتوى التي أصدرها مجلسه المذكور بتحريمه ومنعه.

ومشكل التبغ شغل بال المفكرين والأوساط العلمية والدينية بالمغرب، منذ أن دخل البلاد سنة 1007هـ-1599م، باعتباره آفة اجتماعية، ومشكلا دينيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا. وألف حوله منذ ذلك العهد أكثر من ثلاثين كتابا(46)، وصدرت حوله عشرات الفتاوى، وطرحت مئات الأسئلة والأجوبة الكتابية وغيرها. كما عقدت حوله محاضرات ومناظرات متسلسلة، في المحافل والأندية الخاصة والعامة، الدينية وغيرها.

لكن لم يكن لها إلا تأثير بسيط ومحدود في الحد من انتشار هذه الظاهرة الخبيثة، دون القضاء عليها.

واجتاح وباء التبغ المغرب وبلغ سيله الزبى، وطرح المشكل بحدة في عهد المولى سليمان، فعرض قضيته على علماء مجالسه العلمية، وعقد لهم مجالس خاصة لذلك، في إطار برنامج الإصلاح العام، ذي الطابع السلفي الديني الإسلامي....

حيث دارت في شأنه وتحت رئاسة المولى سليمان مناظرات مسترسلة حادة، بين علماء المجلس المذكور.

(43) الجيش العرمم، لاكنسوس، ورقة 214، والاستقصا للناصري ج: 8، ص: 146-148.

(44) تاريخ الضعيف، ص: 318.

(45) تاريخ الضعيف، ص: 318.

(46) الحركة الفكرية لمحمد حجي، ص: 246-266.

وأخيرا أصدر المجلس الفتوى بتحريمه، وبوجوب منعه، فبادر المولى سليمان لتنفيذ بنود الفتوى وتعليماتها، وأمر بإحراق طابة والكيف في جميع أرجاء البلاد بالمدن والقرى، وذلك في 13 شوال 1214هـ. ويعتبر مجلسه هذا من أحسن حسناته، ويبدأ من جملة أياديه البيضاء في مجال الإصلاح الديني والاجتماعي، الذي كان رائده دون منازع(47).

3 - مجالس علمية بالمراسلة :

أ - من الآداب العلمية التي كانت متبعة بين العلماء داخل المجالس العلمية وخارجها، إهداء الكتب التي ينتهون من تأليفها إلى المولى سليمان، لما يعلمونه من شغفه بالعلم، وغبطته بذلك، وبالتالي رغبة في كرمه وجوائزته السنوية، خاصة وأن هذه الكتب غالبا ما كانت تؤلف بأمره، أو على هامش القضايا المطروحة بمجالسه العلمية. كما جرت العادة أن يجيبهم السلطان برسائل تشريعية نقدية تشجيعية وتوجيهية صريحة، حسب القيمة العلمية لكل منهم، ومؤلفه، ومدى جودة تأليفه، وتوفيقه فيه، وسداد منهجيته.... ويمكن اعتبار هذا النوع من المراسلة العلمية، التي كانت تتم حتى بين العلماء فيما بينهم، من تقريظ المؤلفات، والتنويه بمؤلفيها، أو نقدها، وشجب موضوعاتها، والنعي على مؤلفيها.... يمكن اعتبار كل ذلك نوعا من أنواع المجالس العلمية للسلطان المولى سليمان، مع شيء من التجاوز.

- فقد أهدى أبو القاسم الزياتي المؤرخ والكاتب والسفير المشهور إلى المولى سليمان كتابه «الترجمة الكبرى»، فأجابه السلطان بكتاب يبلغ يقرظه، وينوه به وبمؤلفه ويشجعه (48)....

- كما أهدى إليه أبو عبد الله الجريسي القاضي الأديب، شرحه على منظومة ابن الونان - الشهيرة بالشمقمقية -، التي مدح بها سيدي محمد بن عبد الله، وخص به الخزانة السلিমانيّة.

(47) الحركة الفكرية، لمحمد حجي، ص: 246-266.

(48) الترجمة الكبرى، للزياتي، ص: 3، وبها نص رسالة المولى سليمان المذكورة، للزياتي.

وقد أجابہ المولى سليمان على عادته، مرحبا بكتابه، مقرظا له، ومشجعا إياه على الاستزادة، كما كتب بخط يده على هذا الشرح المهدى إليه: "من منن الله على عبده سليمان (49) ."

وكان عبد الله الجريري هذا، من أبرز علماء المجالس العلمية للمولى سليمان، وقد مهر في البحث العلمي بجميع العلوم، وخاصة في البلاغة، والفقه، والحديث، والتفسير. فكان المولى سليمان يعتمد عليه في خلايا التأليف، والتصنيف لمجالسه العلمية، وبالتالي يقربه ويقدمه.

- وقد قرظ كتب الزياني التي ألفها في تاريخ الدولة العلوية - والتي بلغت عشر كراريس (50) - بالمراسلة المذكورة، نخبة من خيرة علماء المجالس العلمية للمولى سليمان وغيرهم، وهم العلماء السادة : سليمان الحوات، حمدون بن الحاج، محمد بن عامر المعداني التادلي، محمد اليازغي، أبو بكر ابن إدريس المنجرة، أحمد زروق، عبد الودود الأندلسي، أحمد بن نافع، العربي الدمناتي، عبد الواحد بن أحمد التاودي بنسودة، العباس بن أحمد ابن التاودي بنسودة، إدريس بن عبد الله الوديني، العربي بن الهاشمي الزرهوني، محمد بن أحمد بناني، محمد الشفشاوني، عبد القادر السلاوي، سعيد السوسي، محمد الصادق شقور (51) .

ب - ويمكن اعتبار الرسالة التي وجهها المولى سليمان إلى أهل فاس سنة 1235هـ، مجلسا علميا من نوع خاص - بالمراسلة -.

وذلك لأن الكتاب وما تضمنه - في حد ذاته - يعتبر وثيقة هامة من وثائق مجالسه الخاصة، التي رفع علماءها إلى جانبه في موقع صنع القرار والمسؤولية، ثم للمجلس العلمي الرسمي الذي عين في الرسالة أفراده، وعقد - بأمره في هذه الرسالة - لقراءتها أمامه.

هذا زيادة على المجلس العلمي الذي عقده علماء فاس للاستفتاء في أمر هذه الرسالة، بطلب من أهل العدوتين. أضف إلى ذلك أهمية الفتوى التي أصدرها ذلك المجلس، والنتائج الوخيمة التي ترتبت عن تلك الفتوى.

(49) الإتحاف الوجيز، للدكالي، م.خ.ع، رقم : 1320، ص: 130-131

(50) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 547-581.

(51) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 547-581، حيث يعرف بهم جميعا.

والأهم من هذا وذاك قراره التاريخي الذي أنهى به الموضوع،
ألا وهو الحلم والعفو عند المقدرة، وموقفه النبيل الرشيد المتوارث عن جده
رسول الله ﷺ، الذي يكرس نبل وحلم الأسرة النبوية الشريفة الكريمة.

وكانت رسالة السلطان إلى أهل فاس المذكورة، نسخة من خطبة ألقاها
المولى سليمان في أعيان أهل مراكش والرحامنة يوم الجمعة، يوجههم،
ويرشدهم، ويدعوهم لمساعدته على محاربة الفساد.

ولاحظ السلطان وقعها الحسن عليهم، ونتائجها الإيجابية معهم، فأرسل
نسخة منها مع ولده المولى علي، وأمره أن يجمع أعيان أهل فاس بالمسجد،
ويقرأها عليهم بحضور لجنه من أئمة العلماء - أعضاء مجالسه العلمية
بفاس- والوجهاء والأعيان وهم : العلامة المفتي السيد محمد بن إبراهيم،
والفقيه الشريف سيدي محمد بن الطاهر الفيلاي، والتاجر الأمين الحاج
الطالب بنجلون وغيرهم....

فنفذ المولى علي تعليمات والده في شأن تلك الرسالة. لكن أهل فاس
وجدوها فرصة لتفجير الفتنة - التي بيتوها من قبل- فاغتنموا فرصة
اختلاف الخاصة والعامة حول مضمون الرسالة، والمراد منها، فأعلنوا
للناس أن السلطان خلع نفسه عن الملك، وترك الحرية للناس في أن يقدموا
على أنفسهم من يرتضونه للحكم (52).

وأشاعوا خرافات، مفادها : أن تنازله كان، لأنه الخليفة السادس
في الدولة، شأنه شأن الحسن بن علي، ومن بعده من الخلفاء الأمويين
والعباسيين الذين جاؤوا في ذلك الترتيب، ثم لأنه أوصى بعده لعبد الرحمن
ابن أخيه هشام (53)، ولما جاء في وصيته لابن أخيه المذكور، ثم لأنه كثيرا
ما تمنى ذلك جهارة....

واجتمع أهل العدوتين : الأندلسيون، والقرويون اللطيون، وطالبوا
علماء العدوتين بعقد مجلس علمي، واستفتوهم حول مضمون الرسالة، وما
يجب عمله.

(52) الجيش العرمم، لاكنسوس، ورقة : 188-189.

(53) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 195.

فاجتمع المجلس العلمي المذكور، وبعد مداوات، ومناقشات حول كل ما سمعه كل منهم من الرسالة، التي قرأها عليهم المولى علي، استخلصوا منه ما أراده أهل فاس، وهو: " أن السلطان عجز، وعزل نفسه، وأمر الناس أن ينظروا لأنفسهم من يصلح بهم ". (54)

وفي صبيحة اليوم التالي أجمعوا على بيعة مولاي إبراهيم بن اليزيد صهر المولى سليمان على ابنته -الذي كانوا يهابونه، لانزوائه عنهم، إذ كان لا يخرج إلا لصلاة الجمعة (55).

فقامت فتنة كبرى، وحروب طاحنة، انتهت بانتصار المولى سليمان على أهل فاس، ودخولها مظفرا. لكنه بعد أن ظفر بهم صفح، وعفا عنهم قائلا: " لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين (56) ". اقتداء بجده رسول الله ﷺ في قوله لما ظفر بأهل مكة يوم فتحها: " اذهبوا فأنتم الطلقاء ".

ج - وضمن المجالس العلمية بالمراسلة للمولى سليمان يمكننا إدراج موقفه مع الشيخ التيجاني، ذلك الموقف الذي يعتبر نموذجا حيا للديموقراطية والشورى الإسلامية.

فقد كتب الشيخ المذكور للمولى سليمان رسالتين مطولتين يعظه وينصحه (57) فيهما، فتقبل ذلك منه بامتنان ورحابة صدر، مكرسا للأمجاد الديمقراطية لجده المولى إسماعيل مع الشيخ أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي (58).

(54) الجيش العرمم، لأكنسوس، ورقة: 191.

(55) المصدر السابق، و ص.

(56) الجيش العرمم، لأكنسوس، ورقة: 191-192.

(57) كشف الحجاب للسكيرج، ص: 496-498.

(58) نصها برسائل اليوسي، تحقيق فاطمة القبلي، ص: 73-74، وبالدر المنضد، ورقة: 218،

وبالمنزغ اللطيف، لابن زيدان، ص: 83، والجيش، لأكنسوس، ص: 78، والاستقصا، للناصرى،

ج: 7، ص: 82، والتيارات السياسية، لحركات، ص: 115-117.

4 - مجالس علمية على شكل محفل :

يمكن أن نضيف إلى المجالس العلمية الخاصة للمولى سليمان مجلسا عقده على شكل محفل علمي ومهرجان ثقافي، إحياء للإحتفال بسُلطان الطلبة -الذي سنه المولى الرشيد- وتخليداً لذكرى قضاء المولى الرشيد على الإقطاعي الصهيوني الطاغية هارون بن مشعل.

وفي هذا الحفل الذي ترأسه المولى سليمان، خرج جميع الطلبة للنزهة المذكورة بوادي فاس، وجاء طلبة الجبل بسُلطانهم من مدرسة الشراطين على هيئة الموكب السلطاني من مظلة وغيرها، وفي ركابه وركاب سُلطان طلبة فاس، الطلبة محزمين وحاملين للبنادق وقد تقلدوا السيوف (59).

وهذا يؤكد لنا مدى إعجاب المولى سليمان بشخصية المولى الرشيد الفذة، واقتدائه به في كثير من أعماله، ومنطقاته....

ومما يؤكد اعتناؤه بالطلبة، وحده على مصالحهم، وتمتعهم بقدر من الحرية في القول والعمل، ودالتهم عليه، قيامهم بإضراب سنة 1211هـ، وخروجهم في مظاهرة صاخبة، واعتصامهم بجامع السلطان يقرأون القرآن جهارة، حتى ختموا إحدى عشرة سلكة من المصحف الكريم، وحتى سمعهم السلطان، وعرف قضيتهم التي تتلخص في احتجاجهم على هدم القائد اليموري للطابق العلوي من سكناهم، بالقسم الداخلي لمدرسة سيدي مصباح.

ويوم الجمعة رفعوا أصواتهم بالشكوى جماعة، وطالبوا بالاحتكام إلى الشرع. (60)

فرد السلطان المولى سليمان مظلمتهم، وأمر الناظر أحمد بن إبراهيم أن يعرضهم عن خسائرهم، وبناء القسم الداخلي لهم من جديد، من مال القرويين، كما وبخ القائد اليموري على فعلته.

وأرسل إليهم الفقيه العلامة أحمد بن علي التنقراسي الذي طيب خاطرهم، وفرق عليهم ألف ريال.

(59) تاريخ الضعيف، ص: 284.

(60) تاريخ الضعيف، ص: 296-297.

ويمكن اعتبار هذه القضية مجلسا من نوع خاص، باعتبار أن الطلبة -هم علماء متدربون- وما داموا قد اعتصموا بجامع السلطان، وطالبوا بتحكيم الشريعة الإسلامية.

5 - المجالس العلمية الاختتامية للشيخ الكبار.

في إطار هذا النوع من المجالس العلمية، كان يحضر اختتام الأئمة الكبار من شيوخه، لأمهات المصادر الدينية الكبرى في جملة طلبتهم، وكأنه واحد منهم، تعظيما للعلم، وإجلالا للعلماء حملته.

فقد حضر ختم (61) شيخه الطيب بن عبد المجيد بن كيران تفسير القرآن الكريم بزاوية الشيخ قاسم بن رحمون الشهيرة بفاس.

المجالس العلمية للختم :

لم تكن المجالس العلمية السلطانية الخاصة للمولى سليمان تقتصر على ختم صحيح البخاري، بل كانت تشمل سرد الكتب الدينية الأخرى، ولا سيما الحديثية، كالصحاح، والمسند، والكتب الستة.

ففي "يوم الأربعاء 18 صفر 1212هـ، ختم السلطان مسند الإمام أحمد ابن حنبل (62)، فأحضر العلماء، وأكرمهم، وأعطى لكل منهم ثلاثين ريالاً". وقد خلد المجالس العلمية الخاصة للمولى سليمان -ولا سيما مجالس الختم- شاعره سليمان الحوات في ديوانه (63).

ويمكننا أن نستشف من هذا الديوان، الكثير عن أعمال، وأسرار، وأهداف، وأهمية هذه المجالس العلمية العتيدة، وذلك من كل قصيدة على حدة، وبالتالي من قصائد الديوان ككل، التي أنشدت في المجالس العلمية -للمولى سليمان- الخاصة بهذه المناسبة، ألا وهي حفلات الختم لسرد

(61) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 73.

(62) تاريخ الضعيف، ص: 308.

(63) توجد نسختان مخطوطتان بالخرزانة الملكية، إحداهما جيدة ورقمها : 101، ولها مقدمة عامة ثم مقدمة لكل قصيدة، و نسخة أخرى رديئة رقمها : 294، دون مقدمات لا عامة ولا للقصائد والديوان من جمع أحمد بن محمد الطيب شقور العلمي الموسوي كما في آخر الديوان.

أمهات الكتب الدينية، ولا سيما الإمام البخاري، وخاصة في شهر رمضان المعظم، مع الاكتفاء بالمطلع، والأبيات المقصودة.

1 - ومن ذلك، الأبيات التالية من قصيدة (64) في الديوان المذكور، أنشئت بهذه المناسبة، وجاء في التقديم لها: " وله يوم ختم أمير المؤمنين رضي الله عنه -المولى سليمان- صحيح البخاري على عادته كل رمضان، ومطلعها:

سبحان من عمنا فضلا وإحسانا
سبحان من خصنا علما وعرفانا
شرفنا برواية الصحيح علي
خير السلاطين مولانا سليمان
فكان كالبحر تقرير لمشكاة
يقذف بالدر تحقيقا وإتقانا
أكرم بها منة مننتها عظمت
فلا نطبق عليها قط شكرانا
ما أحسن العلم -والحديث أشرفه-
يزيد بالله والرسول إيماننا
ويمنع النفس والشيطان حظهما
من ابن آدم لا يخاف خذلانا
ويحفظ الملك في الناس إذ كثرت
به العناية أحيانا فأحيانا
فدونكم أبدا علم الحديث فلا
تبقوا به سرا وإعلانا
فهو الدليل على حكم الشريعة إن
كنت تقيم على الأحكام برهاننا
ومنه يخبر سر الوحي عن عجب
تعلم منه الذي يكون أو كان

(64) ديوان سليمان الحوات، ص: 72-74، م.خ.م، بالرباط، رقم: 101.

وتجتلي من دلائل النبوة ما
يكون منك على اليقين عنوانا
بشرى لنا اتصلت بنا روايته
عن خير فرع زكا علما وسلطانا
من أجله أكرم الرسل الذي تليت
آيات إعجازه في الخلق قرأنا
يارب هب للجميع بالصلاة له
وءاته أبدا عفوا وغفرا
وأبق فينا أمير المؤمنين - على
قدم صدق - نعم الخلق إحسانا

وهذه القصيدة تؤكد لنا أن المولى سليمان كان من عاداته المعروفة، إقامة هذه المجالس العلمية النيرة في شهر رمضان من كل عام، وأن هذه المجالس كانت تختم بحفل علمي أدبي، تلقى فيه قصائد لأكبر الشعراء في وصف هذه المجالس، وتعداد أهدافها، وما يدرس فيها شكلا ومضمونا. كما تؤكد لنا أن هذه المجالس كانت خاصة بعلم الحديث الصحيح. وأن المولى سليمان كان يتصدى فيها لحل المشاكل المستعصية. كما تستعرض أهداف دراسة الحديث النبوي الشريف، وبالتالي أهداف المجالس العلمية السلطانية، -ولا سيما الرمضانية منها- من تقوية الإيمان بالله وبرسوله والبعد عن حبائل الشيطان وهمزاته، واستنباط الدليل والبرهان لأحكام الشريعة السمحة، وشرح الآيات القرآنية المحكمة، والمتشابهة، واستخراج الحجة القاطعة على صدق النبوة، وصحة الروايات للحديث، خاصة وقد اتصلت روايته بسلطان عالم، سبط لرسول الله ﷺ. وأخيرا يطلب من الله تعالى العفو والغفران لمن صلى على النبي ﷺ، وأن يطيل عمر السلطان، ليعم إحسانه الخلق جميعا.

2 - وهذه قصيدة (65) أخرى في نفس المناسبة يشكر فيها الله تعالى على اتفاق، وصدفة عجيبة :

(65) ديوان سليمان الحوات، ص : 74، م، خ، م بالرباط، رقم : 101.

تعالى الذي أبدى عجائب صنعته
بحسن اتفاق كاد عنها يترجم
لنا مجلس التفسير في كل غدوة
وإدراكنا - لأفخر - فيه المقدم
فوافى البشير بالغنيمة معلما
وكنا أخذنا في قراءة "واعلموا"
فشكرا لمن أولى الجليل تكرما
فكان لنا في الروم سبي ومغرم
ويوشك أن ينال منها سميना
سليمان سهما وافرا حين تقسم

ونستنتج من هذه القصيدة، أنه إلى جانب مجالس سرد الحديث
وتقريره، كانت تقام مجالس لتفسير القرآن الكريم - كما ذكرنا - وأن هذه
المجالس الرضائية، سواء للحديث أو للتفسير، كانت تقام غداة كل يوم،
وأن التفسير كان بالمأثور، وبالرأي معا، مما كان - يجسده مذهب وعقيدة
المولى سليمان = عكس والده المولى محمد الثالث - الذي كان يكتفي بالمأثور
والمنقول.

وأنه اتفق أن جاءهم - وهم بذلك المجلس - الخبر بالنصر على النصارى
في معركة، وكانوا بصدد تفسير قوله تعالى : " وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ
مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ (66) " الآية.

وأخيرا يشكر الله على النصر المبين على الروم، وعلى ما أفاءه عليه من
سبي وغنائم. ويستدر الشاعر عطاء السلطان، إذ يقول على لسان
السلطان: بأن شاعره وسَمِيَّه - سليمان الحوات - سينال سهما وافرا
منها، حين يقسمها السلطان القسمة الشرعية - لأنه نظم القصيدة على لسان
السلطان.

3 - وقصيدة أخرى، نستعرضها مع مقدمتها : " وله يوم ختم أمير
المؤمنين - المولى سليمان - صحيح البخاري، في سنة أخرى، عم الله به
النفع في المسلمين (67) ". وهي طويلة، ونكتفي منها بمطلعها، وبالأبيات

(66) سورة. الأنفال، الآية : 41.

(67) ديوان سليمان الحوات، ص : 74 - 75، م.خ.م، بالرباط، رقم : 101.

التي تخص الموضوع الذي نحن بصدده، ألا وهو ختم صحيح البخاري -
كما قلنا من قبل - ومطلعها :

ما صلاح الزمان إلا بمك
حكمه في القريب بالعدل جار
فاعتبر ما مضى بما أنت فيه
والعيان يغني عن الأخبار
إلى أن يقول عن المجلس :

خصنا الله بالهناء ففقنا
بسليمان سائر الأقطار
لا ترى في الملوك غيره يقفو
سنن التابعين للأثر (68)
أيها المالك الذي عم حلما
وأناة عن سطوة واقتدار
لست أحصي جميل وصفك مدحا
كيف تحصى المياه في الأنهار
أنت في مظهر الشريعة شمس
نورها أخفى أوضح الأنوار
وسرت منك في الوجود علوم
كشفت للنهي عن الأسرار
حكمت فيك بالتقدم فردا
في مجال الأبحاث والأنظار
كل خبر من روض فهمك يجني
ما تجل به من الأزهار
أيهم في التفسير غيرك يبدي
ما توارى في الوحي من أسرار
كاد علم الحديث لولاك فينسا
يضمحل في هذه الأعصار

(68) المصدر السابق، ص : 76 - 78، م.خ.م، بالرباط، رقم : 101 .

أنت أحييته رواة ومتننا
باتصال بحرك المختار
مالك اليوم فيه حفظا وضبطا
من مشارك ولا من مجار
وتخلقت من هداه بخلق
كان للأصفياء خير الشعار
ونشرت من مشكلاته فينا طيًّا
فكشفت التحقيق للنظار
يوم صرت في مجلس الدرس بحرا
تقذف الدر من صحيح البخاري
واتخذت إقراءه طاعة في
رمضان للمالك القهار
من أتى منشداك في يوم ختم
لرأى كالشيخين في الأبرار
وحواليك للرواية قوم
علمون بل واسعوا الأفكار
توجوا من جلال ملك وعلم
كل تاج من العلا والوقار
وبدت للقبول آية صدق
من محياك الساطع الأنوار (69)

وهذه القصيدة - كسابقاتها تؤكد أن المجالس العلمية للمولى سليمان، كانت تختم بحفل، تلقى فيه القصائد في مدح الملك، واستعراض أياديه البيضاء على أمته، ومنها عقد هذه المجالس، وآثارها.

فهو يمدحه بأنه خير الأئمة، لتقواه، وسيره بهدي السلف، مما انعكس على أمته. لأنه هو الملك الوحيد الذي يتبع سنن الأولين، من الأسلاف الصالحين، والتابعين، ولحمه وعفوه عند المقدرة.

(69) ديوان سليمان الحوات، ص : 76 - 78، م، خ، م بالرباط، رقم : 101 .

وإنه يعجز عن مدحه، ويشببه بالشمس التي إذا طلعت حجب نورها كل نور مهما كان وهجه، وكذلك هو بالنسبة لغيره من الملوك الأخيار، لأنه عالم، ويعمل على نشر علمه بواسطة مجالسه العلمية، التي هي مجال للبحث والمناظرة، وتطوير العلوم لمصالح الأمة الإسلامية.

وكل علماء مجالسه العلمية يجنون من علومه الغزيرة، ويتحلون بما يأخذونه عنه، ويتيهون به أمام غيره، في المحافل والأندية العلمية الأخرى.

فهو الوحيد الذي يدرك أسرار القرآن، ويبرزها في التفسير، الذي نبغ فيه، ولاغرو، فهو فرع الدوحة النبوية، وحرها، ولذلك فاق المفسرين جميعا في تلك المجالس، وعلم الحديث لولا وجود السلطان العالم المولى سليمان على رأس تلك المجالس، وبالتالي على رأس الدولة، لضعف شأنه والاعتناء به بهذه البلاد وبين علمائها. ذلك لأنه أحياء بسائر علومه من : رواية، ومتن، ورجال في اتصال إلى رسول الله ﷺ، لاهتمامه بسائر هذه العلوم في هذه المجالس العلمية الخالدة، إذ لا يجاربه أحد من العلماء، لا في حفظه، ولا في ضبطه، ولا يشاركه في ذلك أحد، فهو وحده الذي يتصدى لكل ذلك، ويقوم به خير قيام، وما ذلك إلا لأنه تخلق بتعاليمه وبهديه ككبار الأصفياء المقربين من الله ورسوله، من أولياء الله الصالحين.

ولأنه طرح جميع مشكلاته على بساط الدرس والبحث، في مجالسه العلمية هذه، فجلى غوامضها للأنظار، وأوجد لها الحلول الناجعة.

وشبه عمله داخل هذه المجالس، واستنباطه أحكام صحيح البخاري وغيره، وتقديمها للعلماء، وبالتالي للأمة، شبيهه في ذلك بالبحر الذي يقذف الدر من أغواره للقريب والبعيد.

كما أنه اتخذ سرد صحيح البخاري ودراسته في شهر رمضان، تقربا وطاعة لله تعالى، في هذا الشهر المبارك، وهو خير قربان يقدم في هذا الشهر العظيم، شهر التوبة والغفران.

أما علماء مجالسه فهو الذي جللهم وتوجههم بالعلا والوقار، بما اقتبسوه منه من العلم، واستمدوه من السلطان.

وأنه ينشده كل ذلك في هذا الحفل لختم البخاري، لأنه يستشف كل ذلك أكثر من غيره لمكانته القريية منه، والعالية لديه، التي هي بمثابة مكانة الشيخين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - من النبي ﷺ. 4 - وهذه قصيدة أخرى وتقديمها : " وله أيضا في ختمة أخرى، خلد الله ملكه (70) :

بشرى لمن طلب الحديث واتصلت
به روايته متنا وتعليق
هو الدليل لمن يبغي الوصول إلى
حكم الشريعة تحريما وتحليلا
وهو البيان لمجمل الكتاب فليتم
ترك صراحتة في الآي تأويلا
وفيه معرفة لما مضى ولما
يأتي من الأمر جملة وتفصيلا
يزيد في العمر والرزق لصاحب
ومن يكن سائلا أصبح مسؤولا
ويحفظ السمع والأبصار بل وكذا
كل الجوارح علة وتعليق
ويمنع النفس والشيطان حظهما
من التظاھر تكثيرا وتقليلا
ويعصم الدهر في أصل عقيدته
من الضلالة تجسيما وتعطيلا
ويحمل النفس دائما على ورع
ويحرس الملك تغييرا وتبديلا
فاشتغل به وتثبت في مسانده
حفظا وفهما وتجريحا وتعديلا
وفي صحيح البخاري منه ما انتصبت
له المشايخ إملاء وتحصيلا

(70) ديوان سليمان الحوات، ص : 79 - 81، م، خ، م. بالرباط، رقم : 101 .

وللإمام أمير المؤمنين به
 عناية حبلها لازال موصولا
 فلم يدعه وشهر الصوم يقـرؤه
 إقراء مجتهد بدءا وتكميـلا
 فبحث بحث الأكابر الألى سلفوا
 بنظر يبدل التصعيب تسهـيلا
 يبني الفروع على أصولها فترى
 قياس معقولها ينتج منقـولا
 يا نور من أبصروا أنوار مجلسه
 والتمسوا من ندى الحقيقة السـؤلا
 فلتقتدوا أبدا به فلن تجـدوا
 لسنة الله عنكم قط تحويـلا
 قد جمع الله فيه الملك عـن ورع
 والعلم عن نظر فحاز تفضيـلا
 أحيت معالم هذا الدين نضرتـه
 فصار في حجرها بالحفظ مكـبولا (71)
 وطلعت للهدى شمس بغرتـه
 فنسخت في النورى ما كان تضليـلا (72)

وفي هذه القصيدة يعدد الشاعر فضائل علم الحديث، والتفسير، وبالتالي
 أهداف هذه المجالس العلمية الحديثية وغيرها، وإبعادها، وخلفياتها....
 ذلك أن أفضل العلوم بعد العلوم المتعلقة بكتاب الله العزيز هو علم
 الحديث بسائر علومه وفروعه، ولاسيما المتن والشرح، لأنه الدليل الوحيد
 لمن يريد الوصول إلى معرفة أحكام الشريعة الإسلامية، من تحليل
 وتحريم....

وهو أصدق وسيلة لشرح كتاب الله الكريم، فما من آية قرآنية
 إلا وهناك أحاديث عديدة في شرحها، كما جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم
 وتأكيد.

(71) ديوان سليمان الحوات، ص : 79-81، م.خ.م. بالرباط، رقم : 101.

(72) المصدر السابق، ص : 81 - 82.

وفي الحديث الشريف نجد الأحكام لما مضى، ويمكننا القياس عليها واستنباط أحكام للحاضر والمستقبل، بإيجاز أو بإطناب.

ثم إن الذي يتعاطى لعلم الحديث، ويكرس له وقته، يبارك الله في عمره، وفي رزقه، ويزيده علما ومالا، حتى يصبح عالما كبيرا، مسؤولا ومقصودا، بعد أن كان جاهلا يتلمسه.

كما أن ذلك يحفظ على الإنسان صحته، وسلامة جميع أعضائه وحواسه، ماديا ومعنويا، ويكبح جماح النفس عن الشهوات والمعاصي، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يرتكب منها شيئا.

أضف إلى ذلك أن معرفة الحديث، تحفظ على الإنسان سلامة عقله ودينه، فلا يقع في الشبهات، من تجسيم وتعطيل وغير ذلك، من معتقدات الطوائف الضالة المضلة.

ذلك أن المحدث دائما ورع تقي، وإذا كان ملكا، فإن الله يحرس ملكه من عوادي الدهر، وظروفه....

فالعاقل هو من يشتغل بعلوم الحديث كلها - وهو يدعو إلى ذلك - ويحقق إسناده بالحفظ والفهم، والتمكن والتضلع في علم الجرح والتعديل.

ويدعو إلى الاكتفاء منه بما في صحيح البخاري الذي يدرس في هذه المجالس - لأن شيوخ العلماء، أوسعوه إملاء وحفظا وشرحا...

وإقبال العلماء على صحيح البخاري دون غيره يدل على أنه أحسن ما يوجد، وشبهه بالمرزعة، والأرض المسقية، والطيور لا تجتمع لتلتقط الحب إلا في مزرعة، أو في أرض ندية مبللة، حيث تلتقط، دودها، وكذلك العلماء في إقبالهم على صحيح البخاري، وعلى رأس هؤلاء العلماء أمير المؤمنين المولى سليمان، الذي يعتصم به اعتصامه بالعروة الوثقى، فهو يبدئ ويعيد فيه خلال شهر رمضان، ويوسعه اجتهادا واستنباطا للأحكام، والفتاوى وغيرها.

وإن اجتهاده في هذا الصدد، ليتمد إلى علاج معضلاته وحلها، ووصل موقوفه بدهاء، لأنه يعتمد في تفسيره وتقديره على المعقول والمنقول المأثور معا.

ذلك لأنه يبني بحثه في مجالسه العلمية على بحوث العلماء المجتهدين الأوائل، ثم يأتي بأراء ونظريات جديدة، تجعل كل صعب سهلا. كما أنه يقيس الفروع على الأصول، ويعتمد القياس كمصدر للشريعة الإسلامية، فيقيس المعقول على المنقول، مما ينتج اجتهادا صحيحا، جامعا بين الحسنين، اجتهادا نموذجيا متوسطا بين المعقول والمنقول، دون إفراط ولا تفريط.

أما علماء مجالسه العلمية فيستمدون نورهم وعلمهم من سنا نور مجالسه، الذي يغمرهم، وهداياها الذي يهديهم سواء السبيل. هذه المجالس التي تجمع في منهجيتها وعملها - خلال الدراسة والبحث - بين مزايا القديم والحديث الجديد، وبين الطريف والتليد - من المعقول والمنقول، والأصول والفروع، لاشك أن نورها يكون أسطع من كل الأنوار، وهداياها أهدى الهدى.

5 - وهذه قصيدة أخرى وتقديمها : " وله أيضا في ختم أمير المؤمنين رضي الله عنه - صحيح البخاري في رمضان (73) آخر، من سنة أخرى"، ومطلعها :

حديث هـوايا صح فما أداري
وعن إسناده عز اصطبـاري
فهل وعد يبـوح بسر وصال
أواصل فيه ليلى بالنهار

إلى أن يقول :

تجلت كالعرائس يوم تجلى
بأبهى مجلس تحت المنـار
تصدر فيه للإقراء شيخا
أمير المؤمنين على اقتـدار
فأبرزها ولا كيوم يقـوى
صحيح محدث الـدينا البخاري

(73) ديوان سليمان الحوات، ص : 86 - 88، م.خ.م. بالرباط رقم : 101.

وأجراها على قـوم ظمأ
 كمنسجم بأوسع المـجـاري
 وكم من مشكل أبـداه فـيـه
 ولما يبـد قبل إلى الكبـار
 وذلك دأبه في كل عـام
 بشهر الصوم حتى في أسفـار
 ويختمه وأهل العلم تجني
 من التقرير أنواع الثمـار
 ويكرمهم بما فيه غناهم
 فلا يخشون بعد من افتقـار
 ولا سيما الحديث ففي شـباب
 قد البس منه أشرف الشعـار
 وسار على طريقتـه احتـذاء
 ليأمن في المسير من العثـار (74)
 فكان مؤمنا لكل خيـر

بحال السر أو حال الجهـار

باستقرائنا لهذه الأبيات من هذه القصيدة المطولة، نستنتج أن المولى
 سليمان كان يحتفل بختم صحيح البخاري، في شهر رمضان من كل عام -
 كما مر بنا -

والشاعر يؤكد حبه وهيامه بمجالس العلم، وشغله جميع أوقاته - ليلا
 ونهارا - لتحصيله وجني ثماره وغرره، وأنه يجد في ذلك من المتعة واللذة،
 أحلى وأعذب وألذ مما يجده مدمن الخمر في معاقرتها.

هذه العلوم تجلت في هذا المجلس، مجلس ختم صحيح البخاري وغيره
 من المجالس العلمية القيمة، طيلة شهر رمضان، الذي تتجلي فيه، فإذا هي
 أجمل وأبهى من العروس يوم زفافها، تحت الأضواء الباهرة.
 ذلك أن هذه العلوم لا تحصل إلا بعد عناء وتعب، فهي أسمى العلوم،
 وأكثرها صعوبة في التحصيل، لأنها تستعصي على العالم والدارس لها.

(74) ديوان سليمان الحوات، ص : 88 - 90. م.خ.م. بالرباط، رقم : 101.

وقد ترأس هذا المجلس عن جدارة وقمانة واقتدار، أمير المؤمنين المولى سليمان، لأنه أعلم العلماء، وأفقه الفقهاء، فأوضح تلك العلوم الصعبة، المستعصية على التحصيل والفهم وأبرز مكنونها في سائر مجالسه العلمية، ولا سيما يوم ختم صحيح البخاري فانتفع بذلك علماء مجالسه المتعشون لها، لأنهم أخذوها من أعلم العالمين بها، ومن منابعها الأصلية، فكان أصدق معبر عنها، وأقدر على التصدي لحل مشاكلها المطروحة.

وقد وازب باستمرارية على إقامة هذه المجالس، وهذا الختم في كل رمضان من كل عام، حتى في أسفاره، لأن هذه المجالس لا تتوقف في حله وترحاله، في ظعنه وإقامته.

وما إن يختم صحيح البخاري في آخر رمضان، حتى يكون العلماء قد جنوا من معلومات السلطان، العالم الكبير، فوائد عديدة متنوعة، في شتى العلوم، وسرعان ما يصبحون بدورهم علماء كبار، بفضل ما أخذوه عنه من العلم والمعرفة.

ويرجع ما لتلك المجالس من جلال ومهابة، لوجود السلطان، الذي يجعلها محفوفة بهالة من السكينة والوقار، ويضفي عليها القبول والبهاء والجلال.

ذلك أن السلطان قد تبحر في سائر أنواع العلوم وفنونها، فلا يخشى أن يدركه غيره من السفسطينيين الجارين له، والمرائين. وتبحره أكيد، ولاسيما في علم الحديث، وذلك منذ شبابه. فقد سار على هديه منذ صغره، واحتذى تعاليمه خطوة خطوة حتى يأمن العثار بعد أن سلك الجدد.

وبذلك ضمن المولى سليمان الخير لنفسه ولأمته، في السر والعلانية في السراء والضراء.

وهكذا تكون هذه القصائد من ديوان سليمان الحوات - مع مقدماتها - قد أعطتنا صورة حية متكاملة للمجالس العلمية السلطانية الرضائية للمولى سليمان سواء من حيث شكلها، أو من حيث مضمونها، وبالتالي من حيث أبعادها، وأهدافها، القربية منها والبعيدة.

وإلى جانب شاعر البلاط سليمان الحوات، الذي خلد المجالس العلمية
الرمضانية للمولى سليمان، وأعطانا صورة حية لها في جميع خصائصها
- كما قلنا - نجد شاعرا آخر من شعراء هذا البلاط ومن علماء المجالس
العلمية الأبرار، خلد في ديوانه هذه المجالس، وسجل أوصافها شكلا
ومضمونا، مستعرضا أعمالها، وأبعادها، وأهدافها، ألا وهو شاعر المولى
سليمان وشاعر قصره، العلامة الأديب، حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج
السلمي المرדاسي، في ديوانه (75) :

" أنجز المدائح الغالية في الأمداح السليمانية "

وسأكتفي بإيراد قصائده دون تحليلها للتشابه التام بينهما والتلازم.
ومن قصائد هذا الديوان، التي نظمها في المجالس العلمية السلطانية
للمولى سليمان، بمناسبة ختم صحيح البخاري :

1 - قصيدة جاء في تقديمها بالديوان : " وقال شبه ارتجال (76)، وقد
وقعت غريبة : وهو أننا كنا بمجلس البخاري، فعطس - المولى سليمان -
فقرأ القارئ " يرحمك الله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال
رسول الله ﷺ : إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله على كل حال، وليقل له
أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له ذلك، فليقل : يهديكم الله،
ويصلح بالكم " ، وذلك بالصدفة المحضة، والأبيات هي :

عطست وراوي الحديث يقــــــــــــــــو

ل : " يرحمك الله " قول الرسول

فكان الرسول المشــــــــــــــــمت إذ

عطست وذلك أعظم ســــــــــــــــو

سيعطيك ربي فتحا مبــــــــــــــــينا

بدعوة أحمد وذلك القــــــــــــــــبول

وينصرك الله نصرا عزيــــــــــــــــزا

وتقفل بالغنم أي قفــــــــــــــــو

(75) الديوان يوجد بالخرانة الملكية في نسختين إحداهما أجود من الأخرى ورقمها : 225 وذكر في
مقدمتها أنه جمعه للإستفادة من ثماره، وأنه رتبته حسب الوقائع والأزمات تكميلا لخدمة
السلطان.

(76) ديوان حمدون بن الحاج السلمي المرداسي ص : 37، م.خ.م، بالرباط، رقم : 225.

2 - وهذه قصيدة أخرى، وجاء في تقديمها " وقال عند الختم، وكان متوجها لحرب " : ومطلعها :

حدثتنا ورق سماعا عن الأور
راق في منير من الأشجار
رياح الصبا مشافهة عن
طيب عرف الرياض في الأسفار
إلى أن يقول عن المجلس :
هو رشح من بحر كفك في كف
حضور في يوم ختم البخاري
دمت فينا مخذ المليك مادا

م حديث يروى عن المختار (77)

3 - وهذه قصيدة أخرى وتقديمها : " وقال يوم ختمه صحيح البخاري (78) " في عام " ومطلعها : "

سبحان من علم القرآن معجزة
دامت، وبحرا مفيضاً دائماً مددا
سبحان من خلق الإنسان علمه
البيان، ينبى به عن كل ما قصدا
إلى أن يقول في المجلس :

سبحان من خص أمة الرسول بما
قد خصها به معطيا لها سندا
حتى كأن رسول الله شافهنا
بما أتى به من حديثه وهدي
لاسيما الجامع الصحيح أعذب ما
يروى وأقرب ما أدنى الذي بعدا

4 - وهذه قصيدة جاء في تقديمها: " وقال (79) وقد أتى برجال من الدجاجة... ونحن نقرأ في كتاب السماع، من الإحياء للغزالي، رحمه الله :

(77) ديوان حمدون بن الحاج السلمي، ص: 31-33، م.خ.م، بالرباط، رقم : 225 .

(78) المصدر السابق، ص: 158-160 .

(79) ديوان حمدون بن الحاج السلمي ص : 46، م.خ.م، بالرباط رقم : 225 .

كنا بمجلس إحياء يذكـرنـا
 ما في السماع لصوت منبر وأرب
 ونحن في حضرة المليك يرفعـنا
 زهو عن كل كوكب سما وغرب
 هذا السماع الملوكي الذي خشعت
 له الصناديد من أعاجم وعرب
 هذا السماع المقيم كل ذي عوج
 ولأمانني والأمان أي سبب
 والجديد الذي نستشفه من هذه القصيدة، هو أن السرد والختم لم يكونا
 لصحيح البخاري، وإنما لكتاب الإحياء، للإمام الغزالي.
 5 - وقصيدة أخرى، وتقديمها : " وقال (80) يوم ختمنا صحيح
 البخاري بضريح أبيه -سقاها الله شأبيب رحماته -"، ومطلعها :
 باتت تحدثني والنجم ذا شرر
 والبدر ذا كلف من شدة الغير
 تبث ما جرى بعدي وفما لـم
 ياطيبه من نسيم فاح من زهر
 إلي أن يقول عن المجلس :
 لم تسلني عن أحاديث لها عذبت
 إلا أحاديث رسول الله من مضر
 وما مسلسله إلا المسلسل من
 عذب فرات جرى بمبسم عطـر
 لاسيما جامع الصحاح أعذب ما
 جاءت رواة به من وارد الأثر
 ما فيه إلا أسانيد محررة
 جاءت بها زمر من العشاق عن زمر
 غنت لنا بالحجاز وبالعراق وبأ
 صبهان ما فيه غنية عن الوتر

(80) المصدر السابق و ص : 84 - 86.

كأنما هي أزهار مفتحة
 في الغصن أو عقد ما غلا من الـدر
 لله يوم فتحناه بمجلس من
 زان المجالس زين الطرف بالهور (81)
 6 - وهذه قصيدة وتقديمها: "وقال يوم ختم كتاب مسند الإمام أحمد
 ابن حنبل (82) " ومنها في ذلك المجلس :
 فشمت منها نسمة نجديّة
 مكية مدنية لم تعهد
 وتنفت أكمام أنوار سهلا
 فحسبتها من مسند لأحمد
 ترنو معانيه إليك كمارنلا
 طرف تنزهه عن سحيق الإثم
 وتذوق من ألفاظه ما ذقته
 من مبسم عذب شهى مـورد (83)
 ومشنف بحديث جده يسمعه
 ومردد له رائحا أو مغتـرد
 بحر رمت أمواجه بنفائس
 ويفيض عذب فراته للـورد

والجديد الوحيد الذي نجده في هذه القصيدة، هو أن السرد والختم كانا
 في هذا المجلس لكتاب آخر، وهو مسند الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه،
 وليس لصحيح البخاري، كما جرت بذلك العادة غالبا.

7 - وقصيدة أخرى جاء في تقديمها : " وقال يوم ختم تفسير
 الكشاف (84) طالبا منه نصره الله أن يرد لأهل العلم، ما كان منحهم قبل
 من الأوقاف ". ومنها عن هذا المجلس :

(81) ديوان حمدون بن الحاج، م خ، م، رقم 225، ص : 86 - 87

(82) المصدر السابق، ص : 165.

(83) المصدر السابق، ص : 165 - 166

(84) المصدر السابق، ص : 193.

له خيول يوم الروع سابقــــة
كسبق فهمك في تفسير كــــشاف
كشاف أسرار الكتاب وقــــد
أجاد صانعه في قوله الشافــــي
إن التفاسير في الدنيا بلا عد
لكن لعمرى ليس قبل كــــشاف
ونستنتج من هذه القصيدة، أن الدروس في المجالس العلمية السلطانية
للمولى سليمان، كانت تعقد للتفسير وشرح القرآن الكريم، إلى جانب الحديث
النبوي الشريف، وأن الكتاب الذي كان يعتمد لذلك من بين كتب التفسير،
هو تفسير الكشاف.

8 - وقصيدة أخرى تقديمها : «وقال يوم ختمه للبخاري (85) في عام،
وينعى على البرابر الذين فروا لرؤوس الجبال، وخافوا منه الدوائر» ومنها
عن هذا المجلس :

كل عام تشنف السمع منــــا
بالبخاري أو مسلم أو موطــــا
وما تنثر المجالس من عا
لي لألي الفهــــوم تلقط لقطــــا
والجديد الذي نأخذه من هذين البيتين هو أن الكتب التي كانت تسرد
وتختم في هذه المجالس هي : البخاري، ومسلم، والموطا، وذلك إلى جانب
الكتب الأخرى المذكورة في مقدمات القصائد، أو خلال أبياتها، وعلى رأسها
صحيح البخاري، الذي يعتبر الكتاب الرسمي والرئيسي للدرس والبحث، في
هذه المجالس العلمية السلطانية الخاصة للمولى سليمان، ولا سيما
الرمضانية منها.

والواقع أن قصائد هذا الديوان، المتعلقة بمجالس الختم للمولى سليمان،
جاءت مغرقة في الخيال، كما أن الشاعر يركز على هدفه الرئيسي، الذي هو
مدح السلطان، بينما يمر مر الكرام على ذكر مجالس الختم باعتبارها عنصرا
للقصيدة ليس إلا، ومن مناقب السلطان، وفيض حسناته....، كما اكتفى

(85) ديوان حمدون بن الحاج، م، خ، م، رقم : 225، ص : 196

بوصفها من حيث الشكل، دون أن يتعمق في تحليل مضمونها، وتعداد أبعادها وأهدافها، وفضائلها، وهو ما اهتم به سليمان الحوات وأعطاه حقه، والحق يقال.

وهذا ما جعلني أكتفي باستعراض أهم ما جاء أوجد في قصائد ديوان حمدون بن الحاج بالنسبة لمجالس الختم، دون تحليلها.

المجالس العلمية وكتبها المدروسة :

إذا تتبعنا ديوان كل من الشاعر سليمان بن محمد بن عبد الله الحوات الحسني العلمي، والشاعر حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج السلمي المرادسي «المدائح العالية في الأمداح السليمانية»، واستقصينا فيهما القصائد التي أنشدها كل منهما في حفلات الختم للكتب التي كانت تسرد بين يدي السلطان مولاي سليمان في مجالسه العلمية السلطانية الخاصة، ولاسيما الرضائية منها، يمكننا -بعد جردها- أن نخرج بلائحة لهذه الكتب التي كانت تسرد في مجالسه الغراء ضمن برامجه البناءة الهادفة التي كانت تستهدف الإصلاح العام الشامل عن طريق دراسة القضايا الحيوية الهامة، في حصص معينة ومحددة دورية ثابتة.

وهذه لائحة للكتب المذكورة في الديوانين :

صحيح الإمام البخاري (86).

كتاب الإحياء للإمام الغزالي (87).

مسند الإمام أحمد بن حنبل (88).

تفسير الكشاف (89).

(86) ديوان سليمان الحوات م، خ، م رقم 101 ص : 72 - 74 و 75 و 76 و 78 و 79 و 81 و 82 و 86

و 88 و 90 و ديوان حمدون بن الحاج السلمي، ص : 37 و 31 - 33 و 158 - 160 و 84 - 86

و 196 م، خ، م بالرباط، ص : 225.

(87) ديوان حمدون بن الحاج السلمي ص 46 م، خ، م بالرباط رقم 2.

(88) المصدر السابق ص : 165 - 166.

(89) المصدر السابق ص : 193.

صحيح الإمام مسلم(90).

الموطأ للإمام مالك(91).

ويؤكد لنا الضعيف الرباطي، أن المولى سليمان كان يسرد ويختم في مجالسه العلمية الخاصة مسند الإمام أحمد بن حنبل، فيقول "....ويوم الأربعاء صفر 1212هـ، ختم السلطان مسند الإمام أحمد بن حنبل فأحضر العلماء، وأكرمهم، وأعطى لكل منهم ثلاثين ريالاً (92) " .

كما ثبت أن المولى سليمان "أمر العلامة الشيخ الطيب بن كيران... بتدريس كتاب الإحياء للغزالي، وأمر جميع العلماء أن يحضروا عليه(93) " . ويمكننا أن نتعرف على نوع الكتب التي كان المولى سليمان يهتم بدراستها، وسردها و استخراج كنوزها من الأحكام والقوانين والأنظمة لاعتمادها في ظواهره ومراسيمه ومنشوراته وغيرها، وذلك من قول الزباني(94) " وكان معتنياً بقراءة العلم، وكتب الحديث، والتفسير، والنحو، واللغة، والبيان... وحاز أوفر نصيب " .

وتعدد وتنوع الكتب التي كانت تدرس في هذه المجالس، إن دل على شيء، فإنما يدل على تفتح هذه المجالس، ونضجها، وانطلاقها في آفاق واسعة رحبة، أغنى وأثرى، وأنفع وأجدى....

أعمال المجالس العلمية للمولى سليمان :

كان المولى سليمان عالماً قبل أن يكون ملكاً، وكان متضلعا في العلوم الدينية، واللغوية، والأدبية، والعقلية، وغيرها.

كما كان زاهداً متصوفاً ملتزماً، فعمل - من خلال مجالسه العلمية - على إلباس السلفية بالمغرب حللاً قشبية من العز والسؤدد.

فقد أحيى سنن الدين بالعلم والعرفان، وأخمد وأبطل البدع المنكرة، المخالفة للسنة النبوية بصرامة، ودون هوادة، فانتعش الفكر،

(90) المصدر السابق ص : 196.

(91) المصدر السابق، وص .

(92) تاريخ الضعيف، ص: 308.

(93) مجلة المناهل، عدد : 36، ص : 6 تحقيق مخطوطة كتاب الابتسام مقالة لعبد الهادي التازي.

(94) عقد الجمان للزباني، م، خ، ع، رقم 40، ص : 16.

وازدهر العلم، وعمت النهضة سائر مجالات الحياة المغربية. وفي ذلك يقول المشرفي (95) " ... وأما جمعه لأشتات العلوم، فلقد كان وارثا من ورثة الأنبياء، حاملا للواء الشريعة، جامعا مانعا " .

لذلك شهد عصر المولى سليمان ظهور مدرسة حديثة سلفية في المغرب احدثت حذو الحركة السلفية في المشرق، التي أوقد جذوتها فيما بعد، قادة النهضة الحديثة بالشرق العربي، وعلى رأسهم جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ثم بقية تلامذتهما ومريديهما.

وقد اهتم المولى سليمان بهذه المدرسة الحديثة السلفية، وأزر حركتها الإصلاحية، فأصدر منشورا رسميا مؤيدا لاتجاهها ونهجها، مستهدفا توطيد دعائمها، والدعوة إلى سبيلها بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة والتي هي أحسن، وذلك من خلال جلسات مجالسه العلمية الخاصة التي كانت مصدر ظواهره وقراراته ومنشوراته، ومن خلال خطبته التي ألفها، وأمر الخطباء بإلقائها على المنابر دائما(96)، وهي النصيحة السلিমانية للشعب المغربي(97)، فكان المولى سليمان بذلك رائد للحركة السلفية المغربية على عهده.

وقد انطلق المولى سليمان في مجالسه العلمية التقليدية الخاصة، -على رأس أعيان مملكته- من منطلقات مخالفة لمنطلقات والده سيدي محمد ابن عبد الله في مجالسه العلمية، وذلك مراعاة للتطورات الزمانية والمكانية(98).

فقد كان والده سيدي محمد بن عبد الله - كما مر بنا - يحض على مذهب السلف في الاكتفاء بالإعتقاد المأخوذ من ظواهر الآيات والأحاديث الصحيحة -دونما أي تأويل- على مذهب أهل السنة والجماعة من الأئمة المجتهدين، كالإمام أحمد بن حنبل، وابن حزم الظاهري، وأتباعهما، وكان يقول عن نفسه ويؤكد في كل مناسبة، أنه مالكي مذهباً، حنبلي اعتقاداً.

(95) الحلل البهية للمشرفي، ص : 176 - 177

(96) دعوة الحق ع : 2 س : 1، ص : 22، 1376 هـ - 1957م مهمة الحركة السلفية في المغرب للحسن السائح.

(97) إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج، : 5، ص : 464.

(98) الجيش العرمم لأكنسوس، ورقة 243، والفكر السامي للفقيه الحجوي، ج: 4، ص: 126 - 224.

ففي مجال العقيدة كان يحض الناس على قراءة عقائد الإمام السنوسي وأمثالها، كما كان معجبا بعلم الكلام، وبكل من يحسن التكلم على مذاهب المتكلمين، ولا يعترف بالعالم ويزكيه إلا إذا كان متضلعا في علم الكلام، وغيره من علوم الرأي والمعقولات، ولا سيما علم البيان (99).

ومن إصلاحاته القضائية الميدانية - على هذا الأساس - التي تعتبر جزءا من برنامجه الإصلاحى العام الشامل، والذي أعده داخل مجالسه العلمية الخاصة، بمعية أئمة العلماء وأشياخهم من أعضائها، على أساس مذهبه وعقيدته المتفتحة، تعيينه لجنة مزدوجة من أهل الرباط وسلا، وعلمائهما، تضم عشرة أفراد من كل مدينة منهما تحت رئاسة قائدي المدينتين ، وكلف اللجنة المذكورة أن ترفع إلى عامل المدينتين تقريرا شهريا، بكل ما يحصل في المدينتين طيلة الشهر.

وفي مجال إصلاح القضاء، منع القواد من إصدار أحكامهم، إلا بعد توقيعها من طرف القاضي، وحذف مهمة خليفة القاضي نهائيا (100). وهذا إصلاح جذري للقضاء باعتباره يمنع تداخل السلط. كما نظم إدارته.

واهتم في مجالسه الخاصة بالتفسير، ولكنه احتفظ للحديث النبوي الشريف بالمكانة الأولى فيها، وفي ذلك يقول المشرفي : " وإذا تكلم في علوم القرآن أنهل بما يغمر مورده الظمان " (101).

كما انتعش الفقه في عهده، ولم يبق مقتصرا على نصوص الفقهاء المجردة، وأقوال الخلافيين غير المسندة، وذلك لاعتنائه البالغ بعلم الفروع، وكتبها...

أما في مجال التعليم فقد أبطل المولى سليمان العمل بالمنشور الذي أصدره والده - سيدي محمد بن عبد الله - المتعلق ببرنامجه لإصلاح التعليم، وألزم الناس بالرجوع إلى المختصرات، ولا سيما مختصر الشيخ

(99) الجيش العرمرم لاكنسوس ورقة 244.

(100) تاريخ الضعيف، ص : 378.

(101) الحلل البهية للمشرفي، ص : 178.

خليل. وفي هذا الموضوع يقول الناصري (102) : " لما أفضى الأمر إلى السلطان العادل المولى سليمان صار يحض الناس على التمسك بالمختصر، ويبدل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة، والكل ما جور على نيته وقصده، غير أننا نقول : الرأي ما رأى سيدي محمد رحمه الله "

ويقول المشرفي في نفس الصدد : " إلى أن أحىي الله قراءة المختصر بالمتولي بعده - بعد سيدي محمد بن عبد الله - المولى سليمان (103) "

وفي هذا الصدد أعطى لصبي من حفظة مختصر خليل - بعد اختبار حفظه - ألف مثقال، وغلاما يحملها له، وكساه هو ووالده. ولما أخبر أن جل الطلبة يحفظونه، رتب لهم حزبا في جامع القرويين، يقرأون منه كل يوم جزءا - كما يقرأون القرآن - وحبس على ذلك أوقافا هامة.

وكان جل أبنائه وبناته يحفظونه، ويحكى أنه سجن بعض أولاده بفاس، حتى يحفظه (104).

والواقع أنه كان يحض على حفظه حضا، ويعتبر حفظه شرطا أساسيا في تزكية العلماء، والاعتراف بمكانتهم العلمية، مما شجع العلماء والطلبة على حفظه، بل إنه رصد جوائز سنوية لحفظته منهما معا - كما كان الحال في العصر المريني - (105).

ومن أبرز الجوانب الإيجابية لبرنامج الإصلاح في مجال التعليم تنظيمه تكوينا مستمرا للعلماء، كما نظمه للقضاة.

فقد أصدر أمره لأعيان علماء مجالسه العلمية الخاصة بأن يجمع كل منهم العلماء الصغار، ويراجع معهم كتابا من أمهات المصادر العلمية والدينية الهامة. كالعلامة الطيب بن كيران، الذي أمره بجمعهم، وتدريسهم

(102) الإستقصا، ج : 8، ص : 67

(103) مجلة المناهل، عدد، 36، ص : 4 - 6، تحقيق مخطوطة كتاب الابتسام، لعبد الهادي التازي، والطلل البهية للمشرقي، ص : 178.

(104) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 244.

(105) دعوة الحق، ع : 246، ص : 167، 1405 هـ 1985 م موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع لعبد الهادي الحسيين.

كتاب الإحياء للإمام الغزالي، وأصدر أمره لجميع العلماء بأن يحضروا مجالسه هذه (106).

وعن اهتمامه بحفظ المختصر الخليلي يقول أكنسوس : "..... فلما تولى السلطان العادل سليمان، لم يكن عنده أهم من إبطال ما ذهب إليه والده الناصر - سيدي محمد بن عبد الله - مما ذكرناه.... لا من قراءة المختصر، ولا من مسألة الإعتقاد.

فلم يكن عنده أعز ممن يحفظ مختصر خليل، بل من لم يحفظه من الفقهاء عنده ناقص، لا يعول على فهمه. فتنافس الطلبة في حفظه، فكان يعطي على ذلك العطاء الكثير " (107).

ويقول عن العلماء الذين كان يختارهم المولى سليمان لمجالسه العلمية، والصفات التي كان يتوخاها فيهم : " العلماء أرباب الأنظار الأوسع... فإن هؤلاء لا يكتبون بتلك الظواهر التي تنفر العقول من قبولها دون تأويل، لاسيما إذا ألقيت إليهم بما أضاف إليها غلاة أهل الظاهر.... في مسألة الإسراء، مما هو معلوم من أقوالهم (108) ".

ومن القضايا الجوهرية التي خالف فيها المولى سليمان والده سيدي محمد بن عبد الله قضية المكس، التي كان يستنكرها ويعجبه في شأنها قول أبي البراء. ومعلوم أن والده كان قد استفتى العلماء، واعتمد فتواهم، فكان يأخذ المكس على الأبواب والأسواق، وجميع السلع (109)

وفي هذا الصدد اتخذ المولى سليمان أمينا خاصا بسوق الرقيق (110)، حتى لا يباع من الرقيق إلا من صحت رقيته، وثبتت عبوديته على الوجه الشرعي المعروف، الذي لا تشوبه شائبة، وذلك ورعاً منه وتقوى.

(106) مجلة المناهل، ع : 36، ص : 64 تحقيق مخطوطة الابتسام لعبد الهادي التازي.

(107) الجيش العرمرم، ورقة : 244.

(108) المصدر السابق، وص .

(109) الجيش لأكنسوس، ص : 244،

(110) نشر المثاني للقادري، ج : 3، ص : 166 - 172

وفي إطار هذا التفتح العلمي والعقلاني والفكري للمولى سليمان كان يناصر التجديد، ويحارب التزمّت والبدع المنكرة المخالفة للشريعة السمحة، ويقاوم الأهواء، وكافة مظاهر الشعوذة بجميع أشكالها ومظاهرها، ومن أي جهة كان مصدرها، ويصدر أوامر بمناهضتها والقضاء عليها من خلال مجالسه العلمية وعلمائها الأعلام، كما هو شأن سائر أسلافه الكرام.

ففي إطار مجالسه وبمعية علمائه حرر خطبته (111) البليغة في محاربة البدع -المذكورة- التي ضمنها آراءه الإصلاحية، ومبادئ وأهداف الحركة السلفية التي التزمها، وحث فيها على التمسك بتعاليم الشريعة الإسلامية، والتزام حدودها، وترك الشبهات المفضية إلى الحرام. وحذر فيها من الانسياق وراء الطوائف الضالة من أهل البدع، الذين بالغ في التنديد بهم، والتنكير عليهم، بالوعد والوعيد.

وقد عقد أبو القاسم الزياني مقارنة بين هذه الخطبة البليغة للمولى سليمان، وبين خطبة على غرارها، للقاضي عياض، مفضلاً خطبة المولى سليمان قائلاً (112): ".... فإن قارنتها بخطبة مولانا أمير المؤمنين، ألفتها كالعقيم مع ذات البنات والبنين....، فهي سادسة خطب الخلفاء الأربع، اللواتي انتفع الناس بها أجمع، مع خطبة الإبريز، التي ألقاها عمر ابن عبد العزيز".

نشاط مجالسه العلمية على الصعيد العربي والإسلامي :

تابع المولى سليمان سياسة والده سيدي محمد بن عبد الله على الصعيد الخارجي، فحاول توسيع دائرة التعاون والتبادل الثقافي مع دول العالم العربي والإسلامي، عن طريق التواصل والتوادم، والمواساة، والمناصرة والمؤازرة وشد العضد. وأيضاً بتقريب كبار علمائه، واستدعاء أئمتهم وأعيانهم، وإشراكهم في أعمال مجالسه العلمية والأدبية، وقضاياها المطروحة على بساط البحث والدراسة، بكيفية مباشرة أو غير مباشرة، بعقد مجالس

(111) النبوغ المغربي، لعبد الله كنون، ج: 2، ص: 40-47، وبه نصها، والترجمة الكبرى، للزياني، ص: 466-470.

(112) الترجمة الكبرى، للزياني، ص: 471، ونصها الكامل بالترجمة الكبرى، للزياني، ص: 466-470، والنبوغ المغربي، لكونون، ج: 2، ص: 40-47.

علمية معهم بالداخل والخارج، ولا سيما حول القضايا الدينية الموحدة المشتركة والعامّة، المتعلقة بمصالح وخير المسلمين قاطبة، في مشارق الأرض ومغاربها، توطيدا لدعائم المجمع العلمي العربي الإسلامي، وكلبنة الأساس، والنواة الأولى للمؤتمر الإسلامي المنشود -الذي لم يكن ميلاده بالمغرب من باب الصدفة- والبذرة الطيبة للمجالس العلمية الحسنية الرمضانية، وللأكاديمية المغربية، اللتين تكرسان هذه المجالس العلمية المتوارثة لملوك الدولة العلوية الشريفة، وتشكلان امتدادا لها، واستمرارا لرسالتها الخالدة.

وساعد المولى سليمان على ذلك مواكبة عهده لأحداث عالمية بارزة، هزت المجتمع العالمي بعنف، وفتحت الأعين على حقائق سرمدية أزلية فطرية بسيطة في الوجود، فانتشر الوعي، وعم التفتح الأجواء الدولية، كالثورة الفرنسية، وحملة نابليون على مصر، والتحركات الاستعمارية في إفريقيا السوداء. كما ظهرت في الشرق العربي الحركات السلفية، المتمثلة في الوهابية بالحجاز، والمهدوية في السودان، والسنوسية في ليبيا (113).

فقد تبادل الرسائل، والأطروحات العلمية، والمكاتبات الإخوانية مع ملوك ورؤساء وعلماء وقضاة العالم العربي والإسلامي (114)، ولاسيما بالحجاز وتركيا ودول المغرب العربي.

وفي إطار هذه السياسة الثقافية الرشيدة، استدعى العلامة ابن الشاهد الجزائري، واستقبله معززا مكرما، مع صفوة من مشايخ أئمة العلم العظام، بالقطر الجزائري الشقيق (115).

وتكريسا لسنة والده سيدي محمد بن عبد الله، كان يرسل باستمرار أموالا طائلة إلى علماء وأشرف مصر، والحرمين الشريفين بواسطة شيخه ابن عبد السلام الفاسي، الذي كان أثيرا وموثقا لديه، وذلك مع ركب الحجاج (116).

(113) الأعلام، للقاضي أحمد بن إبراهيم التعارجي المراكشي، ج: 5، ص: 167.

(114) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 53.

(115) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 177.

(116) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 51، وطلعة المشتري، ج: 2،

ص: 162.

فقد كانت رحلة الحج صلة الوصل، والخط الرابط لأواصر هذه العلاقات الأخوية، والضامن لاستمرار وسلامة دورتها الدموية، وبالتالي لنبضاتها وحياتها وعطائها....

وفي هذا الصدد، أكرم وفادة الشيخ أحمد التيجاني المتصوف، الذي جاءه وافدا من الجزائر سنة 1211هـ، ومستجيرا بأهل البيت، من ظلم الأتراك وعسفهم، بعد أن كاتبه مستأذنا في الإقامة بالمغرب.

ولم يكتف باستضافته وإيوائه، بل أجاره وقربه، حتى صار من رواد مجالسه العلمية السلطانية، لمكانته العلمية العالية (117).

ولعل أهم مجالس المولى سليمان العلمية، التي عقدها بالخارج، ذلك المجلس التاريخي، الذي عقده بالحجاز سنة 1227هـ، في إطار الصلوات العلمية والثقافية بين البلدين (118)، ولحاوره علماء الحجاز، تحت الرئاسة الفعلية لكل من السلطان سعود، والأمير المولى إبراهيم بن السلطان المولى سليمان، حول المذهب الوهابي، ومبادئه، وأبعاده وأهدافه....

وقد ضم هذا المجلس -الذي انعقد في العاصمة السعودية- أعيان علماء الحجاز، وجهابذة علماء المغرب الشيوخ السادة : الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد بن إبراهيم الزداني، والفقيه العلامة القاضي سيدي العباس بن كيران الفاسي، والفقيه الشريف سيدي الأمين بن جعفر الحسني الرتبي، والفقيه المؤقت السيد عبد الخالق الودي (119).

وقد بدأ المجلس أعماله بقراءة جواب السلطان المولى سليمان على الرسالة التي وجهها محمد بن عبد الوهاب إلى الأفاق، داعيا لمذهبه الوهابي، والتي وصلت إلى المغرب بواسطة مفتي الديار التونسية (120)، الذي بعثها إلى علماء فاس أعضاء المجالس العلمية السلطانية، وكان لها صدى وأثر طيب لدى المولى سليمان (121).

(117) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 105.

(118) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 179، 1386هـ-1967م، النهضة العلمية قبل الحماية، لمحمد العلمي.

(119) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 118-120.

(120) المصدر السابق، و ج، ص: 119-120.

(121) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 220، 1394هـ-1974م، المولى سليمان، لأحمد معينو.

وفي هذه الجلسات أظهر السلطان السعودي للأمير المولى إبراهيم التعظيم الواجب لأهل البيت النبوي الشريف (122)، وجلس معه رفقة أعضاء وفده من العلماء المغاربة بتواضع، -كأحد أصحابه وحاشيته- وبالغ في الاحتفاء بالوفد، وتكريم كل من تعلق به من الحجاج " حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الأمن والأمان، وغاية البر والإحسان (123) ".

ورجع الوفد إلى المولى سليمان، فأطلعته على نتائج المجلس وجلساته، الذي عقده هناك مع علماء الحركة الوهابية، ورؤسائها، وسلطانها، وسلموا له وثائق ومحاضر كل ذلك، من قرارات، وتوصيات، وبيان ختامي....، وأكد له أعضاء الوفد -وعلى رأسهم ولده إبراهيم- أنهم لم يجدوا لدى السلطان سعود إلا الاهتمام بالشريعة الإسلامية، ولم يلمسوا في بلاده إلا الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام، ومحاربة البدع والآثام، وتواضع سلطانهم لله تعالى، بعيدا عن أبهة الملك ومظاهره الرسمية.

وانطلاقا من سياسة المولى سليمان الرامية لتحقيق الوحدة الإسلامية : وأسى تونس، وأزر أميرها أيام الجفاف والمسغبة التي اجتاحت تونس في سنوات عجاف، سنة 1218هـ.

فقد أرسل إليه الأمير المذكور وفدا يطلب منه مساعدته، وتزويده بالميرة، فأكرم المولى سليمان الوفد، وواساه، وأنعم على أعضائه، ولبي طلب أميره.

وبذلك توطدت العلاقة الأخوية بين البلدين، وصار الأمير يلهج بالثناء على السلطان المولى سليمان.

فقد مدحه رئيس الوفد إبراهيم الرياحي بقصائد عديدة، عقد لها المولى سليمان مجالس أدبية رائعة، كما سيأتي.

كما وفد على المولى سليمان العالم الأديب حميدو اليمودي، فأكرم وفادته، وأعانه على العودة إلى بلاده (124) .

(122) الجيش، لأكنسوس، ورقة : 172-173.

(123) المصدر السابق، ص: 172.

(124) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 97، تحقيق مخطوط الابتسام، لعبد الهادي التازي.

مؤلفاته في إطار مجالسه العلمية :

ازدهرت الحركة العلمية النشيطة التي بعثها المولى سليمان في جميع أنحاء البلاد، على جميع المستويات والأصعدة، انطلاقاً من مجالسه العلمية السلطانية الخاصة، التي كانت تمثل قمة الهرم بالنسبة لسائر مؤسسات وهيكل الدولة، ولا سيما الفكرية، والثقافية، والعلمية منها.

وشكلت الدراسات والأبحاث والمحاضرات والمناظرات التي دارت داخل هذه المجالس أو خارجها - بكيفية مباشرة أو غير مباشرة، سواء بالداخل أو الخارج - شكل كل ذلك مع محاضره، رصيذا هائلا لحركة تأليف وتصنيف الكتب، - في جميع العلوم والفنون -، التي قادها المولى سليمان، وكانت له فيها حصة الأسد، سواء الكتب التي ألفها هو شخصياً، أو تلك التي أصدر أوامره لذوي الاختصاصات المختلفة بتأليفها، وأعانهم على ذلك بالإمكانات المادية والمعنوية.

وكان اختيار موضوعات هذه المؤلفات - على ضوء أعمال المجالس العلمية - حول القضايا والمسائل المطروحة على بساط البحث فيها.

هذا، زيادة على حركة التأليف التلقائية العفوية، الموازية لأعمال هذه المجالس، والتي تتمثل في الكتب التي ألفها أصحابها من العلماء تأييداً لأرائهم، أو رداً على بعضهم البعض في القضايا التي تضاربت حولها آراؤهم، وطال النقاش حولها في جلسات عديدة من مجالسه....

ومن الإنصاف للسلطان العالم المؤلف المولى سليمان، أن نذكر هنا أهم مؤلفاته القيمة، التي صنفها شخصياً أو على ضوء مجالسه العلمية وقضاياها المختلفة، المثارة في جلساتها المتوالية وهي :

- حاشيته على الإمام الخرشي.
- شرح مختصر خليل في الفقه.
- كتاب في الرد على منكر التجمير زمن الصوم، بمجلس رسول الله ﷺ، وهو مرتب على ثلاثة فصول وخاتمة :
- الفصل الأول: في جواز ذلك بالأدلة السننية.

- الفصل الثاني : في الآثار الواردة في ذلك.

- الفصل الثالث : في الأدلة الفقهية.

- الخاتمة، في التأكيد على اتباع السنة النبوية (125) .

ومطلعه : ".... يقول أفقر الورى لرحمة مولاة، الغني به عما سواه، سليمان بن محمد بن عبد الله، خوله الله كل خير وأولاه، قد رأيت بعض من تسنم أسنمة الرتب (126)، وترنم بمنة الطلب، إلا أنه ليس له اطلاع، ولا اتساع في رواية ولا سماع، أنكر التجمير بالقسط زمن الصوم، بمجلس حديث رسول الله ﷺ.... فعدعاني الأنف لشبهته وإفادته، وأن أدرأ عنه الشبهة، وأبين ما التبس عليه(127)».

- حاشية على الزرقاني.

- حاشية على الموطأ.

- كتاب في أحكام الجن، والتفريق بينها وبين أحكام الإنس.

- تقييد على الآية الكريمة : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم...﴾ الآية. (128)

- تقييد في شرح مختصر خليل.

- كتاب في الرضاع.

كتاب في حكم السماع الموسوم "امتناع الأسماع، بتحرير ما التبس من حكم الأسماع".

- تقييده على الآية : ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ (129).

- تقييد في مرابطي الوقت، وشيوخ المتصوفة الناجين :

" حباله الأطماع بالزوايا "

(125) الحلل البهية للمشرقي، ص: 178، وبها ذكر هذه المؤلفات كلها.

(126) المصدر السابق، ص: 181-182.

(127) المصدر السابق، و ص.

(128) سورة : الحج، الآية : 52.

(129) سورة : البقرة، الآية : 259.

ووافقه على ذلك كبار علماء عصره ومجالسه العلمية، وعلى رأسهم الطيب بن كيران، وابن إبراهيم الدكالي، ومحمد عمر الزروالي وغيرهم.

- تقييد في مسألة تتعلق بالطلاق، ووافقه في ذلك كبار علماء مجالسه العلمية، كالقاضي أحمد بن التاودي بنسودة، وشيخه الطيب بن كيران، وغيرهما.

- رسالة إلى القضاة برده الأزواج عن أموال زوجاتهم بافتداء أنفسهن منهم. وبذلك يعتبر في طليعة المصلحين، المدافعين عن حقوق المرأة عملياً وشرعياً.

- تقييد على الآية الكريمة : ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ (130).

- تقييد على قوله تعالى : ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه﴾ (131).

- تقييد في الإصلاح الديني.

- رسالة في الكسب (132).

- خطبة بليغة، في التحذير من بدع المواسم والطوائف الضالة (133).

- رسالة في بدع العوام من الطرقيين، في إطار محاربته للشعوذة، مما قلص الصوفية وتأليفها في عهده، وعلى امتداد القرن الثالث عشر.

وألف هذه الرسالة (134) في نطاق حملة من التأليف والمناظرات والمجادلات بين العلماء، سواء داخل مجالسه العلمية أو خارجها، إثر ورود رسالة السلطان السعودي، بواسطة مفتي الديار التونسية، يدعو فيها لمذهبه الوهابي، والتي ذكرناها آنفاً.

(130) سورة : الزخرف، الآية : 60.

(131) سورة : النساء، الآية : 157.

(132) شرحها شيخه الطيب بن كيران في السلوة.

(133) نصها بالترجمة الكبرى، للزياني، ص: 466-470.

(134) دعوة الحق، ع: 5، س: 10، ص: 36، 1386هـ-1967م، الثقافة والعلم في العصور الحديثة،

لعبد العزيز بن عبد الله.

- "عناية أولي المجد بذكري آل الفاسي ابن الجد " (135) ألفه إكراما لشيخه محمد بن عبد السلام الفاسي، الذي كان يناديه: «شيخنا».

- فهارس وأسانيد حديثية، كتبها سنة 1238هـ، وهي مشهورة (136).

كما شجع المولى سليمان التآليف والتصنيف، وأذكى جذوته، بتشجيع العلماء عليه، وبث روح المنافسة بينهم فيه.

وأهم الكتب التي أمر بعض الشيوخ والأئمة من علماء مجالسه العلمية بتأليفها حول المواضيع التي رأى هو شخصيا، أو ارتأى علماء مجالسه العلمية وجوب تمحيصها، وإغنائها، وإثرائها بالدراسة والبحث - ولا سيما في الحديث والقراءات- هي :

- أمر إدريس بن عبد الله البدرابي بالتآليف في مقراً نافع المدني، فألف كتابه "التوضيح والبيان (137)".

- أمر أبا عبد الله اليازغي بشرح الشامل لبرهام، فشرحه، لكن أدركته المنية قبل إتمامه فأكمله أبو الحسن علي التسولي بأمر خاص من المولى سليمان الذي مات بدوره قبل أن يتمه التسولي.

- أمر شيوخ مجالسه العلمية : التاودي بنسودة، وعبد القاد بن شقرون، ومحمد بن أحمد بنيس، والطيب بن كيران، بأن يشرح كل واحد منهم عشرة أحاديث من الأربعين النووية في مدة لا تتجاوز عشرة أيام، فنفذوا أمره وشرحوها (138).

- أمر قاضي فاس عباس بن أحمد بن التاودي بنسودة بالتآليف في حكم من يموت في اللعب بالبارود في المهرجانات (139).

(135) دعوة الحق، ع: 4، س: 11، ص: 21، 1387هـ-1968م، اهتمام الأسرة العلوية بحفظ القرآن، لعلال الفاسي.

(136) دعوة الحق، ع: 2، س: 8، ص: 75، 1384هـ-1964م، خصائص المدرسة الحديثية، لحسن السائح.

(137) مطبوع المطبعة الحجرية بفاس.

(138) تاريخ الضعيف، ص: 266.

(139) نص الحكم الذي أصدره القاضي المذكور بالمكتبة الكتانية.

- أمر شيخه الطيب بن كيران بتأليف نصيحة لولده المولى إبراهيم، فألف له : " عقد نفائس اللُّئالِ في تحريك الهمم العوال (140) " .

- أمر العلامة إدريس البدرابي بالتأليف في همزة الوصل وفي الألف التي تزداد في الخط فامتثل وألف فيهما. ويقول في ذلك : " وبعد، فقد أمرني سيدنا الإمام العالم العلامة الهمام أبو المكارم مولانا سليمان أيد الله نصره، وخذ فيما يرضيه ملكه أن أقيد في هذه الأوراق ما يتعلق، بمسألتين : الأولى : همزة الوصل : فإنها كثيرا ما تشكل على المعلمين وتلتبس على المتعلمين....

والثانية : الألف التي تزداد في الخط، مثل : قالوا، وأمنوا (141).

- ونظم إدريس البدرابي هذا في القراءات : " حقيقة الرُّوم والإشمام " في ثلاثة أبيات، فأجازه وأثابه عليها بمائة مثقال عن كل بيت، وكان يقدره ويجله (142).

- أمر العلامة أبا عبد الله محمد اليازغي بشرح الشامل لبهرام، فشرحه وسماه " الفتح الكامل في توضيح الشامل " . ووصل في شرحه إلى المراجعة، وتوفي المولى سليمان، فأمره المولى عبد الرحمن بن هشام بإتمامه، فأتمه (143).

والواقع أنه أمر بمصنفات عديدة من نفائس الدرر العلمية وفوائدها، مما لا يدخل تحت عد، ولا يشملها حصر.

كما كان يأمر بعض كتابه المقربين بنسخ الكتب المهمة تعميما لفائدتها. - فقد أمر كاتبه وسفيره العلامة المؤرخ أبا القاسم الزياتي بنسخ كتابه «الترجمان المعرب في دول المشرق والمغرب»، فجند الزياتي لذلك لجنة من العلماء والنساخ، ورفعها إلى المولى سليمان، بعد أن قرَّظه علماء عصره بقصائد وأشجاع، فوصلهم المولى سليمان جميعا، كل بما يستحقه (144).

(140) مطبوع بالمطبعة الحجرية بفاس.

(141) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 75.

(142) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 73.

(143) المصدر السابق، ص: 76.

(144) الروضة السليمانية، للزياتي، ورقة 189-190.

المجالس الأدبية للمولى سليمان :

كان المولى سليمان من فطاحل علماء عصره ورعاً تقياً، لين الجانب يتصف بالحلم والصبر والأناة، مما رقق مشاعره وأرّهف حسه، وجعله ذا أريحية أدبية شاملة للشعر والنثر الفني الأصيل.

ويؤكد لنا ذلك المشرقي قائلاً (145) : "... انتشر في أيامه العلم واعتز طلبته، ونفذت حذاقتهم وفصاحتهم في الرسائل والأشعار، وأعجب هو بذلك أيما إعجاب".

وقد انعكس ذلك على سائر مجالسه، ولا سيما الأدبية منها، لأن النبوغ في الأدب لا يشيد إلا على أرضية صلبة من الثقافة العامة الشاملة، ولا سيما اللغوية منها.

وعن ثقافته الواسعة الشاملة يقول المشرقي (146) : "...وبالجملة فقد ألفت إليه العلوم زمامها، وأصبح لأئمة الأنام حجتها وإمامها".

ولا غرابة في انعكاس ثقافته على علماء مجالسه العلمية وغيرها وبالتالي على كافة أهل عصره بجميع أنحاء البلاد، ما دام "الناس على دين ملوكهم".

فقد نفخ من روحه في الحركة العلمية والأدبية التي ازدهرت في عهده أيما ازدهار، إذ كان المثل الأعلى والنموذج المحتذى للعالم، الإمام والأديب اللبيب المفلح. كما عمل على خلق الأجواء العلمية والأدبية الملائمة لازدهار تلك الحركة وتطورها إلى نهضة علمية وأدبية شاملة. وبالتالي فقد شجع العباقرة والنبغاء في جميع العلوم والفنون بالجوائز، والعطاء المادي والمعنوي، ولا سيما الأدباء من الكتاب والشعراء، فازدهر الشعر وارتقى النثر -وخاصة النثر الفني-، وذلك على يد الوزير محمد بن إدريس ومن جاء بعده من بلغاء الكتاب (147)، كالصديق الريسوني واليميني بوعشرين

(145) الحلل البهية للمشرقي، ص: 176-177.

(146) المصدر السابق، ص: 176-177.

(147) دعوة الحق، ع: 246، ص: 167، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسين.

المكناسي، وبناني(148) . وفي ذلك يقول المشرفي (149) : " مع اعتناؤه بطلبة العلم غاية، وجلب النفع لهم، والاحسان معهم فوق النهاية، فانتشر في أيامه العلم، واعتز طلبته "

وكان للمولى سليمان براءة خاصة في رئاسة مجالسه الأدبية، وتسيير جلساتها، سلاسة ومراعاة المثقف اللبيب، ذي الذوق الأدبي الرفيع، والشعور الإسلامي النبيل الفاضل، والنقد العلمي والأدبي المجرد النزيه الفاضل.

- مما تجل في تقييده المتعلق بمصادرة بيتين مشهورين من الشعر، منسوبين لحسان بن ثابت، في وصف النبي ﷺ، ومنع إنشادهما بين يديه في مجالسه الأدبية وهما (150) :

له هم لا منتهى لكبارها
وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها
على البركان البر أندى من البحر

وقد صدق حدسه وفراسته المؤمنة، وحسه الأدبي الرهيف، فشتان بين هذا التكلف والركاكة، وبين سلاسة وعفوية وجرس أشعار حسان بن ثابت، وصدق عاطفته، وخاصة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام.

- أما براءة المولى سليمان في النثر فتشهد بها رسائله الديوانية المختلفة، التي يصوغها بنفسه، ويحبرها بيراة شخصيا (151) . فقد " كان يسود رسائله بيده ثم يدفعها للكتاب، فيعيدونها بخطهم.... وتارة يطيل في رسائله، وتارة يقصرها ويختصر، وذلك بحسب حاله ونشاطه. وخطه صعب لا يكاد يقرأه غيره "

- كما تتجل براءته العلمية، وملكته الأدبية في توقيعاته ورسائله الديوانية الرسمية : " وأما توقيعاته ورسائله للأمرء والقضاة والعلماء،

(148) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 419.

(149) الطل البهية للمشرفي، ص: 176-177.

(150) دعوة الحق، ع: 246، ص: 167، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب

الفروع، لعبد الهادي الحسين.

(151) مجلة المناهل، ع: 36، تحقيق مخطوط الابتسام، ص: 5، لعبد الهادي التازي.

فيما يرد على بابه من القضايا والشكاوى، وزجره لهم فيما يرتكبونه....
فشيء لا يسبح في بحرهِ سابق (152) .

- وقد دخلت خطبة المولى سليمان -التي أنشأها في محاربة البدع (153)
والفساد، ووزعها على المساجد بسائر أنحاء مملكته، وأمر أن تلقى كل يوم
جمعة على منابرها- دخلت هذه الخطبة مجالسه الأدبية من بابها الواسع،
رغم موضوعها الديني، وطابعها الاجتماعي الإصلاحية، وأهدافها
السياسية، والدينية، والشرعية...

فقد مدحها وقرظها شعرا، الفقيه الأديب أحمد الحبيب الرشيدى، ومدح
من خلالها المولى سليمان بقصيدة أنشدها في مجلس من المجالس الأدبية
للمولى سليمان، قال في مطلعها :

الخير كله في محبة أحمد
غوث العوالم ذي المقام الأحمد
وسلوك سيرته لنيل مقامها
سبب يحسن إليه كل مسدد

وكان نشاط مجالسه الأدبية لا يقل عن نشاط مجالسه العلمية، إذ كانت
موازية لها، تعقد بتلازم وتراوح معها، باعتبار أن جل العلماء -إن لم يكن
كلهم- كانوا أدباء وشعراء، لعدم استقلال العلوم عن بعضها -كما أوضحنا
ذلك من قبل- للترفيه والترويح عن نفسه وعن جلسائه من أجلة العلماء
والشيوخ، أعضاء مجالسه العلمية المختلفة.

- ومن القصائد التي رفعت إليه في مجالسه الأدبية المذكورة، قصيدة
نظمها كاتبه ووزيره ومؤرخه وسفيره، خديم أعتاب الدولة العلوية،
أبو القاسم الزياني :

(152) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 53، والحلل البهية، للمشرقي،
ص: 176-177.

(153) الترجمة الكبرى، للزياني، ص: 466-470، وبها نصها الكامل، والنبوغ المغربي، لكونن، ج:
2، ص: 40-47.

وفي هذه القصيدة نظم أسماء الدوحة العلوية المنيعه الوارفة، من الحسن الداخل والمولى علي الشريف، إلى المولى سليمان، وهي تصل مجدهم الطريف بأمجادهم التليدة، ومطلعها (154) :

الشمس من مشرق تسعى لمغربنا

والبدر يتبعها بالغرب يكتمل

- وفي أحد هذه المجالس الأدبية الزاهرة - الذي عقده بعد انتصاره على صهره وابن عمه عبد الملك بن إدريس، الذي ثار عليه بأنفا - أنشده الفقيه الشاعر محمد بن شقرون قصيدة بالمناسبة، قال في مطلعها (155) :

هذي البشائر وافت وهي قائلته أعوذ بالله من شر الذي حسدك

وكانت هذه المجالس الأدبية للمولى سليمان، والقصائد التي تنشدها فيها بين يديه، تواكب الأحداث الجسيمة التي عرفتها البلاد في عهده، وكأنه كان يعقدها للترويح عن نفسه من عناء تلك الأحداث، وآلامها وأحزانها....

- فبعد أحداث فاس، التي أعقبت رسالته التي بعثها إليهم مع ولده علي، الذي قرأها عليهم بالمسجد، بحضور لجنة من العلماء والأعيان، عينهم السلطان لذلك بأسمائهم، - كما مر بنا - نظم الشعراء في تلك الخطوب والكوارث المفجعة، فعقد لذلك مجلسا أدبيا، ألقى فيه تلك القصائد بين يديه، ومن أهمها : قصيدة أنشدها الوزير الشاعر محمد بن إدريس، في تلك المناسبة (156).

- وفي أحد هذه المجالس الأدبية الرائعة، أنشده الشاعر أبو القاسم الزياني قصيدة يمدحه فيها، وهي القصيدة التي ذيل بها كتابه الترجمان، الذي أهداه إلى السلطان المولى سليمان - كما مر بنا - في هذا المجلس الأدبي، والذي أعجب به السلطان، فأمره بنسخه، ومطلعها (157) :

أتى سليمان يوم العرض هدهده بخبر من سبا أرضى به سيده

- وفي مجلس أدبي آخر قدم له الزياني كتابه "البستان الطريف" -

(154) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 419، وبها نصها الكامل، والنبوغ المغربي، لكتون، ج: 2، ص:

47-40.

(155) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 99.

(156) نص القصيدة بالاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 139-141.

(157) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 570.

على عادة العلماء - إذ ذاك - في إهداء إبداعاتهم للمكهم العالم الذي كان يقدرها حق قدرها فيجزل جوائزهم، ويعلي قدرهم ومكانتهم لديه - وأنشده قصيدة يمدحه فيها ومطلعها (158) :

عرج على روضنا واقطف حدائقه

واقطف جنا زهره واشرب تجد طربا

فاجن الثمار التي ليست تقاس بها

ما كرسه بنو الدنيا ونل أربا

- وفي إطار هذه السنة المتبعة أهدي إليه الزياتي - في أحد هذه المجالس الأدبية الرائقة - كتابه "ألفية السلوك في وفيات الملوك" مع شرحها، ومدحه بقصيدة قال في مطلعها (159) :

يــــا سليمان فقت كل أمير

ووسعت علما وزدت اهتــــداء

ظهر الحق ما عليه غطاء

بك، وازداد نــــائل وعطاء

- كما أنشده قصيدة أخرى في أحد هذه المجالس الأدبية يستعطفه ويستجديه ويمدحه، ومطلعها (160) :

لم يبق من سالك يرجى ولا ملك

إلا الإمام الذي طابت مكاسبه

أقام الملك حكم العمرين وما

أباحه الشرع فابيضت مذاهبه

- وأنشده في مجلس آخر قصيدة ذيل بها كتابه الترجمانة الكبرى، ومطلعها (161):

أتت إليك أمير المؤمنين جارية

مصحوبة بسلام عاطر السنم

(158) الترجمانة الكبرى، للزياتي، ص: 570.

(159) الترجمانة الكبرى، للزياتي، ص: 570.

(160) المصدر السابق، و ص.

(161) المصدر السابق، ص: 570-578.

سميتها ترجمانة الملوك لما

تحسن من لغة العرب والعجم

واتسع آفاق مجالسه الأدبية، وشع نورها فاخترق الحدود والسدود، وراجت سوقها شعرا ونثرا على الصعيد الخارجي، بتعزيز روابط التعاون والتبادل على جميع المستويات.

- مما تجلى في المجلس الأدبي الذي عقده لاستقبال الوفد التونسي الذي أرسله باي تونس حمودة باشا بن علي في شأن المسغبة التي اجتاحت الشقيقة تونس سنة 1218هـ، حاملا رسالة ودية وهدية للمولى سليمان، طالبا إمداده، وإسعاف بلاده بالميرة (162).

وكان رئيس الوفد هو الشاعر الكبير الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي، الذي قدم بين يدي حاجته قصيدة يمدح بها المولى سليمان، ومطلعها: (163)

إن عز من خير الأنام مزار

وسليل من تمتطى له الأكوار

هذا الحقيقة وابن أكرم مرسل

بيت البتول وحبذا الأطهار

وقد أنشده إياها في المجلس الأدبي الحافل، الذي عقده المولى سليمان خصيصا لهذه المناسبة - كما قلنا - وحضر هذا المجلس أعيان العلماء، وعلية القوم، وأعضاء الديوان، والحاشية، زيادة على أعضاء الوفد التونسي المحتفى به.

وأعجب المولى سليمان وجميع الحاضرين بهذه القصيدة، وبإدراك السلطان لتلبية مطلبه، وقضاء حاجته بسخاء وكرم، كما زوده بهدايا سنوية (164).

- ومما يؤكد لنا ازدهار هذه المجالس الأدبية للمولى سليمان، وتطورها - شكلا ومضمونا - لمرتبة أدبية مشرفة، تطور جلساتها إلى جلسات

(162) الاستقصا، للناصري، ج: 89، ص: 118.

(163) المصدر السابق، ج، و ص.

(164) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 118.

للمعارضة والمناجزة بين الشعراء. كمعارضة الشاعر الفقيه حمدون بن الحاج السلمي، للقصيدية التي ألقاها الزائر التونسي، العلامة الشاعر أبو إسحاق إبراهيم الرياحي المذكور، بقصيدية من بحرهما وقافيتها، ومطلعها (165) :

بشراك إبراهيم بالإقبال إقبال عز لم يكن بالبال

- واستمرت هذه العلاقة الأدبية، التي كرسها المولى سليمان بكرمه وحده، فتوالت قصائد هذا الشاعر الكبير في مدحه، سواء بمجالسه الأدبية أو بالمراسلة. فقد أرسل إليه الشاعر التونسي المذكور قصيدة أخرى، كان أعدها لينشدها بين يدي ولد السلطان المولى إبراهيم، لما مر بتونس في طريقه إلى الديار المقدسة، على رأس الوفد الذي أرسله المولى سليمان لمحاورة الحركة الوهابية، واستطلاع أمرها، في شخص السلطان السعودي سنة 1227هـ، ولما فاتته ذلك، أرسلها إليه.

وقد أنشدت أمام المولى سليمان، في مجلس حافل أعده لذلك ومطلعها (166) :

هدئ المشي فأنعم بطيب وصال

فلطالما أضناك طول مطال

بشرتني بابن الرسول لو أنها

روحي ملكتها بدلت في الحال

وقد أخذت هذه القصيدة بمجامع قلب المولى سليمان، فاهتز طربا، وأمر أن يأخذ منها نسخة كل من كان صادقا الحب والإخلاص له.

كما أجاب الشاعر إبراهيم الرياحي برسالة (167) شكر وتنويه ببلاغته وفصاحته، وتقريظ ومدح لعبقريته وشاعريته، واتساع أفق خياله الخصب المعطاء....

- وفي هذا الإطار الأدبي على الصعيد الخارجي، مدحه الشاعر الأديب العلامة أبو عبد الله محمد بن الشهيد الجزائري (168)،

(165) المصدر السابق، و ج، ص: 126.

(166) الروضة السليمانية، م.خ.م، بالرباط، للزياني، ورقة: 187، والاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 125-127، وكشف الحجاب، للسكيرج، ص: 145.

(167) الروضة السليمانية، م.خ.م، بالرباط، للزياني، ورقة: 187، والاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 125-127، وكشف الحجاب، للسكيرج، ص: 145، وبها نص رسالة المولى سليمان.

(168) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 178-180.

الذي استقدمه المولى سليمان، فأنعم عليه بجائزة سنوية، ظلت مضرب الأمثال :

وقد أجابه وعارضه أحد علماء فاس، ويرجح أنه العلامة محمد بن عبد القادر الفاسي (169).

- ويمكن اعتبار نص عهده بالملك بعده لولد أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام، أحسن نموذج لنثره، لأنه خطه بيمينه، وصاغه بنفسه، بجلال الموقف وطابعه الديني والشرعي الذي ضمنه بيعته له.

وهذا نص هذا العهد التاريخي، والبيعة الفريدة من نوعها، الذي يخلد عظمة المولى سليمان الدينية، والإنسانية، والتاريخية.

"الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. أما بعد، فإن الإمام الذي يصلح أن يكون ملكا للمسلمين، وخليفة عن رب العالمين، من شروطه : المحافظة على الصلوات في أوقاتها، في الجماعة.

ومن شروطه أن يحمي حرمان الله، وحرمان المسلمين، ويعظم ما عظم الله، ويرحم الضعفاء، ويصل ما أمر الله بوصله، ويقطع ما أمر الله بقطعه.

ومن شروطه ألا يتعامى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باليد إن قدر عليه، ثم باللسان، ثم بالقلب - وذلك أضعف الإيمان -.

وهذه الشروط كلها قد اجتمعت -والحمد لله- في ولد أخينا مولاي عبد الرحمن بن هشام، فأشهد الله أنه أهل لها، وهي أهل له. أقول الحق ولا أبالي.

كتبه عبد ربه سليمان بن محمد غفر الله له، والسلام (170).

- ويمكن أن نضيف إلى المجالس الأدبية للمولى سليمان، مجالس احتفاله بعيد المولد النبوي، التي كانت لا تختلف في شيء عن مجالس احتفال والده بهذا العيد.

ذلك أن أجواءها وتقاليدها الأدبية، مفعمة بالنفحات القدسية، والإلهام الشعري الرفيع، الذي يخلق في سمائها الصافية.

(169) المصدر السابق، ص: 180.

(170) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 197-198، وبها نص هذا العهد.

ويصف لنا الضعيف الرباطي مجلساً أدبياً وفنياً وموسيقياً رائعاً، أقامه المولى سليمان، احتفالاً واحتفاءً وتخليداً لذكرى ميلاد خير البرية، جده رسول الله ﷺ، سنة 1227هـ، حيث أحضر له المنشدين من فاس وتطوان (171).

مجالس الأئمة العلمية والأدبية :

اهتمت الأسرة العلوية بتعليم أبنائها الأئمة، فكانوا دائماً في طليعة المفكرين من العلماء والأدباء والشعراء، وخاصة منهم الملوك، الذين اعتادوا على عقد مجالس علمية خاصة، يجتمعون فيها بثلة من شيوخهم، وكبار العلماء، ومتخذين منها مدرسة لتخريج نبغاء العلماء، وفطاحل الأدباء، وفحول الشعراء، لتطوير مجالسهم، وتجديد مناهجها وبرامجها، وضمين استمراريتها، سواء أيام إمارتهم، أو بعد بيعتهم.

وكانت هذه المجالس الأميرية صورة مصغرة للمجالس العلمية السلطانية الرسمية، كما كانت منها وإليها، بحيث تنبثق عنها، وتصب فيها. - وكانت للمولى إبراهيم (172) بن السلطان المولى سليمان مجالس من هذا النوع، علمية وأدبية في آن واحد.

كما ساهم في نشاط المجالس العلمية السلطانية الرسمية لوالده على الصعيد الخارجي - حيث ترأس وفد أعيان العلماء - الذي أرسله والده لمحاورة أقطاب الحركة الوهابية ودعاتها في بلدهم، وحاملاً جوابه إلى السلطان ابن سعود، صاحب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي ترأس إلى جانبه ذلك المجلس، وأظهر للمولى إبراهيم الإجلال والتعظيم، باعتباره من آل البيت النبوي الكريم.

ولم ير منه المولى إبراهيم - والوفد المرافق له - ومن أتباعه إلا الاستقامة، واتباع قواعد الإسلام (173)، ونقل ذلك إلى والده المولى سليمان، فطمأنه وأراح ضميره.

كما ساهم في المجالس الأدبية لوالده على الصعيد الوطني المحلي.

(171) تاريخ الضعيف، ص: 375-381.

(172) أعلام المغرب العربي، لعبد الوهاب بن منصور، ج: 1، ص: 160.

(173) الاستقصا، للناصر، ج: 8، ص: 134، والمصدر السابق، ج: 1، ص: 160.

فقد كان يوم دخوله من الحج، على رأس الوفد المذكور من العلماء يوماً مشهوداً، تهيأ له والده المولى سليمان فعقد مجلساً أدبياً، أنشد فيه الشعراء غرر القصائد في مدحه ومدح ولده (174)، الذي لهجت ألسنة الحجاج والعلماء - أعضاء الوفد - بفضائله وشمائله، وكرمه الحاتمي وصدقائه المتواصلة.

ومن القصائد التي تليت : قصيدة (175) بعث بها العلامة الشاعر إبراهيم الرياحي التونسي، يمدح فيها المولى إبراهيم والمولى سليمان، ويهنئه بعودة ولده.

وقد أعجب المولى سليمان بهذه القصيدة أيما إعجاب، وهزت مشاعره، حتى إنه أمر باستنساخها وفرقها على كتابه وحاشيته، وحتى شرحها بعض الأدباء إرضاء له.

وعارض هذه القصيدة بقصيدة من وزنها وقافيتها الأديب الشاعر حمدون (176) بن الحاج - كما مر بنا -.

وفي إطار مثل هذه المجالس، أقام المولى سليمان حفل ختمة (177) ولده إبراهيم، في قبة جده سيدي محمد بن عبد الله بأكدال، حضرها العامل محمد السلاوي، وعلماء العدوتين : الرباط - سلا، وسائر أعضاء مجالسه العلمية الخاصة والأدبية من أئمة العلماء، وأعيان الأدباء والشعراء بمجلسيهما وغيرهم.

وكان الأمير المولى إبراهيم ينوب عن والده في ترأس مجالس حفلات ختم كبار العلماء لأمهات المصادر من الكتب العلمية الدينية وغيرها، كحضوره ورئاسته (178) حفل ختم العلامة محمد بنجلون لكتاب صحيح الإمام البخاري سنة 1225هـ.

(174) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 124.

(175) نصها بالاستقصا، ج: 8، ص: 125-127.

(176) المصدر السابق، ج: 8، ص: 126.

(177) تاريخ الضعيف، ص: 335.

(178) المصدر السابق، و ص.

وقد أسند إليه والده قيادة الجيش، فمات رحمه الله في إحدى المعارك التي انهزم فيها والده، وكان في ركابه (179).

- وكان الأمير الحسين بن سيدي محمد بن عبد الله، أخو المولى سليمان، أدبيا شاعرا (180)، وألف كتابا في التاريخ، ذكر فيه كثيرا من الحقائق التاريخية للدولة (181).

- كما كان أخوه الطيب بن سيدي محمد بن عبد الله يدرس التفسير في مجلس العلامة الطيب بن كيران شيخ المولى سليمان، وأحد أقطاب مجالسه العلمية (182).

- وكان السلطان المولى سليمان يختار كبار علماء مجالسه العلمية لتدريس أولاده، كالفقيهن العالمين اليزمي الفاسي، ومحمد بن منصور، اللذين اختارهما لتدريس ولده المولى عبد السلام، ونقلهما لذلك من فاس إلى مراكش (183).

المجالس العلمية لكبار العلماء :

كان بعض أئمة وشيوخ العلماء أقطاب المجالس العلمية للمولى سليمان يعقدون مجالس علمية خاصة بهم، اقتداء بالمولى سليمان.

وفي هذه المجالس كانوا يتناظرون، ويتجادلون في القضايا التي تشغل الرأي العام المغربي أو العربي والإسلامي الدينية وغيرها، أو يواصلون الحوار حول القضايا المطروحة بالمجالس العلمية السلطانية الرسمية، في جو حر، بعيد عن تقاليد المجالس السلطانية وهيبتها ووقارها... أو حول الكتب الجديدة التي تعرفها السوق العلمية والأدبية، حيث يحاولون تقييمها

(179) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 134، وأعلام المغرب العربي، لابن منصور، ج: 61، ص: 116.

(180) تاريخ الضعيف، ص: 283.

(181) المصدر السابق، و ص.

(182) تاريخ الضعيف، ص: 311.

(183) المصدر السابق، ص: 367.

وتصنيفها، ونقدها، شكلا ومنهجا ومضمونا، خاصة تلك التي تتضارب حولها آراء العلماء، بالداخل والخارج....

ومن العلماء الذين كانوا يعقدون أمثال هذه المجالس :

- العلامة سيدي عبد القادر بنشقرن -الذي حضر أحد مجالسه المؤرخ الضعيف الرباطي، ووصفه لنا (184)-.

- وبعض هذه المجالس كان يعقد احتفالا بختم أمهات المصادر والمراجع الدينية وغيرها، كمجلس (185) ختم القاضي أحمد بنسودة لمختصر الشيخ خليل، الذي وصفه لنا الضعيف الرباطي، ذاكرا أنه خلال هذا المجلس، مدح صاحب المجلس والختم كل من : العلامة السيد محمد بن كيران، أخي العلامة الطيب بن كيران، والعلامة السيد الطاهر بن جلون الشرقاوي. كما قرّظا درسه ومجلسه وحفله.

- كما يصف لنا الفقيه المؤرخ الضعيف الرباطي مجلسا علميا آخر للعلامة الطيب (186) بن كيران، شيخ المولى سليمان، وأحد أقطاب مجالسه العلمية.

- وهناك مجلس آخر عقده العلامة الطيب (187) بن كيران احتفالاً بختم تفسيره للقرآن الكريم، في زاوية ابن رحمون، ويحدثنا الضعيف الرباطي عن هذا المجلس وحفله، ذاكرا أن السلطان المولى سليمان توج هذا المجلس بحضوره، إكراما وتشريفا لشيخه الطيب بن كيران.

- كما يحدثنا المؤرخ الضعيف عن مجلس علمي عقده العلامة عبد القادر بنشقرن، احتفالاً بختمه لكتاب الشفا للقاضي عياض، وقال عنه : " إنه لم يؤلف أحسن منه في الإسلام (188) " .

(184) تاريخ الضعيف، ص: 269-283.

(185) المصدر السابق، و ص.

(186) المصدر السابق، و ص.

(187) تاريخ الضعيف، ص: 269-283.

(188) تاريخ الضعيف، ص: 112-113.

وكان كل واحد من هؤلاء العلماء -وبالتالي من علماء مجالسه العلمية- " حجة في البيان، والأصول، والمنطق، والكلام، والتفسير، والحديث، وكلهم عنده غاية في القبول والمكانة العالية (189) ".

وجلهم أخذ عنه، واستقى من بحره الزاخر. فقد كانت مجالسه العلمية مدرسة قائمة بذاتها، حيث يتخرج عليه العلماء في العلوم الدينية والعقلية وغيرها، التي تسرد كتبها بها، على أساس عقيدته ومذهبه. وفي ذلك يقول الزياني (190) : " اعترفوا بالأخذ من فيض بحره، والزيادة في علمهم من وفره.... وكان لهم باعترافهم درجة عالية.... ".

(189) الجيش العرمم، لأكنسوس، ورقة : 244.

(190) جمهرة التيجان، للزياني، ص: 61.

الفصل الثالث

المجالس العلمية

على عهد المولى عبد الرحمن

وتعدد أنواعها وأعمالها

بالداخل والخارج :

كتبها - علماءها - مذهبها

الفصل الثالث

المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى عبد الرحمن (1238 - 1276هـ - 1822 - 1859)

تمهيد :

سار المولى عبد الرحمن على سنن أسلافه الكرام، في الحفاظ على الشعائر الدينية والمقدسات الإسلامية، والامتثال لتعاليم الإسلام، والتفاني في العمل لما فيه مصلحة البلاد وخير وصلاح العباد، في توازن واتزان بين الأمور الدينية والدنيوية، دون إفراط ولا تفريط.

فقد " كان المولى عبد الرحمن بن هشام من العقلاء الثابتين، والأتقياء العارفين، والعلماء الراسخين، بانبا أمره على الشريعة، لا يحيد عنها طرفة عين(1) " .

ولا غرو فهو خريج مدرسة عمه المولى سليمان، الذي كان مثله الأعلى في الحياة، فسار على نهجه في سائر أحواله وأفعاله (2). قال عنه عمه سليمان لأكنسوس (3) : " هو أفضل بيتنا أولاد مولاي عبد الله.... يصوم الخميس والإثنين، ويلبس الخشن من الثياب ولا يبالي ". كما كان يكثر من قراءة القرآن، وإحياء ليلة المولد وليلة القدر (4)، والاهتمام بتقريب العلماء، وإكرامهم وإجلالهم، وصلتهم، واستشارة أئمتهم، والنزول عند رأيهم، سواء في القضايا المصرية للبلاد، أو فيما يتعلق بمصالح وشؤون الرعية.

وفي هذا الصدد عمل على تطوير المجالس العلمية السلطانية لخدمة برنامجه الإصلاحية، الذي يقوم على التجديد والتفتح الواعي الحذر، والخطوات المترتبة على درب الأخذ بأسباب الحضارة الغربية الحديثة،

(1) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 221.

(2) الاستقصا، للناصرى، ج: 9، ص: 3-4، والحلل البهية، للمشرقي، ص: 246.

(3) الجيش، لأكنسوس، ورقة: 197.

(4) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 108، تحقيق مخطوط الابتسام لعبد الهادي التازي.

والاقتباس منها. مع الاكتفاء من ذلك بالضروري والحيوي والنافع، حفاظا على استقلال البلاد وحريتها.

ويؤكد لنا المشرقي هذا التوازن، وهذه الإزدواجية التي تجلت في أعمال مجالسه العلمية بقوله (5) : " كان..... معنيا بسرد البخاري كل سنة، متشوقا لعلم الهندسة والتنجيم والهيئة.... مكرما للعلماء، معظما لجانبهم، رادا مهمات الرعية إليهم، لا يقطع دونهم أمرا مهما، عالي الهمة، مهتما بالجهاد " .

فقد وافق عهده طلائع الحركة التجديدية للقرن التاسع عشر، فاستشعر حاجة المغرب الملحة لمواكبة العصر، وبالتالي لإدخال إصلاحات جذرية على أوضاع المغرب، عن طريق الأخذ بأسباب النهضة الحديثة، على غرار تركيا والبلاد العربية، وخاصة في المجالات الحيوية لكيان الدولة (6)، ولا سيما التعليم، باعتباره أساسا لكل إصلاح وتقدم ورقي....

لذلك أعطى الأولوية في برنامجه الإصلاحية لقطاع التعليم، فأصدر أوامره بتعميم التعليم الابتدائي في الحواضر والبوادي، وجند الوسائل والإمكانات لتحقيق ذلك، وأنفق أموالا طائلة في بناء المدارس وتجهيزها، وإعداد أطرها (7).

وبدأ بنفسه وأسرته في ذلك، فجعل من أبنائه وبناته -ذكورا وإناثا-: مثلا أعلى وقدوة تحتذى، إذ أنشأ مسجدا ومدرسة للأميرات داخل القصر، وبعث بالأمراء إلى النواحي لدى أعيان الفقهاء والمعلمين، وأوصاهم بتعويدهم على خشن العيش، شأنه مع قاضي سلا العلامة محمد عواد، الذي أرسل إليه ولده عبد القادر سنة 1260هـ في صغره (8) .

كما اهتم بالكتب، فكانت خزائنه تضم خمسين وثمانمائة مجلدا، وكان بخزانة مكناس أكثر من ألف مجلد (9).

(5) الحلل البهية، ص: 221.

(6) مظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ص: 3، الشرق الإسلامي والعصر الحديث لحسن مؤنس، ص: 114-115، ط: 1.

(7) الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 68.

(8) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 55-62.

(9) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 113، تحقيق مخطوط الابتسام لعبد الهادي التازي.

وفي هذا الصدد حاول المولى عبد الرحمن من خلال مجالسه العلمية التشريعية تفكيك قيود العزلة عن المغرب، بتؤدة وتبصر وتأن. فقد قاد حركته الإصلاحية على رأس هذه المجالس بالتنظير والتشريع، ثم على رأس السلطة التنفيذية والإدارية، خارج مجالسه، بعد أن تأكد له خلال الدراسة والبحث مع أعيان وأئمة علمائها من قادة الفكر، والرأي العام المغربي، أن عزلة المغرب هي السبب الرئيسي لكل ما تتخبط فيه البلاد من مشاكل، وما يتهددها من مخاطر، وخاصة بعد احتلال الجزائر.

وكان انعزال المغرب قد استحکم في عهد المولى سليمان، للبعد الجغرافي وانعدام المواصلات، والدسائس الاستعمارية الغربية بالنسبة للشرق العربي، وخوفا وحذرا من الأطماع الأجنبية بالنسبة للمغرب.

فقد حرص المولى سليمان (10) على الابتعاد عن الغرب، وتفكيك أسطوله البحري، وعاش في عزلة تامة عن الشرق والغرب، يقتصر على الثقافة القديمة الأصيلة، ويتمثل مبادئها وأهدافها، بعيدا عن التيارات الجديدة في الشرق -الذي كان يدور في فلك الدولة العثمانية، وينصهر في بوتقتها الثقافية والحضارية وغيرها - والغرب الذي كان يعيش عنفوان نهضته وتقدمه وتفوقه.

وهذا ما أخرج نهضة المغرب بالنسبة للشرق العربي بنصف قرن، إذ أن عزلته حرمت الاستفادة من علوم العصر ومعارفه وتقنياته، ولم تحمه من مطامع الغرب ومؤامراته، في حين كان المفروض أن يواكب ركب النهضة الأوروبية والأمريكية، ويلقح بهما ثقافته، وحضارته الأصيلة، وتسبق نهضته نهضة الشرق العربي، وحتى نهضة اليابان التي كانت موازية للنهضة المغربية، في محاولاتها الأولى، والتي تألقت وازدهرت، بينما تراجعت وتأخرت في المغرب، رغم بعده الجغرافي، ومتاخمته هو لأوربا، وحتى لأمریکا نسبيًا (11).

أما النهضة الأوروبية، فانطلقت على أساس الثورة الصناعية، التي قامت على أنقاض عهد الإقطاع، بعد أن طبق الأوربيون النظريات العلمية والتقنية،

(10) أحاديث عن الأدب المغربي، لعبد الله كنون، ص: 8.

(11) المصدر السابق، و ص.

وخرجوا بها إلى حيز التجربة العملية والتطبيق الميداني، معتمدين على الطاقة البخارية ثم الكهربائية، فنجحوا نجاحا باهرا، وقاموا باختراعات واكتشافات هائلة، دفعت بعجلة الحضارة الإنسانية قدما إلى الأمام. لكن ذلك كان سببا لقلب التوازنات والموازن العالمية الدولية؛ إذ ارتقى الغرب أعلى درجات الحضارة والقوة فتبوأ قمة هرم السيادة في العالم، مما كان سببا لسيادة المادة وتراجع القيم والمثل الروحية والإنسانية.

ومست حاجة الصناعة إلى المواد الأولية واليد العاملة الرخيصة والأسواق الرائجة لتسويق منتجاتها على أوسع نطاق، فتطلع الغرب بشراهة إلى خيارات الدول المتخلفة عن ركبها، التي لازالت تعيش في أحضان حضارتها الروحية العريقة الأصيلة، وفي طبيعتها دول العالم العربي والإسلامي لتأمين وتوفير حاجيات صناعته المذكورة.

وهكذا أعد الغرب مشاريعه ومخططاته الاستعمارية - في إطار برنامج استعماري متكامل - وشرع في حيك المؤامرات السياسية والعسكرية لتنفيذها مشبعا في نفس الوقت رغبته الدفينة المترسبة في الانتقام من العالم العربي والإسلامي الذي طال تربعه على عرش الحضارة الإنسانية، والسيادة العالمية.

وهذا ما جعل المولى سليمان يقاطع الدول الغربية وحضارتها وينطوي على نفسه في عزلة تامة بالنسبة للعلاقات الخارجية، وبالتالي جعل المولى عبد الرحمن يتعامل معها بخوف وحذر شديد (12).

فقد قام على رأس مجالسه العلمية وبمعية أقطاب علمائها بحركة إصلاحية شاملة لجميع قطاعات الحياة ومجالاتها - في أحضان الحركة السلفية التي مهد لها ووطد دعائمها بالمغرب المولى سليمان - رحمه الله - ولا سيما في مجال التربية والتعليم.

فقد حافظ - في مجالسه - على التوازن المطلوب والمنشود، لإنجاح برنامجه الإصلاحي، فاهتم بالمواد العلمية الحديثة، من هندسة، وفلك، واقتصاد، وإدارة في خط متوازن، لاهتمامه بالعلوم الدينية والشرعية، من قرآن وحديث وفقه وغير ذلك، مستهدفا تكوين علماء أكفاء، قادرين على مواكبة

(12) مظاهر يقظة المغرب للمنوني، ص: 10، والاستقصا، للناصرى، ج: 4، ص: 151، ط: المصرية.

العصر، وبالتالي جعل مجالسه العلمية في مستوى تحديات هذا العصر، باعتبارها أعلى سلطة تشريعية في البلاد، تشاطره موقع القرار، وتجمع في يدها زمام السلطات الثلاث : التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، تحت رئاسته وريادته، باعتبار أن العلماء أعضاء هذه المجالس كان جلهم - إن لم نقل كلهم- من الوزراء والعمال والقضاة والكتاب، وباقي كبار موظفي الدولة.

وبذلك يعتبر المولى عبد الرحمن أول من أخذ بأسباب النهضة الحديثة، وأسسها، وقعد عواملها (13) المختلفة.

المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن :

لقد تطورت المجالس العلمية السلطانية وتنوعت منذ نشأتها -مع قيام الدولة العلوية- إلى عهد المولى عبد الرحمن.

كما بلغت أوج ازدهارها وتألقها وعطائها في عهد كل من سيدي محمد ابن عبد الله، والمولى سليمان، حيث تشعبت إلى لجان وخلايا للدراسة المعمقة المختصة، والبحث العلمي المنهجي، والتأليف والتصنيف الموجه المبرمج. كما انتظمت إدارتها، فصار لها كتاب ونساخ للسكرتارية، وكتاب للضبط، يسجلون محاضر الجلسات، وموثقون إداريون، وربائد للأرشيف(14)....

كما قامت بأعمال جليلة في المجالات التشريعية والتنفيذية، والقضائية وفي جميع قطاعات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، على الصعيدين الداخلي والخارجي.

لكن المؤرخين والباحثين المغاربة، كادوا يجمعون على أن المولى عبد الرحمن -بعد المولى سليمان- هو الذي أعطى لهذه المجالس طابعها النهائي التقليدي المتبع وأنه ".... في عهده أصبحت المجالس العلمية من العادات والتقاليد الثابتة المتبعة (15) ".

(13) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 221.

(14) جمهرة التيجان، للزياني، ص: 61-67.

(15) مقدمة تحقيق الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: هـ.

ويؤكد لنا أكنسوس ذلك بقوله : " ثم جاء بعد المولى سليمان ابن أخيه وولي عهده السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله، فأصبح مجلس الحديث من العوائد المرعية للدولة، واستمرت على ذلك الملوك من بعده (16) ".

والواقع أنهم يقصدون بذلك إقامتها طيلة الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان على التوالي، فهذه السنة لم تستقر وتصبح عادة متوارثة معمولا بها كتقليد متبع للدولة، إلا في عهد المولى عبد الرحمن.

وكان مهتما في مجالسه العلمية هذه بعلم الحديث أيما اهتمام، على سنة جده سيدي محمد بن عبد الله، ولا سيما بصحيح الإمام البخاري، الذي كان منكبا على دراسته شخصيا، مولعا بمناقشة شيوخ مجالسه العلمية في أحكامه وأبعاده وأهدافه، محتكما إلى نصوصه، متوقفا عند حدوده، ملتزما بإقاماتها وتنفيذها.

فقد " كان -المولى عبد الرحمن- مولعا بعلم الحديث، منكبا على صحيح البخاري، ملازما له، حريصا على مذاكرة العلماء.... والاحتكام إلى نصوص الشريعة النبوية، وإقامة الحدود (17) ".
وذلك في نطاق المجالس العلمية، التي لم يكن يستغني عنها حتى أيام أسفاره (18) ".

وكان علماء مجالسه العلمية من أعلام الفكر المغربي، وشيوخ المعرفة في سائر العلوم والفنون، سواء العلمية منها أو العقلية، الدينية والشرعية، حتى يكفل لبرنامج الإصلاح، ذلك التكامل المتوازي المنشود -المذكور- بين الاتجاهين السائدين في عهده، السلفية والتحديث.

ورغم ميوله الحديثية، ورجوعه لمذهب وعقيدة جده سيدي محمد بن عبد الله، وانطلاقه في أعمال سائر مجالسه العلمية من مبادئها، وتحقيقا لأهدافها، فإنه كان يحرص على تواجد جميع الاتجاهات فيها، ممثلة

(16) الجيش لأكنسوس، ورقة 244، والحلل البهية، للمشرقي، ص: 294-202.

(17) الحلال البهية، للمشرقي، ص: 194-202.

(18) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 108، تحقيق مخطوط الابتسام، لعبد الهادي التازي.

في العلماء المختصين في جميع العلوم، سواء الدينية منها أو العقلية،
"من بيان، وأصول، ومنطق، وكلام، وتفسير، وحديث، وفقه
وغيرها (19)".

"وكان يعاملهم جميعا معاملة تقوم على أساس المساواة المطلقة بينهم
في الحقوق والواجبات "معتن بتعظيم جانبهم، وطلب الموعدة منهم (20)"،
دونما أي تمييز ولا محابة، مهما اختلفت مذاهبهم وميولهم ونزعاتهم،
باختلاف اختصاصاتهم التي كان في أمس الحاجة إليها كلها، في أعمال
مجالسه العلمية المزدهرة.

وكان يعقد هذه المجالس دائما، دوريا وباستمرار، ثم طيلة الأشهر
الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان.

أما دروس هذه المجالس في عهده، فكان يغلب عليها دراسة الحديث
النبي الشريف، ولا سيما صحيح الإمام البخاري، الذي كان ملازما له، إن
بمفرده، أو بمعية علماء مجالسه (21).

ويعرف لنا ابن زيدان شيخ شيوخه المهدي بنسودة قائلا : "القاضي
المهدي بن الطالب محمد (فتحا) بن محمد الرضي بنسودة، شيخ الإسلام،
وحجة الأيام.... إمام الفقه، والحديث، والسير، والأصول والفروع متفرد
في المعقول والمنقول (22)".

وقد توالى على مشيخة هذه المجالس العلمية السلطانية التقليدية
الرسمية، التي كان يعقدها المولى عبد الرحمن طيلة أيام الأشهر الثلاثة :
رجب وشعبان ورمضان، وفي غيرها -سفرا وحضرا- عدد من الأئمة
وأعيان العلماء وهم :

- العلامة "سيدي محمد التهامي بن سيدي الحمادي المكناسي الولي
الصالح، قارئ البخاري بحضرته (23)".

(19) الجيش، لأكنسوس، ورقة : 244.

(20) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 194-209.

(21) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 1، ص: 182.

(22) المصدر السابق، و ج، و ص.

(23) مجلة المناهل ع: 36، ص: 374، صفحات من مخطوط المفاخر العلية لعبد السلام اللجائي،

تقديم، محمد المنوني.

ولما توفي، عين السلطان المولى عبد الرحمن مكانه قاضي مكناس سيدي العباس بن كيران (24).

وبعد موته عين السلطان مكانه العلامة سيدي محمد المهدي بنسودة (25).

كما كان الفقيه المحقق المحدث أبو العباس سيدي أحمد بن الطالب بن سودة، يقرئ صحيح البخاري في حضرته (26).

وعين في نفس المنصب الفقيه العلامة عبد السلام بوغالب، الذي أسند إليه منصب القضاء في صفرو، فامتنع عن القضاء -ورعا وتقوى- لكن السلطان لم يعذره حتى رآه بعد أن قام من مجلس البخاري بحضرته -حيث كان يقرأ بين يديه- وأخذ يلتقط النوار على مرأى منه، فتأكد من أنه تجاذب، فعذره وأعفاه من القضاء (27).

ويعرف لنا ابن زيدان العلامة، العباس بن محمد بن كيران من هؤلاء الشيوخ، ورؤساء المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن قائلًا: ".... عالم زمانه، وفريد عصره وأوانه، حامل لواء التحقيق، المشار له في الإتقان والتدقيق، مشارك نفاع، غزير المعارف، كثير الاطلاع، له اليد الطولى في سائر العلوم، والاقترار الكامل على الخوض في منظومها والمفهوم (28)".

ومن تعريف ابن زيدان بكل من العلامة المهدي بنسودة، والعلامة العباس بن كيران، يمكننا أن نستشف الشروط التي كان يتوخاها المولى عبد الرحمن في أشياخ ورؤساء هذه المجالس من أئمة العلماء وجهابذتهم.

أما مكانة العلامة العباس بن كيران لدى السلطان، وبالتالي مكانة العلماء الذين عينهم لمشيخة ورئاسة مجالسه العلمية، فتتجلى لنا في بقية كلام ابن زيدان عن العلامة المذكور: "انتقاه سيدي الجد المولى عبد الرحمن لقضاء عاصمته المكناسية واتخذة شيخ مجالسه الحديثية، ينوه بقدرة،

(24) المصدر السابق، ص: 379-380.

(25) المصدر السابق، ص: 379.

(26) المصدر السابق، ص: 396.

(27) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 374، مخطوط المفاخر العلية للجائي، تقديم المنوني.

(28) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 1، ص: 182.

ويستمع لنهيه وأمره،... ولم يزل محمود السيرة على تلك الحال، إلى أن لقي الكبير المتعال (29) .

كما تصدر هذه المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى عبد الرحمن، كل من العلامة السيد التهامي بن حماد بن عبد الرحمن المطيري المكناسي سنة 1242هـ، والعلامة السيد عبد القادر بن أحمد الكوهن سنة 1254هـ، على التوالي (30).

أنواع المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن :

إن أهم المجالس العلمية للمولى عبد الرحمن من حيث موضوعاتها، مجالس الاستفتاء.

المجلس الأول للاستفتاء :

ولعل أهم القضايا التي طرحها السلطان على علماء مجالسه العلمية السلطانية للاستفتاء حولها -استطلاعاً لرأيهم واستنباطاً لأحكام الشريعة الإسلامية، والسنة النبوية فيها- قضية بيعة أهل تلمسان للمولى عبد الرحمن.

- فقد راسله أهل تلمسان ووهران (31) في شأن بيعته، والدخول في طاعته، ولم يلبث أن جاءه وفدهم للبيعة.

فعقد المولى عبد الرحمن مجلساً علمياً خاصاً على أعلى مستوى، جمع فيه أئمة العلماء وشيوخهم، واستفتاهم في الموضوع.

وفي نفس الوقت استشار أعيانهم على حدة، خارج ذلك المجلس، وعلى رأسهم قاضي الجماعة، صهره، وابن عمه، وأحد أقطاب مجالسه العلمية

(29) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 1، ص: 209.

(30) المصدر السابق، و ص.

(31) دعوة الحق، ع: 8، س: 15، ص: 190، 1393هـ-1973م، والاستقصا، للناصرى، ج: 9، ص: 42، والتحفة، ج: 1، ص: 98-99، وفيها نص البيعة، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 196-204، ونصها بنفس المصدر، ص: 204-207، وترجمة، نص اتفاقية طنجة من النص الفرنسي بالمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 2، ص: 222، والاستقصا، ج: 9، ص: 41-44.

المولى عبد الهادي، الذي عرف برجاحة العقل وحصافة الرأي وسداده، والتضلع في علوم الشريعة الإسلامية وغيرها.

وأشار عليه المولى عبد الهادي برفض بيعتهم، والسكوت عنهم، ونبهه إلى أنهم مطوقون ببيعة الخليفة العثماني، ومن الأولى والأحرى أن يتوجهوا إليه، ونصحه محذرا إياه من المشاكل التي قد تجرأها عليه هذه البيعة اللامشروعة.

أما بقية العلماء أعضاء مجالسه العلمية فتضاربت آراؤهم حول هذه القضية الشائكة، وبعد مناقشات ومباحثات جادة، وإثر مناظرات ومجادلات حامية الوطيس، انقسموا حولها إلى طائفتين :

أ - طائفة متشددة : أخذت برأي المولى عبد الهادي، فأفتت بالمنع والإنكار والكراهة، سدا للذرائع كلها.

ب - وطائفة مرنة : رخصت في ذلك وحبذته، وشجعت السلطان عليه، وأفتت بجوازه، ولم تذهب أية طائفة منهما مذهب التحريم.

وبينما كان المولى عبد الرحمن مترددا بين الإقدام والإحجام، والقبول والرفض، اجتمع علماء تلمسان، وتدارسوا أمرهم بينهم على ضوء فتوى المولى عبد الهادي ومن ذهب مذهبه من علماء المجلس العلمي للمولى عبد الرحمن وارتأى رأيه، وأصدروا بدورهم فتوى صريحة في وجوب قبول السلطان المولى عبد الرحمن بيعتهم، متذرعين بحيثيات وملابسات، أهمها :

أن بعد (32)،³² الخليفة العثماني عنهم يحول دون الاتصال المطلوب به باستمرار، في حين أن قرب المولى عبد الرحمن منهم -برا وبحرا-، يسهل عليهم ذلك، زيادة على كون السلطان سليل الدوحة النبوية، التي من حق الأمة الإسلامية كلها تفيؤ ظلها الوارفة.

وأرسل علماء تلمسان هذه الفتوى إلى المولى عبد الرحمن، وبالتالي للعلماء أعضاء مجالسه العلمية الذين أفتوا برفض بيعتهم.

ولما توصل المولى عبد الرحمن بفتوى علماء تلمسان، زال عنه التردد، ومال إلى رأي العلماء الذين رخصوا له في ذلك، فتقبل بيعة أهل تلمسان

(32) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 207-209، وبها نص هذه الفتوى لعلماء تلمسان وجوابهم.

وعلمائها، ووجه معهم ابن عمه المولى علي بن سليمان خليفة له عليهم، رفقة
فرق عديدة من جيشه (33).

- المجلس الثاني للاستفتاء :

ومن قضايا مجالس الاستفتاء التي عقدها المولى عبد الرحمن، في إطار
جدول أعمال مجالسه العلمية السلطانية، وطرحها على بساط البحث فيها،
قضية أصحاب الشيخ المهدي، شيخ الزاوية الشراعية، الذي انتحل البدع،
وادعى المهدوية، فاستفحل أمره، وطغى وتجر، وكثر أتباعه، وعاثوا الفساد
في الأرض....

فحاربه المولى عبد الرحمن وهزمه، ففر أمامه، وبقي أنصاره وأتباعه،
الذين أطلقوا أخا السلطان المولى المامون -الذي كان رهينة لدى المهدي-
وتشفعوا به للسلطان.

وفي شأن أتباع المهدي هؤلاء، استفتى (34) السلطان علماء مجالسه
العلمية، فأفتوه بالعموم عنهم، باعتبار "أنهم تابوا قبل القدرة عليهم".
فاستجاب السلطان لهذه الفتوى، وعفا عنهم، وأطلق سبيلهم، ولم يلبث
المهدي المذكور أن جاءه تائباً، بعد ثلاث سنوات قضاه في التشرذ والضياع،
فعفا عنه، وولاه على إخوانه وأتباعه، لكنهم ضجوا بالشكوى منه، فعزله، إلى
أن توفي سنة 1293هـ.

- المجلس الثالث للاستفتاء :

ومن أهم القضايا التي عقد المولى عبد الرحمن، مجلساً علمياً للاستفتاء
حولها، قضية أرسلها إليه من الجزائر، الحاج عبد القادر بن محيي الدين
سنة 1252هـ، يستفتي علماء المغرب فيها، وسؤاله : " ما حكم الله تعالى
في المتعاونين من الجزائريين مع الفرنسيين في أنفسهم وأموالهم، سواء من
يخدمهم أو من يدلهم على عورات المسلمين، فهل يعاقبون ؟ وكيف ذلك ؟

(33) المصدر السابق، ص: 208-209، ودعوة الحق، ع: 8، س: 15، 1393هـ-1975م، ص: 190-191،

اتجلترا والدولة العلوية، مقالة لمحمد بن تاويت التطوانى.

(34) الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 21-17.

وكذلك من يمتنع عن مساعدة المجاهدين. هل يعاقب ؟ وكيف ؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم ؟ وما حكم مانعي الزكاة ؟ ومن أين يرزق الجيش المجاهد من المسلمين ؟ وإذا كان جمع المال، فهل من العموم، أو من الأغنياء فقط ؟ وهل يعد الممتنع باغيا ؟ وما حكم أموال البغاة ؟

وتصدت للفتوى في هذه القضية الهامة، لجنة من كبار علماء المجالس العلمية السلطانية، شكلها المولى عبد الرحمن، تحت رئاسة الفقيه العلامة السيد عبد السلام قديدش التسولي (35)، وهو من أقطاب المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن.

وكانت الفتوى والأجوبة مطولة، بحيث تطلبت أكثر من خمس كراريس. وهذه القضية تدخل في إطار التعاون والتبادل الثقافي والفكري والديني بين أقطار المغرب العربي، وبالتالي بين أقطار العالم العربي والإسلامي، الذي كان المولى عبد الرحمن من أحرص الناس على تنميته واستمراريته وتطويره وتقويته

وفي هذا الصدد أذن المولى عبد الرحمن للعلامة أبي عبد الله الشيخ محمد صالح البخاري -أحد العلماء الوافدين عليه من أنحاء العالم العربي والإسلامي- في الدخول عليه، وهو يرأس أحد مجالسه العلمية المنعقدة، فدخل وجلس لسماع الحديث الصحيح، وحضر الجلسة كلها. ولما رفعت الجلسة العامة عقد معه السلطان المولى عبد الرحمن جلسة علمية خاصة (36)، سأله خلالها عن حاجته، كما اختبره ووعظه، شأنه مع العلماء أمثاله دائما.

أعمال المجالس العلمية للمولى عبد الرحمن :

كان المولى عبد الرحمن كجده المولى محمد بن عبد الله يأخذ بمذهب السلف، ويعتقده، ويقتصر على العقيدة المأخوذة من

(35) م. 1258 هـ الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 45-46، وهذا العلامة النحرير هو صاحب الشرح على تحفة ابن عاصم في الأحكام، وشرح الشامل وحاشيته الزقاقية وغيرها.
(36) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 375. صفحات من مخطوط المفاخر العلية للجائي، تقديم: محمد المنوني.

ظاهر الكتاب والسنة، تلك العقيدة البسيطة التي تنسجم مع الفطرة، بعيدا عن التأويل والتعقيد.

وقد جعل ذلك أساسا ومنطلقا لأعمال مجالسه العلمية، سواء في التنظير والتخطيط، أو في التشريع والتقنين، أو في الدراسة والبحث، أو في الحوار والمناظرة، أو التأليف والتصنيف. تلك المجالس التي أصبحت في عهده من الثوابت التقليدية طيلة الأشهر: رجب و شعبان ورمضان.

لذلك أصدر أمره -انطلاقا من هذه المجالس، -وباتفاق مع أئمة علمائها، وتمشيا مع روحها السلفية الأصيلة - بتجديد المنشور (37) الذي أصدره جده سيدي محمد بن عبد الله، المتعلق بالعودة إلى أحضان الكتاب والسنة، كمصدرين للتشريع والقضاء والفتوى والتعليم، وغير ذلك.

كما أصدر أمره بإحياء وتطبيق المنشور الذي أصدره جده المذكور، المتعلق بإصلاح التعليم، على أساس ترك المختصرات الفقهية، وما فيها من تضارب أقوال الفقهاء وخلافاتهم.

وفي هذا الصدد أصدر المولى عبد الرحمن منشورا آخر، يجدد منشور جده، ويكرس تعليماته وبنوده، لكنه لم يكن له تأثير على الاتجاه السائد، الذي وطد دعائمه المولى سليمان، ولم يظهر له أي مفعول -على الساحة العلمية- في صرف العلماء، ومن ورائهم عامة الناس، عن طريقتهم المثلى المفضلة.

لكن هذا المنشور كان له تأثير إيجابي فعال ظاهر وواضح في إحياء علوم القرآن، والحديث النبوي الشريف، وازدهار وانتشار كل من التفسير والحديث، وإذكاء الرغبة فيهما، فأقبل عليهما العامة والطلبة، والعلماء والخاصة أيما إقبال "بفضل انتشار كتب السلف، والاطلاع على آثار الأقدمين، مع حسن النظر في الكتاب والسنة (38)".

وذلك اقتداء بالمجالس العلمية السلطانية، التي اهتمت بهذه العلوم وكتبها، حتى كادت تقتصر عليها، وحتى أصبحت تسمى

(37) نصه في النبوغ المغربي، لكتون، ج: 1، ص: 276

(38) النبوغ المغربي، لكتون، ج: 1، ص: 276.

بالدروس الحديثية، باعتبارها القاعدة، أما غيرها فنادر، والنادر لاحكم له.

كما أصدر المولى عبد الرحمن ظهيرا (39) بإصلاح نظام التعليم في جامعة القرويين، في إطار برنامجه الإصلاحي، وانطلاقا من مجالسه العلمية الرسمية، واقتداء بجده سيدي محمد بن عبد الله (40).

وقد اهتم علماء مجالسه العلمية بالعلوم العقلية، والرياضية، والحساب، والهيئة، والطب - إلى جانب ما تقدم - فألفت على هامش هذه المجالس، ومن طرف علمائها، كتب في هذه العلوم المختلفة، وإن كان ذلك بنسبة ضئيلة، إذا قيس بالتأليف في العلوم الدينية والشرعية، لكن ذلك كان بداية طيبة لتطور هذه العلوم وازدهارها، على عهد ولده محمد الرابع - كما سيأتي -.

ومن إصلاحاته في المجال التربوي والتعليمي - المنبثقة عن مجالسه العلمية الخاصة - تعليماته إلى العلماء المدرسين بالاختصار، وعدم التطويل على الطلبة، في سائر العلوم حتى يجنب الطلبة الصعوبات التي واجهته، وعانى منها أيام الطلب والدراسة.

وهكذا نلاحظ أن المولى عبد الرحمن خالف عمه المولى سليمان خلافا جذريا، وتناقض معه في مذهبه وعقيدته، وبالتالي في أهداف برنامجه الإصلاحي، تناقضا تاما، " وذلك فيما رآه من المصلحة اعتبارا (41) " .

وهكذا كانت مجالسه العلمية تعمل في إطار عقيدة ومذهب أهل السنة والجماعة وفي أحضان السلفية الأصيلة العريقة التي تناولت بالإصلاح جميع مجالات الحياة وقطاعاتها.

لذلك تضمن برنامج مجالسه العلمية الإصلاحي، بنودا هامة، تتعلق بمحاربة البدع المتفشية في عهده، وخاصة الخمر وآفاتها، والشعوذة، والدجل، والخرافات، والضلالات، والزوايا.

(39) نص هذا الظهير الكامل بالدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 79-81، وهو مؤرخ في 12 محرم سنة 1261هـ .

(40) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 56-57 .

(41) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة: 243-244 .

فقد كان المولى عبد الرحمن -كسائر أجداده وأسلافه الملوك العلويين- يحذر شيوخ الزوايا، ويراقب نشاطهم عن كثب. وكل من حاد منهم عن الجادة، وحاول الخروج عن دوره الديني والاجتماعي، وتطلع إلى السلطة والمجد السياسي قضى عليه، (42) -كما مر بنا- سنة 1244 - 1828م. (43)

المجالس العلمية وكتبها المدروسة :

كانت الكتب التي تسرد في المجالس العلمية للمولى عبد الرحمن طيلة الأشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان، تقتصر على صحيح الإمام البخاري غالبا، -الذي كان السلطان المذكور ولوعا به، لا يكاد يفارقه-، وعلى أمهات كتب الأصول، وبالتالي التفسير والحديث عموما.

وفي الأيام الأخرى -خارج الأشهر الثلاثة المذكورة- كانت هذه الكتب تتنوع، لكنها في الغالب كانت دينية وشرعية، ونادرا ما كانت علمية أو عقلية....

أما خارج المجالس العلمية السلطانية فكان الإقبال على سائر الكتب: العلمية، والعقلية، والفكرية، والرياضية، والهندسية، والطبية، وغيرها.

وألفت في عهده، وعلى هامش أعمال مجالسه العلمية، واعتمادا على محاضرها ووثائقها عدة كتب، على أساس مذهبه وعقيدته السلفية الأصلية، وذلك في مختلف العلوم : الدينية والعلمية، والعقلية وغيرها.

كما ألفت كتب في تاريخ الدولة العلوية، وتراجم العلماء والأدباء وغيرهم، والرحلات، والأنساب ككتب الأفراني، وابن الطيب القادري، وأبي القاسم

(42) دعوة الحق، ع: 6، س: 7، ص: 17، 1385هـ-1964م، الصوفية وطرقها في الإسلام، لعبد الله الجراري .

(43) دعوة الحق، ع: 8، س: 15، ص: 74، 1398هـ-1973م، بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني .

الزياني، وأكنسوس، وذلك في نفس الإطار وعلى نفس المنوال، وضمن برامج مجالسه العلمية ولجانها وخلاياها، بكيفية مباشرة أو غير مباشرة. ولعل أهم هذه المؤلفات -الخاصة بعهد الزاهر- : مخطوطة الإبتسام(44) عن دولة ابن هشام، لوزير المولى عبد الرحمن، العلامة الأديب محمد بن إدريس العمراوي.

ويحدثنا العلامة الوزير العمراوي(45) هذا عن خزنة المولى عبد الرحمن، -التي شارك في تنظيمها، وجدد كتبها على أيامه،- فكان بها ثمانمائة وخمسون مجلدا، في جميع العلوم والفنون. كما كان بخزنته في مكناس أكثر من ألف مجلد، أما خزنته بفاس، فكانت تزيد على كل ذلك (46).

نشاط مجالسه العلمية على الصعيد العربي والإسلامي :

وطد المولى عبد الرحمن علاقات التعاون والتبادل الثقافي بين المغرب والبلاد الشقيقة والصديقة، على الصعيدين : الإقليمي والدولي، بواسطة مجالسه العلمية العتيدة وعلمائها الأفذاذ، حسب القضايا المشتركة الموحدة الثنائية أو الجماعية من دينية وثقافية وغيرها.

وتنوعت هذه القضايا وتشعبت، لكنها كلها كانت تصب في مجال خدمة الفكر الاسلامي، والثقافة العربية الإسلامية والحضارة الإنسانية.

فعلى الصعيد المغربي، كانت هناك قضايا تعتبر مظهرا من مظاهر التعاون والتبادل المذكور، والوحدة الروحية للمقومات والأهداف، كالاستفتاء(47) الذي أرسله لعلماء المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن، الحاج عبد القادر بن محيي الدين الجزائري، سنة 1252هـ -كما سبق-

(44) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 91، مخطوطة الإبتسام عن دولة ابن هشام، لأبي العلاء إدريس العمراوي، تقديم، عبد الهادي التازي .

(45) المصدر السابق، و ص . وذكره ابن عبد السلام بن سودة بالجزء الأول من كتابه «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، وهو يقف عند وفاة المولى عبد الرحمن سنة 1276هـ .

(46) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 113، مخطوطة الإبتسام عن دولة ابن هشام للعمراوي، تقديم، عبد الهادي التازي .

(47) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 45-46 .

وكان الحاج عبد القادر بن محيي الدين الجزائري يرأسل المولى عبد الرحمن باستمرار مستنجدا به، فكان ينجده، فيمده بالمال والرجال والعتاد....

وفي الرسائل المتبادلة بينهما كان السلطان يخاطبه بالولد البار، وكان عبد القادر الجزائري يخاطب السلطان بالوالد.

ولم يلبث أن كتب بيعته للمولى عبد الرحمن، وخطب به على المنابر. وكان يقول دائما: " إنما أنا نائب عن السلطان مولانا عبد الرحمن بن هشام (48) ".

وفي إحدى رسائل السلطان لعبد القادر الجزائري، يذكره بفضيلة الجهاد ويحفزه، مذكرا إياه بانتصار السعديين في معركة وادي المخازن على الغزاة البرتغاليين، ويستعرض عليه الخسائر التي لحقت المغرب بسبب مؤازرته وإعانتة لأشقائه بالجزائر على يده: كقصف الفرنسيين لميناء كل من طنجة والصويرة (49).

وفي إطار النشاط العلمي والثقافي لمجالسه العلمية -على الصعيد الخارجي- وعملها على تمتين التعاون والتبادل الثقافي بين المغرب والعالم الخارجي، على جميع المستويات والأصعدة، كانت الرحلات العلمية المتبادلة مستمرة بين علماء مجالسه العلمية، وعلماء العالم العربي والإسلامي.

ومما ساعده على تكريس هذه الرحلات، مواكب رحلات الحج إلى الديار المقدسة، التي كانت لا تتوقف، وتخرق العالم سنويا، ذهابا وإيابا.

وفي هذا النطاق، وفد على المولى عبد الرحمن بن هشام الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد صالح البخاري، بعد أن قضى عشر سنوات بالهند يدرس العلم، في إطار الدعوة الإسلامية.

وكان متضلعا في علم الحديث، والأسانيد، والسير والأحكام. فأذن له المولى عبد الرحمن في حضور مجلسه العلمي، ودرس من دروسه الحديثية (50).

(48) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 106-107، مخطوطة الابتسام عن تاريخ ابن هشام، للعمراوي، تقديم عبد الهادي التازي .

(49) المصدر السابق، و ص .

(50) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 134، مخطوط الابتسام، للعمراوي، تقديم، عبد الهادي التازي .

وبعد المجلس العام، عقد معه مجلسا ثنائيا خاصا، لتبادل الرأي والمشورة، والموعظة - كما مر بنا-.

ومن العلماء المغاربة الذين رحلوا إلى المشرق توطيدا لدعائم التعاون والتبادل الثقافي مع بلدانه وعلمائه - عن طريق الرحلات العلمية المتبادلة - العلامة " المهدي بن الطالب بنسودة شيخ المولى عبد الرحمن بن هشام في صحيح البخاري، وشيخ مجالسه العلمية السلطانية الحديثية، طيلة الأشهر الثلاثة : رجب، وشعبان، ورمضان، الذي رحل إلى الحج، ولقي جماعة من العلماء الفضلاء الأخيار، ودرس بالحرمين الشريفين، وأقر له بالفضل والتقديم، ووقع له هناك ظهور كبير (51) ".

كما أوفده السلطان المولى عبد الرحمن إلى مصر، على رأس وفد يضم الأمين الحاج محمد الرزيني، والحاج بوجنان البارودي.

وأرسل معه صلوات إلى مائة وخمسين عالما من علماء الأزهر الشريف، على اختلاف مذاهبهم (52).

وكانت لهذا الوفد العلمي هنالك لقاءات علمية، ومحاضرات ومناظرات مع علماء الأزهر، كما حضروا مجالس علمية عديدة.

وقد شهد علماء الأزهر لرئيس الوفد، ولبقية أعضائه بالمكانة العلمية المرموقة، وسعة الإطلاع....

وفي إطار هذه الرحلات العلمية المتبادلة، أكرم المولى عبد الرحمن وفادة العلامة يوسف بن بدر الدين المدني، وبالغ في إكرامه والإنعام عليه، وعقد له لقاءات مع علماء مجالسه العلمية.

ولما هم بالانصراف، أرسل معه رسالة تعزية وتهنئة للسلطان عبد المجيد خان، يهنئه ببيعته، ويعزيه في السلطان الفقيد محمود خان.

(51) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ورقة : 182 .

(52) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص: 62، والاتحاف، لابن زيدان، ج:

4، ص: 362، حيث ذكرهم المؤلف بأسمائهم .

وعاد إليه العلامة يوسف المدني المذكور في السنة الموالية، حاملا إليه جواب السلطان عبد المجيد خان على تهنتته، فأنزله السلطان في ضيافة وزيره محمد بن إدريس، الذي بالغ في إكرامه والاحتفاء به (53).

وفي هذا الصدد وقد على المولى عبد الرحمن سادن بيت الله الحرام أبو الربيع سليمان بن عبد الله الشيبني القرشي المكي والأمير الأنصاري المدني، والشيخ محمد صالح البخاري وزوجته، الذي عقد بالمغرب حلقات دراسية تحت رعاية المولى عبد الرحمن، وبإشراف علماء مجالسه العلمية، فانتفع، بعلمه خلق كثير.

كما استقبله المولى عبد الرحمن، وعقد له مع شيوخ وأئمة علماء مجالسه العلمية، لقاءات وجلسات عملية شيقة، حضرها مؤلف مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام، السيد محمد بن إدريس العمراوي (54).

وتوظيفا لرحلات الحج وموكبها في خدمة التعاون والتبادل الثقافي وغيره، وبالتالي في تقوية وتمتين أواصر الأخوة والصداقة بين المغرب وأقطار العالم العربي والإسلامي، أرسل المولى عبد الرحمن ولديه الأميرين : المولى سليمان، والمولى الرشيد للحج، وأرسل معهما هدايا قيمة ثمينة لأمر مصر الخديوي عباس، تحتوي على خيول وسروج مذهبة، وبغال وتحف نادرة، وطرائف عديدة.

كما أرسل مالا كثيرا، ليوزع على العلماء والشرفاء، وكذا على الفقراء والمحتاجين بالحرمين الشريفين (55).

أما علاقات التعاون على الصعيد العالمي والدولي، فقد كان المولى عبد الرحمن يستهدف منها تخفيف وطأة العزلة التي كان يعيشها المغرب على عهد المولى سليمان، وتجربة الاحتكاك بالغرب لمعرفة مدى إمكانية التعاون معه، وأسس ذلك.

(53) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 106-107، مخطوطة الابتسام عن دولة ابن هشام لأبي العلاء إدريس العمراوي، تقديم، عبد الهادي التازي .

(54) المصدر السابق، ص: 107 .

(55) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 112، مخطوط الابتسام ، للعمراوي، تقديم، عبد الهادي التازي .

وتحقيقا لهذه الأهداف أرسل هدية قيمة إلى ملك فرنسا، مع وفد هام من أعيان علماء ووجهاء تطوان سنة 1261هـ-1845م، تحت رئاسة عبد القادر أشعاش.

وكانت الهدية عبارة عن : وحوش، وخيول، وطرائف قيمة، وتحف رائعة....

فأكرم الفرنسيون الوفد، وأروه عجائبهم -مما نجده في خطابه- كما أرسلوا إلى المولى عبد الرحمن هديتهم مع وفد خاص وشملت : ستة مدافع جديدة من النحاس على عربات، مع تجهيزاتها الخاصة وأربعة أفراس من إناث الخيل الفارحة الطول، الجيدة النوع (56).

وفي هذا الصدد بعث بعثات من الطلبة إلى أوروبا لدراسة الهندسة والفنون العسكرية مستهدفا مغربة إدارة وأطر الجيش للإستغناء بهم عن الخبراء الأجانب واتخاذهم درعا في الجهاد، كما جدد المعاهدة العسكرية القديمة مع فرنسا، وأقام أخرى جديدة.

واشتهر جيش المولى عبد الرحمن، حتى وصلت شهرة نظامه وكفاءته إلى محمد باشا بمصر، ووصف هذا الجيش العلامة يوسف بن بدر الدين المدني المذكور أنفا، ومدح منشئه وقائده الأعلى المولى عبد الرحمن بن هشام (57).

وتتجلى رحلات التعاون الثقافي المتبادل مع الخارج أيضا في استقدامه عددا من البعثات العسكرية، ليكون الأطر المغربية في المغرب، وذلك في إطار مخططة الإصلاح العسكري، الذي يشكل فصلا من برنامج الإصلاح العام.

وقد استقدم هؤلاء الخبراء من تونس والجزائر باعتبار أن استقدام الخبراء الأوربيين واستخدامهم، كان يلقي معارضة شعبية شديدة، وخاصة من طرف العلماء والفقهاء أعضاء المجالس العلمية السلطانية، في حين كانت المساعدة والتعاون مع البلدان الإسلامية، لا تلقى أية معارضة، بل كانت تلقى كل ترحيب (58).

(56) المصدر السابق، ص: 111-112 .

(57) مظاهر يقظة المغرب، للمنونى، ج: 1، ص: 76-77، والاتحاف ج: 5، ص: 156 .

(58) مجلة دار النيابة، ع: 17، س: 1988، ص: 14 .

ومن هؤلاء الخبراء المدربين : على التوفيق، والخوجة التونسي، من تونس وحمودة الجزائري من الجزائر.

وتمتينا لعرى الروابط الأخوية والثقافية بين مجالسه العلمية وعلمائها من جهة، وبين علماء العالم العربي والإسلامي من جهة أخرى، بعث مع أولاده في رحلتهم إلى الحج - وهم الأمراء السادة : علي، وإبراهيم، وعبد الله، وجعفر، وأبو بكر، وابن عمهم عبد الواحد - مالا كثيرا، وصلات جزيلة لعلماء وأشرف الحرمين الشريفين.

كما أرسل في رفقتهم للإشراف عليهم، وفدا هاما من كبار العلماء والتجار العارفين بعبادات وتقاليد البلدان المختلفة، وعلى رأسهم : الحاج محمد الرزيني، والحاج بوجنان، والبارودي التلمساني.

وبالغ في تجهيز الوفد وتزويده، وكتب لأفراده وصية (59)، وأوصى رئيس الوفد الحاج محمد الرزيني المذكور بأولاده خيرا، وأكد له "أن المال الذي عينه للنفقة عليهم جمع من أصول بتايفالنت، ومما هو حلال، وقال له : إحتفظ بذلك المال واجعل السخاء فيه بمنزلة الملح في الطعام (60) "

وفي إطار الجزء المتعلق بتنظيم الجيش من برنامجه الإصلاحية العام، الذي أعده بمعية الخبراء من العلماء أعضاء مجالسه العلمية، أصدر أوامره إلى العلامة عبد العزيز محبوبية (61) بأن يختار عشرين طالبا من أنجب طلابه، ويحيلهم إلى دراسة المدفعية العسكرية، وأن يختار لهم أساتذة من خيرة ضباط المدفعية بالجيش، وضاعف الراتب للأساتذة، كما رتب للطلبة منحة دراسية.

وقد حدد في مجالسه العلمية - مع خبرائها من العلماء - برامج ومناهج وخصص هذه الدراسة، وكذا إدارتها وتجهيزها وأهدافها....

وقد نظم مباراة بين المراسي في هذا الصدد، ورصد جوائز سنوية للفائزين في كل مرسى، ثم في التصفيات النهائية على الصعيد الوطني (62).

(59) الاستقصا، للناصرى، ج: 9، ص: 91، ونص الوصية، ص: 72-74، وهي بتاريخ 6 رمضان 1274هـ.

(60) الاستقصا للناصرى، ج: 9، ص: 71-72.

(61) المصدر السابق و ج، ص: 70، وهو بتاريخ 20 ذي القعدة 1273هـ.

(62) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 221.

المجالس الأدبية للمولى عبد الرحمن :

كانت للمولى عبد الرحمن مجالس أدبية ترفيهية موازية لمجالسه العلمية السلطانية.

فقد واكب الشعراء أعماله الجليلة، وأحداث عصره المصيرية الخطيرة، وحرصوا على أن يدلوا بدلوهم فيها، في قصائد مدحهم له، حيث يبديون آراءهم، وملاحظاتهم، وانتقاداتهم في الموضوع، باعتبار أن الشعراء هم صفوة المثقفين ونخبتهم، علما بأن الفن عموما والشعر خصوصا يعتبر مقياس حضارة الشعوب، وبالتالي ثقافة ووعي، ونضج وأريحية الأفراد....

وقد حرص المولى عبد الرحمن في هذه المناسبات المذكورة، أن يعقد على إثرها مجالس أدبية، للاستماع إلى ما قيل فيها، أو كتب حولها، في جميع الفنون الأدبية، ولمجازاة أصحابها وإثابتهم بالجوائز والصلوات السنوية، وكذا لاستقبال أدباء وشعراء الدول الشقيقة والصديقة، الذين كانوا يقصدونه بإنتاجهم وإبداعهم، سواء بصفة شخصية، أو بصفة رسمية، لما اشتهر عنه من كرم حاتمي في مثل هذه المناسبات الثقافية.

وأهم ما أنشد بين يديه في هذه المجالس الأدبية الموازية :

- بمجرد بيعة المولى عبد الرحمن، استوزر صديقه وزميله في الدراسة، العلامة محمد بن إدريس، واحتفالا بهذه المناسبة عقد مجلسا أدبيا، أنشده فيه الوزير ابن إدريس قصيدة، ومطلعها (63) :

مولاي بشراك بالتأييد بشراك قد أكمل الله بالتأييد سراكا

- ولما غرس أكدال، عقد لذلك مجلسا أدبيا، وأنشده فيه وزيره محمد

ابن إدريس قصيدة بالمناسبة، ومطلعها (64) :

وردت وكان لها السعود مواجهها

والحسن مقصور على سراجها

وبدت طلائع بشرها من قبلها

كالشمس طالعة على أبراجها

(63) الاستقصا، ج: 9، ص: 13-14 .

(64) نفس المصدر، و ص .

- وذكر أكنسوس أن المولى عبد الرحمن، لما أرسل ولديه الأميرين سليمان والرشيد إلى الحج، سنة 1265هـ-1849م، أراد أن يرسل معهما إلى القبر النبوي بالمدينة المنورة، قصيدة في مدح النبي ﷺ، وكلف بذلك وزيره محمد بن إدريس، الذي استناب عنه في نظمها الفقيه الشاعر المؤرخ أكنسوس (65).

- ومن المساجلات الشعرية والأدبية لهذه المجالس، مانجده في تقييد بخط العلامة المهدي بنسودة (66) ".... كنا ذات يوم.... -بمجلس أدبي- ومرض سيدي التهامي -العلامة الأديب محمد التهامي بن سيدي الحمادي- بمراكش، فأرسله مولاي عبد الرحمن -اعتناء به- لداره بفاس، فلما وصل إلى الرباط، اشتد مرضه عليه، ودخل عليه خادم له وهو يوجد بنفسه، فأنشد سيدي محمد التهامي :

"وما المال والأهلون إلا ودائع.....)، ثم تشهد ومات سنة 1251هـ -دون أن يتم عجز البيت- وكان حافظا مثقفا ."

- ومن أروع القصائد التي أنشدت، بمجالسه الأدبية، مواكبة لأهم أحداث عصره، قصيدة نظمها الوزير محمد بن إدريس سنة 1264هـ، لما أشهرت فرنسا الحرب على المغرب -متدعة بمساعدة المولى عبد الرحمن للجزائر- ودعا السلطان الشعب للجهاد في سبيل الله، وفيها يمدح الشاعر السلطان، ويستنفر الشعب للجهاد، ويحضه على الصبر والثبات، ومطلعها (67) :

يا أهل مغربنا حق النفير لكم
إلى الجهاد دوما في الحق من غلط
فالترك من جنبات الشرق جاوركم
من بعد ما سام أهل الدين بالشطط

(65) مؤرخو الشرفاء، لليفي بروفنسال، ص: 138-139 .

(66) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 384، صفحات من مخطوط المفخر العلية، للجائي تقديم : محمد المنوني .

(67) الاستقصا ، للناصري، ج: 9، ص: 50، والحلال البهية، للمشرقي ، ص: 214 .

- ومن المجالس الأدبية الزاهرة التي عقدها المولى عبد الرحمن، تعزيزاً للتعاون والتبادل الثقافي بين المغرب وأشقائه العرب والمسلمين، وبالتالي بين علماء مجالسه العلمية، وعلماء العالم العربي والإسلامي، مجلس أنشده فيه الشيخ يوسف بن بدر الدين المدني، قصيدة يمدحه فيها على إعانتة للمجاهد عبد القادر بن محيي الدين، بالمال والعتاد والرجال، ومطلعها (68) :

أمير المؤمنين له مزايا يضيق السر فيها والنظام

وفي هذا الصدد اهتم المولى عبد الرحمن بالمهاجرين الجزائريين -ولا سيما بالأشراف منهم- فكان يصلهم جميعاً في الأعياد، وأمر عماله وولاته باحترامهم وإعفائهم من الضرائب، وتحريرهم من الخدمات العامة... وظل العمل جارياً بذلك حتى أيام المولى الحسن الأول، حيث لم يعد أحد منهم يطلب ذلك العطاء المرتب لهم.

- وفي إطار تعزيز هذه الروابط الثقافية والأخوية بين المغرب وتونس من جهة، وبين العلماء والشعراء المغاربة والتونسيين من جهة أخرى، بالتالي بين الهيئات والمؤسسات العلمية العليا بالبلدين الشقيقين، عقده لذلك المجلس الأدبي الذي أنشده فيه "عالم البلاد الإفريقية وبركتها، أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد القادر الرياحي التونسي" ومطلعها (69) :

نصر من الرحمن جل لعبده أيدوم حفل نقض مبرم عقده

- ومن أبرز شعراء مجالسه الأدبية "سيدي عبد القادر العلامة البركة، أبو عبد الله، صاحب الأزجال البديعة، م. سنة 1266هـ (70) ."

- ولما توفي المولى عبد الرحمن، رثاه الناصري، مؤلف كتاب الاستقصا بقصيدة مطلعها (71) :

من طيف ذات الخال قلبك هائم

ودمك هام واكتئابك دائم

(68) الحلل البهية، للمشرقي، ص: 223 .

(69) الاستقصا للناصرى، ج: 9، ص: 4-5 .

(70) المصدر السابق، و ج ، ص: 55 .

(71) المصدر السابق، و ج، ص: 77 .

وهل ذكرتك النائبات عشائرا
عفت منهم بعد المعالي معالم
- وراثه أكنسوس بقصيدة مؤثرة، ومطلعها (72) :

هذي الحياة شبيهة الأحلام
ما الناس، إن حققت، غير نيام

- ويمكن اعتبار الحفلات التي كان يقيمها المولى عبد الرحمن، إحياء
لذكرى المولد النبوي الشريف - بما ينشد في مجالسها من قصائد شعرية
في مدح السلطان، وأمداح نبوية، وما يحاط به المجلس من مظاهر أدبية
وفنية - مجالس أدبية رائعة، فريدة من نوعها.

فقد كان المولى عبد الرحمن يحتفل بها أيما احتفال، ويعقد لها مجالس
علمية وأدبية مشهودة، تلقى فيها عروض ومحاضرات حول السيرة النبوية،
وتنشد قصائد رنانة في مدح السلطان، وجده الرسول المصطفى الأمين ﷺ،
كما تنشد الأمداح النبوية، وخاصة البردة والهمزية للإمام البصري،
في مظهر جليل مؤثر، وتقاليد ثابتة مرعية.

ويصف لنا أكنسوس هذه التقاليد في المجالس الخاصة بحفلات المولد
النبوي، العابقة بالنفحات القدسية النبوية نقتطف من ذلك هذا الملخص :
" كان المولى عبد الرحمن بن هشام - رحمه الله - يحتفل بالأعياد الثلاثة،
ولا سيما العيد الأنور، عيد المولد النبوي الشريف - حسب عادة الملوك
العلويين، إلا أنه كان يبالغ في ذلك ويفوقهم - احتفالا عظيما.

وكان يحضر هذه الاحتفالات ممثلوا الدول الرسميون والمدعوون.
ففي صبيحة عيد المولد النبوي الشريف، تنشد الأمداح النبوية، ثم تقرأ
قصيدة شعرية في مدح النبي ﷺ، وفيها يتشفع به وبجاهه عند الله تعالى،
وتختم بالدعاء للسلطان، وتعداد مناقبه، واستعراض أعماله الجليلة.

وهذه الحفلات في شكلها ومضمونها العام تعتبر تقليدا من السلطان
لعظماء الملوك والسلاطين في الدول السالفة، التي حكمت المغرب قبل
العلويين، كالمنصور الذهبي السعودي، وأبي الحسن المريني،

(72) المصدر السابق، و ص .

وولده أبي عنان، وملوك بني زيان بتلمسان، وبني مروان بالأندلس، الذين جعلوا هذه الاحتفالات فرضاً وسنة متبعة.

- والقصيدة الرسمية التي كانت تنشد في مجلس المولى عبد الرحمن، كانت دائماً من إنشاد وزيره وكتبه العلامة الشاعر محمد بن إدريس، وإذا عاقه عائق، كان يكلف بها أكنسوس، الذي ينظمها على لسانه، كالقصيدة التي مطلعها (73) :

أعد الحديث عن الحمى وظبائه فاسمع مشتاقاً إلى ظبائه
- كما كان الشعراء يبعثون قصائدهم إلى هذه المجالس والمحافل الدينية العلمية والأدبية، كالقصيدة (74) التي بعثت إلى المولى عبد الرحمن، في أحد هذه المجالس العتيدة سنة 1262هـ.

المجالس العلمية لكبار العلماء :

من العلماء الذين كانوا يتبعون سنة ملكهم المولى عبد الرحمن، ويقىمون مجالس علمية خاصة بهم، يحضرها أعيان وأقطاب العلماء رواد المجالس العلمية السلطانية، وغيرهم من المثقفين الأدباء والشعراء والكتاب -العلامة القاضي مولاي عبد الهادي، الذي ولاه السلطان قضاء سجلماسة ونواحيها، ثم قضاء فاس، وزوجه ابنته الأميرة خديجة، وكان شيخ مجالسه العلمية السلطانية، وبمثابة المدير العام لها، وأحد أقطابها الرائدین.

فقد كان يعقد مجالسه العلمية الخاصة بداره، لسرد صحيح الإمام البخاري، حيث تدور خلال تقريرها وشرحها محادثات ومناقشات علمية، وأدبية ولغوية، ونحوية، وشعرية وغيرها، حسب تشعب الحوار وتطوره. مما تمخض مرارا عن مؤلفات، ورسائل، ومساجلات، ومناقضات، ومناجزات شعرية كتابية وشفوية متبادلة بين رواد مجالسه (75).

(73) الجيش ، لأكنسوس، ورقة : 231-239 .

(74) الاستقصا ، للناصري، ج: 9، ص: 55 .

(75) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 375، صفحات من مخطوط المفاخر العلية للجائي تقديم : محمد المنوني .

- ومن أشهر هذه المجالس العلمية الخاصة للأئمة الكبار من العلماء مجلس الشيخ العلامة المحقق ذي الكرامات أبو محمد صالح البخاري الذي وفد على المولى عبد الرحمن من الشرق، فأكرم وفادته، وأذن له في الإقامة، وأغدق عليه النعم، وأنزله بحديقة السيد محمد بن البدوي برادة، حيث صار كبار العلماء يقصدون مجالسه العلمية للأخذ عنه، والمشاركة في أجوائها الثقافية، والاستفادة من جلساتها الممتعة، وعلى رأسهم العلامة -صاحب الحديقة المذكور- الذي كان من أشهر العلماء والأطباء المهرة في عهده (76).

(76) المصدر السابق، ص: 378 .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
3	- تقديم
7	- مقدمة
15	- إطلالة على أهم المؤلفات حول الدولة العلوية
57	- توطئة تاريخية
147	- مدخل

الباب الأول

اهتمام الدولة العلوية بالعلم ومجالسه

الفصل الأول :

تقاليد المجالس العلمية السلطانية في عهد التأسيس

201	- المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة .
210	- أنواع المجالس العلمية السلطانية العلوية
215	- الملوك العلويون، والمجالس العلمية السلطانية
	- المجالس العلمية السلطانية للمولى محمد الأول،
217	والمولى الرشيد، وأنواعها

الفصل الثاني

تعدد المجالس العلمية بتعدد موضوعاتها وأهدافها

- 235 المجالس العلمية السلطانية للمولى إسماعيل
- 241 أنواع المجالس العلمية للمولى إسماعيل
- 242 مجالس علمية ثنائية
- 243 مجالس علمية تقليدية رسمية
- 244 مجالس علمية مزدوجة
- 245 مجالس علمية لختم كبار العلماء أمهات المصادر الدينية
- 248 مجالس علمية بالمراسلة
- 250 مجالس علمية على شكل رسائل ديوانية وإخوانية
- 255 مجالس علمية للاستفتاء والمناظرة
- 263 مجالس علمية على شكل أسئلة
- 266 مجالس علمية لمناظرة الرهبان
- 269 مجالس علمية على شكل حفل ديني

الفصل الثالث

تطور المجالس العلمية للملوك والأمراء وكبار العلماء

بين عهد المولى إسماعيل وعهد الاضطراب

- 273 المجالس الأدبية للمولى إسماعيل
- 278 المجالس العلمية والأدبية للأمراء
- 281 المجالس العلمية للمولى محمد العالم
- 282 المجالس العلمية للمولى المرتجي
- 283 المجالس العلمية للمولى الشريف
- 283 المجالس العلمية لكبار العلماء
- 287 المجالس العلمية السلطانية في عهد الاضطراب
- 290 المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الله
- 291 أنواع المجالس العلمية السلطانية في عهد الاضطراب
- 293 المجالس الأدبية للمولى عبد الله
- 294 المجالس العلمية للأمراء في عهد الاضطراب
- 294 المجالس العلمية للأمير سيدي محمد بن عبد الله

الباب الثاني

المجالس العلمية السلطانية بين

(1171 - 1276 هـ / 1757 - 1859 م)

المجالس العلمية السلطانية على عهد : سيدي محمد بن عبد
الله - المولى سليمان - المولى عبد الرحمن

الفصل الأول

المجالس العلمية على عهد سيدي محمد بن عبد الله

أنواعها مذهبها - نشاطها على الصعيدين : الوطني والعربي
الإسلامي - مؤلفاتها - علماءها

- 303 سيدي محمد بن عبد الله -
- 304 المجالس العلمية السلطانية على عهده -
- 309 أنواع مجالسه العلمية السلطانية -
- 310 المجالس العلمية السلطانية الخاصة -
- 321 أعمال مجالسه العلمية التشريعية الخاصة -
- 323 إصلاح القضاء -
- 325 إصلاح التعليم -
- 329 مذهب سيدي محمد بن عبد الله في مجالسه العلمية
السلطانية

- 331 نشاط المجالس العلمية لسيدي محمد بن عبد الله على الصعيد : العربي والإسلامي
- 337 مؤلفاته في إطار مجالسه العلمية السلطانية الخاصة
- 342 علماء المجالس العلمية السلطانية الخاصة لسيدي محمد بن عبد الله
- 346 المجالس العلمية العامة لسيدي محمد بن عبد الله
- 350 الكتب العلمية المدروسة بمجالسه العلمية المختلفة
- 360 المجالس العلمية والأدبية لأمرء عهده
- 363 المجالس العلمية لكبار العلماء في عهده

الفصل الثاني

**المجالس العلمية على عهد المولى سليمان : تطورها وتنوعها
تطور وتنوع أعمالها على الصعيدين الداخلي والخارجي
- كتبها - علماءها**

- 367 المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان
- 370 أنواع المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان
- 373 المجالس العلمية السلطانية الخاصة
- 376 المجالس الفرعية الخاصة
- 376 حضوره مجالس الشيوخ الكبار
- 377 مجالس علمية للاستفتاء والتشريع

- 381 مجالس علمية بالمراسلة -
- 385 مجالس علمية على شكل محفل -
- 386 مجالس علمية اختتامية للشيوخ الكبار -
- 386 المجالس العلمية للختم -
- 404 المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان وكتبها المدروسة -
- 405 أعمال المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان -
- 410 نشاط مجالسه العلمية على الصعيد العربي والإسلامي -
- 414 مؤلفات المولى سليمان في إطار مجالسه العلمية السلطانية ... -
- 419 المجالس الأدبية للمولى سليمان -
- 427 المجالس العلمية الأدبية لأمرء عهده -
- 429 المجالس العلمية لكبار علماء عهده -

الفصل الثالث

المجالس العلمية على عهد المولى عبد الرحمن

- وتعدد أنواعها وأعمالها بالداخل والخارج -

- كتبها - وعلمائها -

- 435 المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى عبد الرحمن -
- 439 المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن -
- 443 أنواع المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن -
- 443 مجالس علمية للاستفتاء والتشريع -

- 446 أعمال المجالس العلمية للمولى عبد الرحمن
- 449 المجالس العلمية للمولى عبد الرحمن وكتبها المدروسة.....
- 450 نشاط مجالسة العلمية على الصعيد العربي والإسلامي.....
- 456 المجالس الأدبية للمولى عبد الرحمن.....
- 460 المجالس العلمية لكبار علماء عهده.....
- 463 فهرس الكتاب.....

رقم الإيداع القانوني : 126 / 1994

مطبعة فضالة

3 زنقة ابن زيدون المحمدية (المغرب)

الهاتف : 32.46.43 / 32.46.45 (03)

فاكس : 32.46.44 (03)